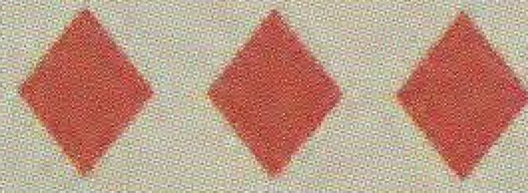
ناجح المعموري

موسى وأساطير الشرق



الأهلية

موسى
وأساطير الشرق



الأهليّة للنشر والتوزيع

المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان
وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمّان / الأردن

موسى وأساطير الشرق
ناجحالمعموري / العراق

الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠١
حقوق الطبع محفوظة

تصـميم الغلاف : **زهير أبو شايب / الأردن**

الصفّ الضوئي : **الوسام للخدمات المطبعيّة ، عمّان ، هاتف ٤٦٥٧٨٦٩**

ناجح المعموري

موسى وأساطير الشرق



استهلال

تثير شخصية موسى كثيراً من اللغط والنقاش والإختلاف، ما زالت إلى الآن، لأنها شخصية غريبة الأطوار ومتنوعة العناصر التي صاغت ملامحها ومكوناتها كما أنها - وإلى الآن - تستدعي إعادة القراءة وتوفر فرصة جيدة للتأويل، إعتماداً على النصوص التوراتية والتي تضيء الشيء الكثير عنها وتولد أسئلة عديدة حول تاريخية موسى وعلاقته بمصر وفرعون، وكيفية إنتاج أسطورة الخروج من مصر نحو سيناء، والطريقة التي أضفت على موسى صفة القائد، بعدما انتقم لمقتل أحد العبران في مصر، هذه الشكية المتداخلة مع بعضها هي التي صاغت اسطورة موسى، وأضفت عليه ذات العناصر التي عرفته شخصية المنقِّذ في التاريخ بحيث تؤكد أساطير البطل المعروفة والتي درسناها في هذا المؤلف بأن شخصية موسى، مرتحلة من أساطير العراق القديم وحصراً أسطورتي الملك جلجامش والإمبراطور موسى. ولأن البنية الذهنية العبرانية، ارادت إنتاج إسطورة لبطلها القومي ولم تجد أفضل من عناصر أسطورة الملك جلجامش وسرجون الأكدي، فأسقطتها عليه. ومعروف بأن اسطورة جلجامش وصلت إلى مصر وقد تم اكتشاف قطعاً من الملحمة. في تل العمارنة، حيث قصر الأختاتونية التي يقال بأن موسى أحد قادتها أو كهنتها، ووجدت البنية الذهنية الفكرية للعبران صورة جلجامش في أسطورة نشأته مناسبة تماماً لبطلهم موسى؟ ولهذا تمت صياغة تلك الأسطورة مع تشاكلات واضحة، وامتدت هذه الأسطورة الخاصة بولادة البطل والتي درسها (رانك) وأشار لها (فرويد) في كتابه المعروف «موسى والتوحيد» لتشمل مساحة واسعة في العالم، وحاولنا الإشارة إلى أهم تلك الأساطير مع محاولة لقراءة خصائص كل شخصية من الشخصيات وملاحقة أسباب الصراع الذي دار حول تلك الشسخصية البطولية، والصعاب التي واجهته والمتاعب التي تحملّها وبالتالي تحقق الحلم النبوءة، وربما كانت شخصية دينية/ سماوية كاملة، ولم تكن له إنشغالات سياسية بمعنى المنظومة الملكية كما لاحظنا في أساطير الشخصيات الأخرى. والتي لم تكن شخصيات سياسية خالصة فقط، وإنما حازت على ازدواجية معروفة، لاهوتية وناسوتية فالملك جلجامش حاز على ثلثين من الصفات الإلهية وثلث بشري أما سرجون الأكدي والأبطال الآخرين فلم تكن خصائصهم سياسية، مرتبطة بنظام ملكي أو إمبراطوري خالص، بل كانوا يؤدون وظائف دينية، اقترنت أصلاً مع الوظيفة السياسية، لأننا لا نتسطيع العزل بين الديني والسياسي. في حضارات الشرق الأدنى القديم، لوجود ترابط وثيق وصلة دقيقة بين الخطابين الديني/والسياسي. وكان

الآلهة يختارون الملك ممثلاً للسلطة الإلهية/ السماوية على الأرض وليكون الملك [جلجامش] ممثلاً للإله وسيطاً بين الإله والشعب وهذا ما تشير له ملحمة جلجامش بوضوح تام، حيث جعل الإله إنليل رأس جلجامش عالياً فوق كل الرؤوس. ولهذا كان الملك في الشرق القديم نموذجاً ممثلاً لنظام الألوهة المقدس، وهو مندوبهم فوق الأرض ومن هنا حاز على عناصره الدينية واللاهوتية. وبلغ الأمر ببعض ملوك العراق القديم ان حازوا على صفة الألوهة المقدسة مثل شولكي وشو-سين وأون - دكان. ولكننا وببساطة نستطيع التوصل إلى الفرق الجوهري بين شخصية موسى والشخصيات البطولية التي أشرنا لها، وهو فرق أساسي وخيوي، حيث اكتفى موسى بصفته النبوية، مطوراً لها، حاملاً منظومة التوحيد التي عرفها في مصر وأخذها مع حشود العبران الغفيرة.

يعتبر المنتظر المنقِّذ مخلِّصاً، ويقود إختلافاً مع النظام السائد، وغالباً ما يكون ملكياً في الحكايات والأساطير. ومعروف بأن الملوكية في حضارات الشرق القديمة ممثلة للإلوهة، والملك حائز على عناصر إلهية، وله وظائف سياسية ودينية في آن. لذا كان الجلال والسلطة[1] اللذين توحي بهما السماء.

كان العراقيون الأقدمون، يطلقون عليها إسم «آنو» وآنو هو شخصية السماء الطاغية، أما إذا ذكرت السماء دون «آنو» فهي حينئذ مجرد شيء، إنها مسكن «آنو» لذا فإن العلاقة بين السماء والأرض، علاقة وثيقة وتبادلية ولا يمكن للأرض أن تحقق وظائفها بدون السماء بإعتبارها سلطة أولاً وبإعتبارها زوجاً مسؤولاً عن إخصاب الأرض.

إن المنقذ يمر بعقبات كثيرة، حتى يحقق فعل إنقاذه، ومنها الإتصال الممنوح والذي يتبدى تحدياً للسلطة السياسية والدينية.

كان البابلي[2] يرى في الأشخاص الذي تتمثل بهم السلطة كالأب في العائلة والحاكم في الدولة، شيئاً من «آنو» وجوهر «آنو» ولما كان «آنو» أباً للآلهة، فهو النموذج الأول لكل الآباء، ولما كان أيضاً «الملك والحاكم الأقدم» فهو النموذج الأول لكل الحكام، والشارات التي ترمز إلى جوهر الملك كالصولجان والتاج ورباط الرأس وعصا الراعي هي شاراته ولا تستمد إلاّ منه.

---

١ + ٢ توركيلد جاكوبسن/ ما قبل الفلسفة/ ت: جبرا إبراهيم جبرا المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت / ١٩٨٠/ ص ١٦١ .

إن خوف الملك من المنقِّذ الذي كشفت عنه الرؤيا أو الحلم، هو خوف على العلامات الملكية التي عرفها واقترنت به والتي هي علامات الإله «آنو» الأب السماوي، الذي قدمها إلى الأب الأرضي «الملك» وهذه الشارات[1] قد وجدت قبل أن يعني أي ملك بين البشر وقد كانت كلها في السماء بين يدي «آنو» ومن هناك هبطت إلى الأرض وآنو يدعو - أيضاً - إلى الملكية... فإذا أمر الملك ونهى وسرى أمره بين الناس، ونهيه، فإن جوهر «آنو» هو الذي يكشف للناس عن نفسه، فالأمر الذي تفوه به شفتا الملك هو أ مر آنو ولا يسري أمره في إلاّ بقدرة آنو.

إن الصراع الذي يدور بين الملك الموجود على كرسي الحكم وبين ملك منتظر، صراع طويل جداً، لأنه دائماً ما يجري بين حاكم «ملك» وبين حلم ورؤيا، لأن الملك هو إمتداد للسلطة الإلهية. فالمخاوف من الملكية من الإزاحة، هو مخاوف دينية وسياسية. ولهذا الصراع نتائج إيجابية على الحياة ونظامها المركزي الخصب. لأنه يدفع بهذا الإتجاه ويعمقه. وبما أن[1] الخصب مقترن بالفعل الإلهي وأن هذا مقترن بالملك فقد ظهر كل إحتفال سنوي أقامه الناس على إنه عملية من شأنها أن تعود إلى تقوية رابطة الانسجام بين الطبيعة والمجتمع في شخص الحاكم.

إن تحقق الخصب، هو تبلور رمزي وشعائري/ سحري، يرتبط إرتباطاً مباشراً بالمنظومة السياسية التي يتوقف على قدرتها وطاقتها نوعية ومستوى الخصوبة في الحياة، وفي الخصوبة عناصر تومئ لمجموعة من العلاقات المشتركة بين ما هو سياسي/ اجتماعي/ إقتصادي. هذه كلها تتمركز معاً في شخصية الملك/ الكاهن/ الإله/ النبي «موسى» وتحقق فعل الولادة الذي قدمته لنا الأساطير الخاصة بالبطل/ الملك، يقود حتماً إلى عقبة ثانية ومهمة، ألا وهي الإخفاء القصدي الذي يؤدي إلى الموت وإنما يقود إلى الحياة/ الإنبعاث مثلما سنجد في الأساطير العديدة «ولكن عبر منظومة متتالية من الإشكالات الصعبة والمعقدة والتي بتحققها أو تبلورها تضع أمامنا الفعل المتحقق، بإعتباره تجسداً مخلِّصاً ومهماً، يضفي سمات إلهية على المولود، من خلال كونه منقِّذاً لشعب ما، يقود للخلاص من إضطهاد الملك ويسعى للتخلص منه، والذي كثيراً ما يكون ظالماً وطا غية. وأحياناً يكون المنقِّذ الجديد متماثلاً مع الذي كان قبلاً. وهذا ما نلاحظه، عبر التطابق الكامل بين موسى وفرعون. وهنا

---

١ ـ توركليد جاكوبسون/ سبق ذكره ص ١٦٢.

١ – د. الطيب تيزيني/ الفكر العربي / دار دمشق / ١٩٨٦ / ص, ٢٢٠

نشأت إشكالية فكرية جديدة، وتبلورت مجموعة من العلاقات الجديدة، قادت إلى التماثل مع الذي سبق، بحيث ظهرت وحدة بالعناصر التي ساهمت بصياغة شخصية البطل التاريخي، والإختلاف الواضح بين الشخصيتين الأولى والتي ارتحلت نحو الثانية، ما هو الإستبدال بسيط فرضته متطلبات المرحلة المختلفة والمتغايرة عن سابقتها «هكذا يظهر الماضي ضحية مزدوجة[1] حين ننظر إليه بوصفه الحاضر الذي كان ويكون، فيسقط مفهوم التغير في الحساب الزمني، وحين يلحق به الحاضر المعاشي يفقد ماضيته، لأن ما كان هو ما يكون، بوصفه استمراراً في اللاحق، وأن ما يكون هو الماضي الذي كان، وليس الذي يليه، ويكون بدوره ماضياً لما سيعقبه من تاريخ[2]

كما أننا لا نستطيع فهم الماضي، بل تصوراته وتخيلاته ودلالته الرمزية، وأبعاده الدينية المختلفة والمحظورات التي تقاسمته في مسارات وبؤر ومناطق وجوانب مختلفة، وتجلياته ومحتجباته وما جرت عقلنته، أو تقييمه بأقيسة مختلفة: فقهية وعقلية، وعلى أصعدة شتى... ونحن لا نستطيع الإنفكاك عنه نهائياً، فنحن في الوقت الذي نتحدث فيه وعنه، يكون قاراً فينا، على أكثر من صعيد ـ أنه ينطقُنا ـ بصورة ما لأسباب ثقافية وتربوية وإجتماعية وقيمية وغيرها. إن نعي الماضي، هو أن ندركه تاريخاً كان ونحن في موقع الـ «ما يكون» الـ «الكائن الآن» وإذا كنا ندرس الماضي، فإن ما يجدر الإهتمام به، والإنتباه إليه، هو أن هذا الماضي حاضر بالنسبة لذاته، فثمة ماضٍ كامن فيه، وعصور تاريخية تراكمت وتشابكت في داخله، فليس هناك إذاً مجتمعات مسماة ب «بدائية» بالمعنى القيمي والإجتماعي «لأن ماضيها ـ كما قال ليفي شتراوس قديم قدم ماضينا، إذ إنه يرقى إلى أصول البشر، لقد تعرضت في أثناء الاف السنين إلى جميع أنواع التحولات ومرت في عهود من الأزمات والرخاء، وعرفت الحروب والهجرات والمغامرات. غير أنها تخصصت في سُبل غير السبل التي إخترناها، ربما بقيت من بعض النواحي، قريبة من شروط العيش القديمة جداً، وهذا لا ينفي أنها تبتعد عنها، من نواح أخرى أكثر منا.

إن أسطورة البطل/ المنقّذ، مرتحلة وقد استلمتها كثير من ا لشعوب وأعادت صياغتها وفق شروطها الوطنية وخصائصها الجغرافية لأن البطولة ليست خاصة بشعب من الشعوب

---

١ - إبراهيم محمود/ جغرافية الملذات/ الجنس في الجنة/ دار رياض الريس/ ١٩٩٨ ص ٦٦.
٢ - إبراهيم محمود / سبق ذكره.....ص ٦٧

وإنما هي كلية وموجودة عند كل الشعوب. لهذا فإن الشعب أو القبيلة، يستلم اسطورة البطل ويشتغل عليها بعد حذف واستبدال مالا يناسبها، وإدخال ملامح وطنية جديدة. لكن العناصر الجديدة، لا تستطيع إخفاء الملامح الأولى المكونة للنص الأول. ولأن «المجتمعات المتميزة بالشفاهية تتصف بقدرة هائلة على الإحتفاظ بماضيها، وكأنه حاضر[1] بإستمرار، بحيث يبرز الزمن ذا بعد واحد فيها، فإن الجدير ذكره، هو أن الذاكرة فيها ليست آليه، إنها تحوّر وتبدل وتغّير فيما تنقله، وتحفظه، وتدركه، من موقع الثقافة التي تؤثر فيها. فالعمق الحيوي علامة فارقة لها، وإن بدت «على السطح» على وتيرة واحدة، ثابتة، لا تتغير» وإنطلاقاً من هذا المفهوم تكون أسطورة الملك جلجامش، باعتبارها الأسطورة الأولى عن البطل المنقّذ قد دونت في الألف الرابع (ق.م) وهي حتماً متداولة قبل هذا التاريخ كمنتج للمرحلة الشفاهية، وربما كانت عن بطل آخر، أسبق من جلجامش ودونت بصيغتها الأكدية المتأخرة في ٢٨٠٠ ق.م ومنها إرتحلت إلى مرحلة على عناصرها الإمبراطور الأكدي سرجون والذي حكم خلال ٢٥٠ ق.م الأدب الطرفي القديم إلى مناطق عديدة في الشرق الأدنى في القديم، حيث وجدت بعض النصوص ومقاطع الملحمة في آسيا الصغرى وفلسطين ومصر، وربما كان للتوسع الآشوري أثره في ذلك. من هذا أستطيع التأكيد على أن العبران عرفوا - تماماً - كثيراً من الأساطير العراقية وهذا ما أكدته الدراسات التوراتية وحصراً ماله علاقة بالطوفان والأساطير الأخرى، والكثيرة وبين الكثير من هذه، أسطورة البطل المنقّذ والتي أسقطها العبران على بطلهم «القومي» موسى.

ولا يختلف إثنان حول أسطورة البطل جلجامش وانتقالها إلى كثير من الآداب في العالم ونسبت أعماله البطولية إلى كثير من أبطال الأمم الأخرى، مثل «أوديسيوس» و «أخيل» والإسكندر ذي القرنين، وشمشون الذي أشارت له التوارة وأكد الباحث المعروف «روبرت جريفر» إلى أن هوميروس عرف ملحمة جلجامش وأخذ منها الكثير من الأحداث. وما يؤكد إستفادة الأداب الشرقية من الملحمة، كونها أول نص أدبي أنتجته الحضارة الإنسانية، وهو أسبق كثيراً من الملامح الأخرى، وهذه الأسبقية تشير إلى تأثيرها وتدلل على إنتقالها في الملامح الأخرى والآداب المتنوعة. ولأن التوراة عرفت واستثمرت الكثير من نصوص ملحمة جلجامش، فيجب أن لا نستغرب من انتقال أسطورة ولادة البطل جلجامش وتطورها إلى

٢ - إبراهيم محمود/ سبق ذكره... ص ٦٧.

العبران ولا يغيب عن بالنا ما قاله العالم الفرنسي المشهور «جان بوتيرون» حيث قال بوضوح وصراحة من أن التوراة بأسفارها الخمسة ـ لم تكن أكثر من إعادة صياغة إلى ملحمة الملك المعروف جلجامش وعلى الرغم من التحوير والإستبدال الحاصل على أسطورة موسى، فإنها ظلت متبدية ولم تستطع الصياغة التي أنتجتها البنية الذهنية العبرانية من إخفاء الأصل الأول. وظلت الجذور ماثلة وواضحة عند قراءة الأسفار التوراتية.

وأشار الأستاذ (محمد الغرب موسى) إلى أن اليهود لديهم مأثورات كثيرة خارج التوارة وهي كمية ضخمة من الأساطير والخرافات التي نسجت عبر القرون حول الشخصية العملاقة لزعيمهم الأول ومؤسس ديانتهم، وقد أدت هذه الأساطير والخرافات إلى تقديس شخصية (موسى) وجعلها أكثر غموضاً، ونستطيع أن نجد بعض شذرات التراث الصحيح التي لم تجد لنفسها مكاناً في الأسفار الخمسة مبعثرة بين تلك المواد.

واستمرت شخصية موسى في رسم وتوصيف مستمر وحتى تطورت وأضيفت الكثير من الحكايات والأساطير ومنها أسطورة كونه قائداً عسكرياً، خاض غمار الكثير من معارك عديدة، وأشار (الأستاذ العزب) إلى أن موسى، كان ضابطاً مصرياً في أثيوبيا، وهناك أسطورة عن هروبه من البلاد خوفاً من حرب البلاط.

وفي مجلة العصور الجديدة[1] فصل مهم عن «اوشو» مسكوت عنه: مات موسى في كاشمير ومن بعده يسوع. وزرت قبريهما وهذا يعني على الرغم من إعتماد «بوتيرو» على التركيز والإكتفاء بهذه الخلاصة، بأن الملحمة لم تكن نصاً أدبياً فقط، وإنما هي مجموعة من النظم المبكرة والتي أسستها الحضارة الطرفية في مرحلة مبكرة جداً، أي ما يقارب ٤٠٠٠ق.م، وهي نظم سياسية/ ودينية/ وإجتماعية/ وانطوت أيضاً على مراحل حضارية/ دينية، واجهت بعضها البعض بصراع عنيف ومرير، مثلما انطوت على المرحلة البّرية/ المتوحشة والرعوية وكل مرحلة، صاغت منظومتها الفكرية والدينية ولهذا كانت اختلافات واضحة بين مرحلة وأخرى. وهذه المنظومات عبرت تعبيراً واضحاً عن آلاف السنين، لهذا كانت إشارة (جان بوتيرو) تعني النظم والأفكار والعقائد والشعائر التي أنتجتها كل هذه المراحل، قد ارتحلت إلى الأسفار التوراتية من قبل العبران نقلاً عن المصريين أو عن الأقوام

١ – أوشو / يحطم القفص الحديدي / ت: ياسر شعبان / مجلة العصور الجديدة / العدد «٥» / ٢٠٠٠ /

الجزرية الموجودة في سيناء. من هذا كله أود التأكيد على أهمية وحيوية الملحمة وخطورتها، وإمكان انتقالها إلى الآداب والعقائد الدينية الأخرى*

ولذا صار مقبولاً أن تكون اسطورة البطل جلجامش هي الأولى، والتي كونت جينولوجياً كل الأساطير اللاحقة بما فيها أسطورة «موسى»

وهذان القبران دليلان دامغان، لأنه لا يوجد سوى قبرين لا يتجهان إلى مكة. فقط، هذان القبران لا يشيران إلى مكة. والكتابة عليهما بالعبرية، وهذا أمر مستحيل وجوده على قبور أتباع «محمد» لأن العبرية ليست لغتهم. ومكتوب اسم يسوع، مثلما كان يُنْطق بواسطة اليهود «جوشوا» ويسوع ليس سوى قلب لهذا الإسم اليهودي.

ويؤكد أوشو في بحثه المعنون بالمسكوت عنه: كان موسى قد جاء إلى كاشمير ليبحث عن قبيلة من اليهود فقدها في طريق الخروج من مصر إلى أورشليم وعندما وصل إلى أورشليم إستحوذ عليه أمر ضياع هذه القبيلة في مكان ما من الصحراء.

وبمجرد إستقرار أهله في أورشليم ذهب ليبحث عن القبيلة الضائعة ووجدها قد استقرت في كاشمير. وأهل كاشمير في الأصل يهود، تحولوا إلى أتباع محمد بالقوة وقد عاش موسى نبيهم ومات، بعدما وجد القبيلة الضائعة*

لقد استعان العبران بالأسطورة من أجل صياغة نص صياغة شبه متكاملة عن الشخصية العبرية ومن تلك الصياغات، ما حصل بعد قرارات فرعون بقتل كل طفل تلده، إمرأة عبرانية، وهذا القتل يمثل جنيولوجيا تطورت لاحقاً في القربان الجماعي «الهولوكوست» المبالغ به تماماً كما أن النص التوراتي، قدم كشفاً عن قوة وشجاعة القابلتين اللتين تحديتا فرعون وأكدتا بأن النساء العبرانيات يلدن بدون مساعدة القابلة.

---

* يمثل كلام أوشو بالنسبة لي هذراً ولا صحة له لأننا ندرك بشكل جيد بأن موسى عندما خرج نحو سيناء ظل فترة أربعين عاماً في الشتات ولم يدخل موسى إلى كنعان/ فلسطين. بل مات بعدما صعد جبل نبو وراقب مدينة أريحا، وعلى الأرجح دفن في سهل جبل نبو. ومن بعده قاد يشوع العبران في حملة شهيرة واجتاح أريحا ودمرها تدميراً كاملاً. من هذا أؤكد بأن موسى لم ير أورشليم أبداً. والغرض من تدويني لكلام أوشو هو الإشارة إلى استمرار حيوية شخصية موسى واستدعاة الأساطير الجديدة حولها.

* ملحمة جلجامش والتوراة/ كتابنا الذي سيصدر ضمن منشورات الدار الأهلية للطباعة والنشر/ عمان، ودرسنا فيه التأثر التوراتي الواضح بالملحمة.

ولعل أهم الصياغات الأسطورية المضافة على شخصية موسى والتي بالإمكان إعتبارها من التوراتيات الراسخة في الذاكرة الجمعية، وأعني بها صفات موسى ومميزاته الرسمية الرفيعة جداً، والتي ضحى بها من أجل شعبه وخسر إلى الأبد كل تلك الامتيازات والوجاهة وحصد بديلاً عنها متاعب الشتات السينائي والجوع والانتقاضات والتمردات التي قادها العبران الفقراء.

لم يكن من السهل[1] على موسى مفارقة حياة الأرستقراطي المصري المريحة، فالمعرفة والأصدقاء الأرستقراطيون وبهاء الحضارة المصرية، كل ذلك كان يربطه بالوسط الذي إعتاد عليه منذ نعومة أظفاره... وخلال أربعين عاماً ظل موسى ينعم بالمسرات التي يمكن لمتبني إبنة فرعون أن يستفيد منها ومنع أيضاً لقب كاهن مصري. كان يبحر بالنيل في زورق فرعون يسليه الموسيقيون والسحرة. وعندما يرجع إلى القصر تمتعه الراقصات الجميلات برقصهن على إيقاع القيثارة والمزمار... وهكذا كان موسى يحيا حياة بلا هموم ويتمتع بطيباتها. لكنه لم يكن طائشاً قليل العقل. فقد قرأ كل حكمة مصر المكتوبة على البردي بإهتمام وتمعن، وفي الأماسي، لما يبرد الجو ويطلع القمر كان يسير في حديقة القصر برفقة الكهنة.

هذه التوراتيات المصاغة بذكاء لم تكن أساطير ولكن هي ذات وظائف دقيقة وذكية جداً، القصد منها تزكية لشخصية البطل المختلف عن الأبطال القوميين الذين عرفتهم من قبل الحضارات الأخرى. فقد ضحى موسى تضحية لا مثيل لها - هذا ما تريد قوله الأساطير التوارتية - من أجل شعبه ورسالته. كما أنها أكدت على دوره الثقافي والمعرفي الذي صاغ واحدة من أهم وأول الديانات السماوية.

واجد من الضرورة الإشارة إلى زمنية الإنتاج الشفاهي والتدويني للنصوص التوراتية، فقد انتجت منذ زمن بعيد جداً، وتعرضت إلى تدوينات عديدة، وكان آخرها التدوين البابلي الذي قام به عزرا، بهذا لا نستغرب عن القصديات الفكرية الواضحة في النصوص التوراتية من أجل خدمة أهداف عنصرية وعرقية واستيطانية مؤكدة على حق العبران في هذا كله، لأنهم شعب الله المختار والأفضل/ والأشرف في كل شعوب الأرض. وأعيد في فترات لاحقة نسخ النصوص المجمعة، وأعيدت صياغتها مرات عديدة[1] وقد استخدم الكهنة النموذج النهائي للنصوص الذي دخلته هذه الأساطير على أنه نص العهد القديم الديني وقد قدم العالم

---

١ - زنون كوسيد فسكي/ الأسطورة والحقيقة في التوراة/ ت: د. محمد مخلوف/ دار الأهالي/ دمشق/ ١٩٩٦/ ص ٩٣.

١ - زنون كوسيد فسكي/ الأسطورة والحقيقة في التوراة/ سبق ذكره ص ٥٢.

الألماني يوليوس لهازون الكثير في مجال التحليل النقدي لكتاب العهد القديم، وفي مجال إيجاد التسلسل التاريخي لبعض أجزائه. فمن خلال دراسته الدقيقة لنص كتاب العهد القديم توصل إلى أن تاريخ الشعب لم يكتب خلال الأحداث التي يتحدث عنها أو بعدها مباشرة بل بعد زمن طويل من وقوعها. إذن فالأساطير عن البطاركة، عن موسى وحتى عن القضاة ظهرت منذ وقت غير بعيد نسبياً عنا.

ولقد غير الكهنة[1] المصنفون أقاويل العهد القديم بما يناسب قناعتهم الدينية دون أن يشيروا إلى ذلك، لكنهم، بالرغم من ذلك، استخدموا، كأساس لمواعظهم، الأقاويل القديمة، التي تعكس الخيال الغني للشعب «من هواجسه وطباعه وبسبب الإهمال لم يحرف الكهنة من النصوص جميع الحقائق التي تدل على قدم هذه النصوص. ففي سفر التكوين مثلاً، حافظت كثيراً ما نصادف عادات وأساطير ما بين النهرين. ولقد عرفنا بواسطة الألواح المسمارية، التي وجدت في حفريات نينوى وأوغاريت أن قصص العهد القديم عن آدم وحواء وبرج بابل والطوفان، يعود أصلها بشكل أو بآخر إلى الأساطير السومرية.

ولهذا وجدت في هذا المؤلف بأن شخصية موسى، مركبة ومكونة من مجموعة أساطير لا تعود له بل حاز عليها. بفعل قوة وذكاء البنية العبرانية التي صاغتها معتمدة على العديد من أساطير البطل التي عرفت في تاريخ الحضارات.

حيث لكل شعب من الشعوب بطلها الذي حاز على خاصية الإنقاذ وسجل تاريخاً حافلاً لنفسه ولشعبه. وتكاد أساطير البطل المنقّذ تلتقي بعناصر متماثلة ومتشاكلة، وهذا ما سيبدو في الدراسة الخاصة بذلك، ووجود تنامي وتماثل في الحلم والرؤيا والولادة وإنقاذ المولود والتربية والنشوء والتميز أو النبوغ المبكر، حتى يحوز على صفاته الملكية والدينية. وقد وقع العالم رانك بخطأ تاريخي، عندما اعتبر اسطورة سرجون هي جينولوجيا البطل المنقّذ وغابت عنه اسطورة الملك جلجامش.

أخيراً أعتقد بأن هذه الدراسة الموسعة قد تمكنت من ملاحقة العديد من العناصر التوراتية الجديدة والتي لم تدرس بإستفاضة وإسهاب وفيها موسى والمكان المقدس والختان، والرقص حول العجل الذهبي، ولا أدعي لدراستي هذه الكمال، لكني واثق من أنها ستفتتح

---

١ ـ زنون كوسيدفسكي/ الأسطورة والحقيقة في التوراة/ سبق ذكره ص ٥٢.

مداراً للحوار الموضوعي مع الآخر، ومجالاً لتنشيط وإثارة المتلقي وبلورة وعي مختلف ومغاير، من أجل الحوار مع الخطاب التوراتي والذي يعنينا كمثقفين عرب التحاور وإياه، وكشف مالنا في توراتهم وعقائدهم وطقوسهم. كي يعرف العبران بأن مأثرتهم الثقافية الوحيدة والتي اعتزوا بها، لم تكن مثلما اعتقدوا بها، ولم يكن لهم فيها شيء مهم، ولم يملكوا منها سوى العمود الفقري فقط.

وأخيراً شكري واعتزازي للصديق أحمد أبو الطوق مدير عام الدار الأهلية للنشر والتوزيع/ عمان لملاحقته لي من أجل إكمال هذه الدراسة.

وشكري أيضاً للصديقين العزيزين عواد علي/ عمّان وحيدر السعدي/ جامعة بابل لما وفراه لي من مصادر مهمة ساعدتني على إكمال عملي هذا.

ناجح المعموري

عمان ١٦/٣/٢٠٠٠



شكل (١) تمثال موسى لمايكل إنجلو/ كنيسة القديس بطرس في فنكولي/ روما

الفصل الأول

الأساطير

أسطورة جلجامش

قرن بعض باحثي القرن الماضي جلجامش مع نمرود الشخصية الأسطورية الذي يبرز في العهد القديم والمدونات اللاحقة التي اعتمدت عليه. وفعلاً هناك أوجه شبه بين بعض منجزات وشخصية جلجامش وتلك التي ذكرت لنمرود ولكن من الصعب جداً الأخذ بتطابق الإثنين، فأوروك مدينة جلجامش، بدليل العهد القديم، كانت إحدى المدن التابعة لملكة نمرود. وفي الوقت الذي تذكر فيه ملحمة جلجامش أنه قتل أسداً وارتدى جلده مما يدل على مهارته في الصيد، يذكر العهد القديم تفوق نمرود غير الإعتيادي في الصيد وارتدائه لباساً من الجلد ورثه عن آبائه. وفي الوقت الذي تجعل فيه ملحمة جلجامش اوتو - ثابشتم بطل الطوفان اليابلي بعيداً جداً لجلكامش بعد العهد القديم ونوحاً بعيداً جداً لنمرود، كما تماثل أحلام جلجامش التي تسطرها ملحمة جلجامش حلماً متداخلاً لنمرود[1].

ورد في مدونات القرن الثاني الميلادي والتي كتبت باللغة اليونانية شيئاً عن حياة جلجامش الأولى والذي يسميه جيلجاموس. وجاءت أخباره ليست فقط مليئة بالعناصر الأسطورية مما يجعل من الصعوبة بمكان تصديقها بل أنها مشابهة لقصص للعديد من آداب الغرب والشرق القديم فقد ذكر أنه عندما حكم «سيوخورس» على البابليين قال العرافون الكلدانيون له بأن الإبن الذي سيولد لأبنته سوف يغتصب منه العرش. فاهتم الملك بالموضوع وأحاط ابنته بكل حماية حتى لا يراها أحد. ولكن خوف الحراس من والدها الملك على رمي الطفل من القلعة التي كانت إبنة الملك سجينة فيها. وحدث أن رأى نسر الطفل وهو يتهاى فأسرع وصار تحته ولقفه على ظهره وحمله إلى بستان وألقاه فيه ولما رأى صاحب البستان الطفل وجماله أحبه فأخذه إلى بيته ورباه وسماه «جيلجاموس» وأخيراً تحققت النبوءة وحصل على الملك وقضى على جده وحكم البابليين.ولقد تضمنت[2]مدونات الكاتب الروماني «كلوديوس ايليانوس» من القرن الثاني الميلادي والتي كتبت باللغة اليونانية شيئاً عن حياة جلجامش الأولى والذي هو جيلجاموس. وجاءت أخباره ليس فقط مليئة بالعناصر الأسطورية مما يجعل من الصعوبة بمكان تصديقها، بل أنها مشابهة لقصص عدد من آداب الغرب والشرق. فقد ذكر أنه عندما حكم سيوخوروس على البابلين قال الطرفون الكلدانيون له بأن الإبن الذي

---

١ - د. سامي الأحمد/ كلكامش/ وزارة الثقافة/ بغداد ١٩٩٠ ص ٢٦ وما بعدها

٢ - د. سامي الأحمد/ كلكامش/ وزارة الثقافة/ بغداد ١٩٩٠ ص ٣١.

سيولد لإبنته سوف يغتصب منه العرش. فاهتم الملك بالموضوع وأحاط إبنته بكل حماية حتى لا يراها أحد ولكن البنت حملت بدون معرفة الأب من رجل غير معروف وأنجبت ولداً. وحمل خوف الحراس من والدها الملك على رمي الطفل من القلعة التي كانت إبنة الملك سجينة فيها. وحدث أن رأى نسر الطفل وهو يهوي فأسرع وصار تحته ولقفه على ظهره وحمله إلى بستان وألقاه فيه ولما رأى صاحب البستان الطفل وجماله أحبه فأخذه إلى بيته ورباه وسماه «جيلجاموس» وأخيراً تحققت النبوءة وحصل جيلجاموس هذا على الملك وقضى على جده وحكم البابليين. تشبه هذه القصة ما ورد عن باريس بن فريام ملك طراودة. فعندما كانت والدته «هكوبا» حاملة به رأت المنطقة التي تقع فيها طراودة. فأخبرها العّراف «ايساكوس» بأن ولادته ستجر على المملكة الدمار وإقترح عليها التخلص منه. وفعلاً سلمته عند ولادته إلى خادم تركه عند جبل «أبدا» إلى آخر القصة.

اسطورة سرجون الأكدي

أنا سرجون، الملك القوي، ملك أكد أمي كاهنة من ا لدرجة العليا، أما أبي فلا أعرفه وأخي من أبي، ساكن المنطقة الجبلية مدينتي، التي ولدت فيها هي، «ازوبيراني» الواقعة على ضفاف نهر الفرات.

حملت بي أمي، الكاهنة من الدرجة العليا وولدتني في السر

ثم وضعتني في سلة من القصب، وبالقار ثبتت بابي [أي غطائها]

ورمتني في النهر، الذي لم أتمكن الهرب منه والنهر حملني وجلبني حتى أقّي، الساقي أقّي، الساقي، عندما رمى دلوه، رفعني إلى الأعلى أقّي، الساقي وضعني للعمل في بستانه في أثناء عملي في البستان، الآلهة عشتار قد أحبتني «بحيث»

حكمت مدة خمسة وخمسين سنة، كملك والناس ذوو الرؤوس السود قد أعتنيت بهم وقمت بحكمهم

عبرت الجبال الصعبة مستخدماً المعاول النحاسية سلاسل الجبال العليا قد تسلقتها مراراً والسلاسل الجبلية الواطئة تخطيتها مراراً

١ - د. فوزي رشيد/ سرجون الأكدي، أول إمبراطور في العالم/ وزارة الثقافة/ دار ثقافة الأطفال ص ٩٨.

وبلاد البحر قد حاصرتها ثلاث مرات
لقد إحتليت دلمون بيدي «أي بنفسي»
وإلى مدينة الدير العظيمة قد ذهبت
وهدمت مدينة كازالو
أي ملك قد يظهر من بعدي
ليته يحكم كملك مدة خمس وخمسين سنة
وليته يعتني ويحكم ذوي الرؤوس السود
وليته يمر عبر الجبال الصعبة مستخدماً المعاول النحاسية
وليته يتسلق الجبال العالية مراراً
ليته يتخطى الجبال الواطئة باستمرار
وليته يحاصر بلاد البحر ثلاث مرات
وليته يسيطر على دلمون بيده «أي بنفسه»
وليته يذهب إلى مدينة الدير العظيمة
........في مدينتي أكد*

اسطورة ولادة موسى*

وتزوج رجل من نسل لاوي بإبنة أحد اللاويين، فحبلت وولدت إبناً. ولما رأته حسن المنظر أخفته ثلاثة أشهر ولما عجزت عن تخفيه بعد، أخذت سلة من قصب الماء وطلتها بالقطران والزفت وأضجعت الولد فيها ووضعتها بين الخيزران، على حافة النهر ووقفت أخته من بعيد لترى ما يحدث له فنزلت إبنة فرعون إلى النهر لتغتسل. وكانت وصيفاتها يتمشين على الشاطئ، فرأت السلّة بين الخيزران، فأرسلت جاريتها لتأخذها ولما فتحتها رأت فيها صبياً يبكي، فأشفقت عليه وقالت: «هذا من أولاد العبرانيين» فقالت أخته لإبنة فرعون «هل أذهب

---

* وجدنا ضرورة نشر النص الأسطوري كاملاً، لغرض تعميم الإفادة، على الرغم من أن النص الذي له صلة بموسى أقصر بكثير مما هو واضح من الأسطورة.

وأدعو لك إمرأة من العبرانيات ترضع لك الوليد؟» فأجابتها إبنة فرعون «إذهبي» فذهبت الفتاة ودعت الطفل فقالت لها إبنة فرعون «خذي هذا الطفل فأرضعيه، وأنا أعطيك أجرتك» فأخذت المرأة الطفل وأرضعته ولما كبر جاءت به إلى إبنة فرعون فتبنته وسمته موسى.

سفر الخروج ٢: ١ - ١٠

قالت «لأني إنتشلته من الماء»

اسطورة باريس وبرسيوس

وهناك أسطورة خاصة بالبطل «باريس» وهو أن ملك طروادة «فريام» فعندما كانت والدته «هكوبا» حاملة به رأت في حلم بأنها قد ولدت شعلة نار أحرقت كل «ايليوم» [المنطقة التي تقع فيها طروادة] فأخبرها العّراف «ايساكوس» بأن ولادته ستجر على المملكة الدمار واقترح عليها التخلص منه. وفعلاً سلمته عند ولا دته إلى خادم تركه عند جبل «أيد».

وتخبرنا - أيضاً اسطورة يونانية عن ملك اغوس «أكريسيوس» في بلاد اليونان بأنه لن يرزق بوريث ولكن ولداً لإبنته «داناي» سوف يقتله ويغتصب منه العرش. وخوفاً من تحقق النبوءة شيد غرفة من نحاس «يطلق عليها الكتاب الرومان البرج النحاسي» تحت الأرض وضع فيها إبنته ومربيتها حتى لا تكون أماًفي يوم ما، ولكن الإله «زيوس» رأى الفتاة، ووقع في حبها وجاءها على شكل مطر ذهبي وحملت منه بولد ربته في السر مع مربيتها، وأخيراً عرف والدها الملك بالأمر فقتل المربية ووضع إبنته وولدها في صندوق رماه في البحر. وأخيراً وقع الصندوق في شبكة صياد إسمه «دكتيس» الذي أخرجهما وربى الطفل وسماه «پرسيوس» وانتهت القصة بقتل «برسيوس» لجده ملك أرغوش وأخذ العرش منه.. وهناك قصة مصرية قديمة حول فارس أجنبي نجح في التسلل والوصول إلى برج عالٍ حصل فيه على ابنة كان يبتغيها.

وفي قصة أخرى أوردها المدراش فحواها أن الملك سليمان بن داوود [٩٦٥ - ٩٢٣] حبس إبنة جميلة له لأنها أرادت الزواج من شخص من طبقة وضيعة ولكن الشاب دخل في بطن بقرة ميتة حملها طير كبير إلى قمة البرج ودخل على البنت واقترن بها*

* ويلاحظ التطابق في ولادة البطل أو الرجل المنقذ والطريقة التي تم فيها التخلص منه طفلاً وبالتالي يحقق الخلاص والفوز..والأمثلة على ذلك كثيرة أكثرها رسوخاً في الذاكرة وأقدمها قصة سرجون الأكدي وموسى وحي بن يقظان.

اسطورة روملوس وريموس

ولدا الذئبة*

انتهت الحرب الطروادية، وأُفنيت المدينة الفخورة على النار والدمار، لقد هلك معظم المدافعين عن طراودة، إلا واحداً منهم هو [اينياس] الذي هرب حاملاً أباه الشيخ على كتفيه خارج المدينة المحترقة، وطاف إينياس «سنوات عدة بدون مأوى، خائر العزيمة، وقصة طوافه الطويل هذه يرويها في اثني عشر كتاباً الشاعر اللاتيني «فيرجيل» في ملحمته الشعرية «الاينيد».

أخيراً إستقر «إينياس» في إيطاليا واتخذ له أصدقاء وتزوج من إبنة ملك وأسس مستعمرة، وقد إنحدر من نسله إخوان هما «اموليوس» و «نوميتور» وقد أصبح الكبير وهو «نوميتور» ملكاً وكان حاكماً كيساً، لكن أخاه كان داهية وقاسياً، وقد صمم على أخذ العرش، فمارس الخديعة، ثم إغتصب السلطة وطرد «نوميتور» خارج القصر الملكي، ولكي يضمن عدم ظهور وارثين يدعون أحقيتهم بالعرش، حكم على إبن «نوميتور» بالموت وكذلك أراد أن يقضي على إبنة «نوميتور» وهي «سيلفيا» لكنه خشي أن يهب الشعب ويقاومه إذا سمع بقتلها، فقام بعمل تصوره ذكياً فعرض عليها أن تصبح راهبة في «فيستا» لأن اللواتي ينقطعن إلى معبد «فيستا» يحرمن من الزواج، وهكذا أقنع نفسه بأنه سوف لن يظهر أولاد ينافسونه في مملكته.

لكن خطة أموليوس هذه أحبطت، إذ جاء عبر الغابة، رجل قوي متين العضل، يبدو كالوحش لكنه فاتن الملامح، يتبعه ذئب، وطائر نقار الخشب يجثم على كتفه، رأى «سليفيا» وأعجب بها، فبادلته هي الأخرى الحب، ولم تكن تعرف حقيقته، فقد كان إلهاً متنكراً، إنه «مارس» إله الحرب فولدت له طفلين توأمين هما «روملوس» و «ريموس» هاج «موليوس» الماكر وماج بادئ الأمر حين أيقن بعدم جدوى ما صنع، لكنه وجد الآن عذراً للتخلص من آخر تهديد لعرشه، فألقى «بسيليفيا» في السجن، وأصدر أوامره بأن يعوم إبناها فوق سطح الماء في نهر «التايبر» وحتى في عمله هذا، كان «أميولوس» داهية، إذا أمر بأن يوضع الطفلان في سلة قليلة العمق، وأن تعوّم في التايبر الهادر وهو في أوج موسم الفيضان.

قال:- إذا غرقت السلة فليسبحا، وإذا فرقا، فلست أنا ملوم، بل النهر هو الملوم. ارتفع

* ولويس أونتر ماير/ كبرى الحكايات العالمية/ ت. غانم الدباغ واراكشيد للنشر/ بغداد/ ١٩٨١/ ص ١٠٩.

مستوى النهر عالياً أكثر مما كان متوقعاً، حيث أنه بإرتفاعه وسرعة جريانه دفع بالسلة دون أن يغرقها، فارتطمت بالشاطئ واشتبكت على الضفة الطينية لنهر «التايبر» بالأعشاب، وهناك استلقى الرضيعان وهما يرتعشان برداً ويصرخان جوعاً.

لم يسمع صراخهما مخلوق بشري، لكن حيواناً متجولاً هناك سمعهما. لقد كانت إحدى إناث الذئاب في طريقها إلى النهر لتشرب، رأتهما فأحست بإشفاق على الرضيعين وهما دون شعر يكسوهما، ودون مأوى ودون عون فأرضعتهما من حليبها ثم حملتهما إلى مغارتها في الغابة. وعنيت بهما. وحين ترعرعا، كان طائر نقار الخشب الذي بنى له عشاً في شجرة مجاورة يجلب لهما التوت من وقت لآخر، ليضيفاه إلى طعامهما، وكان إله الحرب يتابع شؤونهما مبتهجاً.وهكذا شب «رومولوس» و «ريموس» كأفراد في عائلة أنثى الذئب يشربان من حليبها، ويلعبان مع جرائها وتقاسمهما الأم كل شيء تحصل عليه، فنشأ جريئين قويين وأشد مكراً من أي ذئب صغير في الغابة.

في أحد أيام الخريف، قدم، صياد إلى الغابة مع كلابه وعدّته وطوّق القطيع، لكنه لم يستطع أن يمسك بأبناء الذئبة فقد زحفا خلال الطوق المضروب عليهما وانسلا إلى مغارة قريبة إلا أنه عثر عليهما بعد ذلك، راع كان يبحث عن شاة ضالة، فزمجرا وكشرا عن أسنانهما نحوه لكنه أمسك بهما من شعرهما، ورغم مقاومتهما، فقد تمكن من جلبهما إلى داره.

قال لزوجته:ـ ها...طالما تمنيت أن ترزقي أطفالاً، لكن دون جدوى، ولو أني لست متيقناً بأنهما من البشر، لكن مهما يكن الأمر فاليكونا، هل ستحتفظي بهما، أم أتركهما للضياع؟ نظرت الزوجة إليهما، ودون ذعر أو خوف بادلاها النظرات، وكفّا عن الزمجرة، وأخذا يتمسحان بها، قالت:ـ اعتقد أني سأعتني بهما وأرجو أن يرغبا في البقاء.

مكثا عندها فترة طويلة، وهما يمارسان سلوكاً وحشياً فكانا ينقضّان على الأكل، ثم يزحفان متكورين في الزوايا المظلمة، ويزعقان عند إكتمال ضوء القمر، وكانا دائماً يقبعان تحت قدمي زوجة الراعي ويطاردانها حيثما ذهبت، كزوج من الكلاب الأمينة، وكانت هي متأنية صبورة، فأرشدتهما إلى التعود على العادات كمخلوقات إنسانية وروضتهما تماماًووجهتهما بلغة الحب، حتى فقدا بالتدريج توحشهما واتقنا الكلام، وتعلما كيف يعملان بأيديهما، وكيف يعبران عن االأشياء برأسيهما، وهكذا شبّا، فتيّن رشيقين طويلين، أشقرين

وما أن بلغا مرحلة الصبا واليفاعة، حتى أصبحا راعيين ماهريين وذلك بحكم خبرتهما بالطبيعة، التي تلقياها من أنثى الذئب كما ورثا الثقة بالنفس من أسلافهما الملوك، فأصبحا يرشدان جمع الرعاة في أطراف الريف، وحين كانت تقوم خصومات بين جماعة وأخرى من الرعاة أو أمثال مع عصابات اللصوص فقد كان الإخوان هما المنتصران دائماً في كل صراع.

ومع ذلك فقد جاء يوم افترقا فيه، إذ انقضّت جماعة من السلابين على «ريموس» واختطفته، كما اقتادوا قطيعه وسلموه للملك «أميلوس» كفدية وحين سمع «روملوس» بما جرى لأخيه هرع إلى ربيبة الأبل، قال الراعي الشيخ: لقد كنت اتوقع هذا، وطالما قلقت عليكما، منذ زمن إنكما غريبان، وعليكما أن تعلما بأنكما لستما كالآخرين سأل رومولوس:ـ من نكون نحن إذاً. أجاب الراعي:ـ لست على يقين من ذلك، لكن لدي إعتقاد بدأ منذ تعلمتا الكلام إذ رويت لي أنت قصة غريبة ذكرت فيها بأن أنثى الذئب قد رعتكما في مأواها عند نهر التايبر، تصورت أولاً أن هذا غير صحيح، لكني تذكرت ثمة إشاعة تقول، بأن الملك «أموليوس» قد اغتصب العرش من أخيه «نوميتور» ثم سجنه أو تخلص منه ومن إبنته «سليفيا» بطريقة ما، ثم أبعد طفليها التوأمين، وطبقاً لما تقوله الحكاية، فقد ألقي بهما في النهر، لقد وجدتكما أنت وأخاك عند النهر وفي نفس الوقت الذي يفترض فيه أنكما قذفتما في النهر.

شهق «رومولوس» محدقاً:ـ هل تقصد – هل تعتقد بأن «ريموس» وأنا...؟ أجاب الراعي:ـ وأي شيء يحتمل غير هذا...؟ إني أعتقد بأنكما قد حزرتما من تكونان وأرى أيضاً أن تصارحا الملك «أمولينوس» بهذا، ولكن الأجدى من هذا أن تكون المصارحة مع جدكما «موميتور» فالوقت قد آن لتقوما بعمل ما.

في اليوم التالي، قصد «رومولوس» جده «نوميتور» في منفاه، واخبره بكل ما يجب أن يعرفه، حدّق الملك السابق طويلاً إلى الشاب متمعناً فيه قبل أن يقول:

– ليس هناك شك في هذا، إنكما من نفس الدم، فأنتما من نسل «إينياس» إنك حفيدي، أنت وأخوك سجين «اموليوس» الطاغية، الذي يريد قتلكما، لقد سرق العرش مني، وهب أنك عرفت بهذا، فماذا يمكنك أن تصنع؟ قال رمولوس:ـ أستطيع خلعه عن عرشه، فالحق يجب أن يسترد، قال «نوميتور» متشككاً:

– ربما ولكن كيف ستنفذ هذا وحدك.

– بإمكاني الإعتماد على بعض الأصدقاء، هناك بعض الرعاة يمكنهم أن يساعدوني...رفع «نوميتور» حاجبيه متسائلاً:

– الرعاة..؟ رعاة مقابل جيش؟ وبأي سلاح؟

– بالقضبان، بالحجارة، بالهروات، بعصيهم، بأي شيء نستطيع أن نحمله....

رغم ثبات جنانه وبسالته فإن «روMولوس» كان يعلم بأن عصبته لا يمكنها أن تقاوم قوات «أموليوس» المدربة وفي الليل حين اجتمع الرعاة مع عصبة «نوميتور» في ظلام الغابة، اقترح «رومولوس» خطة، وهي أن يقوم رجال «نوميتور» ويهاجموا القلعة التي تضم خزائن الأموال، ثم يزحفون بصراخ عالٍ ومشاعل موقدة، حتى يظن العدو بأن القلعة هي هدف هذا الهجوم حينئذ سيترك حراسها قصر الملك ليحافظوا على خزائن الأموال وفي نفس اللحظة، يندفع «رومولوس» ومعه الرعاة من الغابة، ليحطموا أبواب قصر الملك «أميليوس» فيذعر من بقي هناك من الجيش وإذ ذاك يمكن إنقاذ «ريموس» ثم يهرع الإخوان إلى غرف القصر، فيحطمون الأبواب والمقاصر الملكية الخاصة، ويذبحون الملك الخائن.

ويبتسم هذه المرة إله الحرب، لكن إبتسامته هذه المرة بفخر وإعتزاز. لم يستغرق القتال أكثر من ساعة، ثم عاد السلام، ونصب «نوميتور» ملكاً بإحتفال رائع واستقر في مكانه الشرعي، واعترف «برومولوس» و «ريموس» كأميرين وريثين وجديرين بالعرش، وبعد أن التأم شملهما أقسما يمين الولاء لجدهما الملك. لكن حياة البلاط لم تكن هي ما يرغبانه، إذ لم يرتاحا إليها، وأنحلهما السأم، إذ مازالت هناك بقية من التوحش في دمائهما، فأصبحا ضجرين ويريدان تحقيق أمر هام، لكنهما لا يدركان ما هو، وبغته عرفاه، إنهما يرغبان في تشييد مدينة، مدينة تكون ملكاً لهما، حتى إنهما يعرفان أين تكون، إذ يجب أن تشيد على نهر التايبر، وقرب المكان الذي طرحا فيه ليلقيا حتفهما. جمعا الرجال حولهما، وجلسوا معاً يبحثون عن أفضل مكان لوضع الأسس، ثم انتظروا إشارة ما جلس رومو لوس» فوق تل و «ريموس» على تل آخر، فجاءت أول علامة لريموس إذ حلقت سبع نسور فوق رأسه فكان فألاً حسناً، لأن النسر هو الطائر المقدس الذي لا يقتل، لكنه يؤكل حين يموت وهو الطائر الذي يقدم في القرابين. صاح «ريموس» – سنبني هنا فاعترض الذين كانوا بصحبة «ريموس» بأنه هو الذي شاهد الطيور أولاً. فيجب أن نشيد المدينة حيث يريد هو، وأنه سيكون أول ملك لها. أما الذين كانوا حول «رومولوس» فاعترضوا قائلين، إن «روملوس» قد شاهد أكبر عدد منها – ولهذا فإن

المفضل من قبل الآلهة، لذا عليه - أي على «رومولوس» أن يحكم المدينة، واستمر الجدال بين الفريقين وارتفع الصخب طويلاً، وعلت الأصوات غاضبة مهددة، ثم انتهى النقاش الحاد إلى معركة حادة قبل فيها «ريموس»

إرتاع «روملوس» لما حدث، فمزق ملابسه كمداً وغسل جثة أخيه بدموعه، وهّم أن يقتل نفسه لكن الرجال واسوه ولاموا أنفسهم على هذه المأساة، وأخيراً تمكنوا أن ينتشلوه من يأسه، وجعلوه يؤمن بأنهم إنما جاءوا لغاية معينة، ولديهم أمر عليهم أن ينفذوه، وهو تشييد المدينة العتيدة، أقيم البناء، فكانت مدينة فخمة، شيّدت على سبع تلال، وهي المدينة التي نصب «روملوس» أول ملك عليها وسميت بعده «روما» إذ عاش «روملوس» وحكم وحارب حفاظاً عليها حتى وفاته.

اسطورة حي بن يقظان[1]

فكر سلفنا الصالح، أن جزيرة من جزر الهند التي تحت خط الإستواء يتولد بها الإنسان من غير أمّ ولا أب، وبها شجر يثمر نساءً لأنها أعدلُ بقاع الأرض هواء. وأتمها لشروق النور الأعلى عليها إستعداداً. فمنهم من بثّ الحكم تلك البقعة من غير أم ولا أب، ومنهم من أنكر ذلك وروى أمره خبراً نقصه عليه.

إنه كان بإزاء تلك الجزيرة، جزيرة عظيمة متسعة الأكناف، كثيرة الفوائد، عامرة بالناس، يملكها رجل منهم شديد الأنفة والغيرة. وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر منها الأزواج إذا لم يجد لها كفوءاً. وكان له قريب يسمى «يقظان» فتزوجها سراً على وجه جائز في مذهبهم المشهور في زمنهم. ثم انها حملت منه ووضعت طفلاً فلما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها، وضعته في تابوت أحكمت زّمه بعد أن أروته من الرضاع وخرجت به في أول الليل في جمعة من خدمها وثقاتها إلى الساحل. وقلبها يحترق صبابة به، وخوفاً عليه. وقذفت به في اليّم. فصادف ذلك جري الماء بقوة المدّ، فاحتملته من ليلته إلى ساحل الجزيرة الأخرى المتقدم ذكرها وكان المدّ يصل في ذلك الوقت إلى موضع لايصل إليه إلا بعد عام. فأدخله الماء بقوته إلى أجمة ملتفة الشجر، عذبة التربة، مستورة عن الرياح والمطر محجوبة عن الشمس، تزور عنها إذا طلعت وتميل إذا غربت ثم أخذ الماء في النقص وبقي التابوت في ذلك الموضع، وعلت الرمال بعد ذلك حتى سدّت مدخل الماء إلى تلك الأجمة. فلما اشتد الجوع بذلك الطفل، بكى

واستغاث وعالج الحركة، فوقع صوته في أذن ظبية فقدت طلاها، فلما سمعت الصوت ظنته ولدها فتتبعت الصوت حتى وصلت إلى التابوت ففحصت عنه بأظافرها حتى طار عن التابوت لوح من أعلى، فحنت الظبية عليه، ورثمت به، والقمته حلمتها، وأروته لبناً سائغاً، ما زالت تتعهده وتربيه وتدفع عنه الأذى.

أساطير أخرى

ويحكى عن «تراكهان» ملك «جيلجيت» وهي بلدة تقع على إرتفاع خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر في قلب جبال الهملايا الثلجية. ولما كانت «جيلجيت» تتميز بجوها وموقعها المتوسط، كما كانت تشتمل على مساحة شاسعة من الأراضي الخصيبة، فقد كانت مركزاً لحكام تعاقبوا عليها عبر الأجيال، فرضوا سيطرتهم في قليل أو كثير من العنف على الأودية والممالك المجاورة. من أشهر هؤلاء الحكام بدون منازع كان الملك «طرفان» الذي كان يحكم في حوالي مطلع القرن الثالث عشر، وكان فيما روي، أعظم هؤلاء الحكام وأكثرهم زهواً، ومازال الناس يشغلون أنفسهم بروايات حكايات عن كنوزه وأفعاله، وتجري حكاية ميلاده وأبعاده عن النحو التالي:

كان والد «طرخان» واسمه «ترار - طرخان» ملكاً على جيلجيت وكان متزوجاً من إمرأة تنتمي إلى عائلة ثرية في «داريل» ولما كان «داريل» ولما كان الزوج الملك يهوى لعبة البولو فقد تعود أن يذهب إلى - داريل - كل إسبوع ليمارس لعبته المحبوبة إليه مع أخوة زوجته السبعة. وذات يوم كان الجميع يلعبون بحماس بالغ إلى درجة أنهم أتفقوا فيما بينهم أن الغالب فيهم يحكم على الآخرين بالموت. وقد كانت المباراة طويلة وحامية. ولكن الملك أحرز النصر في نهاية الجولة. ونفذ الحكم في الأخوة السبعة بوصفه رياضياً صادقاً. وعندما رجع إلى بيته بروح عالية بدون شك، وأخبر زوجته نتيجة المباراة المؤلمة، وإن كانت محتمة لكانت الملكة أبعد من أن تشاركه فرحة على أنها إستاءت لجريمته، أو بالأحرى تنفيذه حكم الشنق في إخوتها السبعة، وعزمت على أن تنتقم لهم منه فوضعت له الزرنيخ في طعامه. فهلك في الحال وحكمت بدلاً عنه وكانت الملكة تعلم وهي تتخذ الخطوة الجريئة بأنها حامل من الملك. ثم وضعت طفلاً ذكراً بعد وفاة زوجها بشهر وسمت إبنها «طرخان» ولكن الأم كانت ما تزال حزينة كل الحزن على

---

١ - جيمس فريزر/ الفولكورفي العهد القديم/ ت. د. نبيلة إبراهيم ومراجعة د. حسن ظاظا/ الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤ ص ٩. ١٠

فقد أخوتها إلى درجة أنها لم تطق النظر إلى ابن قاتلهم. ومن ثم فقد وضعت الطفل في صندوق خشبي ورمت به سراً في النهر. فحمل التيار الصندوق بعيداً إلى «هوادر» وهي قرية تقع في ضاحية «تشيلاز» وتصادف أن كان إخوان فقيران يجمعان الحطب من الشاطئ، عندما أبصرا الصندوق يطفو على الماء، ولما كان يعتقد أن الصندوق ربما يحتوي على كنز. فقد غاص أحدهما في الماء وجر الصندوق إلى الشاطئ. وحتى لا تثير الإخوان فضول الناس إذا ما سار بالصندوق الذي يحمل الكنز المتوقع. فقد أخفياه بين عيدان الحطب وساراب إلى بيتهما. وعندما فتحا الصندوق، فوجئا لدهشتهما بأن في الصندوق طفلاً حياً جميلاً. فتسلمته منهما أمهما وشملته برعايتها، ويبدو أن الطفل كان قد جلب معه البركة لأهل البيت. إذ سرعان ما أخذت تبدو على الأسرة التي كانت معدمة من قبل، إمارات الثراء، وتفاءلت الأسرة بالطفل الذي كان سبباً في هذا الخير، ولما شب الطفل عن الطوق وبلغ الثانية عشرة من عمره، شعر برغبة شديدة في زيارة «جيلجيت» التي طالما سمع عنها الكثير من الأخبار. فرحل إليها في صحبة أخويه في الرضاع. وفي أثناء الطريق، مكثوا بضعة أيام في مكان يسمى «بالداس» وكان يقع على قمة تل من التلال. في هذا الوقت كانت أم الصبي الملكة ما تزال تحكم في «جيلجيت» وكانت قد وقعت فريسة للمرض. ولما لم يكن هناك من يخلفها في الحكم، فقد أخذ شعب «جيلجيت» يبحث عن ملك غريب ليحل محلها، وذات صباح وبينما كانت كل شؤون الدولة معلقة بظهور ملك جديد، أخذت ديوك القرية تصيح، ولكنها لم تصح صياحها المألوف «كوك آه دودلي – دو »صاحت «بلداس تام يايبي» ومعنى العبارة «هنا ملك بينكم في بلداس» وأثر ذلك ارسلت الرسل إلى «بلداس» لتحضر كل شخص غريب تقع عليه أبصارهم، وتقابل الرسل مع الأخوة الثلاثة الغرباء واحضر وهم إلى الملكة ولما كان «طرخان» ممشوق القد ذا هيبة فقد أخذت تتحدث معه دون إخوته، ومن خلال حديثها معه عرفت قصة حياته. ولشدة سعادتها عرفت أن هذا الغلام الجميل هو إبنها الذي فقدته عندما رمت به في النهر وهي في غمرة حزنها على فقد إخوتها وحنقها على زوجها الراحل. وعند ذاك إحتضنت الأم إبنها ونادت به ملكاً على «جيلجيت» من بعدها.

أسطورة ثنويا

تمتزج شخصية ثنويا في مثولوجية أمريكا الجنوبية مع العديد من الشخصيات الإلهية الأخرى. ويطلق على هذا الإله الإنساني أسماء متعددة منها ثونايا وثابك. كما تختلط شخصيته مع الإله الخالق فيراكوچا .وقد امتزجت اسطورة ثنويا مع اسطورة أصول الأنيكا ونجد – أيضاً – أن لهذه الشخصية وجهين في الحكايات التي يتداولها الناس فالوجه الأول يعتبره القمة في الشفقة والمحبة والتضحية. والوجه الثاني إذا غضب أو رفضته الناس فإنه يعاقب هؤلاء إما بتحويلهم إلى حجارة أو إغراقهم في فيضان مدمر، تقول الأسطورة:

«ظهر ثنويا في منطقة السهول المرتفعة في الأزمنة الغابرة قادماً من الشمال مع خمسة من تلاميذه، وكان ذا مظهر مهيب، أزرق العينين، ملتح، لا يغطي رأسه شيء، مرتدياً قميصاً بدون أكمام ويصل إلى ركبتيه. كان وقوراً في مظهره، فاضلاً، متزمتاً، يعظ ضد السكر وضد تعدد الزوجات وضد الحرب، وكان يحمل صليباً خشبياً على ظهره، عندما ظهر لأول مرة في مدينة «كارايكو» عاصمة الرئيس الشهير ماكوري، وقام بتوبيخ هذا الرئيس على أعماله القاسية وحبه للحرب، فلم يستمع إليه ماكوري ووقف الكهنة العرافون ضده، فذهب ثنويا إلى مدينة سيكا سيكا حيث اغضبت مواعظه الناس، فأحرقوا الدار التي كان يسكنها، وبعد أن نجا من الحريق عاد ثنويا إلى كارايكو. وحدث أثناء غيابه أن أحب أحد تلاميذه إبنة ماكوري وجعلها من أتباع ثنويا. وعند عودته قام هذا بتعميدها مما أغضب ماكوري فقتل تلاميذ ثنويا وترك الأخير شفير الموت. فوضع بعضهم الجسد المقدس في قارب من البردى وتركوه يسير في بحيرة تاتيكاكا فجرفته مياه البحيرة وحاول بعض الغاضبين اللحاق بالقارب إلا أن مياه البحيرة وتيارات الهواء عملت على سرعة سير القارب بعيداً فتركوه. حتى وصل القارب إلى مدينة كوجا ماركا حيث يقع الآن نهر ديساكوديرو. وتؤكد الأساطير أن القارب ضرب جرف البحيرة في هذا المكان ضربة قوية أدت إلى خلق نهر «ديساكوديرو» الذي لم يكن موجوداً من قبل، وأن مياه النهر التي اندفعت حملت الجثمان المقدس بعيداً إلى ساحل البحر في أمريكا.

وهناك أسطورة أخرى تقول أن أعداء ثنوياً حاولوا القضاء على صليب ثنويا بحرقه فلم يحترق، وحاولوا تحطيمه فلم يستطيعوا فقدموا به إلى البحيرة فلم يغرق، فدفنوه في الأرض حتى اكتشفه الرهبان الإغسطينين عام ١٥٦٩.

أسطورة كارنا

نشأ كارنا طويل الجسم[1] متين البنيان، ذا مظهر رائع باستطاعته قتل أسد [يلاحظ التشابه مع جلجامش] وتعلم كارنا إستعمال مختلف أنواع الأسلحة [يلاحظ التشابه مع الملك جلجامش] تحت رعاية پاراسورما «تجسيد لفينشو» حيث ذهب إليه كارنا متخفياً بشكل براهميني، وتعلم كارنا من راما كل شيء، وعندما اكتشف هذا حقيقة كارنا لعنه في ساعة غضب، واستناداً إلى هذه اللعنة فإن كارنا يموت عند استعماله خطأ سلاحاً ما.

عندما نشبت الحرب بين الپاندا ڤائيين والكوراڤين قاتل كارنا مع الكوراڤائيين وفي اليوم الأخير من المعركة رمى كارنا سهمه على آرجونا الذي كان في عربته التي يقودها كريشنا والذي أسرع بالعربة عدواً فطاش سهم كارنا الذي كان مصوباً نحو عنق آرجونا، لقد قربت النهاية إذا أخطأ في استعمال سلاحه وأخذت عجلات مركبته تغوص في الأرض، فنزل ليرى ما الأمر، وحاول محاولة هائلة لمحاربة ما قدرله، فتقدم منه، آرجونا ورماه بسهم قطعه إلى نصفين فمات في الحال.

وتقول الأسطورة: توقفت الأنهار عن الجريان عند سقوط كارنا وشحب لون الشمس وبدأت، الجبال والغابات بالإرتعاش وحزنت جميع المخلوقات، عدا الكائنات الشريرة والهائمين في الليل فقد إمتلأوا فرحاً.

والد جلجامش غير معروف لكن أمه «ننتسون» كاهنة عظمى وحازت لاحقاً على عناصر الألوهة، حيث ترد لها إشارات كثيرة في الملحمة بكونها ألهة، ويبدو بأن الملك جلجامش ثمرة لإتصال سري بين أحد الكهنة وننسون.

حمل الحراس الطفل المولود، خوفاً عليه من الملك ورموه من فوق القصر الملكي الذي كانت «ننسون» سجينة فيه، لكن نسراً رأى الطفل وهو يهوي نحو الأرض فحمله فوق ظهره ووضعه في بستان وعندما رآه الفلاح جميلاً أخذه متعهداً تربيته وفي الأخير صار ملكاً على أوروك.

لقد تسلل الحبيب، أو الكاهن إلى ننسون وهي سجينة في القلعة ومحاطة بالحراس.

---

١ ـ موسى سليمان / القصص اللغوي الفلسفي/ دار الكتاب اللبناني/ ١٩٨٥ ص ٢٦٧

٢ ـ لطفي الخوري/ معجم الأساطير/ دار الشؤون الثقافية/ بغداد – ط ١٩٩٠ ص ٢١٧

ويبدو بأن الشابة السجينة، استطاعت من تنظيم علاقاتها مع حراسها، بحيث سمحوا لكاهن في التسلل ليؤدي دوراً دينياً. وبعد تخصيبها وولادتها. عمد الحراس للتخلص من المولود، لأن خطراً سينالهم لو عرف الملك بالمولود، لأنهم – حتماً – قد تورطوا بإيجاد فرصة من أجل الإخصاب، لذا رموه من سطح القلعة نحو الأرض. ويمتد تحته نسر كان محلقاً هناك ويأخذه نحو البستان.

وفي هذه الأسطورة رمز مهم من الرموز التي عرفتها حضارة الطرق القديم والشرق وحازت على وظائف مهمة وأساسية وكان لها دور في نظام الخصوبة، وهو رمز النسر الذي نجد ضرورة فكرية في الإشارة له، حتى يتضح دوره المخلص للمولود أكثر، مثلما سيساعد على توسيع آفاق القراءة. لأن النسر هو الوحيد المساهم بعملية إنقاذ المولود الذي سيشكل مخلصاً في الآتي. ولم تعرف اسطورة أخرى هذا الوسيط. ولأهميته سنقوم بملاحقته قدر ما يمكن في الأساطير والديانات الشرقية القديمة. وأقدم الأساطير المعروفة في الشرق، هي أسطورة أتانا[1] التي تدور حول ملك كيش الذي ذكرته اللوائح الملكية بصفته الملك الرابع من سلالة كيش، أي الملك الثالث عشر الذي حكم بعد الطوفان. وتروي الأسطورة بأنه كان عقيماً ودعا إله الشمس ليساعده للحصول على نبات النسل لتكون له ذرية واستجاب له إله الشمس، فدله على نسل حمله إلى السماء منطلقاً به إلى أعلى وبدون صعوبة. ولا نريد استعراضاً مفصلاً لهذه الأسطورة، بقدر الحاجة إلى هيمنة النسر بإعتباره رمزاً مبكراً في الديانة العراقية القديمة، وهو وسيط حيوي وخلّاق حيث حاز على مدار وسيط له علاقة باستمرار الحياة وتنظيم العلاقات فيها وبقاء الخصوبة مستمرة. لذا كان الدور الأول للنسر، حيث عاد بالملك وهو يحمل نبات النسلية، لأن ثبت الملوك يوضح استمرار حكمه من خلال النبات الخاص بالإنجاب. واعتقد بأن تأسيسات النسر الأولى، مشكّلة في الأساطير العراقية القديمة وتكاد تكون هي الجذر الأول، وصعد النسر كرمز ليكون مركزاً طاغياً في الكثير من الحضارات من خلال نصوصها الأسطورية. وتضيء اسطورة «ميلاد أبناء الذئبة» القداسة التي يتمتع بها النسر في الأساطير الرومانية. حيث لعب النسر دوراً بارزاً، لأنه يمثل فالاً حسناً عند الإستجارة وحصراً في محاولة اختبار مكان لمدينة روما.

---

١ ـ لصموئيل نوح كريمر/ أساطير العالم القديم/ ت: أحمد عبد الحميد يوسف الهيئة المصرية العامة/

والنسر في الأساطير الرومانية مقدس ولا يجوز قتله لأنه يمثل طوطماً، لكنه عندما يمرض ويموت فيجوز أكله، بإعتباره رمزاً ممثلاً للإله الأكبر، وتقديم الطوطم في نهاية حياته عشاء أو طعاماً عاماً، يمثل ممارسة لطقوس خاصة بالإله الأكبر وأكله يمثل إعترافاً بدوره وأهميته بحياة الجماعة.

كما أن النسر يقدم قرباناً للإله في لحظات حياته الأخيرة. أي تقديم العلاقة الطوطمية لمدلولها الأول والأكبر، ومن هنا اكتسابه صفة القداسة.

وتلاحظ أهمية النسر. في أكثر من أسطورة وامتد متعاصراً ولمراحل متأخرة، مكوناً علامة وطنية وقومية. لذا ما يهم هو العناصر الدينية الداخلة في تشكل صورته ووظائفه المحصورة بالخصوبة والفأل.

ويلعب النسر ـ أيضاً – دوراً في أهم أسطورة من أساطير النار المعروفة في تاريخ الحضارات، واعني أسطورة بروميثوس، سارق النار. حيث اعتبرت الآلهة ذلك جنوحاً، تمثل في السرقة أو الإختطاف، لذا عاقبته الآلهة، عندما قيدته إلى صخرة وترك عليها يأكل النسر من كبده يومياً. وقد اختار النسر كبد برومثيوس لأنه مكاناً تتجمع فيه العواطف والرغبات. ولأن فعل برومثيوس سرقة النار/ الحضارة. وأهم ما يعنينا كون النار تتبّدى في الرغبات مثلما سيظهر في تأويلنا لأسطورة النار وولادة برسيوس لذا فإن أكل النسر لكبد برومثيوس، وهو في نتائجه محاولة لتناقض الرغبات والعواطف التي تأسست عند سرقته للنار والتي هي حاضنة في مرموزها الأنثوي.

ولأن النسر وسيط رمزي في نظام الخصوبة وساهم بإنقاذ المولود وبذلك فهو يحافظ عليه وينقذه من الموت، ويمنحه الحياة لذا فإنه – النسر – حط مع المولود في البستان. وهذا مكان المسيح للخصوبة ومنتج للخصوبة، يمثل حضناً حامياً وراعياً للمولود، لقد أعاده إلى الرحم، لكنه رحم أكبر من أجل الحفاظ عليه فردوساً. فإن المولود جلجامش، دخل فردوس الحياة والفخار، حيث تحققت النبوءة وصار ملكاً لمدينة اوروك للفترة من ٢٨٠٠ – ٢٧٠٠ ق.م، وهو واحد من أواخر ملوك السلالة الأولى التي حكمت اوروك إن وضع جلجامش في البستان، هو إعادة مجازية لرحم الأم الرمزية، لقد أقام علاقة جديدة ومن نوع مختلف مع الأم/ الأرض. ونشأت المولود وسط البستان تنطوي على دلالات عديدة، أهمها، خضوعه إلى إشراف رمزي

ورعاية الألوهة المؤنثة، ممثلاً لها بالكاهنة «نتسون» كما أنه يعني ارتباطاً حميماً ووثيقاً مع الحياة وعلى مركزها ألا وهو الخصوبة المتبدية في كل مظهر من مظاهر الوجود في تلك المساحة الضاجة برموز الخصوبة والإنبعاث والإستمرار ويبدو بأن البطل في الأساطير الطرفية القديمة محكوم في لحظة إنقاذه [جلجامش + سرجون الأكدي] بالبقاء في البستان ومرتبطاً بها بشكل وثيق وتلك واحدة من أهم العلاقات التي نشأت بعد إنقاذهما معاً. فالمنقذ الوسيط للبطل [جلجامش + سرجون] له علاقة مع الأرض. وكأنه في محاولته إنقاذها ونجاحه قد نفذ واحدة من مهام الألوهية المؤنثة، لأنها تبتدئ تماماً على الأرض، وعلامات الخصوبة فيها الإسم ومنحه للشخص، هو ما يشبه التدوين والتسجيل للتاريخ الفردي للشخص والإعلان عن وجوده. ولا وجود لإنسان بدون إسم، حتى تاريخه ملغي من غير ذلك. لذا أعلن الفلاح إعتزازه بالمولود ومنحه إسماً، كذلك [سرجون] وحاز على هذه الصفة التي لم يعلن لنا نص جلجامش عن سرجون مرتبط مع البستان/ الأم/ الخصوبة وعرف اسرارها فإن الألهة إناناً/ عشتار أحبته وأُغرمت به، بعدما راقبته وهو يعمل مزارعاً في البستان. ويبدو بأن الألهة إناناً/ عشتار هي التي منحته الملوكية وناصرته حتى صار امبراطوراً لسومر وأكد، وحكم خمسة وخمسين عاماً.

ولأن سرجون عرف السعادة وسط البستان وأدرك ما تعنيه مفردات الخصوبة عندما يراقبها ويساهم بإنتاجها، تركزت في ذاكرته – وبتأثير عناصر الحياة وسط البستان – الفردوس وسعى بالوصول إلى دلمون فاتحاً.

«والسلاسل الجبلية الواطئة تخطيتها مراراً

وبلاد البحر قد حاصرتها ثلاث مرات

لقد إحتليت دلمون بيدي «أي بنفسي»

ونظراً للتشاكل الواضح بين شخصيتي جلجامش وسرجون سأقدم العلاقات المشتركة بينهما وأشير إلى البنى المتفقة مع بعضها، والمتناصّة، مستبقاً بهما الأساطير الأخرى:

١ ـ الأم كاهنة، ويمثل زواجها تابواً، لذا حصل الإتصال الإدخالي سراً ولم يعرف كل منهما «جلجامش وسرجون» أبيه.

٢ ـ كان جلجامش يمثل خطراً على حكم جده، لذا ألقاه الحراس من سطح القلعة للتخلص

منه، أما سرجون فكان غير ذلك وتم التخلص منه لأن ولادته تمثل تابواً أيضاً.

٣ ـ المنقذ الوسيط في أسطورة جلجامش هو النسر ومن بعدْ الخادم وفي أسطورة ميلاد سرجون، كان المنقذ الوسيط – آقي – ساقي البستان. وواضح التناغم بين المولود المنقَّذ مهمة آقي الزراعية.

٤ ـ لا تعرف ننسون مصير ولدها جلجامش كذلك والدة سرجون ويحصل تداخل واضح بين مجموعة من العلاقات المنطقية والأسطورية، تلك العلاقات التي عرفتها الأساطير المكرسة عن البطل.

باركت الألهة إناناً/ عشتار/ سرجون ورعته وفوضته بالحكم أما جلجامش فلم يجد دعماً مماثلاً.

٥ ـ تم إلقاء جلجامش من فوق القلعة في محاولة للتخلص منه، ووضع سرجون في سلة من القصب ورمي في النهر. ويلاحظ بأن الطريقة التي تم فيها التخلص من موسى مماثلة لطريقة سرجون. إلا أن إبنة فرعون هي التي اكتشفت سلة موسى بينما آقي هو الذي توصل إلى سلة سرجون.

٦ ـ طريقة إكتشاف سرجون مماثلة لطريقة إكتشاف يوسف التوراتي. الأول في النهر والثاني في البئر. مكتشف سرجون آقي وهو فرد، والجماعة هي التي اكتشفت يوسف في النص القرآني.

٧ ـ كان لأم جلجامش «ننسون» دور مهم دينياً وسياسياً في حياته وهذا ما تؤكده الملحمة الخاصة به، أما أم سرجون فلم يكن لها دور مماثل. بسبب سرية أمومتها وعملها الكهنوتي.

٨ ـ حاز جلجامش على عناصر إلهية وهذا ما تؤكده الملحمة الخاصة به. وادعى سرجون[1] الألوهية أثناء حكمه، وقد أطلق على نفسه لقب «شروكين ريلي» أي سرجون الإلهي» وقد بنى له مزاراً تقدم فيه القرابين وظل هذا المزار إلى فترة متأخرة «٥٥٨ – ٥٣٠ق.م»

٩ ـ تتحكم العلاقات الأسطورية بقصة إنقاذ جلجامش من قبل النسر، بينما تهيمن العلاقات المنطقية بقصة إنقاذ سرجون حيث كان المنطق وسيط مهم ومقبول في الإنقاذ، فآقي الساقي

١ ـ دم فوزي رشيد/ سرجون الاكدي/ دار ثقافة الأطفال – بغداد – ١٩٩٠ ص ٧٨

١٠ ـ لم تشر الأساطير الجلجامشية والأخبار والوقائع على وجود مزار خاص به، ومثلما كان لسرجون وربما السبب يعود للطبيعة السياسية التي تمتع بها سرجون، حيث حاز على صفات إمبراطورية لم تكن معروفة من قبل ولا مألوفة، واتساع مساحة حكمة ليشمل سومرواكد منحه صفة قداسة كبيرة مضافاً إلى اتساع مساحة حركته. كما أن لفترة حكمه الطويلة سبب في قداسته، المتمثلة بوجود مزار خاص له.

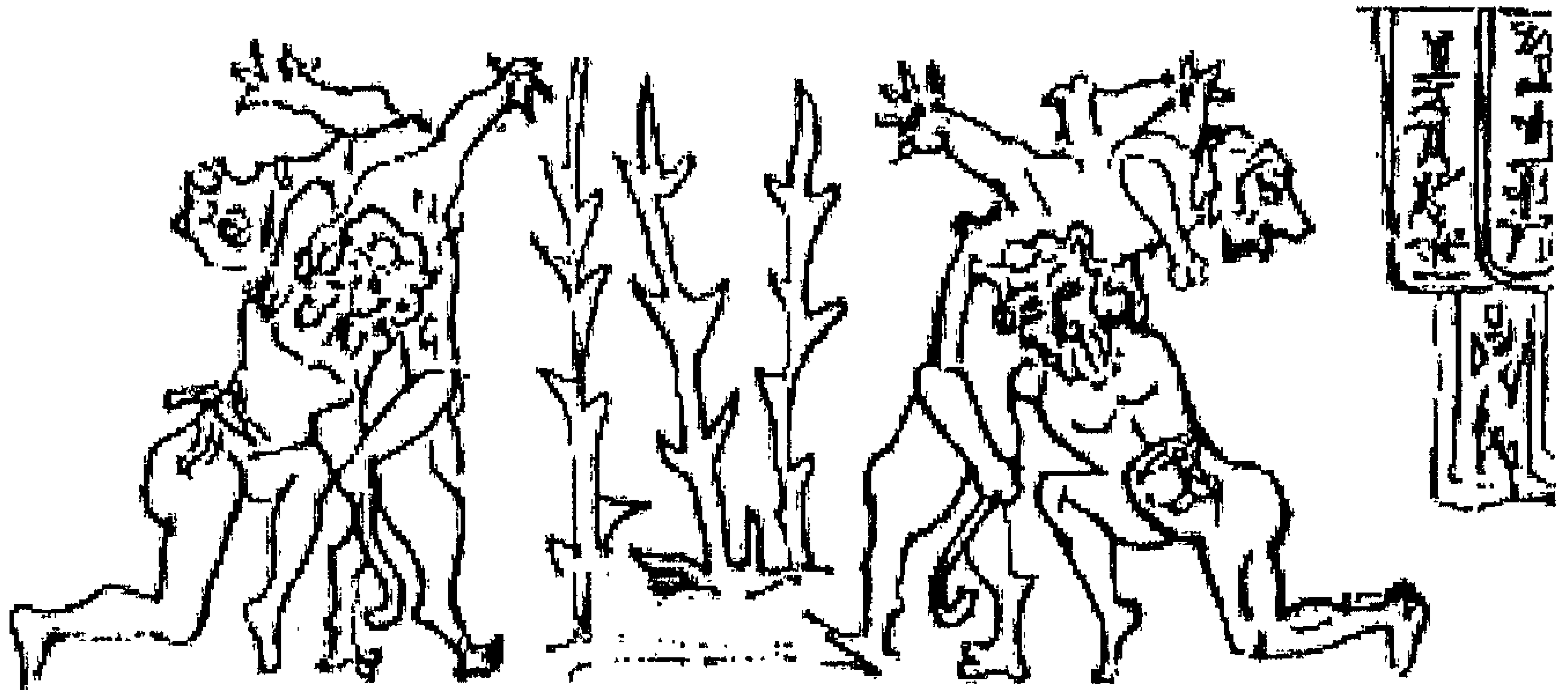
١١ ـ كان جلجامش وظل بطلاً وطنياً في أوروك، أما سرجون فقد تمتع بصفات البطل القومي، وربما تمركزت هذه الصفة أكثر عبر تتالي الأزمنة واتساع مساحة حكمه، حيث استطاع توحيد سومر مع أكد.

١٢ ـ توزعت أساطير: جلجامش + سرجون + موسى بين جذر واقعي وآخر أسطوري، نسجت خصائصه على مسار الحادث التاريخي لذا فإننا نعتبر هذه الشخصيات، شخصيات تاريخية. أما شخصية موسى فهي شمولية، بسبب صفتها الدينية.

١٣ ـ ناصرت الآلهة الملك جلجامش في صراعاته مع غيره أثناء حكم مدينة أوروك، وكذلك الملك سرجون أما موسى فقد منحه الرب اليهودي «هوه» دعماً لا مثيل له، وهذه العلاقة المشتركة تؤكدها النصوص المدّونة عن كل منهم.

١٤ ـ أكدت المكتشفات الأثارية تاريخية كل من جلجامش وسرجون الأكدي بينما لم تؤكد تاريخية موسى على الرغم من قصديته، ووجوده في مصر لفترة طويلة جداً وعمله في القصور الفرعونية

١٥ ـ يتمتع جلجامش وسرجون الأكدي بصبغة سياسية غير موجودة عند موسى بعد خروجه. مثلما تمتع موسى بصبغة نبوية لم تكن عند الإثنين، على الرغم من وجود صفات إلهية متشاكلة مع شخصية جلجامش.



معركة البطل الملحمي كلكامش مع الأسد

الفصل الثاني

الوسيط الذي أنقذ المخلّص

إن إبنة فرعون - وسيطة في إنقاذ موسى - تقدم للقراءة فرصة التعامل مع النظام الملكي/ الفرعوني تعاملاً إنسانياً في واحد من الجوانب الإنسانية، ممثلاً له في الدور المرسوم للألوهة المؤنثة في تاريخ الحضارة وعبر إبنة فرعون، التي تبتدى من خلالها الألوهة المؤنثة. تلك الألوهة التي ظلت بعيداً عن دور القهر الإجتماعي والإضطهاد السياسي الذي يواجهه نفسياً موسى داخل مصر. ويبدو الدور - المرسوم أسطورياً في النص - الموكول لإبنة فرعون، هو محاولة أيضاً - لإعلان القداسة التي يتمتع بها المولود منذ لحظة ولادته. فاقترن انقاذه بإبنة فرعون، وهو محاولة - أيضاً - لإعلان القداسة التي يتمتع بها المولود منذ لحظة ولادته. فاقترن انقاذه بإبنة فرعون..ولا بد أن يكون لها دور آخر، هو دور صياني، قادر على حماية المولود عبر سلطتها السياسية والإجتماعية، لأنها إبنة الملك، وبإمكانها إنقاذه، حيث لا أحد بقادر على إثارة التساؤل حول المولود الذي انتشله من النهر. كما أن دور إبنة الملك، قد عزز أكبر القدسية التي منحها العقل الشعبي لموسى، وذلك عندما تسلل من يد إبنة فرعون واستقر في حضن والدته الحقيقية. وهنا تجسيد واضح لخصائص لم تكن موجودة عند غيره، أو معروفة في محيط آخر، لذا نشأ موسى وترعرع في حضن آمن، ولم يبتعد عن الرحم الذي غادره لحظة العطب الولادي «وعاد إليه مرة جديدة وبعد مأساة مهددة لحياته تماماً.

وأرى بأن الوصول إلى إبنة فرعون، دفع بالنص إلى بنية الإستقرار وقطع تصاعد المأساة التي كان من الممكن أن تؤدي إلى كارثة حقيقية. واعتقد - فنياً - بأن اكتشاف إبنة فرعون للسلة هو نهاية مقبولة لإسطورة المنقذ. وما حصل لاحقاً لها يمثل توابع حكائية لم تضئ منطقة مظلمة في النص وإنما كان دورها ثانوياً. فالأسطورة توقفت حركاتها، أو أصابها السكون، لحظة دخول إبنة فرعون في حدث النص الأسطوري...الأسطورة التي تومئ على علاقتها وعناصرها إلى كونها مقتربة إلى متن حكائي. مثله الكثير في حكايات الملوك والأمراء في ألف ليلة وليلة.

وفي اسطورة موسى تداخل إجتماعي وسياسي قاد حركة النص نحو الإنفراج وساهم ببلورة مفهوم يومئ له المتن وهو أن العائلة الملكية/ الفرعونية وهي لا تختلف عن غيرها من النساء في العوائل الفقيرة. كما أن المتن يشير إلى أن الأمومة وعواطفها موجودة وكامنة في نفس المرأة، حتى وأن لم تكن أماً أو متزوجة. حيث الإندفاع والحماس السريع لإحتضان المولود والتعامل معه تعاملاً إنسانياً عالياً وكأنه طفلاً لها. وإضافة اليهود واضحة في كل النص وأكثرها وضوحاً هو ماقالته إبنة فرعون بعد أن جاءت جاريتها بالسلّة التي رأتها. وهذا

من أولاد العبرانيين. من أجل تكثيف الإحساس التعس بالإضطهاد العرقي والديني، كذلك ما قالته أخت موسى لإبنة فرعون: هل أذهب وادع لك إمرأة من العبرانيات ترضع لك الوليد؟ فأجابتها إبنة فرعون إذهبي، فذهبت الفتاة ودعت أم الطفل. فقالت لها إبنة فرعون «خذي هذا الطفل فأرضعيه، وأنا أعطيك أجرتك».

هذه الإضافة القصدية الأخرى التي تكشف عن نفسها بوضوح آخر. فإبنة فرعون، عرفت بالمولود عبرانياً لأنها من البيت الملكي الذي أصدر أمراً بملاحقة المواليد العبران، فكيف اقتنعت بإنقاذه أولاً وبأخذه وإيداعه عند إمرأة عبرانية ثانياً وهي بهذا الفعل قد تجاوزت حدود القرار الفرعوني وبفعلتها أعلنت تحدياً لقرار والدها. وظلت العلاقة القائمة بين إبنة فرعون والمولود حسنة وما يؤكدها إستلامها للطفل بعدما كبر وتسميته «موسى» لأنها التي أنقذته بإنتشاله من النهر.

والسؤال المهم الذي يثار حول أسطورة ميلاد البطل موسى. هو كيف ظل المولود لثلاثة أشهر في حضن والدته اللاوية؟ هذا السؤال يجد إجابته التي تغيب الحكاية وتشير إلى التزوير الكافي فيها. وأعني أن مخاوف عائلة موسى وحصراً والدته أكثر تمظهراً في السلوك والتصرف لحظة الميلاد. ومخاوف الأب والأم طاغية عندما عرفا بالمولود وكان يفترض التخلص منه في أيامه الأولى، مخافة تسرب أمر ولادته إلى فرعون وحصول ما لا يحمد. وتعطيل التخلص منه فعل له هدف سياسي/ عرفي وديني، للإثارة من خلاله إلى صعوبة التخلص من المواليد الجديدة على الرغم من إعلان فرعون عن ذلك..وهم لا يخضعون للتهديد أو الإبتزاز مهما كلف الأمر.

وبعد مضي ثلاثة أشهر حصل فعل التخلص من الطفل وهو فعل غير مبرر، لأن ولادة لم تتسرب خلال هذه الفترة من الممكن أن تظل إلى الأبد سراً خفياً.

أخيراً لا بد من مناقشة سبب العودة الأسطورية إلى الأم الأولى، والذي يعني استمرار «العطب الولادي» الذي أطلقه عالم النفس «رانك» العطب المتكرر لإنقاذ المولود من مغادرته لرحم الأم الحقيقي وبعد تحقق العطب الولادي الأول، أعيد المولود إلى سلة حامية وهي رمز للرحم الأمومي..والوصيفة التي انتهت للسلّة هي أم حقيقية بالصفة وليس تمثلاً لها كما في رحم ملكي آخر، انتهى بالعودة إلى الأمومة الحقيقة التي تشكل في رحمها، وعودة الطفل لأمه، تمثيل واقعي لعود نحو الرحم.

أما في إسطورة، باريس فأن الوسيط المنقذ، رجل يمارس عمليات الخدمة في القصر.

ولأن دور الرجل مشطوب تماماً وملغٍ عن متون الأساطير المتماثلة كلها، فإن الدور يكون خاصية للطبوغرافية، حيث يترك الخادم الذي استلم باريس عند جبل «آيدا» وتأويل النص يقود الى قراءة نفترض عدم وجود نهر في المنطقة وأبرز ملمح مكاني هناك هو الجبل، كما يمكن أن يكون السبب الآخر والمحتمل هو سعي منتج الأسطورة إلى المغايرة والإختلاف، حتى لا تتماثل اسطورة باريس مع الأساطير الأخرى وتبدو وكأنها منقولة.

كما أن للجبل وسيط مقدس في العقائد والديانات في غربي آسيا وشمال إفريقيا وللجبل مكانة مهمة في الحضارة الفرعونية. لأنه يعني الوسيط المقدس بين الأرضي والسماوي، حيث اعتبرت الديانة الفرعونية التل أو الجبل مكاناً له خصائص قدسية. ولهذا نجد بأن الحضارة السومرية أو الأكدية قد اهتمت الزقورة باعتبارها شكلاً معمارياً بديلاً عن التل أو الجبل، يؤدي مجموعة من الوظائف الدينية ومن هذه العلاقات الملتحمة معاً والمكونة لدوره المكاني/ الديني، ثم اختياره ملاذاً وحامياً لباريس، والذي إبتعد تماماً عن السلطة السياسية متمثلة بالملك. وأسطورة باريس هي الأسطورة الوحيد بين الأساطير التي اهتمت بالولادة، لم تكن لها وظيفة التصادم مع السلطة السياسية/ الملك، واكتفى باريس بالإبتعاد عنه وعطل تماماً فعل المقاومة. ولو راجعنا الترسيمة الموضحة للأطراس الأسطورية، فإننا سنجد الوظيفة السادسة في الترسيمة، تنتهي بفعل القضاء على الملك والإنتصار عليه وتحقق فعل التغيير السياسي. حتى الوظيفة السادسة في أسطورة حي بن يقظان، اقتربت من فعل القضاء على الملك، من خلال البديل التمثيلي له، وهو مالك الجزيرة، حيث تم التخلص منه تماماً وذلك من خلال إزاحته عن دوره في الإشراف على الجزيرة والذي يعني - أيضاً - امتلاكاً لها وحرية التصرف بها وبالموجودات التي هناك.

× × ×

ولم تكتف الأسطورة الخاصة بميلاد «برسيوس» بالتخلص من الحفيد الذي نازع جده على العرش، بل وضعت بنت الملك [الأم] مولودها في تابوت واحد والقت بهما إلى البحر، حتماً كان التابوت كبيراً لأنه استوعب اثنين معاً ـ، الأم ووليدها. وتنفرد اسطورة «ميلا ديرسيوس» بهذه الوظيفة الجديدة، ولم تشترك معها واحدة من الأساطير.

وتقدم هذه البنية الوظيفية قراءة جديدة ومتفردة، وتتجسد في أن وجود الأم مع وليدها يعني قساوة الملك وحقده على إبنته، التي أراد التخلص منها ومن خطرها المتمثل بالوليد. وتعني أيضاً في واحدة من ممكنات القراءة التأويلية أن يحافظ على الوليد من الموت جوعاً،

بعد وضعه في التابوت ولإحتمال بقاء التابوت لفترة طويلة في عرض البحر لذا فإن وجود الإثنين معاً، هو أمان وسلامة حتمية ومؤكدة للإبن/ الحفيد.

ونستطيع الإقتراب أكثر من مرحلة إنتاج الأسطورة، وهي مرحلة الدول السياسية أو الإستقرار السياسي/ البطرياركي وفيه إعتماد اكبر على الصيد النهري، وذلك لدخول الصياد النهري وسيطاً في العلاقات التي لعبت دوراً مهماً في إكمال المتن الأسطوري وصياغته*



شكل «٣» تمثال موسى لمايكل أنجلو

إن أسطورة ولادة البطل «مختلفة عن غيرها من الأساطير الخاصة بولادة المنقذ من خلال الحكم المتمركز على ولادة النار. ولا يمكن المرور بشكل عابر بالنار بإعتبارها موضوعة الحلم لأكثر من سبب، أول هذه

* قال ميرسياد الياد

مات موسى في وهاد ثواب بمواجهة «جرش». وأراه يهوه بلاد كنعان «لقد أريتها لك بعينيك ولكنك لن تجتازها « تث ٣٤: ٤ والعدد ٢٧: ١٢ - ١٤»

إن هذا الموت يتناسب أيضاً مع الشخصية الأسطورية والنموذجية لموسى وكل ما يمكن قوله عن الشخصية المعروفة بهذا الإسم، إنه قد تميز بإللقاءات المتساوية والمكررة مع يهوه، فانكشف الذي كان موسى فيه، جعل منه في آن واحد نبياً وجدياً «شطحوياً» ووسيط وحي وساحراً ونموذج اللاوي «كاهن المعبد» ورئيساً» لدنيا بإمتياز.

الأسباب كون النار من أقدم الرموز «البرّية» وأكثرها قدماً. في تاريخ الحضارات، ولها علاقة قوية ومبكرة مع الكثير من الشعائر السحرية، وتكاد تكون النار رمزاً مساهماً في العديد من الممارسات الطقسية ذات العلاقة المباشرة بالمرأة، لا باعتبارها منتجة للخصوبة فقط، وإنما لأنها تمثل الطرف الآخر في الإتصال الشهوى، كما أنها تعتبر ناراً.

ومحاولتنا لقراءة النار في هذه الأسطورة، هي محاولة لتأكيد «أن غزو النار قد تم بدائياً على أساس جنسي وستكون قراءتي للنار على هذا الأساس والتمركز حول مفاهيم علم النفس لها...لأنها كانت وظلت «مستجنسة» خلال قرون عديدة. وهذا ما أكدته الدراسات التحليلية لفرويد ويونغ، حيث اعتبر النار شكلاً من أشكال العناصر المكونة للبيدو في الحياة البرية.

لقد أشارت توصلات فريزر إلى أن النار هي المعبّرة عن أعياد خاصة لدى الكثير من القبائل، مثلما هي علامة على الفرح الذي[2] «يخلف رماداً يخصب مزارع الكتان وحقول الحنطة والشعير» وللعلاقة الموجودة بين الفرح بعناصره الإيروسية الخفية، نجد بأن التشاكل المورفولوجي بين الفرج والفرح واضح جداً.

ولأن احتفالات النار عند القبائل البكرية، هي احتفالات خاصة بموت آلهة النبات. ويتجسد هذا الموت بالإشتعال الذي يزحف على بقايا المزروعات المحصودة، حتى يتحول رمادها سماداً للأرض ومساهماً بفعل الخصوبة بالحياة..ولأن موت آلهة النبات، تمثل فعلاً كونياً مستمراً، يأخذ حركته مع حركة الأزمنة الطبيعية. وهذا الموت يستدعي بالضرورة استمرار الخصوبة في مدار الآلهة أيضاً، إن ولادة آلهة شابة جديدة، تتجسد تعويضاً لموت الآلهة التي جاء عليها الحصاد. وولادة الآلهة الشابة، الخاصة بالقمح مثلاً، يتطلب إتصالاً ثنائياً ورمزياً. والنار هي التي تساهم بفعل الخصوبة، من خلال إشتعالها كعلاقة أيروسية تتبدى على اللهب الذي لا يترك غير الرماد، وهو علامة للخصوبة التي تؤدي حتماً إلى الإنبعاث في دورة المواسم الطبيعية.

إن جمع الشبان[1] وهم يقفزون فوق الرماد بغية الحصول على موسم وفير، أو بغية حصول زواج موفق الرماد بغية الحصول على موسم وفير، أو بغية حصول زواج موفق خلال العام، يعني الصلة الظاهرة والواضحة بين النار وأفعال الخصوبة في الحياة.

---

١ ـ غاستون باشلار/ النار في التحليل النفسي/ ت – نهاد خياطة/ دار الأندلس/ بيروت ١٩٨٤/ ص ٣٤.

٢ـ غاستون باشلار/ النار في التحليل النفسي ص ٣٥

وإن اعتماد أسطورة «باريس» على النار كوسيط لتحقيق ولادة المنقذ، قد استجمعت في وساطتها عدداً غفيراً من المنظومات السحرية، والعلاقات الأسطورية التي عرفتها العديد من الحضارات القديمة في التاريخ، ولأهميتها سنحاول التركيز على أهم تلك المنظومات والعلاقات، حتى تتضح بنية النار في الحلم الخاص بولادة المنقِّذ الذي سيساهم بخاتمة النظام السياسي. لأن[1] خلق النار فصل متصل بصنف مماثل.

وهنا تتشكل ثنائية الصنف. الأولى خلق النار بواسطة العنف. والثاني تهديد السلطة «الملك» عبر الصنف المادي. كما أن[2] النار هي الظاهرة الموضوعية لعصب داخلي.

وهكذا فإن من الأمور الواضحة، أن ندرك دائماً حالة[3] لسيكولوجيا إستثنائية، ذات صبغة إنفعالية شديدة قائمة في أصل إكتشاف موضوعي ما. وعندما نريد أن نميز بين أنواع النار الكثيرة على أساس البسيكولوجيا الأولية للرغبات والعواطف فإنما نميز منها ناراً عذبة، وأخرى ماكرة وثالثة متمردة وأخرى عنيفة. لذا نجد بأن للنار منظومات متعددة، تستغل في أكثر من مدار. وما يعنينا في هذه الدراسة أكثر هو المدار النفسي وملاحقة رموزها الدينية وعلاماتها الممتدة في عمق التاريخ، الظاهرة والكامنة. التي تطفح في حين ما تساهم بتشكيل صياغة جديدة عبر التقاء رموزها الكامنة/ الظاهرة مع ما هو واقعي/ يومي، لتضفي عليه الجماعة طابعاً مقدساً عبر تداولها. ونظراً للصلة الموجودة بين النار والطقوس التعبدية فإنها ظلت متمركزة عبر الحقب وتداخلت مع خصائص بشرية، ذكورية/ وأنثوية وصار لها مسار حيوي له علاقة واضحة بنظام الخصوبة في الحياة. فالنار تساهم بها بشكل مباشر وغير مباشر من خلالها المحسوس العياني ومن خلال تحولاتها «الرماد» مثلما يكون لها دور ثقافي/ فكري في تشكلات الكثير من المفاهيم الحياتية ذات الصلة مع بعضها البعض وحصراً بين الرجل والمرأة والمفاهيم المتأخرة، المتداولة الآن عن النار، ما هي إلاّ بعضاً من الطقوس والشعائر السحرية والأسطورية التي كمنت لزمن طويل جداً ورفضت تغيّرها، فأحتفظ بها اللاوعي الجمعي. وإذا قرأنا الأسطورة الذكورية فإننا سنجدها متمركزة في هذه الأسطورة، حيث حاولت صياغتها ذكورياً. وكذلك السلطة الأنثوية وهذا ما توضحه الأسطورة الآتية.

---

١ ـ غاستون باشلار/ النار في التحليل النفسي ص ٣٥
٢ ـ سبق ذكره..ص ٣٦
٣ ـ سبق ذكره ...ص ٣٦

في[1] استراليا اسطورة تذكرنا بحيوان طوطمي، يقال له أورو، يحمل النار في جسمه، ويقتله رجل، ثم يفحص جسمه فحصاً دقيقاً ليعرف كيف كان الحيوان يصنع النار، ومن أين كان يأتي بها. ثم يقتلع منه عضو التذكير البالغ الطول ويشطره نصفين فيتبين أن فيه ناراً حمراء جداً.

وفي قبيلة أخرى. كان[2] الرجال لم يكن عندهم نار ولم يكونوا يعرفون صنعها، أما النسوة فكن يعرفنها. وحين كان الرجال يذهبون للعيد في الحرش، تقوم النساء بطهو طعامهن ويأكلنه وحدهن. وما أن ينهين وجبتهن حتى يشاهدن رجالهن من بعيد وهم عائدون. ولما كان غير مريدات أن يعرف رجالهن بالنار. يبادرن إلى جمع الرماد الذي لا زال مشتعلاً ويخبئنه في فروجهن لكيلا يستطيع الرجال رؤيته، وحين يصل الرجال يقولون: أين النار؟ فتجيب النسوة: لا يوجد نار. وفي أسطورة أمريكا الجنوبية[1] يعمد البطل إبتغاء الحصول على النار إلى مطاردة إمرأة فيثب عليها ويمسك بها. ويقول لها أن سوف ينالها إن هي لم تكشف له عن سر النار. وبعد محاولات عديدة للإفلات منه ترضى بأن تكشف له عن سرها. فتجلس على الأرض، وفخذاها منفرجان، ثم تمسك الجزء الأعلى من بطنها فتهزه هزاً شديداً، فتتدحرج على أثره كرة نارية على الأرض صادرة عن المجرى التناسلي.

هذه النار[2] ليست هي النار التي نعرفها اليوم فهي لا تشتعل ولا تغلي الأشياء. لأن هذه الخصائص قد فقدت منها عندما أعطتها المرأة.

وواضح لنا بأن أسطورة النار أزلية، ذات تاريخ طويل جداً. ولكنها حصلت على تنوعها، ومع كل هذا التنوع والتباين لم تستطع مفارقة تجنيسها. وذاكرة النار الثقافية، خاضعة كما قلنا للمرحلة ونوع نظامها الفكري. لذا نجدها مصاغة باختلاف أوجدته المرحلة الحضارية السائدة.. وإذا حاولنا قراءة أسطورة بروميثوس فإننا سنتعرف على التجسد الثقافي الذكوري واضحاً، عبر النص الأسطوري ورموزه، وأجد من الضروري جداً الإشارة لأسطورة بروميثيوس لأنها ستساهم في الصياغة الأخيرة للقراءة الخاصة بأسطورة ولادة باريس. اسطورة باريس «تستجمع معاً كل الرموز الخاصة بالنار وتدفع بها كي تساهم بصياغة منظومة حضارية فكرية. لكنها ستكون في مدار ذكوري – كما قلنا – واشتراك الذكورة والأنوثة في صياغة أسطورة كل منهما الخاصة بالنار، ستوسع مجال القراءة والإختلاف. لكن

---

١ ـ غاستون باشلار/ النار في التحليل النفسي ص ٣٧

٢ ـ سبق ذكره..ص ٣٧

هذا الإختلاف واللاتماثل، يقود إلى وضوح في القراءة وفك للرموز الدينية والأسطورية التي كونت بعضاً من العقائد المقدسة عند الإنسان. وسنحاول ملاحقة التمثالات الرمزية في أسطورة برومثيوس من أجل قراءة الأسطورة الخاصة بباريس ومعرفة العلاقات المكونة لها.

إن بروميثيوس[1] أحد الأبطال الذين لا يزالون من سلالة الآلهة، والذي ربما يكون حتى فاطراً للإنسان أو خالقه قد جلب إلى البشرية النار التي سرقها من الآلهة مخبأة في قصبة مجوفة، في ساق نبات السمّار. ولو كنا نؤول حلماً لرأينا فوراً في هذا الشيء رمزاً للقضيب، على الرغم من أن التأكيد غير العادي على تجديفه قد يجعلنا نتردد ولكن الصلة بين هذه العصبة القضيبية وحفظ النار لا تبدو هناك فرصة كبيرة لإيجاد صلة. إن تذكر الأجراء الشائع للغاية في الأحلام التي تخفي غالباً معناها، وهي عملية العكس أي تحويل عنصر إلى نقيضه وقلب العلامات الحقيقية فليست النار هي التي يخبئها الإنسان في قصبته القضيبية، على النقيض من ذلك، إنها وسيلة إخماد النار، أي ماء مسيل للبول، وترتبط فوراً ثروة من المعلومات التحليلية المألوفة بهذه العلاقة بين النار والماء.

وتحول القصبة/ القضيب إلى رحم للنار وتحتضن لها، ما هو تماثل رمزي واضح بين النار كعلامة أنثوية والنار كعلامة ذكورية، إختارت مكانها الآخر في الرمز القضيبي الذي تمركزت فيه ثنائية رمزية هي الذكورة/ الأنوثة، وهنا اتسعت ثنائيتها في التأويل والتحليل بالإمكان أن تكون القصبة/ علامة ذكورة مثلما يمكن أن تكون رحماً، لأنها مجوفة وحاضنة وبهذا نجد التشاكل واضحاً بين العلامة الثنائية، حيث بالإمكان إدخال أحدهما في الآخر عند القراءة. فالفرج باعتباره خازناً للنار، هو موطن الذكورة/ النار والذكورة/ القصبة، هي أنوثة/ الرحم أيضاً.

وعلى الرغم من هذه الملاحظات فإن للأسطورة مفاهيم جنسية. وإن الدفء الذي تبعثه النار يثير[1] النوع نفسه من التوهج الذي يصاحب حالة الإثارة، الجنسية ويوحي شكل اللهب وحركته بالقضيب في لحظة العمل ولا يمكن أن يقوم شك حول الدلالة الأسطورية لشعلة النار كقضيب. ولدينا دليل آخر عليها في قصة أصل الملك الروماني سيرفيوس تاليوس.

إن تحليلنا لأسطورة باريس، لا بد وأن يستعين القراءة النفسية ويمارس القلب الفرويدي في تحليل الرموز وإضاءة العلاقة التشاكلية فيما بينها. وقد عرفنا في البداية بأن النار رمزاً

---

١ ـ فرويد/ أفكار لأزمة الحرب والموت...ص ٩٢

١ ـ فرويد لأفكار الأزمة الحرب والموت/ ت: سمير كرم/ دار الطليعة/ بيروت/ ط٣ ١٩٨٦/ ص ٩٠

أنثوياً، والمرأة هي الوحيدة القادرة على إنتاجها حياتياً ورمزياً. وهي المسؤولة عن التمثلات الشعائرية للنار في الديانات والعقائد. لذا لا يمكن النظر للنار بعيداً عن المرأة وهنا يكون لها – النار – عنصراً له علاقة بنظام الخصوبة العام في الحياة والكون لأن النار السماوية [النجوم/ القمر/ البرق] لها دور في الإنتاج الكوني للخصوبة، مثلما هي للنار الواقعية.

النار إمرأة/ فرج/ رحم والمرأة تحيل لها أيضاً. وصلة العلاقة بين الإثنين هي الخصوبة، حتى في التمثل اليومي والنار/ رجل، إنه الرمز الثنائي القادر على إشعالها وإطفائها في آن. نار مع نار/ إمرأة + رجل = إشتعال عنيف يؤدي كما قال باشلار إلى نتائج عنيفة. والنار معها ماء في المرأة وفي الرجل لأن الإتصال الإدخالي الثنائي = إحتكاك الناريين معاً وتولد الإشتعال الشهوي سيكون سبباً في سيلان ماء الرغبة عند الإثنين مع فارق بسيط بينهما لذا فإن نار الرجل تطفأ بنار المرأة ومائها. ونار المرأة تطفأ بنار الرجل ومائه. لهذا فإن النار رمزياً، حاملة معها رمزية الإطفاء.وتحول الرغبة والنار إلى رماد، هو الذي سيكون عوناً مركزياً للخصوبة المتحققة فعلاً.

لذا فإن حلم «هكوبا» زوجة «فريام» بأنها قد ولدت شعلة نار أحرقت طراودة. يعني في المستوى الأقرب للقراءة التأويلية، هو تحقق الخصوبة الناتج عن ثنائية إلتقاء النار الذكوية بالنار الأنثوية وحصول النار المنقذفة من فرجها على عناصر واقعية، لم تكن موجودة في التحققات الرمزية الأسطورية قبلاً. حيث حازت النار على عنصر حياتي فمثل بالتدمير...وإنحراف وظيفتها الخاصة بالخصوبة والإنبعاث. كما ترى القراءة بأن النار الذكورية المحفوظة في القصبة قد اندفعت سريعة ووجدت. في رحم الأنوثة ناراً اشتعل به الرحم ودفع الفائض منها إلى خارج الفرج حتماً سيكون اللهب محرقاً ومدمراً بشكل رمزي، لذا تم التحوط عند ولادة باريس. كما أن شعلة النار في أسطورة باريس هي الموت والدمار، ويلاحظ هنا لنظام الخصوبة في الحياة، وهو الإندثار والموت وليس الرماد الذي تخلفه النار رمزاً لموت الألهة الشابة بعد الحصاد. ويقدم إختلافاً وتبايناً.

وبالإمكان الإستعانة بأسطورة ولادة الملك[1] الروماني (سيرفيوس تاليوس) ولكن بقراءة مقلوبة كما أقترح فرويد في تعامله مع الرموز الأسطورية والعلامات السحرية. حيث كانت الشعلة في أسطورة «سيرفيوس تاليوس» مخصبة، وكانت قضيباً مشحوناً باللهب، وامتلك حبوبه مكنته من الإتصال الثنائي مع (لوكريزنا)، التي كانت عاملة في بلاط الملك «تاركين» وفي أحد الأيام كانت تقدم كالعادة الكعك وتسكب النبيذ على الموقد الملكي، لحظتها انطلقت في

النار شعلة على شكل عضو الذكر..وحبلت ووضعت (سيرفيوس تاليوس).

إن ثنائية التمثل الرمزي في الإتصال، بين الخمر والموقد [رمزاً أنثوياً] قد حقق إشتعالاً فصلياً، انطلقت منه شعلة، بصفتها الذكورية واتصلت ملتحمة مع المرأة وصارت فعلاً خصوبياً. وأوضح بأن البنية الذهنية الفكرية التي صاغت أسطورة باريس + تاليوس، هي ذهنية ذكورية ولا نحتاج إلى تأويل ذلك لأن النصوص ترشح عن ذلك بوضوح تام، والسيادة في انتاج الثقافة هي السلطة البطرياركية. لأن الولادة ذكرية ولم يكن للأنثى نصيب في ذلك. واعتقد بأن النار في الأسطورتين رمز ذكوري، وحقق رمزيته الذكورية/ النسلية عند الولادة. والخصوبة المتحققة، رد فعل لصراع ثقافي بين السلطتين الذكورية والأنثوية وواضح منهما هو صاحب السيادة في الحياة والمرحلة السائدة آنذاك.

إن نار الفرج/ الفرج والتقاءها بالنار المختزنة القصبة الداخلة في الأنوثة، أطفأت بعضها البعض في لحظة إكتمال الإشتعال، حيث إندفاق ماء الرجولة هو الذي مارس وبقوة طاغية إخماد نار الأنوثة والذكورة، مثلما هو بالنسبة لنار الأنوثة التي استعانت بمائها لإطفاء نارها ونار الذكورة.

وهذا الإطفاء بعد التحقق، يمثل إشتعالاً وترميداً وهنا ستكون نتيجته تخصيباً وفعلاً كان هذا في الأسطورتين ولادة باريس في الأسطورة الأولى والتي موضوع دراستنا وأسطورة ولادة تاليوس.

للنار خطورة كبيرة. وخطورتها ثنائية، متمثلة في الحياة ونقيضها. ويبدو بأن إنزال العقوبة ببروميثيوس لهذا السبب، لأنه جاء بها لبني البشر، ولذا قيد إلى صخرة وترك ليطعم نسر من كبده يومياً. ومنذ ذلك اليوم وإلى الآن، ظل الحصول على النار أو سرقتها حرماً يعاقب عليه القانون. وهذا ما تناولته الأساطير في مختلف الخطابات الدينية في العالم والشرق حصراً. حيث كانت النار مسروقة أو مختطفة ومنهوبة، وليس بروميثيوس هو السارق الوحيد في الأساطير وإنما هناك كثير غيره. لقد سرقها واختزنها في قصبته وكانت سلاحه البطرياركي في التعامل أو الحوار مع الأنوثة/ الموقد..المخصص لإيقاد النار، الموقد الذي، حتى ولو انطفأت فيه النار فإنه يشير لوظائفه خلال التاريخ الطويل. إن التحقق الوظيفي الأخير لهذه الأساطير هو تمكن المنتظر من أن يكون بطلاً منقذاً ويفوز بانتصاره على الملك وإزاحته عن السلطة، فيأخذ بدلاً عنه عصا الراعي ويحوز في بعض هذه الأساطير على صفات إلهية، مثل جلجامش وموسى. لكننا نجد في اسطورة واحدة فقط من هذه الأساطير، تجسداً

مختلفاً للإنتصار على الأرض وفي اسطورة باريس الذي يؤخذ بعيداً عن الملك ويوضع عند حافات جبل آيدا. وربما تكون نهاية باريس مختلفة اختلافاً واضحاً عن غيرها من نهايات الإنقاذ، وذلك لسبب كونه ممثلاً لشعلة نارية وهنا مكمن التباين بينه وبين غيره من الشخوص التي تحقق نصيبها بأفعال متماثلة حيناً ومتباينة حيناً وأرى بأن الإختلاف الموجود في عناصر باريس الأسطورة متأت من المخاوف على إبادة الحياة الكاملة في طراودة لذا أُبعد البطل ولم يستطع حيازة عناصر غيره من الأبطال الذين تمحورت حولهم الأساطير الموجودة في الجدول.وقد حاولت الأم «هكوبا» إنقاذ وظائفها من الدمار. ووظائفها الحياتية وامتداداتها السياسية، من أجل الإبقاء على طبيعة النظام السياسي وهنا إزاحة مؤقتة لنظام الوريث الملكي الذي ضمر في هذه الأسطورة والأساطير الأخرى الخاصة بالملك جلجامش وپرسيوس، حيث يتبدى من خلال أسطورتهما بأن الوريث تمتع بحق سياسي في السلطة ودخل منافساً له ابن الإبنة متجاوزاً بذلك حدود الوراثة المرتبطة بالإمتداد الذكوري فقط. وتوجه أسطورة «پريسيو» كشافاً مهماً حول الصراع من أجل السلطة. لأن الملك كان عقيماً ولم يستطع الإنجاب، لذا وفرت الظروف الطبيعية والبايولوجية فرصة لابن البنت – الحفيد – للتحرك من أجل استلام السلطة، لأنه مؤهل لتبادل السلطة من خلال نظام القرابة الموجود بينه وبين الملك. وتساعدنا هذه الأسطورة على التوسع قليلاً في إيضاح شيء ما لم تتناوله الدراسات الخاصة بالخطابات الأسطورية، وأعني به الإتصال الثنائي الرمزي والذي يتمكن من تحقيق الخصوبة. وهذا ما لاحظته في أسطورة «پرسيوس» التي تؤكد مسعى المولود المنتظر لقتل جده واستلامه السلطة. وعندما يعلم الملك «إكريسيوس» بذلك يسجن إبنته التي يأتي إليها الإله زيوس على هيئة مطر ذهبي ويتصل بها خارجياً ويتمكن من تخصيبها. إن هذه الطريقة من الإتصال والشائعة في أكثر الخطابات الأسطورية قد عبرت عن صراع مرير بين السلطتين البطريكاركية والأنثوية. إلا أن الألوهة المؤنثة تظل مكتفية بقدراتها على إنتاج الثقافة وتمارس عملية إزاحة للذكورة، لكنها لم تخسر أو تعطل وظيفتها في الإنجاب، حيث استطاعت التوصل إلى سبل مختلفة من أجل ذلك وهناك أساطير كثيرة تتمركز حول الإتصال الإدخالي الثنائي الرمزي.

ومن هذه الأساطير، أسطورة ولادة (بوذا وزرادشت ويوسف التوراتي ويسوع وحورس وديفاني وتاليوس...إلخ) ويلاحظ بأن شخصيات تاريخية وشمولية قد ولدت بطريقة الإتصال الثنائي الرمزي أو التمثيلي وهي شخصية (بوذا وزرادشت ويوسف ويسوع). وقد عرفت الحضارة الإغريقية نظام الخصوبة وهذا النمط حصراً من خلال تأثرها بالحضارات المجاورة

لبعضها والمتحاورة معاً، فالعلاقات الموجودة داخل أسطورة «پرسيوس» علاقات جديدة، لكن البنية شرقية منقولة، مرتحلة إلى حاضنة جديدة. ويبدو لي بأن صياغة الأسطورة صياغة هيلينية متأخرة، حيث عرفت الحضارة اليونانية آنذاك كثيراً من العناصر والأنظمة الشرقية التي اتسعت الأبواب في فترة الإسكندر وما بعده.

وتكاد تختلف هذه الأسطورة عن غيرها، حيث يوضح المولود «پرسيوس» ووالدته في تابوت ورميهما معاً في البحر. فلقد شملت العقوبة الملكية الأم، باعتبارها نظاماً دينياً ومعرفيا وليس باعتبارها رحماً مخصصاً للحمل والولادة. إلاّ أن الأسطورة تقدم لنا انتصار الألوهة المؤنثة [الأم] بصراعها مع البطرياركية [الملك] حيث تتمكن من الخلاص، على يد رجل صياد، يفتح لهما – الأبن والأم – باباً جديداً تمثل باستلام الحفيد للسلطة من جدة الملك، بعد مقتله. وأرجو أن لا يفهم من كلامي، بأن الألوهة المؤنثة، هي المسيّدة تسيّداً كاملاً، وتلعب دوراً متمركزاً في قيادة الحياة وترسخ عقائدها الدينية. بل أعني بأن الصراع بين الطرفين الذكورة والأنوثة ظل مستمراً ودموياً. لكنه يشهد أحياناً سكوناً ملحوظاً، فتستعيد الألوهة المؤنثة بعضاً من دورها الديني متمثلاً ذلك بإنتاج ثقافتها [الأساطير] فتحاول صياغة أساطيرها التي تمنحها دوراً باقياً في الحياة والدين والشعائر السحرية والعقائد وطقوسها. فتبرز هذه الأدوار من خلال قراءتنا للأساطير. وهنا يظهر لنا – مثلما ظهر في أسطورة جلجامش – دور الأم السياسي أولاً والديني ثانياً، متبلوراً من أجل حيازتها على السلطة، ولإنها لم تكن لإبنها، كي يكون ملكاً، فإنها، كي يكون ملكاً، بعدما مارست فعل التشفي بالملك الذي جعلت عقيماً وخاسراً لأهم وظائفه لأنه عندما يكون معطلاً عن الإنجاب فإنه يمارس فعل تدمير الحياة، عبر إيقاف الخصوبة عن حركتها. لذا ترتبط الملوكية ارتباطاً كبيراً بالخصوبة وبحيوية – الملك – الجنسية وبقدراته تتوقف حركة الحياة وسرعتها إرتباطاً بها. ولذا فإن إزاحة الملك «إكريسيوس» هي إزالة معوق كبير أمام استمرار الحياة وتدفقها وبقاء نظام الخصب مستمراً وهذا ما تظهره عقائد الزواج المقدس وطقوسه، الزواج الذي كان يقام للعريس الإلهي(١) أثناء المواسم والإحتفالات الأسطورية (الزراعية) وبمناسبة رأس السنة بصورة خاصة. فلقد كانت الموازنة والمماثلة بين ظواهر الطبيعة [الزراعية] والعلاقات الإنسانية الجنسية تدعو الإنسان إلى إجراء طقوس خاصة بالزواج، يقدمها تلاوة أو تمثيلاً، أما الهدف منها فقد تجسد بتعبئة وحث الطبيعة وحث وتعبئة نفسه هو ذاته بإتجاه إنجاز «خلق» الفعل الجنسي المخصب.

إن الزواج المقدس(١)بما يستتبعه من طقوس وتبعات وتقدمات وأضاحي، برز ضمن ذلك

الإطار، بمثابة فعلاً كونياً عاماً وخاصاً، ومن البين أنه كان يجسد رمزاً تطبيقياً للعلاقات بين الظاهرات الطبيعية. لذا فإن تمكن جلجامش وبيريوس من جدّيهما وإزاحتهما، هو فعل تزكية للمدار الفكري الذي تمثله الألوهة المؤنثة. على الرغم من وجود إختلاف مهم بين الأسطورتين. وهو أن بيرسيوس لم يكن عقيماً.

إن اللغة الرمزية[1] هي لغة يكون فيها العالم الخارجي رمزاً للعالم الداخلي، رمزاً لروحنا وعقلنا. وحين نعرّف رمزاً بأنه شيء ينوب عن شيء آخر، عندها يأتي السؤال الحاسم القائل: ما العلاقة الخاصة بين الرمز والمرموز إليه؟

ويتناول أريك فروم في تفسيره للرموز الكلية نموذجاً لهذا الرمز وهو رمز الوادي والذي ساهم بصياغة نص أسطورة باريس المزدوجة العناصر. وقد تبلورت هذه الأسطورة على عنصرين جديدين ومختلفين عن الأساطير الأخرى التي تمركزت على شخصية المنقّذ، والعناصر الجديدة هي النار والوادي والجبال.

إن وادياً تحيط به الجبال ليستطيع أن يوقظ في أعماقنا الإحساس بالأمن والطمأنينة والحماية من كل الأخطار الخارجية، على أن الجبال الحامية يمكنها أن تكون أيضاً أسواراً تعزلنا وتحول دون خروجنا من الوادي. ولهذا السبب يمكن أن يستحيل الوادي إلى رمز للحبس. فالمعنى الخاص لأي رمز لايمكن فهمه إلاّ من السياق الكلي الذي يظهر فيه الرمز، مع مراعاة التجارب السائدة للإنسان الذي يصطنع هذا الرمز.

إن المولود باريس الذي كشف الحلم عن خطورته وأوضح ممكنات حرقه لطروادة، أبعد إلى واد وتم التخلص منه نهائياً. وترحيل المولود، هو إعادة ثانية لرحم إمه «هكوبة» والإمساك به، وتوفير حماية له، خوفاً من ملاحقته، فالأم دفعت به إلى الحياة واستعادته مرة ثانية، إستعادة مجازية. لكن هذه الإستعادة كانت مطوقة بسياج آخر، محاصر له ومطوق، مراقب، مهيمن عليه، وإنها الجبال، مانعة له من مغادرة الوادي، كي لا يتحول ناراً حارقة، خطيرة وإن أشار (إريك فروم) إلى رمزية الوادي إقتراناً مع الجبال، لكني أجد إرتباطاً مع تحليله أن الوادي رمز آخر يتسع باعتباره كلياً في دلالته، فهو الرحم الذي يتجسد به ومن خلاله العطب

---

١ ـ والطيب تيزيني/ الفكر العربي/ دار دمشق/ ١٩٨٢ ص ٤٠٧

١ ـ والطيب تيزيني/ الفكر العربي/ دار دمشق/ ١٩٨٢ ص ٤١١

١ ـ إريك فروم/ الحكايات والأساطير والأحلام/ ت: د. صالح حاتم/ دار الحوار/ اللاذقية/ ص ٢٢.

الولادي كما أشار لذلك العالم النفساني «رانك». ومدلول الرمز يتضح لنا من خلال السياق الذي أنتج الأسطورة، والأسباب الموجبة لذلك. لذا فإننا لايمكن فهم وقراءة هذه الأسطورة ورموزها إلاّ من خلال العلاقات الإجتماعية والسياسية التي تأكدت لاحقاً .ويتسع رمز الجبل أو الجبال كثيراً، تتناغم مع علاقات السلطة السياسية/ الإجتماعية/ الدينية. وتنطوي ضمناً على منظومة مراقبة، ممارسة للصنف الرمزي/ العلاماتي فوق طبوغرافية المكان/ الرحم.

والجبل/ الرمز، هو ذاته الذي رسم صورة الحماية لكنه في المستوى الآخر شكّل صورة المراقب/ الملاحق وكان للرمز منتوج دلالي لاحق، وفي نهاية النص الأسطوري حيث ظل باريس بعيداً عن مركز السلطة، وظلت السلطة/ الملك مصانة وبعيدة عن طموحاته المستهدفة لها .

وبالإمكان اعتبار الأسطورة الخاصة بولادة باريس، الوحيدة التي لم يتحقق فيها الإنتصار للمولود/ البطل المنتظر للغة مع أن باريس يتمتع بمزايا موجودة لدى المواليد المنقذة، حيث كان أبوه «فريام» ملكاً على طراودة. وتأويل الأسباب ربما يرسم قراءة بسيطة ومقنعة، فيما إذا استعانت بالتحليل النفسي كمعاون للقراءة مع العلاقات المتنوعة الأخرى الراشحة عن النص الأسطوري، واعتقد بأن تعطل قدرات المنقذ باريس مرهونة بالإنطفاء المقترن هو الآخر مع النار لحظة انطلاقها . فالنار إذا لم تستطع إجتياح المكان فإنها تنطفئ، لأن قوتها متأتية من لهبها المتزايد لحظة زحفه على المكان. ولأن النار، انطلقت من فرج «هكوبا» – مرموزاً لها بالمولود باريس – معطلة وانتقلت بحماية الخادم انتقالاً مجازياً إلى الوادي وهذا الإنتقال، يمثل ترحيلاً معطلاً مطفئاً لها، فإنها فقدت عناصرها الخطيرة، والمخيفة. ولأن الحلم مبني على لحظة الولادة المتعطلة – كمجاز – فإن دور باريس انتهى إلى الأبد، وظل شخصاً معطلاً عن قدراته التي كشف عنها بالحلم. وبهذا صار المولود شخصاً عادياً واعتيادياً ولم يظفر بالذي حصل عليه أقرانه في النصوص الأسطورية الأخرى، والتي تناولتها هذه الدراسة.

للآلهة دور في أسطورة «رومولوس» و «ريموس» وتميز هذا الدور بالآلهة الإستثنائية، حيث لعب الإله «مارس» دوراً، حطم خطة «أموليوس» في تعطيل زواج «سيلفيا» وإلغاء دورها في إستمرار وديمومة نظام الخصب في الحياة لأن الإله مارس، دخول إلى الغابة بهيأة رجل قوي، متين الفعل ويبدو كالوحش، لكنه فاتن الملامح [يلاحظ بعض ملامح جلجامش] ويرافقه ذئب وطائر نقار الخشب، ينام فوق كتفيه. إن الذئب ونقار الخشب عناصر مهمة في الديانة القديمة ومثّل كل منهما طوطماً، حاز على القداسة في محيط أضفى على بعض الحيوانات

---

١ - إريك فروم/ الحكايات والأساطير والأحلام/ سبق ذكره..ص ٢٣

والطيور قداسة، بحيث صار كل منها علامة على عقائد سحرية وممارسة طقوسية ودينية، ويدخل الذئب في الأساطير الرومانية رمزاً، لا بل منظومة رمزية، لأنه وسيط حيوي مع الإله مارس، كذلك طائر نقار الخشب/ وفي اللحظة رأى فيها الإله مارس [لم تعرف بصفته الإلوهية] سيليفيا، أعجب وهام بها «روموليوس» و «ريموس».

ولهذا الإله عناصر لها علاقة بالإخصاب وعلاقته مع «سيلفيا» تعبر عن موقفه هذا، على الرغم من حيازته لعناصر أخرى مختلفة بعد التطورات الحاصلة في الحضارة الرومانية. وأهم تلك العناصر الجديدة عنصر الحرب والفروسية وعبر وظيفته هذه ظل يتابع ولديه بعد نفيهما وإنقاذهما. ولأن طائر نقار الخشب مقترن بالإله مارس فقد لازم الطفلين وظل فترة طويلة يراقبهما ويقدم لهما التوت الأحمر واهتمت أنثى الذئب بها إهتماماً إستثنائياً.

ونشأ الطفلان بحكم وجودهما في الطبيعة وعلاقتهما مع الذئبة نشأة قوية جداً وكانا ينتصران في كل صراع وخصام يذهبان فيه. ونجد هنا بأن دور الذئبة مماثل لدور الضبعة في قصة حي بن يقظان، حيث حازت على دور الأم الكبرى في رعايتها لهما واستمع الولدان - بعد أن كبرا - لقصة - من الراعي الذي رباهما - عن الصراع الذي كان موجوداً بين الأخوين، الملك «أموليوس» وأخيه «نوميتور» وأدركا طبيعتهما المكلية.

وتتطور بنية النص الأسطوري، بنشوء علاقات جديدة، لها علاقة بالمكان الذي يضفي طابعه على مستقبل النظام السياسي..إنها العلاقة المتبلّورة مع خصائص جديدة للمكان، الذي لاذت به صفات أسطورية/ وسحرية وهي كيفية إختيار مكان مناسب تشري إليه الآلهة، ليكون مكاناً للمدينة المنتظرة، وللحياة القادمة، مختلفة تماماً عن التي موجودة.

ويكون للعلاقات السحرية دورها في هذا التحديد والإختيار ويساهم معها الطير أيضاً ومن قبل كان للنسور مركز مهم في أسطورة الشخص المختار، لأن وجود الطير [في آسيا الصغرى] والنسر في روما فوق رأس شخص ما، دليل على اختياره من قبل الآلهة. أو هو

مارس: يسمى «مامیرس» وهو عند الرومان يلي جوبتير في المكانة، هو ابن «جونو» كان في البداية رب الأخصاب والأثمار للزرع وللحيوان ولكنه صار فيما بعد إله الحرب ويعبد تحت عدة ألقاب كالمنتقم وغيرها، ويصور وهو يرتدي الدرع ويحمل الرمح، سمي شهر مارس باسمه، كما سمي المكان الذي تقام فيه التمرينات الحربية تكريماً له باسم [كاميوس مارتينوس] ويعتبر والد الشعب الروماني لأنه والد «روموليوس» وهو عند الإغريق «إريس» ابن زيوس وهيرا، وهو عندهم متوحش عديم الرحمة، ضخماً مفتول العضلات، سريع العدو، جهوري الصوت، ذا وجه مروع في قبعته المريشة وعوثه الحربية/ بدى الحكايات العالمية..ص ١١١.

المرشح للقيام بالمهمة، أو الدور الحيوي الذي نشغل به الناس قبل لحظة التبدي.

ويلاحظ بأن الطير مهيمنة مقدسة، تتمركز في العقائد وقد عرفته العديد من الحضارات. وهذا ما نلاحظه في هذا النص ولكن باختلاف بسيط، وهو أن الطوطم، تغادره القداسة لحظة وفاته، ويؤكل وبالإمكان تقديمه في القرابين أيضاً. وقد عرفت الشعوب الجزرية مثل هذا الطوطم وكان يقدم قرباناً ممثلاً للأب الأكبر ويتناوله الرجال كله أو الجزء الذي تمركزت فيه القداسة.

ويبدأ الصراع بين الأخوين «رومولوس» و «ريموس» وهو إمتداد، سحب وإياه نوعية الصراع الأول بين «امولیوس» وأخيه «نوميتور» وهو مرتبط أيضاً بالسلطة التي استدعت هنا العنف المادي، بعدما كان في البداية عنفاً رمزيا. ويختصم الفريق ويحسم الصراع لصالح «رومولوس» بعد أن يقتل «ريموس» من قبل الفريق المناصر لرومولوس الذي حزن عليه [يلاحظ تمثل الحزن الذي شعر به جلجامش بعد موت اتكيدو] حزناً شديداً، الحزن الإنساني الذي ساهم ببلورة التراجيديا. ومن إسم الملك رومولوس أخذت روما إسمها ولفترة متأخرة ظهرت أواني عليها ذئبة ترضع توأمين*

إن الذئبة المرسلة من قبل مارس لترضع التوأمين تنبئ* بالنزعة الحربية للرومان، وأن الغرض والإرضاع من قبل أنثى حيوان كاسر يشكل التجربة المسارية الأولى التي يتوجب على أبطال المستقبل التغلب عليها. لقد اتبعت بتدريب المراهق الجاهل لهويته بين أقوام فقيرة وخشنة. إن نغمة «الأخوين التوأمين» الأعداء كنغمة إزاحة العم أو الجد تعرفان كذلك انتشاراً واسعاً. أما بالنسبة لطقوسية إنشاء المدينة بخط فلاحة فقد أشرنا إلى موازيات لها في العديد من الثقافات...إن بناء مدينة تمثل في الواقع، التكرار لنشكونية. وأن أضحية «ريموس» تعكس الأضحية النشكونية الأولية..إن ذبح «ريموس» على موقع روما يؤكد المستقبل السعيد للمدينة، أي الولادة لشعب روماني ولمجيء «رومولوس» للحكم.

وأبرز ما يبدو هنا الإنعكاس لهذه الأسطورة في لاضمير الروماني** فمن هذه الأضحية الدموية الأولى التي قدمت لآلهة روما سيحتفظ الشعب دوماً بذكرى مروعة. فبعد البناء بأكثر من سبعمائة سنة سيعتبرها (هوارس) أيضاً كنوع من خطأ بدئي يتوجب بالضرورة لنتائجه إثارة خسارة المدينة بدفع أبنائها للتذابح فيما بينهم. وفي كل فترة حرجة من تاريخها ستتساءل روما بألم، معتقدة بشعور وطأة اللعنة عليها، وإضافة لهذا، إنها في نشأتها لم تكن بسلام مع الناس والآلهة.وهذا القلق الديني سينيخ بكلكله على مصيرها ولا يمكن لمدينة جديدة

وناشئة أن تكون مكتفية برجالها الكثر عدد قليل من نسائها إلاّ أن (رومولوس) أدرك ما ستكون عليه روما لاحقاً وستتعرض حتماً لصراعات مع جيرانها، فقد روت التقاليد* عن سكن المدينة من قبل الرعاة ومن ثم اللصوص والمتشردين. ومن أجل الحصول على نساء، إستعمل (رومولوس) حيلة: أثناء العيد الذي جذب إليه من العائلات من المدن المجاورة إنقض رفاقه على الشابات «السابينات» وجروهن إلى منازلهم وامتدت الحرب التي تفجرت بين السابينين والرومان دون أي حسم عسكري، حتى للحظة التي توسطت فيها النسوة بين أقاربهن ومغتصبيهن وأن الصلح أدى بعدد من السابيين للإستقرار في المدينة، وبعد أن نظم (رومولوس) البنية السياسية بإنشاء السيناتور وجمعية الشعب أختفى أثناء عاصفة هوجاء، فأعلنه الشعب إلهاً، وبالرغم من جريمته بقتل الأخ، فإن صورة (رومولوس)، أصبحت وبقيت مثالاً في ضمير الرومان، وكان في آن واحد مؤسساً ومشرعاً.

رومولوس ملحق ١

العناصر الأساسية المساهمة بصياغة شخصية الفرد، هي التي تضفي عليه خصائص ليست موجودة عند غيره من الناس، ويؤكدها بوظائف مغايرة ومختلفة وهذا ما حصل بالنسبة لشخصية (رومولوس) والتي تبلورت بشكل أضفى صفات سياسية جديدة على ما كان، مما تحول إلى مفجر إلى الصراع بين الأخوين، وتظل شخصية (رومولوس) مثيرة للجدل حقاً، لأنها واجهت عنفاً جمعياً، من أجل إضفاء الشرعية على تأسس المدينة، وهذا يعني صعودْ أيضا مع المكان الذي سيصعد مشيداً في اللاحق.

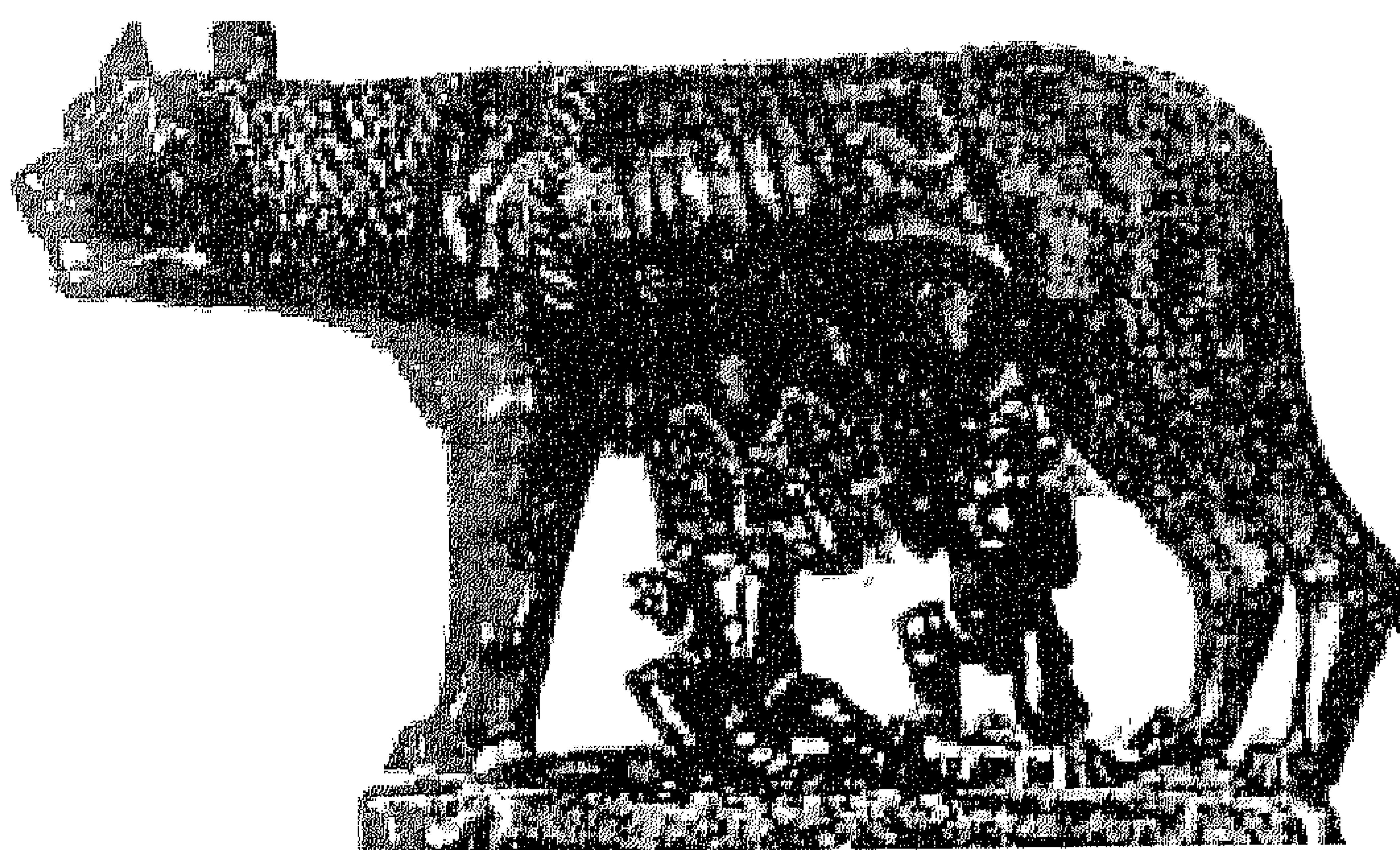
وأشار رينيه جيرار إلى ما دوّنه تيت ليف Tite - Live الذي يفوق في أهميته الجامعة التي جعلت منه رهينة لها. فهذا المؤرخ يحكي لنا كيف أن (رومولوس) قد أحاطت به – أثناء إعصار شديد – سحابة كثيفة أخفته عن أنظار من حوله. ومنذ ذلك الحين لم يظهر مرة

---

* ميرساد إلياد/ تاريخ المعتقدات والأفكر الدينية/ ت: عبد الهادي عباس/ دار دمشق/ ط/ ١٩٨٧/ ص ١١٨.
* ميرسياد الياد/ تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية/ سبق ذكره..ص ١١٩
* وحين مات رومولوس دفن في ناووس منقور من الرخام، زين بمنحوتات وأشكال من بينها سلة تطفو على نهرن وذئبة ترضع توأمين، وراع وزوجته يحيط ذلك دروع وسيوف ورماح، وكل عدة الحرب. وفوق هذا النصب أقاموا نسراً، وهو طائر الضحية المقدس، الطائر الذي دل «رومولوس» على موقع مدينته. ومرت سنوات وتلتها قرون، وتتابعت القرون وراء بعضها، وعفا غبار الزمن على الأرض وعلى أذهان الناس، وهم يعتقدون بأن «رومولوس» و «ريموس» هما فوق قبر يعتقد لرمولوس وطاتعها على الآثار ووجداها عظام طائر النشر كبرى
* الحكايات العالمية..ص ١١٧.

أخرى على الأرض. وبعد فترة زمنية من الإرهاق الصامت التي تحملها «شباب الرومانيين، قاموا بإعلان (روموليوس) إلهاً جديداً» إلاّ أنه: كان هناك اعتباراً من هذا التاريخ بعض المشككين الذين كانوا يرددون خفية أن الملك قد لقي حتفه على أيدي بعض الآباء وفي الواقع أن ذلك قد تردد بصورة غامضة وسرية. أما الرواية الأخرى فقد تمتعت بشعبية كبيرة بفضل مكانة البطل والأخطار التي كانت موجودة في ذلك الوقت.

وقد أشار (بلورتاك) إلى عدة روايات لموت (روموليوس) وثلاث منها ما هي إلاّ أشكال متحورة ومتغيرة للقتل الجماعي. ووفقاً لرواية البعض، فإن روموليوس قد لقي حتفه مخنوقاً في فراشه.



شكل «٤» رومليوس وريموس يرضعان من الذئبة وروموليوس هو الأب الأسطوري للرومان

* ميرسياد الياد/ تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية/ سبق ذكره..ص ١٢٠

على أيدي أعدائه. أما البعض الآخر فيقولون أنه قد تم تمزيقه بأيدي الشيوخ في معبد فولكان. وهناك رواية أخرى تقول: أن القتل قد وقع في مستنقع الماعز خلال الإعصار الشديد الذي يتحدث عنه (تيت ليف).وقد أدى الإعصار الجامح إلى قرار «سوداء الشعب» أما الشيوخ فقد التحموا فيما بينهم وكما هو الحال في رواية (تيت ليف)، فإن المشايخ – أي القتلة – هم الذين فرضوا عبادة الإله الجديد، لأنهم جميعاً التحموا ضده.

لقد أخذ جلُّ* عامة الشعب على عاتقهم مهمة الوفاء لذلك وعمرته سعادة عند سماعه لتلك الأخبار. وبدا يعبد (رومولوس) بتفان وبقلب يملؤه الأمل، إلاّ أنه كان هناك في نفس الوقت من يبحثون عن الحقيقة بمنتهى الضراوة والعنف فإذا بهم يشيعون الإضطراب بين الأشراف والنبلاء.

إلاّ أن البعض قد اعتقد أن الشيوخ قد تكالبوا جميعاً عليه وأنهم بعد أن فتكوا به وقطعوه إرباً، أخذ كل واحد منهم قطعة منه في طيات. ثيابه، وتذكرنا هذه النهاية بالإله (ديونيسيوس). فالضحية تلقى حتفها بعد أن قامت المجموعة بتقطيعها إرباً. فلا مجال للشك إذن في الأصداء الأسطورية والدينية إلاّ أن «الدياسباراجموس» يتوالد ويتناسخ بصورة تلقائية في الجماهير التي يتمكن منها هوس القتل. فالقائمون بالشعب يتنازعون فيما بينهم حتى أقل الأجزاء في رفات ضحيتهم، فهم يعتبرونها رفات ثيمته يمكن بيعها بعد ذلك وبأسعار خيالية. وهناك العديد من الأمثلة التي تشير إلى وجود علاقة وثيقة بين العنف الجماعي ونوع من عمليات إضفاء القدسية التي لا تتطلب أن تكون الضحية متمتعة بالفعل بالقوة والشهرة. وقد تأكدت عملية حول رفات شخص ما إلى رفات قديس في بعض أشكال العنف العنصري في عالمنا المعاصر. وإجمالاً، فإن القتلة أنفسهم هم الذين يضفون طابع القدسية على ضحيتهم. وهذا هو نفس ما تردده «الشائعات» بشأن رومولوس، فهي توضحه لنا – بإسلوب تميزه الحداثة – طالما أنها ترى في هذه القضية نوعاً من أنواع المؤامرة السياسية.

وهذا هو المنظور* العام الذي يعكس النص ويقصر الكفاح ضد الأرستقراطية

---

* رينيه جيرار/ كبش الفداء/ ت: منار رشدي أنور/ دار شرقيات للنشر والتوزيع/ القاهرة/ ١٩٩٨/ ص ٩٦
* رينيه جيرار/ كبش الفداء ص.. ٩٧

عملية تأليه (رومولوس) على نوع من أنواع المؤامرات ضد الشعب وعلى أداة دعاية يقوم بها الشيوخ. وفكرة أن اختفاء الطابع المقدس تحول حدثاً ما إلى واقع كريه هي فكرة هامة للغاية إلاّ أن احتمال أن يكون هناك تمويه اختياري – وهو احتمال حتى وإن كان جذاباً بالنسبة للفكر المعاصر حيث يعبر عن بعض من إتجاهاته – لايمكن أن يرضي المراقبين إرضاء كاملاً، فهم يشككون في الدور الرئيس للظواهر المتعلقة بالجماهير وللمحاكاة الجماعية في تكوين المقدس.

هنا، تتضح لنا أكثر ملامح التكوّن الإلهي لشخصية (رومولوس) وخصوصاً بعد أن تحقق القتل الجماعي، وصعود صفة القداسة، لأن عتبات تخليق الأسطورة، هي عتبات واعية وليست اعتباطية، وإنما محكومة بدوافع ولها أسباب موضوعية وذاتيه، ولعل أهم أسباب النشوء، هو التشكل المقدس، الذي تضفيه الجماعة على الشخصية/ الضحية التي واجهت عنف الجماعة وحيدة ولم تتراجع، وهناك أسباب أخرى بالإمكان الإشارة لها، إرتباطاً مع شخصية رومولوس وهي أن الجماعة قادرة على الفعل وتحقق الذي تريد وهي ذاتها المانحة لعناصر القداسة على الضحية، التي تتحول تدريجياً مكتسبة صفات الألوهة المقدسة، وأجد بذلك قبولاً فكرياً بمبدأ الإنصياع لملاحقة الجماعة وإضطهادها، لأنه بالتالي تحوز على قداسة لم تتوفر لغيره وبهذا، فإنه قد خسر يوميته وحاز على تاريخية مطلقة وحتى الآن.

واختصر الإستاذ (رينيه جيرار) الإختلافات حول القتل والقداسة والعنف الجماعي الذي حاز على المقدس قائلاً: واعتقد بأن غالبية قرائي على قناعة بأن الروايات المختلفة لموت (رومولوس) تمثل الشكل التمثيلي الوحيد للقتل الجماعي في مجموعة الأساطير. وما من أحد يجهل بالطبع أن الأسطورة تنطوي على وفاة أخرى عنيفة يتم تقديمها دائماً على أنها قتل ولكنه قتل فردي كما يعتقد وهذا القتل هو بلا شك هو موت (ريموس).

هنا تثير ملاحظة (رينيه جيرار)، ملاحظة لاحقة بها ومولدة لإختلاف، مفاده إلى أن جرائم القتل في الأساطير وخصوصاً القتل الذي يحصل بسبب العداوات القائمة بين الأخوة، وهي نتيجة لصراعات طويلة، وعميقة وممتدة في أصول غائبة في حاضرها، لكنها ماثلة في واقعها الذي حان، ولهذا اعتبر قتل (ريموس) جريمة اقترفها (رومولوت).

وهذا يصح على المبادرة والفعل لحظة التنفيذ، لكنه كنتائج، فإنه ممتد في الوعي الجمعي والقبول بفعل القتل دليل على المشاركة والفعل، الذي تحاول دائماً السلطة السياسية إضفاء شرعية على ذلك.

من خلال الإقتران الحاصل بين القتل والمقدس، الذي يحاول التوحيد بين العملين، لدرجة يغيب فيها القتل/ الإزاحة/ ويتجسد السياسي/ الديني/ المقدس.

ومنذ بداية دراستي لهذه الأسطورة أشرت على المدار السياسي لأنه المرتبط الأقوى مع النص، وهو الذي صاغ بنية الأسطورة الخاصة (بروموليوس) وأخيه أو الأساطير الأخرى المماثلة لها ومنذ أول أسطورة خاصة بالملك جلجامش، وألمح ذلك الأستاذ (رينيه جيرر) وقال:

وسرعان ما يختلط بتلك المشاريع الشغف الوراثي، وأعني به التعطش إلى ممارسة السلطة. وهذا الشغف يجعل من تلك الممارسة الهادئة والآمنة نزاعا إجرامياً. وكما أن الإختيار فيما بين التوأمين كان أمراً مستحيلاً ولو حتى على أساس السن، كان يتعين على الألهة الحامية لهذا المكان أن تختار بنفسها - وفقاً لبعض النذر - من سيعطي إسمه لهذه المدينة الجديدة ويؤسسها ويفرض سلطانه عليها.

هل كان للآلهة دور في حسم الصراع بين الأخوين، وهو نوع من أنواع الصراعات الدموية بين الأخوة؟ أم أن الصدفة هي التي جمعت الأمر؟ الجواب: لقد تدخلت الألهة عبر منظومتها السحرية الخلاقة أن تدفع بإتجاه رومولوس وضد ريموس، لأن الإعتماد على النذر والفال خصائص سحرية، تمارس عملية حسم الأمور، وهي معروفة في حضارات الشرق وبكثرة. لذا تم في* أول الأمر إختيار ريموس حيث تبدت له أول النذر، حيث ظهرت ستة نسور وكان يشير لتوه إلى ذلك عندما ظهر ضعف هذا العدد من النسور لروموليوس ولذا فقد تم تنصيب كل منهما ملكاً من قبل الجماعة التي يتبعها. فقد رجح البعض أولوية ظهور النور أما البعض الآخر فقد رجح عددها وحمى النقاش بين الفريقين وتطور إلى إشتباك بالأيدي. وتملك الغضب الجميع وتحول التشابك إلى معركة قاتلة. وفي وسط هذا «الشغب» سقط (ورمولوس) صريع القتال».

وأشار (ميرسيا الياد) في كتابه تاريخ الأفكار والمعتقدات الدينية لإنعكاسات هذه

* رينيه جيرار/ كبش الفداء ص.. ٩٧

الأسطورة. أسطورة الصراع بين الأخوين/ التوأمين على ضمائر الرومان حيث احتفظ الشعب دائماً بذكرى مخيفة لهذه الضحية الدموية وهي الأولى من نوعها التي تم تقديمها لألهة روما. وبعد مرور ما يزيد عن سبعمائة عام على تأسيس المدينة ما زال هوارس يقبرها نوعاً من الخطأ الأصلي الذي من المحتم أن تؤدي نتائجه إلى ضياع المدينة، يدفعها لأبنائها إلى الإقتتال فيما بينهم. وفي كل لحظة حاسمة من تاريخها، تتساءل روما بقلق إعتقاداً منها أنها تشعر بلعنة ما تلقي بثقلها عليها وكما أن روما لم تنعم بالهدوء مع البشر عند ميلادها كذلك لم تنعم به مع الألهة.وقد ألقى هذا القلق الديني بثقله على مصير روما.

ويضيف الأستاذ (رينيه جيرار) قائلاً: تكمن أهمية هذا التقليد في أنه يجعل المجتمع ككل مسؤولاً عن القتل المؤسس، ويعتمد هذا التقليد أصلاً على رواية جماعية لهذا القتل، وإذا كان مفهوم التقليد للإنعكاسات البعيدة للقتل يحمل بعض الخصائص المتعلقة بالسحر فهذا يعني أن هذا التقليد يترجم بطريقة حقيقية مستقلة عن أسلوبه في التعبير ألا وهي وجوب قيام كل طائفة بتأسيس نفسها وتنظيمها على أساس عنف مدمر أساساً من مبدئه.

في قصة حي بن يقظان مدار فلسفي واضح ودرس كثيراً وما يهمنا هنا هو العلاقات المشتركة بينها وبين الأساطير الأخرى. وهذا ما سيوضحه الحديث المعني بالتناص الموجود فيها.

في النص طغيان للسلطة البطرياركية القامعة لرغبات الأنوثة والممارسة إضطهاد «إلهاً» متمثلاً بمنح تحقق زواجها، بدعوى باطلة هي عدم وجود زوج كفوء لها. والسبب هو غير هذا الظاهر، واعتقد بأنه يتمثل بوجود صراع عنيف بين الأخ/ الرجل والأخت/ الرجل والأخت/ الأنوثة من أجل تعطيل وظائفها الحياتية المتمثلة بالإنجاب. وهذا يعني. في أهم ما يعنيه تسييداً للسلطة البطرياركية وهيمنة لخطابها الإجتماعي والسياسي والديني، ولأن السلطة الأنثوية أدركت هذا الجانب فقد تمردت عليه سرياً، وتجسد هذا الجانب فقد تمردت عليه سرياً، وتجسد هذا بزواجها من قريب لها، وهنا تبرز ولأول مرة – هذه المنظومات الأسطورية التي تشير إلى نظام القرابة ولكن هذا لم يمنع بعد ولادته، وتخلصت منه بنفس الطريقة التي عرفناها في الأساطير الأخرى، ومحيط القصة مائي أيضاً وهذا ما يفّعل القراءة التحليلية النفسانية.

والوسيط المنقذ هو الماء، دفع به نحو الساحل والوسيط الآخر المساهم بالإنقاذ هو الظبية

التي صارت بديلاً – هذا ما يشف عنه النص – عن المرأة أو الأم، لأنها – الأم – استعاضت بالظبية عن دورها وصارت بديلاً أو احتلت موقعاً تبادلياً على الرغم من أن دور الظبية رمزي وواضح أيضاً لأنها خلصته من الموت وبتفكير فيه منطقية واضحة واختارت دور الأم في إرضاعه وتربيته ولا أجد في القصة ما يمكن أن يحيل إلى مفهوم ديني مبكر ارتبطت به الظبية بإعتبارها علامة لكائن طوطمي مثلاً.

واعتبر[1] الأستاذ (لطفي الخوري) هذا النوع من الأساطير بأساطير للهيبة، وهي – كما ظهر لنا – ذات صفة متميزة عن أية أساطير أخرى. وهي تكاد تنفرد بعناصر خاصة ولها وظيفة مهمة هي تغليف ولادة البطل الشعبي والأسطوري والتأكيد على صعوبة هذه الولادة وتعقد الإنقاذ، لأنه شخص ملاحق بالنبوءة التي تقوده حتماً نحو الإنتصار والفوز، وتلف هذا النموذج من الأبطال هالة من الغموض والسحر.

وأكد الأستاذ (لطفي الخوري)[2] على أن هذه الأساطير تلتم وتتمركز حول المدن التاريخية الشهيرة والإشارة على ذلك مدينة روما وعلاقة (رومولوس وريموس) بها. وإضافة إلى الصلة الموجودة بين البطل/ المنقذ والمدن التاريخية المهمة، فإنه يمثل نمطاً جديداً من الصراع حول السلطة السياسية. كما يضيء جانباً من الإحتدامات الأسرية بسبب الصراع على السلطة السياسية وضمناً الدينية. السلطة الدينية والتي تشف لنا عبر وسيطها الحلم أو الرؤيا، حيث تتدخل طرفاً حيوياً لإحتمالات التغيير السياسي ولأسباب موضوعية وذاتية، وحتى تضمن موقعاً قيادياً لها مع أية متغيرات جديدة، ستحصل. وفعلاً ومثلما هو في الأساطير، تحققت الأحلام والنبوءات وتدفع تطورات الأسطورة نحو الإنفراج وتحقق الخلاص للشاب الذي سينتظره مستقبل زاهر، بعد أن التقت الأم مع ولدها واثنين من أخوته بالرضاعة. ولأنه وسيم وجميل للغاية إختارته الأم الملكة في ابتداء الحوار معه وهنا نجد بأن الجمال كان عاملاً مساعداً لتقريب المساحة بين الملكة/ الأم وبين الشاب، لأن الشكل الجميل، يتمتع – حتماً – بقدرة على الإثارة ولفت الإنتباه، فكيف بها وهي إمرأة، كما أنها أمه، وربما كان لعوامل الأمومة اللاواعية تأثير آخر في تقريب فرصة الحوار معه، حيث ابتدأت الحكاية تتكشف تدريجياً وتتعرف على الشاب باعتباره إبناً لها. ولم تقدم الأسطورة أية إشارة ولو

١ ـ لطفي الخوري/ معجم الأساطير/ دار الشؤون الثقافية/ بغداد ١٩٩٠/ جـ١ ص ١٢

٢ ـ لطفي الخوري/ معجم الأساطير. سبق ذكره جـ١ ص ١٢

بسيطة للتاريخ السابق، والمستبعد تماماً، حتى لا يفسد التوصلات الجديدة...آملاً بالنهاية الإيجابية التي حسمت زمناً من الصراع والغياب والإبتعاد عن العائلة. وصار الشاب ملكاً على مدينة «جيلجيت» بعد غياب طويل، لتؤكد لنا الأسطورة بأن الوراثة مدار ثابت ومقدس ولا يمكن إختراقه أو خلخلته..فالوريث الملكي والشرعي هو الذي حاز على الملوكية في مملكة العائلة.

ويستشف من هذه الأسطورة بأن للمرأة سلطة ودوراً سياسياً، حيث صعدت إلى ذلك، ليس بالوراثة والإنتقال وإنما بالإنقلاب السياسي الممثل بمقتل الزوج. لكن التطورات السياسية والإجتماعية في المدينة ومجاوراتها وضعت حداً لهذا الفصل السياسي وأعادت ممارسة الدور للرجولة، مثلما هو واضح في الأسطورة.

ويدخل المكان المختلف وسيطاً طبوغرافياً في أسطورة مختلفة شيئاً ما عن الأساطير الأخرى وهي الأسطورة الخاصة بالملك طرخان وولده الصغير. وصارت قمم الهملايا مكاناً لولادة هذه الأسطورة ونشوئها وتبلورها، حتى كانت مدينة «جيلجيت» رحماً لنشوئها. وكان لمكانها المرتفع تأثير على جوها وخصوبتها والحياة فيها. وكان طرخان ملكاً قوياً وشديداً، نسجت العديد من القصص والحكايات حول حياته الخاصة.

وتمنح الأسطورة هذه المرأة دوراً جديداً ومختلفاً عن الدور الذي عرفته في الأساطير الأخرى. والإختلاف فيها كبير...وأول هذه الإختلافات القسوة والحقد والكراهية التي ميزت هذه المرأة بحيث اندفعت لقتل زوجها الملك طرخان، لأنه انتصر على إخوتها بواسطة فعل فروسي. ودست له الزرنيخ الذي يحيل إلى طبيعة المرحلة التي كانت تعيشها مدينة «جيلجيت» حضارياً، حيث معرفتها بتحضير المواد الكيماوية. ومات الملك ولم تشعر بالحزن والأسف عليه، ولحقدها تخلصت من وليدها الذي أنجبته بعد شهر من موته. وتطورت الأسطورة بعلاقات متماثلة مع الأساطير الأخرى، حيث حمله صندوق في وسط النهر، وأنقذه إثنان من الفقراء وصار عاملاً مساعداً على تطور حياة العائلة، وشب وسيماً وجميلاً وهذا شرط حكائي، تسلل إلى المتون الحكائية بعد تطور النظم السياسية بصيغتها الملكية الثابتة والوراثية والتي يجب أن يكون الوريث مماثلاً للأب إن لم يكن أفضل منه قدرة وأجمل شكلاً.

تتشابه شخصية «كارنا» مع غيره من الشخوص الأسطورية بقوة الجسم والمتانة، كما أنه ذو مظهر جميل ومثير ربما للعوامل المساهمة بإنتاجه، أما الشخوص الملكية فإنها بالضرورة جميلة، بسبب إنتمائها الأسري.

والقوة الجسمانية لازمة ضرورية للشخصية الأسطورية حتى تتوفر لها فرصة خوض المتاعب ودخول المعارك والخروج منها بالفوز والنجاح..ونجد بأن قوة البطل المنقذ، قوة متصاعدة، متنامية لا تقف عند عتبة معينة أو حدود معروفة وإنما هي خاضعة لمتطلبات الشروط ولامقتضيات الموضوعية التي تعلب دوراً بارزاً في إعادة صياغة الملامح الخاصة بالبطولة وتكوين جديد لتفاصيلها ومثال ذلك «شخصية هرقل وكارنا مثلاً»

«وكارنا» هو الوحيد في هذه المجموعة الخاصة بأسطورة البطل المنقذ، دخلت صراعاً جديداً وقاسياً وتطورت هذه الصراعات إلى حروب بين الپاندا قائيين» و «الكورافائين» لكن خطأ واحداً يكفي للإجهاز على البطل المنقذ، ويعطل دوره الخاص. خطأ يقترفه هو أو يدفع به القدر إليه، أو بسبب شخص آخر مثل (شمشون). لذا فإن خطأ «كارنا» القاتل في عدم دقة التصويب هو الذي عجل بموته. ويبدو من خلال الأسطورة بأن القوى الشريرة، استعانت بطاقتها السحرية وما توفر لديها من إمكانات من أجل تحقيق حلم الإحاطة بالبطل «كارنا» لأنها الوحيدة التي لم تشعر بالحزن والأسى على وفاته، بل إمتلأت فرحاً وسعادة.

وهنا تتجسد بنية اللعن، كبينة ملاحقة، حاولت تعطيل النشوء الصاعد. وهذا ما أكدته أيضاً لعنة «راما» التي لاحقت البطل «كارنا» وكبحته حتى الأبد.

لم يكن الأبن طرفاً أساسياً في الصراع الدائر وسط الأسرة الملكية، الصراع الذي نعجز بفعل البطولة التي عرفتها العوائل الملكية كجزء من تقاليد الفروسية التي شاعت لاحقاً في أوربا. وتحول الأمن ضحية لذلك الصراع المتفجر بين الزوجة والملك/ الزوج، لذا تخلصت منه، للعداء الذي تكنه لأبيه الملك، لأنه قتل إخوانها الخمسة. وتشف الأسطورة عن قوة الإبن وبطولته أيضاً، لأنه يمثل إمتداداً متجانساً إذا لم يكن متفوقاً عن الأب، الذي استطاع بمنازلة من القضاء على أخوة الزوجة الخمسة دفعة واحدة وبهذا حقق إنتصاراً لاميثل له.

أخيراً، كان للزمن فعله وتأثيره من إعادة صياغة النفس الأمومية وبلورة موقف جديد آخر وخصوصاً في أواخر أيامها، عندما شعرت بالضرورة لوجود وريث لها إنطلاقاً من مسؤولية الأم كملكة، لذا تبلورت هذه الأسطورة لتؤكد كل سلطة الألوهة المؤنثة قدرتها في الحكم وعلى إدارة شؤون المدينة/ المملكة متساوية بذلك مع الرجولة، وعودة الرجولة إلى السلطة السياسية والإعلان عن إنتهاء مرحلة صعود السلطة الأنثوية المؤقت في إدارة الدولة والنظام.

١ ـ د. نائل حنون: عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة/ دار الشؤون الثقافية/ بغداد/ ط٢ ١٩٨٦.

ويهمنا أيضاً الإشارة ولو سريعاً لأسطورة «ثنويا» المعروفة في مثولوجيا أمريكا الجنوبية، لوجود عنصر متماثل مع أساطير المنقِّذ، وهو عنصر التخليص من الخطورة والموت. وهذه الأسطورة، نص متأخر جداً لأنه ينضوي على منظومة رمزية مسيحية واضحة وهي الصليب والتعميد، وتوصل الرهبان إلى صليب «ثنويا» المدفون، حيث تمكنوا من إكتشافه عام ١٥٦٩ ويلاحظ أن الوسيط المنقذ، مختلف تماماً عن الوسيط الآخر في النصوص الأسطورية، حيث كان «ثنويا» محمولاً في قارب، جرفته المياه بعيداً وشيّدت هذه الشخصية أسطورتها، لا بل مجموعة من الأساطير واعتقد بأن اختلاف الوسيط سببه العمر، لأن ثنويا كان كبيراً ولم يكن طفلاً أو مولوداً، حتى يوضع في صندوق أو تابوت أو سلّة.

وتقدم لنا هذه الأسطورة الحديثة - نسبياً - إيضاحاً عن القداسة التي منحها العقل الشعبي لبعض الشخصيات الدينية، ومنها شخصية «ثنويا» المقدسة والتي تعامل معها الناس بتقديس واضح تماماً. وانطلاقاً من قداسته التي أشرنا لها، أنتج العقل الشعبي أساطير عنه ومنها تخلصه من الغاضبين بقدرات خارقة. ونهر «ديساكوديرو» الذي تشكل بضربة من الزورق إلى حافة البحيرة من هنا تؤكد على أن القداسة، تفتح منافذاً واسعة لإنتاج الأسطورة على من منحه العقل الجمعي هذه الصفة.

وتساعدنا أسطورة الملك (طرخان) على توسيع مجال القراءة وتنشيط تأويلنا للنص وخصوصاً في مدار النص السياسي، حيث شكلت عودة الإبن إلى الحكم نمطاً سليماً لم تعرفه النصوص الأسطورية الأخرى، ودخل إلى «جيلجيت» بهدوء وبدوره صراعات دموية وعاد إلى قادة النظام السياسي بصفته ملكاً، إستلم الحكم من والدته وأعاد الحكم إلى السياق الوراثي مع العلم بأن الملكة لم تزل حية. وكان إنتقال الحكم للإبن بدون صراع مع الأم ولم يكن الإبن مختلفاً عن السائد من قبل، ولم يتعرض للإبعاد بسبب الرؤيا أو النبوءة الناقلة طموحه في إستلام العرش من الأب أو الجد مثلما هو معروف في النصوص الأخرى.

وبعيداً عن التحليل النفسي لرمز السلة أو الصندوق والتابوت الذي تحول إلى وسيط ناقل للطفل/ المنتظر.

سنعتمد على جينولوجيا الأسطورة في هذا المدار ونعتبره جذراً أولياً لأسطورة نقل (سرجون) الأكدي ومن بعده موسى «العبراني».

تقص علينا الأسطورة الكنعانية ولادة (أدونيس) من شجرة كانت أمه قد تحولت إليها. وكان أدونيس ذا جمال خارق ووضعته الآلهة (أفروديت) بعد ولادته في صندوق محكم،

وأعطته إلى الآلهة «بيرسفوني» الآلهة العالم الأسفل.

وبعد مضي فترة من الزمن، عادت الآلهة (أفروديت) مطالبة بالصندوق، رفضت «بيرسفوني» إعادة الصندوق إلى الآلهة (أفروديت) لأنها فتحت الصندوق وانبهرت بجماله الخارق. واشتكت الأم عند الآلهة «زيوس» واستمع لهما معاً. وأصدر قراره الأخير، بضرورة بقاء (أدونيس) ستة أشهر في العالم الأسفل ومثلها مع الأم. ومن هذه الأسطورة، تبلور مفهوم موت الإله الشاب وانبعاثه ثانية وعممت على أساطير الشرق الخاصة بالموت والإنبعاث. لذا تعاملت الدراسات في هذا المجال مع الإله دموزي/ تموز بذات العناصر. بينما الإله (تموز) مختلف تماماً عن أدونيس الذي يمثل إلهاً مرتحلاً عن (دموزي) السومري أو (تموز) الأكدي. لأنه نزل إلى العالم الأسفل ولم ينبعث ثانية[٢].

وقد انتشرت عبادة الإله أدونيس في الشرق كثيراً وحاز على عناصر شعبية وصارت لأسطورته هيمنة كبيرة في كثير من الأساطير والحكايات. واعتقد بأنها ساهمت بصياغة الوسيط الناقل للمنقذ منذ (سرجون) الأكدي (وموسى) العبراني...إلخ.

وقد افترض بعض الباحثين أن الحكايات[١] الشبيهة بحكاية إبعاد (موسى) الطفل وطرحه في الماء تتضمن بقايا عادة قديمة كانت تتبع بقصد إختبار بنوة الأطفال الشرعية لأبنائهم. فقد كان الأطفال يطرحون في الماء حيث يتركون لمصيرهم. فأما يطفوا، أو يستقروا في قاع النهر. والطفل الذي يطفو يعد طفلاً شرعياً، أما الطفل الذي يستقر في القعر، فإن المجتمع يرفضه بوصفه إبناً غير شرعي وربما إتضح في ضوء هذا الغرض. إن ميلاد الطفل في كثير من الحكايات السابقة يصور على إنه حدث فارق للعادة، ويرتبط بهذا ميل المتشككين إلى اعتبار الطفل مرادفاً للشيء الخارج عن المألوف.

وكان الكيتون[٢] يحكمون نهر الراين في أمر شرعية أبنائهم أو عدم شرعيتهم، فقد كانوا يرمون أطفالهم في النهر فإذا كان الأبناء أولاد زنا، أغرقهم النهر المتجهم ذو المياه الصافية أما إذا كانوا أبناء شرعيين، حملهم النهر في رفق على سطحه ودفعهم إلى أحضان أمهاتهم اللاتي كن يقفن مرتجفات في إنتظار حكم النهر. وبالمثل حكى الناس في إفريقيا الوسطى عن حاكم مشهور، كان يسكن بالقرب من «أوروري» التي تتبع ولاية «كيميزبري» أنه كان يزين أطفاله بالخرز ويرميهم في النهر لكي يتأكد من شرعية بنوتهم له.

---

١ ـ جيمس فريزر/ الفولكور في العهد القديم/ ت. د. نبيلة إبراهيم/ الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤ ص١١.
٢ ـ سبق ذكره..ص ١٢

ترسيمة توضح الأطراس الأسطورية في شخصية موسى وحسب الوظائف المورفولوجية

ت	الوظيفة	ميلاد جلجامش	ميلاد سرجون الأكدي	ميلاد موسى	ميلاد باريس	ميلاد بريسيوس	ميلاد أبناء الذئبة	ميلاد حي بن يقظان
١	الإستهلال	الحديث عن ملك سيوخورس	الحديث عن حمل سري	حديث عن مولود يسلب الحكم من فرعون	ولادة شعلة نار	أكريسنيوس عقيم	مولد الملك إينياس وصراع ولديه	قصة ولادة حي بن يقظان
٢	الأمر المحظور	الخوف من إبنة/ المولود سيسلب العرش	تمثل ولادة الكاهنة العليا تابواً	المولود يسلب الحكم	المولود يدمر طراودة	الحفيد يغتصب العرش	الخوف من وجود وريث للعرش	الخوف من زواج غير متكافئ
٣	وقع المحظورو	ولادة جلجامش	ولادة سرجون الأكدي	ولادة ولادة موسى	ولادة باريس	ولادة بريسيوس	ولادة التوأم	ولادة حي بن يقظان
٤	التخلص من المحظور	رميه من على القصر	رميه في النهر	رميه في اليم	تسليمه للخادم	وضع الحفيد والأم في صندوق ورميهما في البحر	رمي التوأم في النهر	وضعه في تابوت ورميه في اليم
٥	عملية الإنقاذ	إنقاذ من قبل النسر ومن ثم خادم القصر	آقي ينقذه	أنقذته إبنة فرعون	تركه الخادم عند جبل آيدا	أنقذهما الصياد دكتيس	إنقدتهما الذئبة ومن ثم الراعي	إنقاذه من قبل ظبية
٦	القضاء على العدو	القضاء على الملك	القضاء على الملك	الحدث عن زواج والديه وعن ظلم فرعون	الإبتعاد عن الملك	القضاء على الجد «الملك»	القضاء على الملك	التخلص من مالك الجزيرة شقيق الفتاة

* استفادت هذه الترسيمة من قراءة الوظائف المورفولوجية التي حاضر عنها الأستاذ داوود سلمان الشويلي في العراق واستعانت بثلاث وظائف هي الأولى - أشارلها في محاضرته.

الفصل الثالث
موسى وأسطورة
المكان المقدس

إن دراسة المكان القدس، أو محاولة الإقتراب منه تقتضي معرفة بالقدسي والتوصل لعناصره، حسب مصطلح (رودولف أوتو) والقدسي صفة للإله أو الرب وينزع من هذه الصفة بعضاً منها على ماهو أرضي، له علاقة بالسماوي/ بني البشر. وهذا هو المدار الروحي الحيوي الذي ينظم علاقة الإنسان/ الأرضي مع المطلق/ الرب/ الحي حتى الأبد، حاملاً عناصره الربانية لوحده، ومحفوظة له، لا يمكن مزاحمتها ولعل الإله بإعتباره مركزاً للكون أو وسيطاً مهيمناً، هو الوحيد الذي يصدر أوامره ويرسل قراراته الرادعة والمخيفة كي تتجلى قدراته بها. ولعل أهم قدرة للإله تتمثل بالغضب وإرسال الأوبئة والدمارات الكفيلة بتأديب البشر حيناً، أو إبادتهم حيناً آخر ولدينا شواهد كثيرة في الخطابات الأسطورية الخاصة بالشرق الأدنى القديم. وأكثر الآلهة تبدياً في هذا المجال، هو الإله «إنليل» في مجلس الآلهة العراقي القديم، إنه ممثل للسلطة التنفيذية في المجلس وقراراته لا رجعة عنها أبداً. وهو الذي أرسل الطوفان في الموروث العراقي القديم.

«تنشق الآلهة الشّذى*

تنشق الآلهة الشذى الزكي

وكالذباب حوّم الآلهة فوق القربان

وكالذباب حوّم الآلهة فوق القربان

وعندما وصلت سيّدة الآلهة

رفعت الذبابات الكبيرة التي صنعها

آنو لإرتضائها:

«أنظري أيتها الآلهة، سوف لن أنسى «مغزى»

عقدي اللازوردي

سوف أذكر هذه الأوقات، ولن أنسى

فليأت آلهة آخرين إلى قربان سُرقينو

ولكن لا تدعوا إنليل إلى قربان سرقينو

---

* ستيفاني دالي/ أساطير من بلاد ما بين النهرين/ ت/ د. نجوى نصر/ بيسان للنشر بيروت/ ١٩٩٧ ص ١٤٢.

لأنه لم يتشاور قبل أن يفرض الطوفان

وتسلّم شعبي للهلاك

وما أن وصل «إنليل»

ورأى السفينة حتى اهتاج غضباً

وامتلأ قلبه غيظاً من آلهة إيكيكي»

ويلاحظ من خلال النص، بأن كبير الآلهة في البانيثون العراقي القديم، هو الذي أرسل الطوفان عقاباً لبني البشر وفي لحظة طغيان غضبه. ولهذا كانت الآلهة (عشتار) ضده وأمرت أن لا توجه له الدعوة لحضور القربان المقدم، لأنه إنفرد بنفسه واتخذ قراراً خطيراً ومهلكاً. ولم يتشاور مع الآلهة اللذين معه في البانثيون. ولهذا حلّت الكارثة، وبعد تدخل الإله نكي/ أيا - لأنه استطاع تسريب سر الطوفان - حصل الإنقاذ، واجه الإله «إنليل» الموقف الجديد، وبعد الطوفان، بشيء من الغضب والكراهية، لأنه كان ينوي إهلاك وتدمير بني البشر.

«أي نوع من الكائنات بقي على قيد الحياة

لا يجوز ان يبقى أي رجل حياً بعد الدمار

أسمع يننورتا صوته وتكلم

وقال للمحارب انليل:

«من غير أيا يقوى على القيام بعمل كهذا؟

فبامكان إيا القيام بكل شيء

أسمع إيا صوته وتكلّم

قال للمحارب «انليل»

انت حكيم الالهة أيها المحارب

فكيف إذاً أخفقت في استشارة الالهة وفرضت الطوفان؟

عاقب الخاطيء على خطيئتة، وعاقب المجرم على جرمه.

ولكن تروّى، ولاتدع العمل يتوقف، كن صبوراً لاتدعه...

وبدل ان تفرض الطوفان، دع أسلاً يأتي ويقلل عدد البشر

وبدل ان تفرض الطوفان، دع ذئباً يأتي ويقلل عدد البشر وبدل ان تفرض الطوفان، أفرض مجاعة و[قلل] مساحة الارض.

والاله «انليل» مهتم بالغضب واعلان الكوراث والدمارات وبالامكان العودة الى المراثي التي عرفها الادب في الطرق القديم وسنجد الكثير من الدمارات الكلية ومنها دمار نفر، بعد ان دنس الملك معبده هناك. ونلاحظ بأن غضب الاله «انليل» ينتهي بالأبادات والموت وهذا ما واجه (أنكيدو) في جلجامش، بينما لم يكن هو المسؤول عن الذي أشار له الاله آنو «لكن انليل الذي لا يأخذ برأي الآخر، أوقع عقوبة الأغتيال على (انكيدو). وفي ديانات الشرق نماذج متقاربة مع الاله «انليل» في قسوته وقوتة واستعداده لاقتراف رعونات لدماربين البشر. النموذج القدسي الذي أشار له رودولف أرتو، يتطلب في أول ما يتطلبه العنف وكلاهما يكمل بعضه البعض ولا يمكن للمقدس أن يحافظ على قداسته بدون عنف واستعداد لأرتكاب الدمارات والتحمس لها. وقداسة مثل التي سندرس تشكلها وارتباطها مع المكان تتطلب توافر عدداً من الشروط الموضوعية، المساعدة – ايضاً – على تبلور هذا المفهوم الديني وتسيّده في الحياة. واشار العالم المعروف (ميرسياالياد) الى ان (رودولف) إعترف مضطراً بخصائص هذا الخبرة المروّعة وغيرالعقلية، فكشف عن شعور الروّع أمام المقدس، والسحر الهائل، والجلال الذي يطلق تفوقاً ساحقاً من القدرة، والى الكشف عن الخشية الدينية أمام السر الذي يشيع فيه تمام إمتلاء الوجود، ويصف (آتو) جميع ضده الخبرات بالألهية، لان ما يستثيرنا هو تجلى جانب من القدرة الالهية. والالهي يتميز بأنه مختلف جذرياً وكلياً: لا يشبه شيئاً بشرياً او كونياً، وبأزائة يشعر الإنسان إنه لا شيء، وانه ليس الاّ مخلوقاً، او انه «تراب ورماد» كما قال ابراهيم لربه.

«فقال الرب ان وجدت في سدوم خمسين بآّراً في المدينة فأني أصفح عن المكان كله من أجلهم.

فأجاب إبراهيم وقال إني قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد»

(التكوين ١٨ : ٢٦ – ٢٨)

ويتجلّى القدسي دائما – كما قال ميرسياالياد– حقيقة من صعيد آخر غير صعيد

الحقائق «الطبيعة» قد تعبر عنه اللغة تعبيراً ساذجاً، بأنه الهول أو الروع أو الجلال أو السر الأسر، وهذه كلها عبارات مستعارة من المجال الطبيعي الذي يجول فيه الإنسان او الحياة الروحية الدنيوية التي يحياها. لكن هذه اللغة الاصطلاحية التشبيهية ترجع بالضبط الى عجز البشر عن التعبير عن «المختلف كلياً» تستحيل اللغة الى إيحاء بكل ما يتجاوز خبرة الانسان للطبيعة متوسلة بأصطلاحات مستفيدة من هذه الخبرة ذاتها. ولقد أهتم (ميرسياالياد)، إهتماماً إستثنائياً بقراءة (آوتو) عن القدسي من خلال المنظور غير العقلي، وحاول تقديم قراءة مختلفة، معايرة وخارجة عن المنظور غير العقلي، لتدخل من خلال العناصر العقلية، منطلقاً بذلك من مفهوم خاص به عن وجود علاقة واضحة بين العقلي وغير العقلي في صياغة الدين. كما انه قال بأن الذي يعنينا هو القدسي في كليته، عقلي وغير عقلي ولعل (ميرسياالياد) أول باحث في مجال الديانات البرّية والشمولية والتاريجية، أعطى للقدسي مفهوماً مركزاً ولايمكن مغادرته الى الابد. فأعتبر القدسي مضاد للارضي، اي ان القدسي سماوي والمدنى دنيوي/ أرض/ ودرس هذا كله في كتابه المهم «المقدس والدنيوي»

يقيم الانسان علاقة روحية مع المقدس من خلال مجموعة من العقائد الدينية والطقوس والشعائر، هذه الممارسات كلها هي التي تجسد وعي وإيمان الانسان بمقدسه السماوي والذي ييتبدى له وللآخرين، من خلال الإختلاف لأن القدسي بعناصره الخاصة يقاوم ما هو أرضي ويطغي عليه ويهمشه من خلال التجلّيات «والظهور المقدس» لهذا يبدو للدارس، والمهتم بالديانات والخطابات الأسطورية البّرية والديانات التاريخية، من ان الدين مهما كان قديماً بتاريخيته أو حديثاً، يمثل مجموعة من العلاقات التبادلية، المتراكمة فوق بعضها البعض، وهي في الحقيقة تمثل المتراكم من الظهورات الالهية« ومن تجليات الحقائق القدسية، ليس ثمة إنقطاع لأستمرارية الظهورات الالهية بدءاً من اكثرها إبتدائية كتجلّي القدس في شيء ما كما قال (الياد-) حجراً أو شجر، وإنتهاءا بالتجلّي الأعلى الذي يمثل لدي المسيحي تجلى الله في يسوع المسيح، فهو دائما نفس العقل الخفي، تجلّى شيء «مختلف تماماً» أي حقيقة لا تنتسب الى عالمنا، في أشياء تشكل جزءاً لا يتجزأ من عالمنا «الطبيعي» «الدنيوي»

كان الانسان البّري في المجتمعات القديمة يمارس علاقته الحياتية والأسرية ويعززها بالتواتر وبالإشتراك مع الأخرين الذين في محيطه، وبهذا التواتر تأسيس للقدسية وتركز لها،

* ميرسياالياد/ المقدس والدنيوي/ ت/ نهاد وخياطة/ للعربي للطباعة والنشر/ دمشق ١٩٨٧/ ص ١٥

وخلق مجموعة كبيرة من الشواهد المقدسة؟ التي تدخل ضمن السياق الديني، التداولي حتى ان تلك المقدسات تأخذ صفة القدرة كما قال (الياد) وبالتالي، تساوي الحقيقة بأمتياز . فالقدسي مشبع بالكائن. والقدرة المقدسة تعني في نفس الوقت الحقيقة والديمومة والفعالية. ويترجم التضاد بين القدسي والدنيوي غالباً بالتضاد بين الحقيقي وغير الحقيقي او الزائف .على اننا يجب ألا ننتظر ان نجد في اللغات القديمة هذه الاصطلاحات الفلسفية، كا لحقيقي وغير الحقيقي. لكن ان كان الاصطلاح لا وجود له، فأن الشيء الذي يدل عليه موجود، لذلك كان من الطبيعي ان يتوق الإنسان الديني توقاً عميقاً الى الكينونة، ويشارك في الحقيقة ويتشبع بالقدرة.

يؤكد (ميرسياالياد) وجود فاصل أو فجوة واسعة جداً بين المقدسي والأرضي ، بين الديني والمدني. ومن أين تتشكل الخبرة الذاتية بملاحظة تلك الفجوة؟ لأن الفاصل العازل بين الأثنين حساس جداً. ويحصل تطور ملحوظ على المكان القدسي والتشييد الطقسي للمسكن البشري* على تنوعات الخبرة الدينية للزمان.

وعلاقات الانسان الديني بالطبيعة وعالم الأدوات او الوسائل، وتقديس حياة الإنسان نفسها والقدسية التي قد يحمّلها وظائفة الحيوية [غذاء/جنس/ عمل] حسبنا ان نذكر ان المدينة أو البيت والطبيعة، والأدوات أو العمل بحد ذاته – كل ذلك قد أصبح بالنسبة للإنسان الحديث وغير الديني من أجل إقامة الحياة.

المزاولة والعمل وطبيعة المرحلة الحضارية السائدة، هي التي تحدد وتشخص نوعية ومستوى القدسي. فالعلاقة أمر، مهم وضروري في وجود، المقدس والعلاقة السائدة واياه. علاقة تأخذ مجموعة من الصفات الدينية الجديدة، التي وضعها الانسان وضعاً إعتباطياً، لكنها بالتالي تتحول الى أنماط ذات قداسة وتصبح جزءاً من الموروث الروحي الخاص بأي جماعة من الجماعات. لذا أشار العالم «سان- كلود» الى ان مجتمعاً من قبل الزراعة، إختص بالقنّ، لا يمكنه ان يستشعر قدسية الأرض/ الأم بنفس الطريقة ولا بنفس الشدة. ان الفرق في الخبرة ينتج عن فروق في الاقتصاد والثقافة والتنظيم الاجتماعي- بكلمة واحدة، عن التاريخ ومع ذلك نجد بين الصيادين الرحّل والفلاحين المقيمين وجوه شبه في السلوك هي في نظرنا أهم الفروقات بما يقاس. فالأولون كا لاخيرين يعيشون في كوّن مقدس، يشتركون في قدسية كونية تتجلى في عالم الحيوان، كما تتجلى في عالم النبات.

قلنا قبل قليل بأن الاله، يتجلّى في مكان أو عدّة أماكن وللتجّلي هذا قدرة إضفاء القداسة عليه. ولم يكن المكان عند الانسان سابقاً ولان متماثلاً بصفاته. فهناك وجود للمكان مقدس ومكان عادي، لاصفة فيه غير يوميته، لذا يكون خالياً من الطقوس والشعائر.

لذا قال الرب لموسى:

«لا تقترب الى ههنا. إخلع حذاءك من رجليك.لأن الموضع الذي انت واقف عليه أرض مقدسة»

خروج ٣: ٥

هذا المكان الذي ورد في النص، منحه الرب اليهودي قداسته وهو الذي إختاره وليس (موسى). ولكن ممارسة موسى لهذا المعتقد ضاعف من قداسة المكان وركزه كلياً. لذا فأن مزاولة الناس لهكذا معتقد، جعل من الخفاء مداراً دينياً وشعيرة دينية، أمتدت الى ديانات متأخرة. ثمة أمكنة قدسية* وبالتالي قوية، هامة وأمكنة أخرى لاتتصف بالقدسية، وبالتالي لا بنية لها ولا تماسك – بكلمة واحدة، عديمة الشكل، ثم، عند الانسان الديني، يترجم هذا اللاتجانس المكاني، إختيار التضاد بين المكان القدسي، الذي وحده الحقيقي، الموجودة حقاً، وبين سائر الأمكنة الاخرى التي تشكل الإمتداد غير المتشكل الذي يحيط به.

عرفنا في ما ملحمة الخليفة البابلية، بأن العماء «تيامات» هو السائد، ولا يمكن بهكذا نظام، إنتاج عالم جديد، ومختلف الا بعد ان حصلت القطيعة والصراع الدموي الذي قاده الإله (مردوخ) وبدعم ومناصرة من كل الألهة، واخيراً إنتصر عليها وقتلها ومن جسدها إبتدأ الخلق وخلص الحياة والعالم من شيوع وسيادة العماء الكوني. وبعد ما حصل، أمكن الأنسان ان يؤسس مركزه، ومكانه في وسط العالم أي في المركز الكوني.

ان اكتشاف* أو تعيين، نقطة ثابتة، أي مركز لهو فعل يضارع خلق العالم. والأمثلة التي نوردها بعد قليل- وهي أمثلة ولا أجلى منها – تبني لنا ما للتوجه الطقسي في تشييد المكان المقدس من قيمة كوسموغونية [ولادة العالم] في المقابل المكان في الخبرة الدنيوية متجانس ومحايد: لا انكسار يفرقة نوعياً من مختلف أجزاء كتلتة. فالمكان الهندسي قابل لأن يتجزأ ويتحدد من أي جهة كانت، لكنه لا يعطي تميزاً نوعياً ولا توجهاً إنطلاقاً من بنيته الخاصة. بالبداهة، يجب الا نخلط مفهوم المكان الهندسي المتجانس المحايد بـ «خبرة» المكان «الدنيوي»

التي تقف علي نقيض خبرة المكان المقدس. وهي وحدها الخبرة التي تهمنا.

أن ممارسة الطقوس والشعائر تضفي قداسة على المكان، وتظل هذه القداسة محكومة بالتواتر وتزداد أو تضمحل، لأن القدسي مرتبط بالطقس ومقترن بالشعائر، وكلما ظلت الطقوس والشعائر مزاولة، ظل القدسي متحكماً وطاغياً وحتى الأبد، لأن الاسطورة** قد تجاوزها المنطق والتطور الذهني، والطاريء قد يصبح منسياً، بينما الطقس يستمر بحكم الإستمرارية الثقافية والتوارث الذهني، وقد يبقى في ذات النهج وذات الوظيفة في نفوس من يتعاملون به. ونجد مثال هذه الطقوس في حركة الحج الى الاماكن المقدسة، وهي التي تمارسها الشعوب منذ التاريخ وفي كل أنحاء العالم، وفي أوقات محدد لها كل سنة. ،من السذاجة أن نسأل عن اساس هذه التقاليد وعن تاريخ نشأتها أو وقائع إسطوريتها حتى تكون أسطورية. إذا فعل الواقع هو يحفظها وينمي قدسيتّها. والبحث الأفضل فيها يكون بأستقصاء الدافع اذا ما حرم منها ومماثليها.

ان المقدس الذي يغلق المكان، يمنحه الأله او الرب للمكان ومثلما حصل مع (موسى) في سفر الخروج وقبلاً، كانت الطقوس الملكية والكهنوتية هي التي أضفت قدسيته على المكان الالهي فالمعبد/ الزقورة/ البرج، هي أماكن الإله الذي يقيم فيها إقامة رمزية، وينوب عنه الملك/ النظام السياسي والديني، الملك/ النظام، هو الذي يعطي للمكان أيضاً - لما له من عناصر إلهية أو دينية - بعض قدسيته. كذا لا يمكن للملك مزاولة طقوسه وعقائد بعيداً عن المكان الآلهي.

قال فريزر: كان الملك يذهب الى المعبد، فيستقبله الكاهن الأكبر وينزع عنه شعائر الملكية والصولجان ويجرده من سلاحه، ثم يصفعه ويجره من أذنه الى حضرة الإله ويجبره على الأنحناء الى الارض. ثم الأعتراف بما فعل، وتجديد العهد بأخلاص للدولة والشعب والإله. فينال بركة الإله اذا كان يستحقها عن لسان الكاهن، ثم يعود، وقبل أن يستلم شعائر السلطة يصفعه الكاهن مجدداً، فأذا دمعت عيناه فذلك يعني ان الإله رضي عنه وقبل بأستمراره في السلطة، وإلاّ فأن الأعداء سيثورون عليه ويسقطونه عن السلطة.

إن الخصائص القدسية التي يتمع بها الملك اوالبطل الأسطوري هي التي تتجلّى بأشكال

---

* مارسيالياد/ المقدس والدنيوي/ سبق ذكره/ ص ٢٣

عديدة عبر المكان الديني، أو المكان الجغرافي/ المدينة مثلاً. ولهذا لا يمكن الإعتراض على أعمال وافعال البطل لأنه حاز على منظومة مقدسة. ومثال ذلك الملك جلجامش الذي جعله الإله (انليل) ملكاً على (أوروك) ورفع رأسه عالياً فوق رؤوس الناس، وهو الذي ناصر الألة شمس، وخصه الأله «أدد» بالقوة والشجاعة، هو كلها، هي التي منحت جلجامش قداسة، ولذا كان يمارس عقائد دينية – الزواج المقدس وحق الليلة الاولى – نائباً عن الملك. لذا التزم سكان (أوروك) الصمت لفترة طويلة. لأن الملك قدسي ومحمي من قبل الآلهة. وهو بأفعاله هذه، أكد على دور العنف في تأمين الجو للمقدس/ السماوي.

ومن أجل ان تتسع دائرة القدسي. كانت طقوس الموت تقام في المكان، لأن الموت قربان إرتضته الألهة دون المجموع. لذلك ليس غريباً ان تكون قواعد إختيار الميت هي نفس قواعد إختيار القربان. الميت بديل قبلته الآلهة لأنه مات من المجموع العشيري، وبموته تتحرر المجموعة ويعزز النظام الثقافي الذي أرسى دعائمة الأوائل من الالهة والأجداد المقدسين: بهذا يصبح الموت ينبوعاً لحياة جديدة.

هذا الغياب، وألعنف الديني، تتضاءل خسارتنا به بعدما تكون طقوسه وسط المقدس/ الإلهي، لأن الذي حصل بأمر من الرب وهو الذي خلقه وأماته والدخول الى المقدس واقامة االشعائر الجنائزية لمدة ثلاثة أيام هو كما قال «ربيعو» إعلان عن قبول العنف الذي صرح عنه الآلهة– وهو – الموت – غياب، سيعطيهاالمقدس حضوراً لفترة قدتقصر من خلال العقائد والشعائر التي زاولها أهل الميت.

إن الأتصال والحوار مع الرب، أمر ممكن جداً.فقد عرفت الديانات القديمة في الشرق هذا الحوار التبادلي الرمزي عبر الطقوس اليومية والشعائر الفردية أو الجمعية، المقامة في المكان المقدس، المعبد، أوالفضاء الخارجي غير المسبح لأن القدسية لايمنحها السياج، وانما قوة الكلمة الألهية، الكلمة التي هي طاقة خلاّقة وقوة سحرية. اى ان المكان وبعلاقته مع العقائد والمزاولات اليوميه، يجوز على صفته التي نحن بصدد دراستها وملاحقتها، للكشف

---

* ميرسيادالياد/ المقدس والدنيوي/ سبق ذكره ص ٢٤
* د. يوسف حوراني/ في الفكر اللاسطوري البابلي/ مجلة الفكر العربي/ ص ٧٣/ ١٩٩٣
* ميرسياالياد/ المقدس والدنيوي/ سبق ذكره ص ٢٨
* ميرسياالياد/ المقدس والدنيوي/ سبق ذكره/ ص٢٨
* ميرسياالياد/ المقدس والدنيوي/ سبق ذكره/ ص ٣٠

عن جنيولوجيا هذه المنظومة المقدسة والتي لا يمكن تحديد مرحلتها الزمنية.

كل مكان* يتجلى عن تفجّر للقدسي، نتج عنه إنفصال إقليم من محيطه الكوني فيجعله مختلفاً عنه نوعياً. عندما رأى يعقوب في المنام، وهو في ماران، السلّم الذي يؤدي الى السماء يصعد عليه الملائكة وينزلون، وسمع الرب في القمة يقول:

«إنا الرب إله ابراهيم، استيقظ وقد إمتلأ قلبه رعباً، فصاح: «ما أرهب هذا المكان! ما هذا البيت إلاّ الله. وهذا باب السماء! وبكّر يعقوب في الصباح واخذ الحجر الذى وضعه تحت رأسه وأقامة عموداً وصب زيتاً على رأسه ودعا اسم ذلك المكان بيت «أيل» .

سفر التكوين ١٢:٢٨-١٩

ان الرمزية التي تضمنها تعبير«باب السماء» غنية ومعقدة*: الظهور الألهي يقدس مكاناً بمجرد جعله مفتوحاً الى الأعلى. نقطة مقارنة يتم الإنتقال منها من نمط وجود الى نمط اخر و مقدسات أبواب الآلهة، أو اماكن للعبور بني السماء والارض. لكي يتقدس مكان، لايحتاج الأمر في اغلب الأحوال الى تجلّ إلهي أو ظهور قدسي بالمعنى الدقيق للكلمة: تكفي أية أو علامة من اى نوع حتى تدل على قدسيته.

لا يكون الديني الاّ في المكان القدسي. ولا يمارس الا ضمن عناصره المقدسة، المراقبة إلهياً وبالعلاقة معه – الرب تكون الممارسة ناشطة وقوية، وتضفي هذه الممارسة صفة القداسة على المكان/ المعبد/ البرج/ الجبل/ التل/ ولا يمكن للإنسان ممارسة عقائده خارج نطاق المكان القدسي، لان القدسي** هو الحقيقي او الواقعي بأمتيان، وهو في الوقت نفسه القدرة والفعالية وينبوع الخصوبة. ان توق الإنسان الديني الى العيش «في المقدس» يضاهي في الحقيقة توقه الى إقامة نفسه في الواقع الموضوعي، وألا يدعم نفسه مشلولاً في نسبية مالا نهاية له من الإختيارات الذاتية الصدفة، بل ان يعيش في عالم واقعي فعّال، لافي وهم. ان هذا الملك يتحقق على جميع أصعدة وجوده، لكنه يتضح خصوصاً في توق الانسان الديني الى الحركة في عالم مقدس، اي في مكان مقدس.

قال (الياد): نحن هنا بأزاء سلسة من المفاهيم الدينية والصور «الكوسمولوجية» مترابطة فيما بينها يفصلها «نظام» يمكننا ان ندعوه بـ «نظام العالم» لدى المجتمعات التقليدية:

---

*ميرسياليلد/ المقدس والدنيوي/ سبق ذكره ص ٤٠

*ميرسياالیلد/ المقدس والدنيوي/ سبق ذكره ص ٤١

١- ان المكان المقدس يشكل انقطاعاً في تجانسية الفراغ،

٢- يرمز الى هذا الإنقطاع بـ «نافذة» أو «كوة» يمكن بواسطتها العبور من أقليم الى آخر من السماء الى الأرض وبالعكس، أو من الأرض الى العالم الأسفل»

٣- يعبر عن الإتصال بالسماء، من غير تحديد، بجملة من الصور ترجع كلها الى فكرة محور العالم، كأن تكون عموداً أو سلماً «كما هو سلّم يعقوب» أو جبلاً أو شجرة...إلخ

٤- حول هذا المحور الكوني ينتشر«العالم» [عالمنا] وبالتالي يكون موقع المحور «في الوسط» في سرّة الارض لأنه مركز العالم.

ثمة عدد كبير من العقائد والأساطير والطقوس المختلفة إستمدت مقوماتها من هذا النظام العالمي التقليدي ليس هنا مجال ذكرها بإمكاننا إيراد بضعة أمثلة نتخيرها من مختلف الحضارات بحيث تتيح لنا فهم الدور الذي يلعبه المكان المقدس في حياة المجتمعات التقليدية.

بصرف النظر عن المظهر الخاص الذي قد يتخذه: مكان مقدس، بيت عبادة، مدينة، «عالم» هذا، واننا لنجد رمزية العالم في كل مكان، وليس كمركز ما يوضح لنا، في معظم الحالات، الملك التقليدي حيال «المكان الذي يعاش فيه»



شكل ٥ مائدة المسيح، على شاطي بحر الجليل وقد أطلق هذا الاسم على هذا المكان في القرن الثاني عشر الميلادي تذكاراً للمكان الذي ظهر فيه المسيح بعد القيامة.

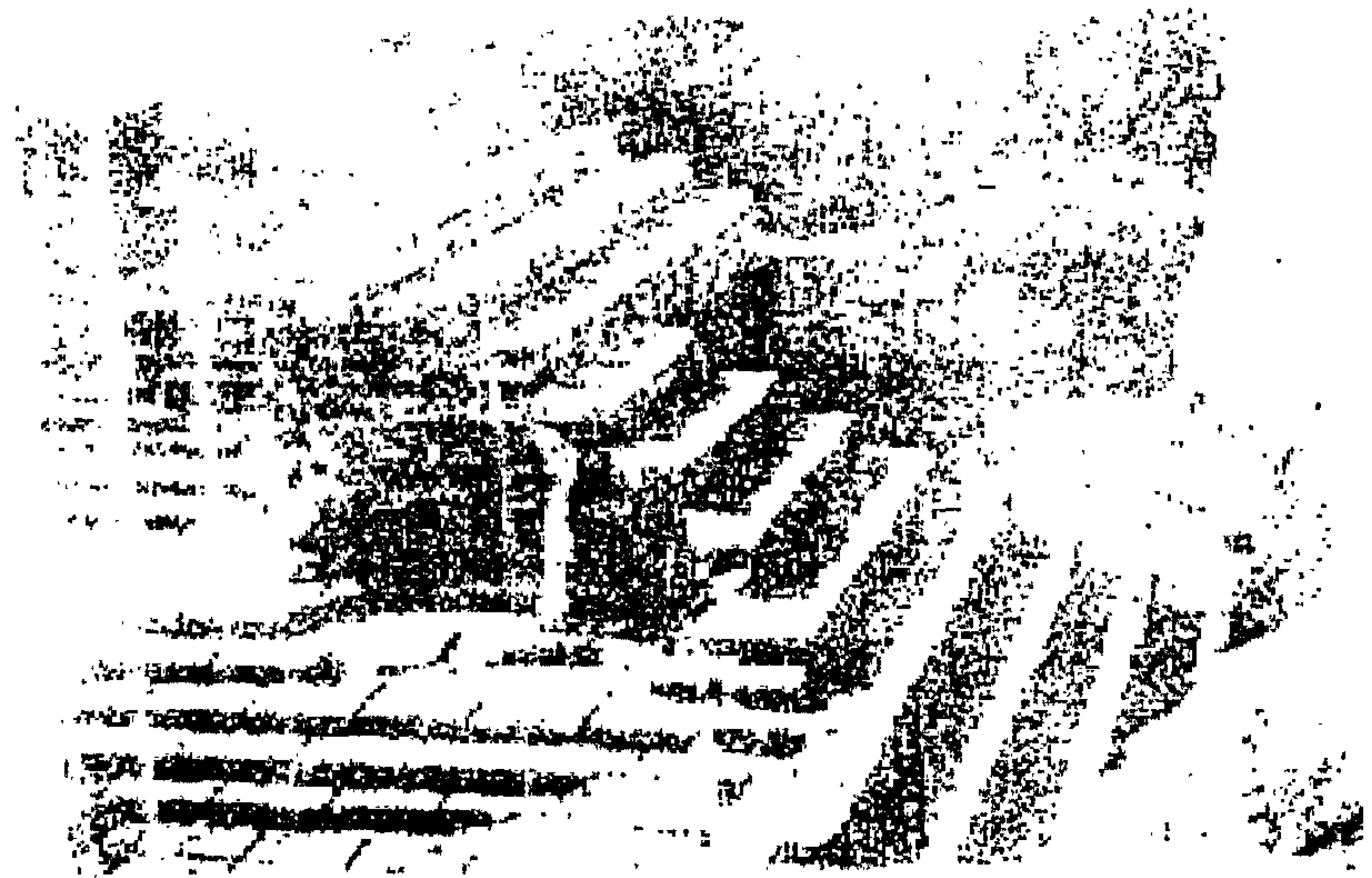
لنبدأ بمثال يبني لنا رأساً ما تتصف به هذه الرمزية«الجبل الكوني» ورأينا ان الجبل يندرج في جملة الصور التي تعبر عن الصلة بين السماء والارض. واننا لنجد كثيراً من الثقافات تحكي لنا عن جبال، إسطورية أو واقعية تقع في مركز العالم جبل ميرو في الهند، وهرابر زايتي في ايران، وجبل البلاد، وهو جبل إسطوري في بلاد الرافدين، وجبل جريزيم في فلسطين. وكان يسمى ايضاً «سرة الأرض» وبما ان الجبل المقدس، هو محور العالم الذي يصل الأرض بالسماء، فهو يلامس السماء وتتعين فيه أعلى نقطة في العالم، ينتج عن ذلك ان البلاد التي تحيط به، وهي البلاد التي تشكل «عالمنا» هي أعلى البلاد، ومثلما أكد- (الياد) وهذا ما يعلنه المأثور العبري: فلسطين، بما هي أعلى البلاد لم يغمرها الطوفان، ونقل المأثور الأسلامي ان أعلى مكان على وجه الارض هو الكعبة، لأن نجم القطب يدل على انها تقع أمام مركز السماء وعند الميسحيين، تقع الجلجلة في ذروة الجبل الكوني.

وتقدم رمزيةالكون أو وسط العالم، تقدم مجموعة من الصور الكوسمولوجية ومعتقدات دينية، نشير فيما يأتي الى أهمها:*

١- المدن المقدسة والحُرُم توجد في مركز العالم.

٢- المعابد نسخ عن الجبل الكوني وتكّون بالتالي «صلة الوصل» بأمتياز بين الارض والسماء.

٣- ان أساسات المعابد تغوص في أعماق الأقاليم الدنيا. حسبنا من ذلك بضعة أمثلة ثم



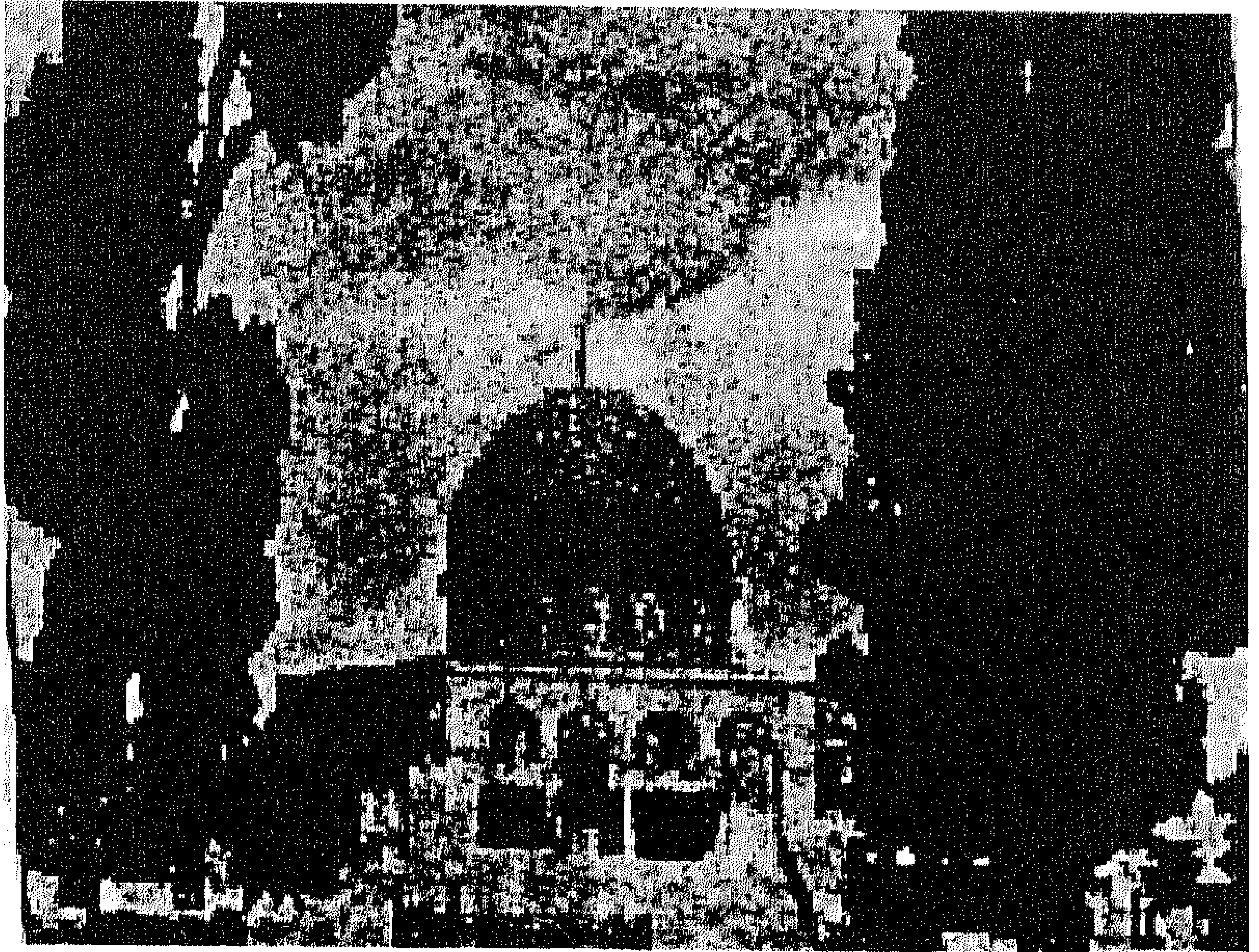
شكل ٦
بقايا الدرج
الكبير لبرج
بابل

نسعى بعد ذلك إلى أن نتمم جميع هذه المظاهر المختلفة التي تعود الى نفس الرمزية.

أما تمثيل المعابد بالجبال الكونية ووظيفتها** من حيث هي «صلة الوصول» بين الارض والسماء، فأن أسماء البروج والمقادس البابلية تشهد لذلك.

فهي تُدعى «جبل البيت» و«بيت جبل جميع الأراضي» و«جبل العواصف» و« صلة الوصل ما بين السماء والأرض» وكانت الزقورة، بالمعنى الدقيق للكلمة، جبلاً كونياً. فالادوار السبعة تمثل السموات السبع الكوكبية، والكاهن إذ يتسلق هذه الأدوار فأنما يصل الى ذروة العالم. وتفسر لنا رمزية مشابهة ضخامة بماء مقيد «برابودوزا» في جاوا)، الذي بُني على هيئة جبل صُنعي. ويساوي الصعود اليه «رحلة وجد» الى مركز العالم. والحاج إذ يبلغ سطحه الأعلى فأنما يحقق تقاطعاً في المستوى،يلج«إقليماً طهوراً» ويسمو عن العالم الدنيوي.

إذن بالإمكان ان نقول، بأن كلية الحياة تقوم وتتشكل في وسط العالم أو مركزه، وبعد ذلك يحقق الاتصال فيما بين المحاور العديدة والموجودة. وأشار (فلافيوسبوسفوس) بصدد رمزية الهيكل ان الباحة تمثل «البحر» أي الأقاليم الدنيا، والحرم المقدس يمثل الارض وقدس الأقداس، وقدّاس يمثل السماء، من ذلك يتضح أن «صورة العالم» وكذا «المركز» يتكرران في قلب العالم المأهول. فلسطين والقدس والهيكل يمثل كل منها، وفي نفس الوقت، صورة ومركز الدنيا.



شكل ٧ من معرض أقامته اليونسكو عن مدينة القدس. والتقطت الصورة من ١٩٠٠- ١٩٢٠

إن مضاعفة «المراكز» وتكرار صورة العالم، على مستويات تتواضع بأطراد، إنما يشكل إحدى العلاقات النوعية على المجتمعات التقليدية.

ثمة نتيجة يبدو لنا إنها تفرض نفسها*: ان انسان المجتمعات قبل الحديثة يتطلع الى أن يحيا أقرب ما يمكن من «مركز العالم» فهو مع علمه أن بلاده تقوم فعلاً في وسط الأراضي. وإن مدينته تكون سُرة العالم، وان المعبد أو القصر بخاصة، هما مركزان حقيقيان للعالم، إلا أنه يتطلع أيضاً الى أن يقوم منزله الخاص به في المركز، وان يكون صورة للعالم، كما سوف نرى، يفترض في المسكن ان توجد فعلاً في مركز العالم، وأن تكون تكراراً لخلق العالم. على صعيد العالم الأصغر، بعبارة أخرى، إن إنسان المجتمعات التقليدية لم يكن في وسعه أن يعيش إلاّ في مكان «منفتح» على الأعلى، حيث إنقطاع المستويات مضمون رمزياً، وحيث الإتصال مع «العالم الآخر» العالم «المفارق» ممكن رمزياً أيضاً. يتضح من هذا ان الحرم القدسي، وهو المركز بإمتياز يصبح في متناوله بما هو في مدينة أو بيته، ولكي يتصل بعالم الآلهة حسبُهُ ان يلج المعبد.

ان الولوج الى المكان القدسي، يعني دخولاً كلياً وسط العالم واستقراراً في المركز الكوني، واقامة علاقة إتصال روحي مباشر مع المقدس/ الآلهي/ المطلق والإنعزال تماماً عن الأرضي/ الدنيوي/ المدني، والخلاص هذا، يمثل تحققاً رمزياً للتوحد مع الأعلى، الذي يمثل سّرة الأرض الصاعدة، نحو السماء لتتغذى من صفاءات التوحد بالعلاقة مع الإله الأكبر أو رب الارباب. لذا فأن العابد يحمل في روحه وداخله – دائماً – علاقة الوّصل، والإتصال بما هو قدسي، حتى يوفر للذات حمايتها وصيانة لها وبكلمة واحدة كما – قال الياد – ان إنسان المجتمعات التقليدية، مهما كانت أبعاد مكانه المألوف له بلادّ ، مدينته، قريته، بيته – يظل يستشعر الحاجة الى ان يوجد دائماً في عالم كلّي ومنظم، في «كوُن» يولد العالم من مركزه، يمتد من نقطة مركزية هي منه «كالسُّرة» أنه هكذا، على ما تقول الريك فيدا:» ١٠، ١٤٩ «يولد العالم وينمو إنطلاقاً من نواة، من نقطة مركزية. الا أن المأثور اليهودي أصرح اذ يقول ان القّدوس خلق العالم كما يخلق الجنين، وكما ينمو الجنين إبتدأ من السُّرة، كذلك بدأ الله خلق العالم إبتداء من السُّرة، ومنها كان إنتشار في جميع الجهات. ومركز العالم هو الأرض المقدسة.

---

*ميرسياليلد/ المقدس وادنيوي/ سبق ذكره ص٤٣

يؤكد- يُوِّما- خلق العالم* إبتداءاً من صهيون. ويقول أحد أحبار اليهود أن صخرة أورشليم تدعي حجر أساس الارض، أي سُرّة الارض، لأنه منها كان إنتشار الأرض كلها، من ناحية ثانية، لأن خلق الإنسان نسخة عن ولادة الكون، كان خلق الإنسان الأول في «سُرّة الارض» مأثور رافديني«في مركز العالم «مأثور إيراني» في الفردوس القائم في «سُرّة العالم» او في اورشليم «مأثور يهودي» «مسيحي» لم يكن من الممكن ان يكون الخلق بخلاف ذلك، بأعتبار ان المركز هو بالضبط المكان الذي يحدث منه إنقطاع في المستوى، حيث يصبح المكان مقدساً، خقيقياً بأمتياز إن الخلق ينطوي على وفرة من الواقع، بعبارة أخرى على تفجر القدسي في العالم.

ان الدفاع عن المكان له عدة أسباب أهمها لأنه مكان مقدس والتعرض للمكان، يعني تجاوزاً على حدوده وتفاصيله الطقوسية لذا فإن المكان من مقدسات الإنسان منذ البدء، وهي محمية بقوة او مجموعة قوى فاعلة، بشرية أو ميتافيزيقية وأي تعرض عليه، يمثل تعرضنا على المقدس والتراث التركمي له والعداء الموجه ضد المكان، هو عداء ضد الرب، أو الإله أو مجموع الألهة، لذا كانت الأحتياجات العسكرية للمدن، تستهدف في أول ما تستهدفه المعابد والاماكن المقدسة، حيث يؤخذ الإله أسيراً الى بلاد المنتصر. وكأن الانتصار لايبتدى بأحتلال المدينة/ الجغرافية وإنما تؤكد دمارات المكان المقدس، المعابد، وسببيا للألهة الصغار وإله المدينة الكبير.

وسبب الدفاع عن المكان المقدس، يعني دفاعاً عن عالم حقيقي مهدد بالعماء -كما قال الياد- كان عالمنا قد تأسس محاكاة للعمل النموذجي الذي قام به الآلهة، أي خلق الكون، كان الاعداء المهاجمون بمثابة أعداء للألهة، الشياطين وخصوصاً كبرهم

التبني البدئي الذي قهرته الآلهة في بدايات الزمان. ولذلك كان الهجوم على عالمنا هو إنتقام التبني الميطيقي الذي يتمرد على الالهة.

ومن المحتمل جداً ان يكون الدفاع عن الأماكن المأهولة * وعن المدن والحواضر هو في أصل الوقاية او التّحصن من السحر، وقد إتخذ هذا النوع من الدفاع شكل الخنادق والمتاهات والامور وأعدت هذه الاستحكامات لكي تمنع غزو الشياطين وأرواح الموتى اكثر من منع الهجوم الذي تقوم به كائنات بشرية.

ويقود هذا للاشارة الدقيقة، حول أهمية المسكن البشري ومغزى وجوده داخل أسوار

---

*ميرسيالياد/ المقدس والدنيوي/ سبق ذكره ص ٤٤

وخنادق. فالبيت مقدس مثل القرية، أو المدينة، والمقدس كلي وجزئي، أي ان بعضه مقدس هو الآخر وتتأكد قدسيته من خلال رموز مرتبطة به ومقترنة وأياه، كذلك من خلال عدد من الممارسات الشعائرية والطقوس الدينية الكثيرة والمرتبطة بالحياة وفصولها والدورات الطبيعية المرتبطة بالولادة والموت، الأنبعات، التجدد.

لذا كان بناء قرية أو حتى بيت قراراً بالغ الخطورة، لأن **وجود الانسان نفسه مرتبط به، لانه يتعلق. بخلق عالم خاص به والأضطلاع بمسؤولية المحافظة عليه وتجديده والإنسان لا يبدّل موطنه الا مكرهاً، لانه ليس من السهل عليه ان يتخلى عن «عالمه» ليس المسكن شيئاً ولا «أمكنة للسكن» بل هو العالم الذي يبنيه الانسان محاكاة للخلق النموذجي الذي قام به الألهة، (الكوسمو غونياً).كل مبني وكل تدشين لمسكن جديد يساوي بنوع ما بدأوا«بدءاً جديداً» وحياة جديدة ولك بدء انما يكرر البدء الأولى الذي رأى فية العالم النور أول مرة

ولهذه الأهمية الخاصة التي يمتاز بها المكان الجديد توجب تقديم الضحية/ الدم للمكان، حتى يكون مهيئاً لأستقبال/ولادة علاقات ونشوء مؤسسة إجتماعية جديدة، إنه إنبعاث بالمفهوم الأسطوري وتشكل جديد، وحتماً سيكون مختلفاً عن سبق. وهذا النوع من الولادة الكونية يتجمع ما لاحصر له من صور قرابين التعمد* التي ما هي في جملتها، غير محاكاة رمزية في الغالب للذبيحة البدئية التي منها كانت ولادة العالم. ثم إنه انطلاقاً من نموذج ثقافي معين تفسرلنا الميطيقيا الكوسموغونية خلق العالم بواسطة قتل عملاق.

ويمثل المسكن –رمزياً– وسطاً للعالم مركزاً له، وصورة كلية، لذا إقتضى أن يكون موقعه – البيت– في المركز وكثرة مراكز العالم. بل لانهائيتها، لا تشكل صعوبة أمام الفكر وانما بمكان وجودي مقدس لا علاقة له بالمكان الهندسي وأنما بمكان وجودي مقدس يبرز بنية أخرى مغايرة كل المغايرة، مكان قابل لما لا حصر له من الانقطاعات، وبالتالي من الاتصالات مع المتعالي.

كان للمكان دور المهيمن في الحضارات الشرقية الكبرى لأنه لا وجود للدين بدون مكان تقام فيه الطقوس وتقدم الصلوات للإله الذي أختار المكان موطناً له. ففي هذه الحضارات، توجدُ أماكن خاصة بالآلهة وهي أماكن قدسية، إنها المعابد وعرفتها الحضّارة الطرفية القديمة/ المصرية/الهندية/ الصينية، وأضيف الى المعبد قيمة جديدة وهامة* لم يعد صورة للعالم وحسب، وانما نسخة أرضية من نموذج سماوي ايضاً. وقد ورثت اليهودية هذا المفهوم

الشـرقي القـديم عن المعبـد من حـيث هو نسخـة من نموذج بدئي سـمـاوي. وربما كـانت هذه الفكرة من التفسيرات الأخيرة التي أعطاها الإنسان الديني لخبرته الأولية للمكان المقدس. في مقابل المكان الدنيوي.

ووجود المكان المقدس/ المعبد. في حدود مرسومة ومحددة يضفي قداسة على المساحة الكلية للمكان، إنه يقدس المكان كله وبهذا يكون له فعل أشمل وأوسع. ولأن المعبد مقدس فأنه صورة للعالم بما هو من عالم الألهية. لكن بنية المعبد الكوسمولوجية تفضي بنا الى إعطائه قيمة دينية جديدة: المكان المقدس بأمتياز، بيت الآلهة، المعبد، يفتأ بقدس العالم، لأنه يمثله ويحتويه في الوقت نفسه، فالعالم، مهما تنجّس، ما ينفك يتطهر بفضل قدسية المحارم. أنطلاقاً من هذا الفرق الانطولوجي بين الكون وهويته المقدسة وهي المعبد، تظهر فكرة أخرى. إن قدسية المعبد قائمة في كنف كل فساد أرضي، وماذلك

أمرتني ان أبني الهيكل بأسمك القّدوس ومذبحاً في المدينة حيث تسكن على، مثال الخيمة المقدسة التى أعددتها منذ البدء

الحكمة ٩:٨.

وخلق الله أورشليم السماوية في نفس الوقت الذي خلق فيه الفردوس أي في الأزل. ولم تكن أورشليم الاّ نسخة تقريبية من نموذجها الأعلى. قد يدنسها الإنسان لكن نموذجها لا يتطرق اليه فساد، بما هو غير منظور في الزمان* «البناء الذي يوجد حالياً في وسطكم ليس هو الذي تجلّى فيّ، انما هو الذي كان معّدا منذ الزمن الذي عزفت فيه على خلق الفردوس ، والذي اطلقت آدم عليه قبل خطيئته»

رويباروك٢ , ٤، :٣-٧

تعتبر الباسيلقيا المسيحية،ومن بعدها الكاتدرائية** إستمراراً لجميع هذة الرمزيات وتوسعاً فيها. فالكنيسة، من جهة تحاكي أورشليم السماوية، وقد كانت تعتبر كذلك من أقدم الازمنة المسيحية، والكنيسة من جهة أخرى، تعيد خلق الفردوس أو العالم السماوي. لكن البنية الكوسمولوجية للمبنى المقدّس لم تزل قائمة في وعي المسيحية«الاقسام الأربعة» في

---

*ميرسياالياد/ المقدس والدنيوي/ سبق ذكره ص٤٨

*ميرسياالياد/ المقدس والدنيوي/ سبق ذكرة ص٥٥

داخل الكنيسة ترمز الى الجهات الأصلية الاربع والمذبح الذي يقع الى الشرق يرمز الى الفردوس والباب العلوي الذي يفضي الى المقدس، كان يسمى أيضاً باب الفردوس وفي أسبوع الفصح، يظل هذا الباب مفتوحاً طوال مدة خدمة القدّاس.

الاّ أن تعميمه الهندسي هو من عمل الآلهة وبالتالي لأن موقعه قريب من الآلهة، في السماء، فنماذج المعابد، بما هي متعالية، تتمتع بوجود روحي، سماوي، لايتطرق اليه فساد. وانما بفضل الآلهة يصل الانسان الى رؤية هذه النماذج بصورة خاطفة، يسعى بعدها الى محاكاتها على الأرض...

والإله يهوه الذي أوعز لبني اسرائيل نموذجه المكاني/ القدسي فوق الأرض. على الرغم من مكان يهوه ظل مرتحلا ومتنقلا وسط سيناء لفترة طويلة جداً. واختاريهوه نموذج هيكلة مماثلا نموذج سماوي.

«يصنعون لي مقدساً لأسكن في وسطهم بحسب جميع ما آنا أريك من مثال المسكن ومثال جميع آنيته هكذا تصنعون

خروج ٢٥:٨-٩

«وانظر فأصنعها على مثالها الذي أظهر لك في الجبل

خروج ٢٥:٤٠

وعندما أعطى داود إبنه سليمان رسم مباني المعبد والمقْدس وجميع الآنية اكدله قائلاً:

قد أفهمني الرب كل ذلك بالكتابة بيده عليّ أي كل أشكال المثال.

أخبار الايام الاولى ٢٨:١٩

أذن هو قد رأى النموذج السماوي الذي خلفه يهوه في بدء الزمان - كما قال الياد- وهذا ما أعلنه سليمان:

واننا لنجد تفسير هذه العادة في قانون الفصح :يقوم المسيح من القبر ويفتح لنا أبواب الفردوس. أما الغرب فهو أقليم ظلمات الحزن، أقليم الموت، مقام الأموات الأبوي الذي ينظرون

---

*ميرسياالبلد/ المقدس والدنيوي/سبق ذكره ض٤٨

*ميرسياالياد/المقدسوالدنيوى/ سبق ذكره ص ٥٥

*ميرسياالياد/المقدسوالدنيوى/ سبق ذكره ص ٥٧

أنبعاث الاجساد والدينونة الأخيرة.أماوسط المبني فهو الارض.

ان سرة الكون ووسط العالم . تبدي في قداسة المكان وتتجلى في وعبر المكان حيث يشير العالم الى الوجود. لكن تدفق القدسي لا يقتصر- كما أكد على ذلك ميرسياالياد – على تعيين نقطة ثابتة في وسط سيولة مالاشكل له من المكان الدنيوي، أو «مركز» في العماء وحسب ، وانما يحدث إنقطاعاً في المستوى ، ويعقد صلة فيما بين المستويات الكونية «الارض» والسماء» ويتيح العبور على صعيد إنطولوجي، من نمط من الوجود الى آخر، وأن الإنقطاع في تنافر المكان الدنيوي لهو الذي يخلق «المركز» ويمكن من الاتصال بـ «المتعالي» ويؤسس «العالم» ويتيح التوجه. تبعاً لذلك، إن تجلّي القدس في المكان له مكافئة الكوسمولوجي: كل تجلٍّ للقدسي في المكان او كل تطويب لمكان يساوي «ولادة كونية» كوسموغونيا. ولعل النتيجة الاولى هي الآتية*

العالم يمكن فهمه، بما هو عالم أو كوّن بمقدار ما يتكشف عن عالم مقدس. وكل عالم فانما هو من عمل الآلهة، لأن الآلهة خلقته خلقاً مباشراً، طوّية الانسان و«كوّنه» بتحيين فعل الخلق النموذجي طقساً، بعبارة أخرى الانسان الديني لا يستطيع العيش إلا في عالم مقدس، لان مثل هذا العالم فقط هو الذي يشترك في الوجود. يوجد حقاً. هذه الضرورة الدينية تعبر عن ظمأ أنطولوجي لايُروى.

الإنسان الديني متعطش الى الوجود. وأن رهبته من العماء الذي يحيط بعالمه المأهول، تتفق مع رهبته في العدم. والمكان المجهول الذي يمتد الى ماوراء عالمه. المكان الذي لم يتخذ بعد صفة الكون، بما هو مكان غير مطوّب، مجرد مساحة لا تشكل لها ولم تعيّن وجهة لها بعد، لم تزل للأبنية ظاهرة – هذا المكان الدنيوي هو العدم بالنسبة للإنسان الديني فإذا ضل فيه، عن مغامرة فاشلة، أحس فراغاً في قوامه «الوجودي» كما لو انه أنحل في العماء، وآل الى الموت.

هذا الظمأ* الإنطولوجي يتجلّى في أشكال عديدة وأظهرها ما كان خاصاً بالمكان المقدس. أنه إرادة الإنسان الديني ان يقيم في قلب الحقيقي، في مركز العالم من حيث بدأ الكون بالوجود والأمتداد نحو الآفاق الأربعة، وحيث توجد إمكانية الإتصال مع الآلهة، وحيث يوجد أقرب مكان الى الآلهة. لقد مر قبلاً إن رمزية مركز العالم تمنح الشكل لا للبلاد والمدن والمعابد

*ميرسياالياد/ سبق ذكره ص ٥٧

والقصور فحسب، وإنما أيضاً للمساكن البشرية حتى اكثرها تواضعاً كخيمة الصّياد الجوال....بإختصار كل انسان ديني يقيم في مركز العالم وفي مصدر الحقيقة المطلعة نفسها في الوقت نفسه، قريباً من الكوة التي تضمن له الاتصال مع الالهة لكن لما كانت إقامة الانسان الديني في ناصية ما، وسكناه في مكان ما، ما هي الاتكرار لولادة الكون، وبالتالي محاكاة لعمل الألهة.

كان كل قرار وجودي* ينطوي على الإقامة في المكان.

قراراً دينياً وهو اذ يضطلع بمسؤولية «خلق» العالم الذي اختار أن يسكنه لا يكون العماء فحسب، وانما يقدس عالمه الصغير أيضاً اذ يجعله مماثلاً لعالم الآلهة.

إن عند الإنسان الديني حنيناً عميقاً لأن يسكن في «عالم ألهي» وهو العالم الذي صور فيما بعد في المعابد والمحارم المقدسة.

إن هذا الحنين الديني يعبّر عن توق الإنسان الى حياة في كون طاهر ومقدس، كالذي كان في البدء عندما خرج من يدي الخالق.

إن اختيار الإنسان الديني للزمن المقدس هو ما سوف يتيح له ان يستعد دورياً خلق الكون، الذي كان في البدء، في لحظة الخلق ميطيقياً.

---

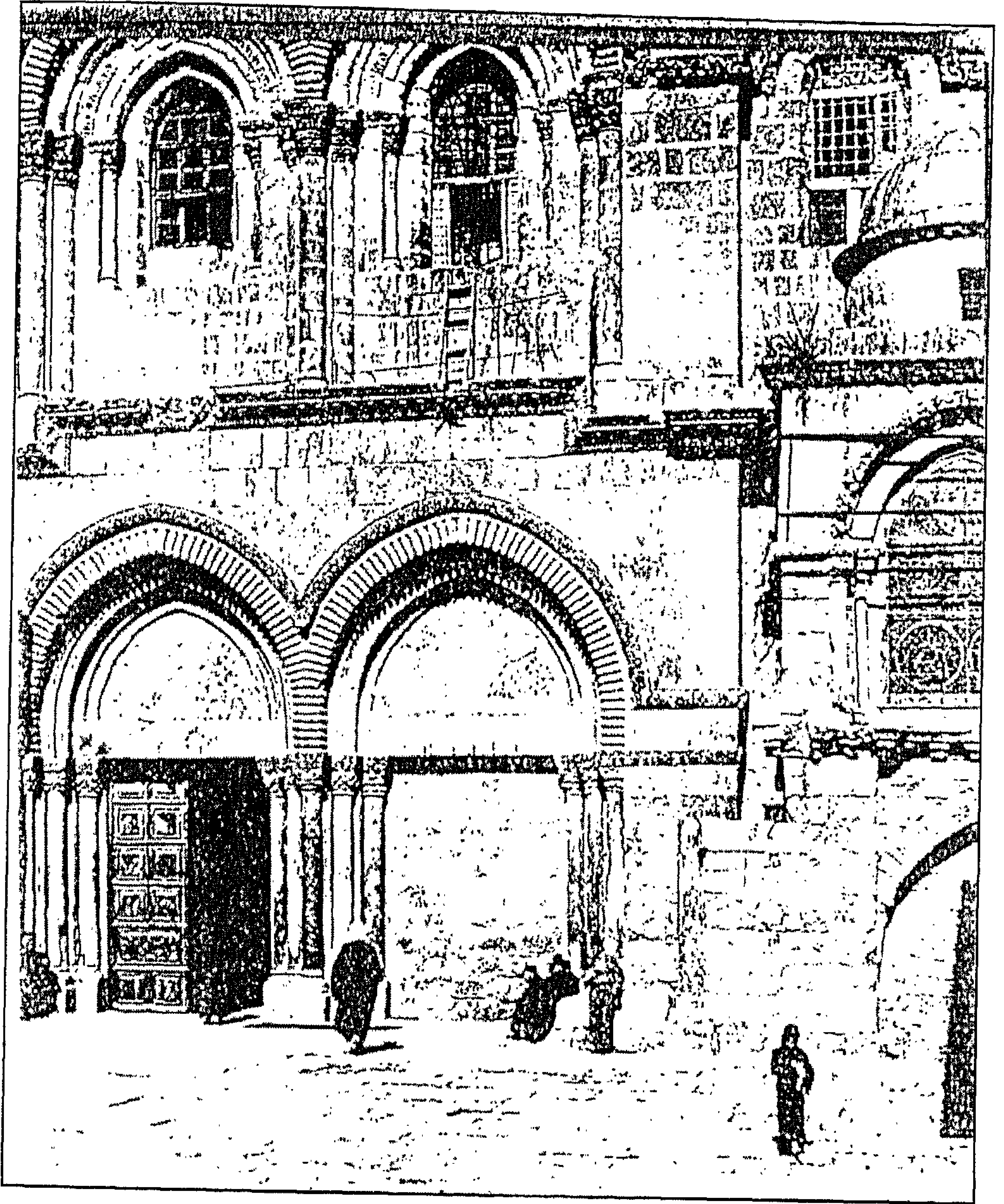
*لا وجود لهذه الرؤيا في اسفار العهد القديم المعتمد لدى الكنسية البروستتانية أما الاسفار المعتمدة لدى الكنيسة الكاثوليكية ففيها سفر بضبوان«نبوءة باروك» لكن الاعداد التي يشير اليها المؤلف ليس فيها شيءمن الكلام الذي أستشهد به

*ميرسياالياد/سبق ذكره ص ٥٩

*ميرسياالياد/ سبق ذكرة ص٥٧

*ميرسياالياد/ سبق ذكره ص ٦٣

*ميرسياالياد/ سبق ذكره ص ٦٣



شكل «٨» مدخل كنيسة القيامة«او القبر المقدس» الذي يقال عنه انه الموضع الذي دفن فيه المسيح

الجبل في العقائد الإسلامية

عندما أرادت التفسيرات الأسلامية تفسير السر في إستمرار* تقدُيس الصفا والمروة في الاسلام، واستمرار السعي في شعائر الحج الأسلامي، إستبدلت الذكر [أساف] والانثى [نائله] بذكر وأنثى مرة أخرى. ممثلين في سآدم» و«حواء» ليقوما بالفعل الجنسي بدلا من أساف ونائله، حيث أمر الله «جبرئل» أن ينزل آدم. من على الصفا و«حواء» من على المروة الى خيمة نصبت موضع البيت. وهناك جمع بينهما في الخيمة. وساعتها أضاء قضيب الخيمة الذي كان من ياقوت أحمر، ثم أمر الله «جبرئل» بعد ذلك هذا الجمع أو الجماع أن ينحى «آدم» و«حواء» عن موضع البيت ليرفع مكانه قواعد البيت. فهبط «جبرئل» مرة أخرى، وأخرجهما من الخيمة. وبنى البيت بحجر من الصفا وحجر من المروة، أو بمزيج من الذكر والانثى وهذه حقيقة أخرى نضيفها لرصيد إحتمال وجود عبادة جنسية في البيت الألهي المكي في عهوده القديمة وأجد من الضروري الإستعانة بأسطورة «آساف» و«نائلة» بأعتبارها ممثلة لطقوس الخصب، والتجدد في الحياة والكون، وذلك من خلال عقائد الإتصال الجنسي الثنائي وقد أشارت بعض الدراسات الإسلامية لهذه الأسطورة، حيث ان جرهماً** لما طغت في الحرم دخل رجل منهم وإمرأة يقال لهما «آساف« و«نائله» البيت ففجرا فيه فمسخهما الله تعالى حجرين فأخرجا من الكعبة منصباً على الصفا والمروة ليعتبر بهما

وهناك رواية إسلامية أخرى تقول ان «أدم» و«حواء» عندما هبطا من الجنة نزلا مفترقين وظلا هائمين حتى التقيا .وعرف آدم حواء. والتوراة بشكل خاص تصر على إستخدام لفظ عرف بمعنى جامع على جبل عرفة. لذلك عرف الجبل بأسم عرفة لأن آدم عرف أو جامع حواء عليه* ولهذا صار لعرفة تقديس عند المسلمين وتوجب على الحجيج الوقوف بعرفة. وهو من أهم مناسك الحج الجاهلي حيث كانوا يتوجهون الى هناك زرافات ذكوراً واناثاً يبيتون ليلتهم حتى يطلع عليهم النهار. وان العقل ليتساءل أمام مشهد الوف الرجال والنساء يتجهون الى الجبل ليبيتوا هناك جميعاً حتى الصباح: فأين القدسية في هذا الطقس؟ إن لم يكن من قبل ذلك تجمعا لمارسة طقس الجنس الجماعي طلباً للغوث والخصب، مع ملاحظة أن عرفة يطلق عليها الجميع «عرفات» ولانعرف جبلاً يجمع إسمه «عرفات» فهل الجمع هنا للجبل ام كالمجتمعين على جبل في حالة جماع. أو عرفات يماثلون به الفعل الأول الذي قام به «اساف» عندما عرف نائله أو «آدم» عندما ضاجع «حواء» او اله القمر «آل» عندما جامع الشمس «الات» وهذه حقيقة ثالثة.

وأنا اكثر ميلاً لقراءة د.سيد القمني، بأن الصعود الى الجبل وبهذه الأعداد الغفيرة، هو إستمرار لمارسة الإتصال الإدخالي المقدس الذي عرف قبلاً والتحليل الفيلولوجي لعرفات يعرب الينا هذا الطقس الجمعي الذي يؤدى فوق الجبل، أعتباره مكاناً قدسياً كذلك. ويؤدي الجماعة هذا الطقس المقدس قريباً من الله، وفوق مكان مرتفع، إضافة لذلك فأن فعل الإتصال يقدم وظيفة لا بد وان تكون من أجل الخلق والولادةوهو خلق عالم جديد، ومختلف. أي بعبارة أخرى نشوء لمركز الكون أو العالم.

ويتضح لنا إقتران الإتصال الإدخالي مع المكان المقدس ومثلما كانت تتم ويحصل في العراق القديم والشرق الادنى، حيث يتكون المعبد مكاناً لهذا المعتقد والطقس، يمارسه الإله مع الآلهة أو ينوب عنه الملك والكاهنة في فصل الربيع وحصراً في عيد الاكيتو. واختيار الربيع زمناً للإتصال يمثل في جانب منه إستعادة لإتصال السماء والأرض إتصالاً رمزياً وتحقيق الولادة، بأنبعاث النبات والعسب، أو يتم أحياناً قبل ذلك وبمباركته عبر التقاء جسدين معاً، هما الرجل/ المرأة.

وكان من ضمن طقوس الحج الجاهلي طقس عجيب ومثير وهو انهم كانوا يطوفون حول البيت الإلهي ذكوراً واناثاً عراة تماماً – كما أشار لذلك د.جواد علي – ويكرر د.سيد القمني سؤاله الوجيه عن أسباب العرى عند الطواف إذا كان الطقس لا يستوجب التعري. والعرى عند الطواف طقس مثير، يمثل طوافاً حول سرة الأرض، ومركزها وتأكيد للصلة الموجودة ومنذ الأزل بين سرة الارض وذكورتها، سرة الارض/ المرأة مجازاً، والعمود أو المرتفع/ الذكورة/ مجازاً. والدوران حوال المكان المقدس، إعلان عن ضرورة الإتصال والإبلاغ عن قداسة الإتصال الذي تماهي مع المكان، الطواف والتعري يقدمان قراءة مقنعة تماماً عن طقس الزواج الجماعي الذي كان يجري في الجزيرة العربية قبل الإسلام.

وهناك رواية إسلامية تقول. ان الحجر الأسود كان أبيض لكنه أسود من مس الحيض في الجاهلية* اي كان هناك طقس لدى الجاهلين تؤديه النساء مع الحجر وهو مسه بدماء الحيض ودماء الحيض بالذات. وقد كان دم الحيض عند المرأة في إعتقاد الأقدمين هو سر الميلاد. فمن المرأة الدم ومن الرجل المنى ومن الإله الروح، علماً أن الدورة الشهرية للمرأة تتوافق مع حركات القمر توافقاً بيناً.

إن طقس مس الحجر الأسود بدم الحيض، له صلة مباشرة ووثيقة بطقوس الجنس

والإتصال الإدخالي الثنائي وبه ومن خلاله تعلن المرأة عن نضج جسدها واستعداده للدخول المباشر في محيط الإتصال الجنسي، أي الإعلان عن رغبتها لممارسة معتقد الإتصال، لأنها صارت جاهزة للحدث. مضيافاً، إلاّ أن المرأة وبمسها للحجر بالدم، فأنها تؤكد على عدم تحقيق الخصب لها لأن إستمرار الدورة الشهرية، يعني عدم حصول الخصب وبممارستها لذلك تعلن عن استعدادها لممارسة فعل الإتصال والتمني على الحجر الأسود/ المقدس – والذي حاز على قداسته المكان الذي هو فيه وصار مركزاً للمركز– أن يشبع رغبتها من أجل الإخصاب. ويكشف هذا الطقس صيغة أخرى أكثر عمقاً ولها علاقة بالإتصال الرمزي. حيث كانت الديانات القديمة وخصوصاً الحجرية قد إهتمت بالعمود الحجري كمعبود مقدس.

أنتجت الديانات الكثير من العقائد حوله وصارت له طقوس خاصة لها صلة بالجنس والإتصال كشرط من الشروط إدامة الحياة وبقاء الإنبعاث. اي كان الحجر، يلعب دوراً ذكورياً حاز عليه من شكل إستقامته الشبية باستقامة الذكر عند الإنتصاب. والحجر، يمثل سيميائياً في الخطاب الاسطوري علاقة ذكرية، ومس الحجر داخل المكان المقدس بالدم، هو فعل إتصالي رمزي/ خارجي، ينطوي على تحريك للذكورة الرمزية المشار لها بالحجر، وكان الفعل ذاك، يعبر عن نداء الالوهة المؤنثة/ الأنثى للرجولة من أجل الإتصال الإدخالي وضرورة تحقيقه، حتى يحصل الخصب ويتعطل الدم الشهري.

والمستوى الأخر الجديد لقراءة مس الحجر الأسود بالدم هو إنه – الطقس – يمثل بديلاً لفعل التضحية وتقديم القربان البشرية، حيث كانت البنت هي الضحية. ولأن رب العائلة لا يملك ما يساعده على شراء الضحية الحيوانية، إختصرها وعاد بالممارسة الى سابق عهدها، حيث أستعاد فعل التضحية بالانثى ولكنها كانت هذه المرة تضحية رمزية ومن خلال دم دورتها الشهرية. ورسخ هذا معتقد بقاء الانثى مشروعاً للتضحية والقتل، لأنها هي التي هُمشت في الحياة وانزاح دورها التاريخي المبكر.

الجبل مكان

مقدس

*د.سيد الالقمني/ الاسطورة والتراث/ دار سينا للنشر/ القاهرة/ ١٩٩٢ ص١٢٦
*الازرقي/ اخبار مكة/ تحقيق رشدي الصالح ملحس/ دار الاندلس/ ا اسبانيا ص ٨٨

إهتمت الديانات البرّية بالجبال والاماكن المرتفعة إهتماماً استثنائياً وصار شعيرة موجودة بينها- ولاتوجد ديانة في التاريخ، تجاهلت الاماكن المرتفعة والتلال او الجبال. لان الارتفاع هو الذي يمنحها القدسية ويقرب بين المتعبد وبينها، لأنها الطريق نحو السماء ولايمكن لأحد ان يقيم إتصالاً مع السماء/ الرب/ المطلق إعتماداً على الأرض المستوية/ السهلة، لأن المكان المرتفع يقرب بنها ويجعل من الممارسة الدينية والطقوس ذات وظيفة إتصال مباشر وسريع. لان المكان المرتفع. يأخذ بالمتعبد سريعاً من أجل الإتصال، لأن الآلهة ساكنة هناك، ولا يتحقق الخلاص من خلال ما هو أرضي/ واطيء وانما يكون في الأعالي/ الجبال/ المنائر/ السماء. واخذت الديانة العبرانية هذه العقائد والتي عرفتها حضارات الشرق وحافظت عليها، وجعلت من الجبل او المكان المرتفع وسيطاً بين الناس والرّب واعتبرت البنية الذهنيْة العبرانية الجبل مخلوقاً من قبل الإله، ولا يختلف تماماً عن خلائقه الأخرى العديدة. وكان الاله «يهوه» الهاً للجبال وربما كان لفظ «الشّداي» يعني ذلك. وحاز الإله (يهوه) على عناصر جبلية وسهلية وكان الهاً لهما معاً.

وفي الديانة المسيحية، لم تكن صهيون، مركز الديانة الجديدة، ولا هي ذات هيمنة في طرق اتصالها مع الرب السماوي. ولذا صار الكون كله سرة للحياة واللعالم. لأن يسوع لا يريد مكاناً محدداً، يعيد فيه الناس. وإنما يريد العالم الكوني كله مكاناً لعبادة الإله الجديدة. وذلك لإتساع أهداف الديانة اليسوعية الجديدة، لان الرب موجود في السماء والارض ولم يرد إختيار المكان المحدده ويترك الثاني الى الابد.

«لكي تسلب السلب وتنهب النهب وتعيد يدك على الأخربة المسكونة والشعب المجموع من الامم ذي الماشية والمقتنى الذين يسكنون في سنام الارض».

حزقيال: ١٢:٣٨

ولأن الجبال خليقة الرب فأن البشر يزول والجبال تدوم وتوحي الجبال رمزياً بالعدل الإلهي والثبات والإستقرار، إنها علامة على عدل الرب وأمانته.

«أكفف عن الغضب ودع السخط. لا تغر لئلاتأ ثم. فأن الأشرار يستأصلون واما الذين يرجون الرب فأنهم يرثون الأرض. عما قليل لا يكون المنافق. تتطلع الى مكانه فلا يكون أما الودعاء

*الشهرستاني/ الملل والنحل ج٢/ تحقيق محمد سيد كيلاني، نشرالبابي الحالبي القاهرة/١٩٦١/ ص٢٣٣

فيرثون الأرض ويتلذذون بكثرة السلام»

المزامير=٣٦:٨- ١١

«والجبال التي عرفها الأباء الأوائل قد سميت«بالأكام الدهرية بركات أبيك تضاف الى بركات أبائي الى منية الأكام الدهرية. لتكن على رأس يوسف وعلى قمة نذير إخوته»

التكوين ٢٦:٤٩

«وبخيار الجبال القديمة وطيبات الأكام الدهرية. وبطيبات الأرض وفيضها ورضوان المتجلى في العليقة يحل على رأس يوسف وعلى قمة نذير إخوته»

تثنية: ١٥:٣٣

وعلى الرعم من هذه التأثيرات والقداسة الممنوحة للجبال في الديانات العبرانية،إلاّ إنها ظلت بعيدة عن القداسة المطلقة وحذرت الكثير من الأسفار من مخافة تألية الجبال، لأنها لم تكن الأخلائق عادة ولاتستحق التأليه، لأن البنية الذهنية العبرانية واجهت الكثير من الإشكالات منذ لحظة الخروج. ،كان للجبال اثناء مرحلة الشتات وجود طاغ ومهيمن وتحولت في السنوات الشتات الى منقذ وهام لهم ومن هنا حصل التحذير.

«من قبل أن ولدت الجبال، من الأزل إلى الأبد أنت الإله»

مزمور: ٩٠: ٢

«ولدت حين لم تكن الغمار والينابيع الغزيرة المياه. قبل أن أقرت الجبال وقبل التلال ولدت. إذ كان لم يصنع الأرض بعد ولا في خارجها ولا مبدأ أتربة المسكونة، حين هيأ السموات كنت هناك».

الأمثال: ٨: ٢٤ – ٢٦

ولقد قدر الرب مكانة الجبل وأعطاها دوراً حياتياً، مقدساً تمثل في كونها وسيطاً بين الناس وبين القدرة العليا/ المطلق أنه – الإله – الذي عرف طبيعة الجبل ومكوناته، مثلما أدرك قيمة التل ودوره في الحياة والعقائد وما يمكن أن يؤديه. والإله هو الوحيد الذي ظل يراقب مخلوقاته، ويتعامل معها تعاملاً مستمراً ويحاول معرفة أسرارها. وهو الوحيد الذي إستطاع

*د.سيد القمني/ الاسطورة والتراث/ سبق ذكره ص ١٢٧

وزن الجبال بالقبان والتلال بالميزان، وتلك واحدة من خصائصه وأسراره، التي لا يمكن أن تكون لواحد.

«من قاس بكفه المياه ومسح بشبره السماوات وكال بالثلث تراب الأرض ووزن الجبال بالقبان والتلال بالميزان».

أشعيا: ٤٠: ١٢

وللجبل مكانة للإتصال الديني وغير الديني. إنه مكان الإبلاغ بسبب إرتفاعه وإمكان إيصال النداء لأبعد مسافة.

«إصعدي إلى جبل عال يا مبشرة صهيون. إرفعي صوتك بقوة يا مبشرة أورشليم. إرفعيه ولا تخافي قولي لمدائن يهوذا إلهكم. هوذا السيد الرب يأتي بقوة وذراعه متسلطة. هوذا جزاؤه معه وعمله قدامه. يرعي قطيعه كالراعي يجمع الحملان بذراعه ويحملها في حضنه ويستاق المرضعات رويداً»

أشعيا: ٤٠ = ٦ – ١٢

كما أن الرب هو الوحيد القادر على الإمساك بها وتثبيت أركانها بقوته الإلهية الخارقة مثلما هو الوحيد المقتدر على زحزحتها ودفعها للإنهيار، بأعتبارها واحدة من العلامات الإلهية التي يتبدى بها ومن خلالها.

«تستجيب لنا في العدل إستجابة عجيبة يا إله خلاصنا يا متكل جميع أقاصي الأرض والبحر البعيدة. المثبت الجبال بقوته المتنطق بالإقتدار. المسكّن عجيج البحار عجيج أمواجها وجلبة الأمم».

مزمور ٦٤: ٦ – ١٠

«إنه حكيم القلب شديد البأس من ذا الذي يتصلب أمامه ويسلم. يزحزح الجبال ولا تشعر وفي غضبه بركسها. ويزلزل الأرض من أساسها فترتجف عمدها».

أيوب = ٩: ٤ – ٦

لكن الرب يوفر فرصته للرجل المؤمن، الصادق والحقيقي ويمنحه تلك الخاصية التي يتمتع بها الإله المسيحي بعدما كانت واحدة من عناصر الرب اليهودي. وذلك لأن الديانة اليسوعية قد

أسست عدداً مهماً من الضوابط ولكنها مرنة وفيها حرية، سمحت لها بمغادرة الهيمنة اليهودية الطاغية.

«النار والبرد. الثلج والضباب الريح العاصفة المضية كلمته. الجبال وجميع التلال الشجر المثمر وجميع الأرز الوحوش وجميع البهائم الدبابات والطيور ذات الأجنحة ملوك الأرض وجميع الشعوب الرؤساء وجميع قضاة الأرض. الأحداث والعذارى. الشيوخ مع الصبيان. ليسبح هؤلاء إسم الرب. فإن إسمه وحده عال. وجلاله فوق الأرض والسماوات وقد أعلى قرناً لشعبه. ليكن التسبيح في أفواه جميع أصفيائه بني إسرائيل المقرب إليه «هللويا».

مزمور ١٤٨: ٨ – ١٤

ولعل سفر دانيال أكثر وضوحاً في تجسيد سمو وطاقة الرب المسيحي، الرب الذي إختار الأرض والسماء معاً يتوزع بينهما ويكون واحداً عليهما معاً. لا ينقص ولا يتجزأ إنه الرب الذي صارت السماء مكاناً له، والأرض في آن واحد مكانه أيضاً. إنه مع بني البشر ولهذا كان فادياً لهم.

لقد إختصر أضاحي كل الديانات كمدارات دينية وجمعها بفدية واحدة. إلا أنه لم يجد فادياً لبني البشر غير جسده الرباني، أما الذات فهي باقية حتى الأزل. ولهذا كانت تباشير دانيال للطبيعة أن تغني إسم الرب وتردده وتنصاع له، لأنه أقوس وأكبر من كل الخلائق الموجودة.

«لتبارك الأرض الرب. تسبح وترفعه إلى الدهور.

باركي الرب أيتها الجبال والتلال سبحي وإرفعيه إلى الدهور.

باركي الرب يا جميع أنبتت الأرض. سبحي وإرفعيه إلى الدهور.

باركي الرب أيتها الينابيع. سبحي وإرفعيه إلى الدهور».

دانيال = ٣: ٧٤ – ٧٩

إن إرتفاع الجبال فوق الأرض في وصفها الدقيق هو الذي جعل منها مكاناً مخلصاً ومنقذاً أو حامياً للإنسان، عندما تحدث الكوارث. لذا فإن هيبتها وقوتها وصمودها له معان عديدة ويوحي بمستويات كثيرة كما سيتأكد لنا. في عدد من النصوص التوراتية، ومن الكتابين في آن واحد، الكتاب القديم/ والجديد.

«فتواني لوط فأمسك الرجلان بيده وبيد إمرأته وإبنته لشفقة الرب عليه وأخرجاه خارج المدينة. فلما أخرجاهم إلى خارج قالا له أنج بنفسك لا تلتفت إلى ورائك ولا تقف في البقعة كلها وتخلص إلى الجبل لئلا تهلك».

التكوين = ١٩: ١٦ – ١٨.

ولأن الجبال مكان عال، مرتفع، فإنها حامية ومخلصة لمن يقصدها هربا أوخوفاً. وبلغة المجاز الذي عرفناه في مزامير داود نقرأ:

«بالرب إعتصمت فكيف تقولون لنفسي أهربوا إلى جبلكم كالعصفور».

مزمور = ١١: ١

وتتسع صفة الجبل في مزمور داود ويأخذ بعضاً من صفات الرب إنها متأتية له من صورته الظاهرية وهيمنته وقوته.

أما في سفر حزقيال، فإن الكارثة والمراقبة حاصلة حتماً. والعقاب الرباني متحقق. لذا فإن الرب ينتقم من المعاصي وكل من خالف قانونه ونواميسه.

«السيف من خارج والوباء والجوع من داخل فالذي في الصحراء يموت بالسيف والذي في المدينة يأكله الجوع والوباء ويفلت المفلتون منهم ويصيرون إلى الجبال وجميعهم كحمام الأودية يهدرون، كل واحد على إثمه».

حزقيال = ٧: ١٥ – ١٧

ومن يستطع الهروب والنجاة في صعوده نحو الجبل، لم يحقق لنفسه راحتها وإستقرارها. فالبقاء حياً لم ينقذه إلا من الموت، لكنه يظل متألماً ومرعوباً من الإثم الذي مارسه وظل عالقاً به ومتمركزاً في تاريخه الشخصي. والهارب من إثمه الأرضي، نحو الجبال، يعني خوفاً من الرب وتوبة، ولحظة ما يكون هناك، فإن الرب قريب إليه، يناصره ويساعده إذا طلب توبته وغفرانه، فإن نجدة الرب تأتيه حتماً.

ولذا فإن مزموراً يؤكد بأن الرب موجود فوق جباله، ولحظة ما يدنو إليها، فإن الرب يسارع إليه، يخلصه من إثمه ومخاوفه «إني رافع عيني إلى الجبال إلى حيث تأتي منه نصرتي. نصرتي من عند الرب صانع السماوات والأرض»

مزمور ١٢٠: ١

لكن نبوءات آرميا، تأخذ من الجبال صفتها الطاغية، وجبروتها المهيمن على المكان، لأنه لا يريد وجوداً له

«إنما الأكام وكثرة الجبال زور وإنما خلاص إسرائيل في الرب إلهنا».

آرميا = ٣ = ٢٣

لا يريد آرميا أن تتحول ثقة الإنسان من الرب إلى الظواهر الطبيعية وخصوصاً الجبال، لأن الديانة، العبرانية قد منحتها مداراً مهماً ومنذ مرحلة الخروج والشتات في سيناء. لهذا كان العبري، يتعامل مع الجبال بقداسة كبيرة، تنامت عبر التعامل والإتصال الديني والإجتماعي ومن خلال الممارسة اليومية للعبران أثناء شتاتهم. لهذا نجد النبي آرميا منحازاً للرب بشكل كامل، لأنه يدرك جيداً بأن الآلهة الخارجية زائغة ومؤقتة وزائلة، وعظمة الرب هي الأزل وهي الأبد أبداً.

«إن عيون البشر المتشامخة ستنخفض وترفع الإنسان سيوضع ويتعالى الرب وحده في ذلك اليوم. فإنه يوم رب الجنود على كل متكبر ومتعال وعلى كل مرتفع فيحط. وعلى كل أرز لبنان العالي المرتفع وكل بلوط باشان. ولكن جميع الجبال العالية وجميع التلال المرتفعة. وعلى كل برج شامخ ولك سور حصين.

أشعيا = ١٢ – ١٦.

ولكي تكون القداسة صفة للمكان. ومن أجل توسيع محيط المكان، من مكان رمزي أو إشاري إلى مكان محدد، جغرافية معلومة ومعروفة يحصل الإنتقال من التجريد وما هو عمومي إلى التخصيص والتحديد. ويكون الخطاب موجها إلى جبال معروفة في فلسطين، لمنحها القداسة الكاملة. لذا نجد في أحد المزامير داوود إشارة لجبلي تابور وحرمون، وترانيمها للرب ويبدو واضحاً بأن للجبال دوراً مختلفاً عما كان لها في العهد القديم، وإن لم يغادر منطقة القداسة. لكن الأسفار الجديدة منحت الجبال والآكام والتلال عناصر بشرية وإمكانات خاصة متمثلة بقدرتها على الترنم والإعلان عن فرحها وهو فرح مجازي.

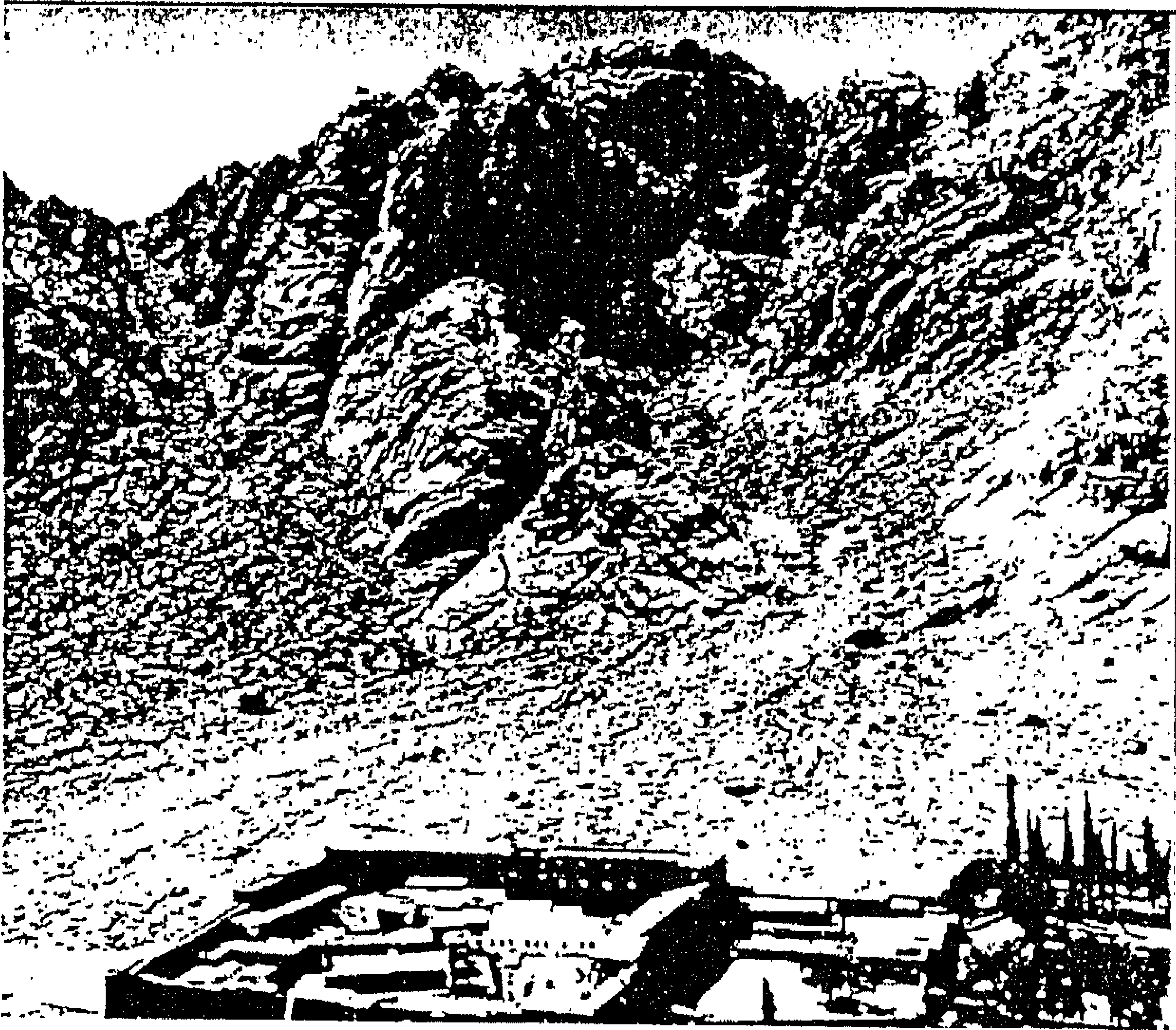
«رنمي أيتها السماوات لأن الرب قد فعل. إهتفي بأعماق الأرض إندفعي بالترنيم أيتها الجبال والغابات وكل شجر فيها لأن الرب قد أفتدى يعقوب وتمجد إسرائيل.

أشعيا = ٤٤: ٢٣.

وفي مراحل متقدمة، حازت المرحلة الزراعية صفة رعوية جديدة لها، وتداخلت المرحلتان معاً/ الزراعة/ الرعوية وقدما نموذجاً دينياً خاصاً وجديداً، فمثلاً بالنبي عاموس الراعي الذي إستطاع صياغة مفاهيم فيها شيء جديد ومضاف، حيث أجد بعضاً من عناصر المرحلة الزراعية وأعني بها عقائد الخصب وأدخلها في مرحلة الرعوية وجعل منهما معاً بوظيفة متداخلة ولا يمكن الفصل بينهما لا بالمعنى الصراعي الذي عرفته بدايات الديانة العبرانية متمثلاً ذلك بصراع الأخوين قابيل وهابيل. لذا حاز الجبل المكان المقدس صفة جديدة ووظيفة لم تكن سابقاً مثلما هي عليه في تعاليم عاموس. لذا كان الخصب تاجاً مضافاً للجبل مع قداسته وهيبته.

«ها إنها تأتي أيام يقول الرب يدرك فيها الحارث الحاصد ودائس العنب باذر الزرع وتقطر الجبال سلافاً وتسيل جميع الأكام. وأرد سبي شعبي إسرائيل فبنون وينشئون جنات ويأكلون من ثمرها.

عاموس ٩: ١٢ – ١٥.



شكل «٩» جبل سيناء وبالقرب منه الدير القديم الذي يسكنه منذ ١٥٠٠ سنة مسيحيون يتكلمون اليونانية وقد حفظت في هذا مخطوطلت الكتاب المقدس المعرفة « بالمخطوطات السينائية

موسى فوق جبل حوريب

ويجب علينا ان لا نغفل خصائص شخصية القائد الذي حاز على عناصر فريدة، صاغت شخصية القيادة من الخروج والشتات. وكما يجب الإشارة الى كثير من عبادات الأقوام الجزرية التي كانت سائدة. في مصر أو في سيناء عندما هرب اليها بعد قتله للمصري، ومن هذه العبادات الإتصال بلإله من فوق مكان مرتفع ولا يجوز مخاطبة الرب من فوق الأرض مباشرة. لأسباب عديدة. أهمها:

١- لأن الأرض مستوية وهي مكان لكل البشر والحيوان، فأنها ليست نظيفة ودنسة.

٢- الأماكن المرتفعة تخذل المسافة بين الأنسان ومعبودة.

٣- يكون الخطاب الموجه من الإنسان إلى معبوده في لحظات التجلي والأشراق والإتصال، خطاباً هادئاً وهاماً والأماكن المرتفعة وسيط فاعل لبثه ومساعدته على الإتصال للرب، اكثرمن الأماكن الواطئة.

وقال العالم (جان بوتيرو): ان مكان عبادة هذا الاله كان، على عادة الساميين القدامى، مرتفعاً جبلياً، ويبدو ان ذلك كان في منطقة صحراوية متعرجة من سيناء، وعلى الأصح في شمالي الحجاز، بعد العقبة. في هذا المكان على مايبدو تفجر عند موس الإلهام الذي قادة بعيداً، وسمع هذا الاله يقول:

«إني قد نظرت الى مذلة شعبي الذي بمصر وسمعت طرفهم من قبل فسخر بهم وعلمت بكريهم فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأخرجهم من تلك الارض الى أرض طيبة واسعة أرض تدر لبناً وعسلاً الى موضع الكنعانين والحثيين والامويين...»

الخروج ٣:٧

ولأن الخروج هو المرحلة الاولى في ملحمة العبران ومغادرتهم الى مصر أراد قائدهم ان يضع وجهاً لوجه أمام المكان المقدس، فأختار الجبل، ليقدم وإياهم شكره الى الرب الذي ساعدهم في الخلاص وأنقذهم من اضطهاد وارهاب فرعون.

كان موس* قائداً دينياً وزمنياً على السواء، غير ان دوره لاينتهي عند هذا الحد. ذلك أنه بعد النصر غير المتوقع، بدلاً من العودة الى بلاد كنعان، بأقصر الطرق نرى أن الهاربين

*حانبوتيرو/ ولادة اة التوراة والمؤرخ/ ت:عبد الهادي عباس وجهاد الهوشى/ دار الحصاد، دار الكلمة/ دمشق/ ١٩٩٩/ ص ٤١

بتجوال طويل في صحراء سيناء. واراد موسى بذلك ان يقوم «شعبه بعد خروجه من مصر بتقديم الشكر الى الله على ذلك الجبل» الذي ظهر له عليه ان ما جرى لم يكن يكفى لأقامة علاقةمتبادلة بين يهوه واسرائيل علاقة خاصة، أراد موسى ان يمكنها بحيث يصبح شعب اسرائيل الوحيد، وأختار موسى- ايضاً - الجبل باعتباره مكاناً لعبادة الرب يهوه. إختاره ليقدم عليه طقوس القرابة الاعتبارية بديلاً عن قرابة الدم وهي لاتقل قوة ومتانة - كما قال بوتيرو - عن الاولى فهي تعبر عن التأخي في اللحم والدم وعن المصير الواحد: حفلة العهد مع تآخي في الدم وليمة مشتركة وقسم يقوم به كل طرف بأحترام وتنفيذ واجاباته تجاه الآخر.

ثمة تقليد* يشير الى ان أحد مرتفعات شبه جزيرة «والتي تسمية التوراة تارة سيناء وتارة حوريب» هو جبل موسى الا أنه من السهل قبول مثل هذا التقليد رغم مرور ما يزيد عن الف عام عليه، ورغم الإتفاق عليه بالإجماع. ولكن هناك تقليد أقدم وكان راسخاً في ذاكرة بني إسرائيل، يعتبر أن الإتصال الأول الفوري الذي يتم بين إسرائيل ويهوه، عند العهد رافقه زلزال هائل وغريب، اذا ما جمعنا مواصفاته، في أقدم نصوص الخروج نجدها لا تنطق الاّ على ثوران بركاني. ولكن ذلك أن الجبل حيث «كانت أصوات وبروق وغمام كثيف وصوت بوق شديد جداً» الجبل «المدخن كله لأن الرب هبط عليه بالنار فسطع دخانه كدخان الاتون وارتجف»

الخروج ف ١٩:١٦– ١٨

الجبل هنا يجب البحث عنه** في مكان آخر، في منطقة معروفة كمنطقة بركانية في ذلك التاريخ وهذا ما ينطبق على بلاد مدين في شمالى الحجاز، علماً بان هناك أكثر من إشارة في التوراة تؤكد هذا الزعم. على أية حال ان لقاء يهوة شخصياً مع شعبه في هذا الجو الرهيب ترك أثره الكبير في خيال«الاسرائيلين» الى الابد كما طبع عبادتهم ومشاعرهم الدينية بطابع لا يمحى ففرض عليهم فكرة إله سيد للطبيعة، إله مرعب، فدمر لايقهر- وسيظل كذلك لمدة طويلة.

وفي قصة اعداد المذبح للرب ووضع الثور على الحطب والتي أكدت على الدور القيادي والاشرافي ليهوه على الكون كله حيث استعان النبي- ايليا- بالرب وانزال النار التي التهمت المذبح والحطب والثور والماء الوفير المسكوب فوقها. ومنذ تلك اللحظة إستعاد الديانةاليهودية حشوداً من العبران شككوا بالرب وعبدوا إلهه كنعان.

وقال - (بوتيرو) بأن مثل هذا الانتصار، مع ما رافقه من عراك لايتم دون تعميق جدي

بفكرة الإله. واقعة أخرى من حياة -ايليا - تعطينا فكرة عن ذلك. وهي لقاء النبي مع يهوه. ذهب صاحبنا بقصد تنشيط قواه الروحية، لزيارة الجبل الذي أسميناه حوريب والذي ظهر فيه ولحظة العهد وحصل أمامه - وكان ذلك حصل من أجله فقط - الزلزال الهائل الذي سبب الرعب في السابق موسى ومن معه.

ولعل أهم ما حصل على يد الانبياء. في مدار توحيد شخصية يهوه والتعامل معه باعتباره الهاً قوياً ومدمراً ويشرف على نظام سياسي قوى وهذا مل يمكن ملاحظته. في سفر أشعيا الثاني، وفحوى الفكرة هو ان العودة الى يهوه، كفيلة بوحدة اسرائيل وعندما سجل الوئام والسعادة والسلام، عندما تحقق هيمنة يهوه الكلية والمطلقة. حيث تتحول اسرائيل الى مركز كوني، لانها كلها خاضعة للرب يهوه.

«ويكون في أخر الايام

أن جبل بيت الرب

يوطد في راس الجبال

ويرتفع فوق التلال

وتجري اليه الشعوب

وتنطلق أمم كثيرة قائلين:

هلموا نصعد الى جبل الرب

وبيت اله يعقوب

وهويعلمنا طرقه

فنسلك في سبله

لأنها من صهيون تخرج الشريعة

ومن اورشليم كلمة الرب

ويحكمُ بين الشعوب الكثيرين

ويقضي للأمم الاقوياء الى بعيد

فيضربون سيوفهم سككاً

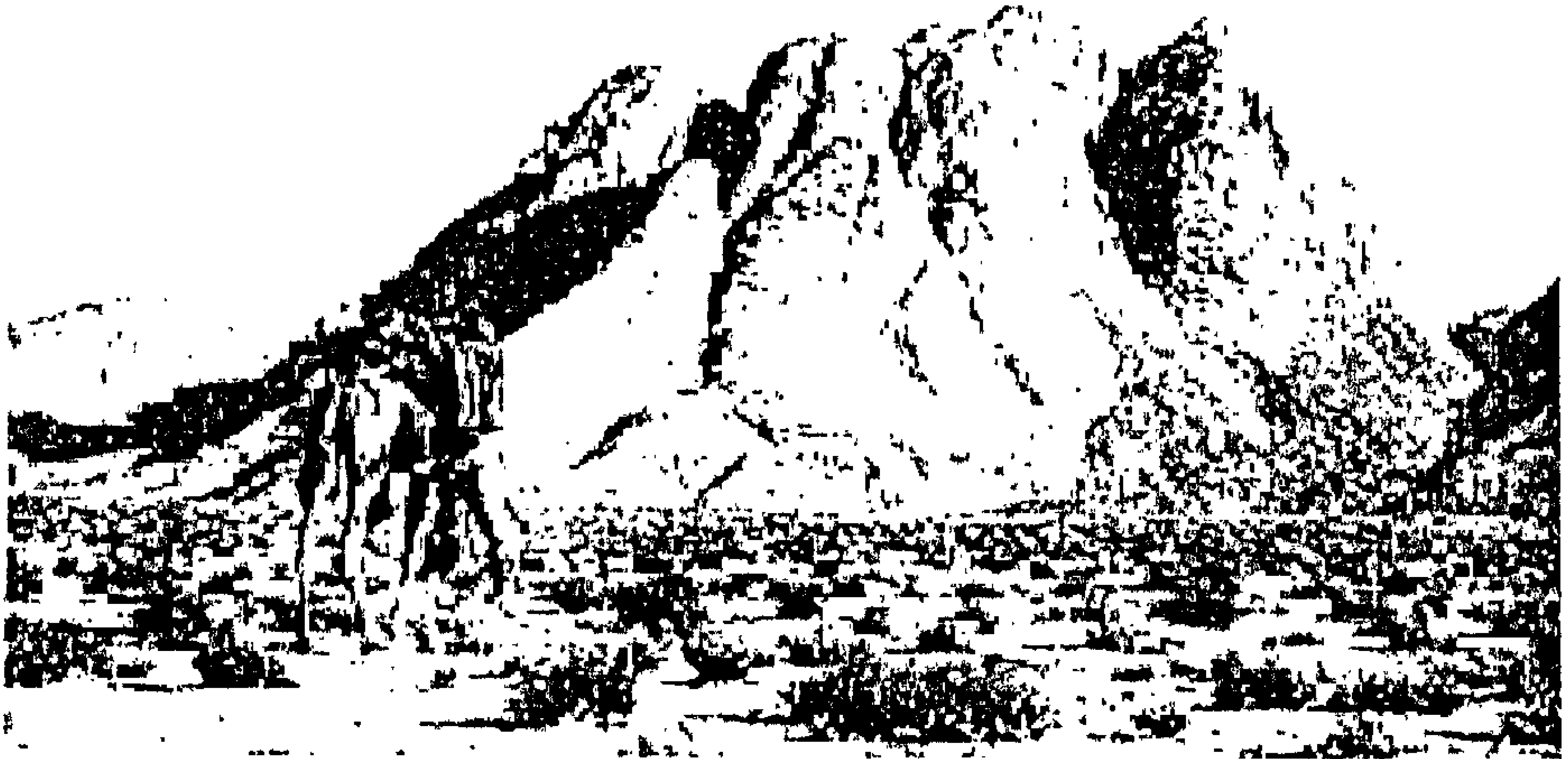
وأمنتهم مناجل

فلا ترفع أمة على أمة سيفاً

ولايتعلمون الحرب من بعيد»

نبوءة منيا ٤:١- ٣

وقصة موسى معروفة وهي واحدة من أشهر القصص التي حصلت مع العبران أثناء ارتحالهم في صحراء سيناء. وهي تكشف في مستواها الإعتيادي والخارجي، نزوعاً واضحاً للتذمر والانتفاض والتمرد على النبي العبري، الذي قادهم من مصر والقى بهم في سيناء وسط الجوع والعطش والعواصف. ووسط حالة الناس التام، عرف العبران ديانة جيرانهم الكنعانين ووجدوا فرقاً واضحاً وكبيراً بين ألههم يهوه وبين إلهة كنعان، ولان موسى غائب فوق جبل حوريب لفترة طويلة، طلب العبران من هارون ألهاً يعبدونه فأوعز لهم بجمع الذهب الموجود لدى نسائهم وصهره وصنع منه عجلاً يتعبدون له، والعجل يمثل الهاً زراعياً بالنسسبة للكنعانيين وبعبادتهم للعجل محاولة منهم لحيازة -حتى ولونفسيه ومعنوية -عناصر الديانة الزراعية. وبعدما نزل موسى حصل الذي حصل معهم.



الشكل (١٠) رأس مقصف احدي قمم الجبال في سيناء وعند سفحه أقام موسى وقت ان كان يتلقى الشريعة من الرب يهوه

«حني صعدت الجبل لأخذ لوحي الحجر، لوحي العهد الذي بتّه معكم فأقمت بالجبل أربعين يوماً واربعين ليلة لم أكل خبزاً ولم أشرب ماء. ثم دفع الرب اليّ لوحي الحجر المكتوبين بأصبع الله وعليهما مثل جميع الكلمات التي كلمكم الرب بها في الجبل من وسط النار في يوم الإجتماع. بعد أربعين يوماً واربعين ليلة كان الرب دفع الي اللوحين الحجريين لوحي العهد. وقال لي الرب قم فأنزل سريعاً من هنا لأنه قد فسد شعبك الذين أخرجتهم من مصر زاغوا سريعاً عن الطريق التي سننتها لهم وصنعوا لهم تمثالاً مسبوكاً».

تثنية ٩:٦- ١٣

وجود موسى فوق الجبل أخفى قداسة مطلقة، لأن النبي الذي قاد خروج العبران، التقى ربه فوق قمة الجبل وان لم يره. ولولا الجبل لما حصل التطور المهم في الديانة العبرانية الجديدة واعني به وجود المدّونة التي كتبها الرب بإصبعه. ولا ندري كيف إستطاع الرب يهوه كتابة اللوحين بأصابعه فوق الحجر؟ وكان الجبل سبباً في غياب موسى لأربعين يوماً وليلة ولولا وجوده هناك لما حصل الإرتداد نحو الديانة الوثنية التي عرفوها من جيرانهم الكنعانين، لان العبران إقتنعوا بألهة كنعان أكثر من إقتنتعهم بربهم يهوه، لأنه ظل يلاحقهم بالتهديد والإبادة والجوع والعطش، بينما إلهه كنعان فرضت سطوتها وحمايتها وساهمت بتنوع حياتهم وتقدمها وازدهار حضارتهم لذا كان الانحراف المهم والخطر في علاقة العبران مع يهوه والديانة الحديدة. وتمثل تلك المغادرة المؤقتة انتفاضة خطيرة، لأن هرون الذي قادها. والتغير الذي حصل لم يكن لدى العبران فقط وانما عند هرون – تحتاج الى دراسة مستقلة لذا لم يخف هرون والعبران من الجبل المقدس الذي كان عليه موسى والرب العبراني، وكانوا لحظتها قد أدركوا ما يعنيه الجبل في الديانة العبرانية، باعتباه مكاناً مقدساً.

ولهذا الفعل المختلف والمعارض لنواميس يهوه وموسى- التي كان هرون طرفاً آساسياً في إستلامها وابلاغها الى العبران- تصاعد غضب يهوه وطلب من موسى الموافقة على إبادتهم «دعني فأبيدهم وأمحو أسمهم من تحت السماء واجعلك أنت أمه أعظم واكثر منهم»

تثنية ١٤:٩

ولم يقل موسى شيئاً للرب، بل سارع الى النزول من الجبل الذي إشتعلت قمته ناراً بسبب زعل الرب وغضبه. ولم يكن أمامه آنذاك الا النار، علامته الالوهية التي يتبدى بها

للعبران، مثلما تبدى بها وسط العليقة، لحظته خرج موسى من مصر. وهنا – ايضاً – كان الجبل يسبب قداسته مكاناً مساهماً يرد الفعل اليهودي. لذا فأن الجبل/ المكان مرتفع ومقدس يتناوب مختلفاً بالوظلئف والعناصر «فرجعت ونزلت من الجبل وهو مضطرم بالنار ولوحا العهد في يدي. ونظرت فأذا بكم قد خطئتم الى الرب إلهكم وصنعتم لكم عجلاً مسبوكاً وزغتم سريعاً من الطريق التي سنّها لكم الرب».

تثنية ٩:١٥– ١٧

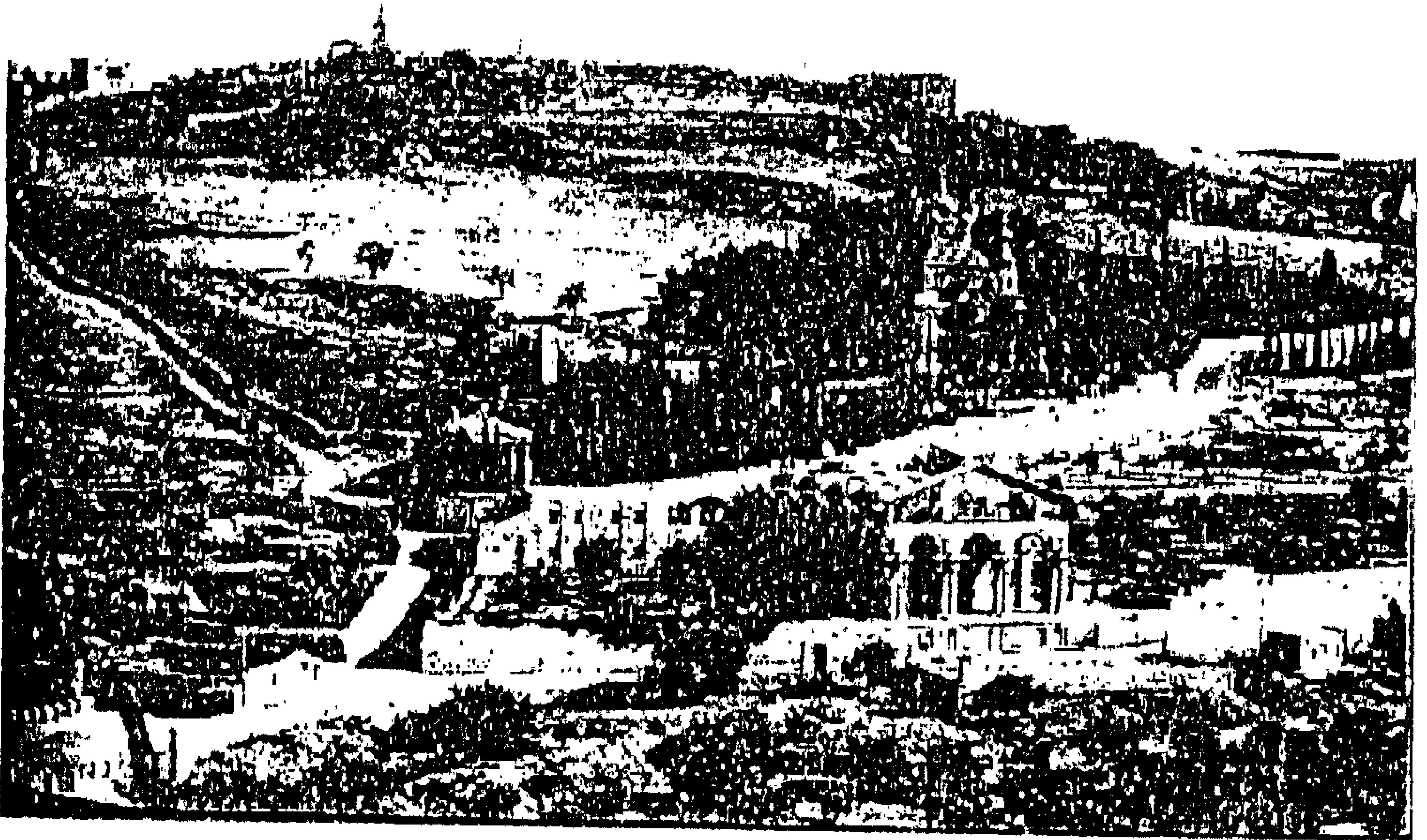
عرفنا قبلاً بان لقاءات موسى تمت فوق جبل حوريب، وهذا يعني بان المرتفعات– كما قلنا– مكان مقدس، وهي التي توسس بداية علاقة روحية بين الإنسان/ النبي وربه. والمرتفع، هو ذات المكان للذي وقف عليه موسى[التلةّ]. في هليولوليس وعصا الله في يده، وتبعه لاحقاً هارون. وكان يشوع يقود معركة ضد العماليق، ففي اللحظة التي يرفع فيها يده يغلب يشوع، وينتصر العماليق عندما يحفض يده، وكان الإنتصار مرهون بحركة يد موسى، وتلك واحدة من أسساطير موسى التي لاتشف عن ممكنات أبداً، لأننا نعرف بان الزمن الذي تستغرقه اليد بارتفاعها وانخفاضها لاتتجاوز الثانية، فأية معركة تلك التي يكون هذا زمنها وتحسم بالنصر والهزيمة. حتى في ارتحالالتهم، فأنه يختار ماهو مرتفع فنجده عند إرتحاله من (رفيديم) قد نزل مواجهاً لجبل، أما موسى فقد صعده، وهناك حصل التجلى واستلام الخطاب اليهودي.

«وفي الشهر الثالث لخروج بني اسرائيل من أرض مصر في ذلك اليوم جاء وابريه سيناء. رحلوا من (رفيديم) وجاءوا بركة سيناء فنزلوا في البرية. هناك نزل إسرائيل تلقاء الجبل. وصعد موسى الى الله فناداه الرب من الجبل.........وقال الرب لموسى إمض الى الشعب وقد سهم اليوم وعداً وليغسلوا ثيابهم. ويكونوا مستعدين لليوم الثالث فإنه في اليوم الثالث يهبط الرب أمام جميع الشعب على جبل سيناء. واجعل حداً للشعب من حواليه وقل لهم احذروا من ان تصعدوا الجبل أو تمسوا طرفه فان كل من مس الجبل يقتل قتلاً»

الخروج ٢:١٩ ،١٠، ١١

وهنا يحاول موسى إخفاء القداسة المطلقة على الجبل، قداسة مقترن بالعنف المقدس أيضاً، لان القداسة لا تتبلور ولاتتشكل بدون سلطة عنف، تضفي عليها قداستها وترسخها وتكرسها ايضاً. كما أنه لا يمكن ان يتساوى موسى مع غيره في الاقتراب من الجبل أو مسه

كان في الديانة المصريه* رأس التلة» او «الارض العالية» أو«التبّة المقدسة» من الأسرار العليا. ففي الاسطورة الخاصة بالخالق المصرية كان أول ظهور للارض من المياه الاول أو «الغمر العظيم» هو تلك التبّة المقدسة في لاهوتية آتون رع. كان ظهور التبّة «الارض العالية» الاول في أون بهليوبوايس، وبعدها شيد معبد الإله ومركز عبادته كما تمسك كهنته دائماً. وكان موسى منهم، فوق ذلك الموقع المقدس. ففي اسطورة الخلق، يخرج آتون رع من خضم فوضى المياه الاول «غمر التوراة العظيم» ليوجد الكون والبشر وسابراً المخلوقات. وحتى يجد موطئاً لقدمه، يأخذ في إعطاء الأرض شكلاً بعد إنعدام الشكل بلا حدود، فيكون أول ما يخلق من الأرض اذ يتفق الإله بأسمه، التبّة المقدسة. ويبدد الاله الظلمة ويخلق [وهو ما أوقع مؤلفي سفر التكوين في التناقض بين ذلك النور الذي كان في اليوم الاول قبل خلق الشمس في اليوم الرابع: ففي الاسطورة المصرية كان ظهور الأله ظهوراً للشمس والنور فعند اللحظة التي أوجد فيها الإله ذاته اذ نطق بأسمه] وعلى تلك التبّة المقدسة، او «رأس التلة» الذي وقف عليه موسى ملوحاً بعصا الإله، اعتلى آتون سارية مقدسة [عاموداً من خشب] ظل قائماً في معبدّه عندما أسس على تلك التبّة فبات من رموز عبادته.



شكل (١٠) جبل الـزيتون

* شفيق مقار/ قراءة سياسة للتوراة/ سبق ذكره ص١٤١

وتوقفنا أسطوريات الخلق في المملكة القديمة على ان كهنة* المعابد الأخرى إجتهدوا في منافسة عبادة آتون رع في هليوبوليس بلاهوتيات أنبتت على تجسدات أخرى للإله رع. وكما في لاهوتية هليوبوليس، تبدأ أسطورية الخلق في تلك اللاهوتيات المنافسة بظهور الأرض العالية الاولى «من فوضى المياه الاولى واتخاذ الأرض، بذلك، شكلا توجد عليه الحياة. وادعى كهنة كل لاهوتية ان معبدهم تأسيس، كمعبد آتون رع في هليوبوليس، على ذلك الموقع المرتفع ذاته، مكتسبين له بذلك قوة روحية عظيمة. ومن أهم تلك اللاهوتيات المنافسة لاهويته الإلة تباح في ممفيس.ولاهوتية الاله تحوت في هرمولوليس .

ان الارض العالية هذه «المرتفات» وقمم التلال ورؤوس الجبال وسارية آتون رع باتت – عندما أخذ الكهنة اليهود يتخلصون من عبادة حداد/ بعل صفون ويهذبون ديانة يهوه ويرقون بها في تأليفهم للتوراة، وبقيه الأسفار في عصر السبي نهباً من الديانة المصرية التي إستمدوا منه مفهوم التوحيد والإله المحتجب – باتت قمم التلال هذه مسائل كاشفة ومحرجة للغاية اذا فصمت عن الأصوال التي استمد منها الكهنة كل ما نهبوه من فكر ديني متطور ورفيع من الديانة المصرية.

ظل موسى ذاته هو الذي يصعد* الى الأماكن العالية ليجتمع بالأله أو يعتلي تلك الأماكن ليلوح بعصا الإله. تبين الكهنة بغية ان مسألة المرتفعات والأماكن العالية هذة كفر ووثنية، فأنظر الى الهياج الذي انتابهم بغتة فيما يخصها:

من عديد الفقرات في أسفار العهد القديم نجد ان أماكن العبادة في اسرائيل قديماً كانت على أماكن مرتفعة. وكانت تلك الأماكن قماش ملون بألوان زاهية لتحمي السارية المقدسة.

خشبية أو حجرية» من تقلبات الجو.

ولكن، فجأة، تغير ذلك. قال الرب – بغتة – لآرميا في أيام يوشيا الملك:

«هل رأيت ما فعلت العاصية إسرائيل؟ إنطلقت إلى كل قبل عال وإلى كل شجرة خضراء وزنت هناك».

ثم عاد فقال له عن مملكة هوذا:

«خطية يهوذا: فذابحهم وسواريهم عند أشجار خضر على آكام مرتفعة».

آرميا ١٧: ١ و٢

ثم ذهب إلى حزقيال فقال له عن «بيت إسرائيل»

«لما أتيت بهم إلى الأرض التي رفعت لهم يدي لأعطيهم فرأوا كل تل عال وكل شجرة فذبحوا هناك ذبائحهم وقربوا هناك قرابينهم المغيظة «لي» وقدموا هناك روائح سرورهم وسكبوا هناك سكائبهم: فقلت لهم ما هذه المرتفعة التي تأتون إليها. فدعي اسمها مرتفعة إلى هذا اليوم»

حزقيال ٢٠: ٢٨، ٢٩

في نص سفر الملوك الثاني ٢٣: ٤ – ٢٠، أفلت الزمام، فقالها المؤرخ الكاهن صراحة «أباد الخيول التي أعطاها ملك هوذا للشمس وأحرق مركبات الشمس بالنار «لكن الإنقلاب الكهنوتي على الأرض العالية أو المرتفعة والسارية وهدم الهياكل وأطرق السارية وقتل الخيول وإطراق المركبات لم يطمس شيئاً من بصمات الديانة المصرية المتوهجة. فالإعتراف من كنوز الفكر الديني عند المصريين كان أعظم وأوسع من أن تخفي حقيقته تلك الحيل الكهنوتية الصغيرة.

ولا تكتفي البنية الذهنية العبرانية بترحيل عناصر الديانة المصرية والعراقية والكنعانية، بل تزحف بسرعة على مالايمكن تغطيته أو التمويه عليه، حيث منحت أيضاً – الإرتفاع قداسة جديدة ومختلفة هي القداسة المتأنية من تحوله إلى منقذ، يضع حداً للعنف أو الموت ويمسك – الإرتفاع – بالحياة وعناصرها، فبعد الطوفان المدمر الذي أشارت له ملحمة الطوفان في ملحمة جلجامش، وتحقق الإنقاذ، نجد الفلك قد استقر فوق جبل نصير وأمسكت صخور الجبل بخشب الفلك فلم تدعه يجري، أما في سفر التكوين فإننا نجد بأن الفلك قد استقر بعد مضي سبعة أشهر على جبل إراراط.

نلاحظ هنا بأن الجبل – نصير أو اراراط – قد حاز على صفة الإنقاذ ذو تخليص القوم الذين أخذهم أوتو – نابشتم ونوح، ليكون الذين في الفلك هم بذرة وخميرة لحياة آتية. وتتجلى القداسة الخاصة بالجبل في تقديم القربان للآلهة بعد خروج من كان في الفلك حيث تم سكب الماء المقدس على قمة الجبل.

الفصل الرابع

البرج في الأسطورة والتوراة

أولت الديانات في الشرق - على إختلافها إهتماماً استثنائياً بالمصدر، لأنه المكان الذي تقام فيه الشعائر والطقوس وتمارس وسطه العبادات. وصار لهذا المكان دوره الحيوي وحاز على أسماء عديدة معبد/ زقورة/ برج/ هيكل/ كنيسة. ويفترض أن يكون الرب موجوداً فيه، يتابع عباده وهم يؤدون له الشعائر ويمارسون طقوسهم التي تقربهم من الرب أكثر، ووجود الرب في المعبد، لا يعني البقاء وسط هذا المكان فهو وجود رمزي، لأن الآلهة مكانها الدائم السماء، صحيح أنها تنزل إلى الأرض في أحيان كثيرة، لكنها في العلا، تراقب الحياة والعالم وتشرف على حركة وانتظام الكون ووفرة الإنبعاث والخصب. ووجود الإنسان في المعبد/ المكان المقدس، هو فعل تشاركي مع الإله أو مع مجموع الآلهة..وقد استفادت الديانة العبرانية من هذه العقائد ونقلتها، لكنها ظلت خلال سنوات الإرتحال في سيناء، وشتاتهم الطويل، بعيدة عن المكان الثابت/ المعبد/ الهيكل. لأنها مرتحلة باستمرار، واستعاضت عن هيكلها المبني نجيمة الإشتراع المعروفة والتي صار بديلاً للمعبد/ يحملها العبران لحظتما قرروا الإنتقال والإرتحال. ويمثل هيكل أورشليم لاحقاً علامة دينية على مثول وحضور الرب اليهودي وسط البشر وفوق الأرض وهو حلول رمزي أيضاً..والعلامة الأخرى التي تبلورت في اليسوعية هي الكنيسة والرب الذي فيها هو جسد المسيح.

ووردت إشارة مهمة في معجم اللاهوت الكتابي حول الهيكل السماوي إلى أن العهد الجديد لجأ إلى رمزية الهيكل القديم من أجل توجيه أنظارنا إلى إتجاه آخر. فقد سبق ورأى فيه المفكرون المقابل. الأرضي لسكنى اللّه. أي تلك التي كان يحلو للرؤى أن تصفها إنطلاقاً من الهيكل وفي هذا الإطار، نجد الرسالة إلى العبرانيين وصفاً للذبيحة الخاصة بالمسيح بصفته كاهناً وقد تحققت بموته وقيامته وصعودها إلى السماوات وفي ختام حياته الأرضية. دخل قدس الأقداس السماوي ليس بدم ضحايا حيوانية، كما في العبادة الرمزية وإنما بدمه الخاص [عبرانيين ∞ : ١١ - ١٤ و٢٤] فقد أختاره سابقاً ليجعل لنا سبلاً إلى اللّه [١٤:٤ . ١٩:١٠ - ٢٠] وبفضل إتحادنا بهذا الكاهن الأوحد، سوف نستطيع إذا أن نتمتع بدورنا بالحضرة الإلهية في قدس الأقداس حيث يسكن اللّه ومن الآن لنا سبيل إليه بمقتضى الإيمان [٦:٩ - ٢٠].

ومن المعابد المشهورة في الشرق. معبد الإيساكيلا للإله مردوخ في بابل، ومعبد الإله نابو [إيزايد] في بورسيا ومعبد كوم نبو في مصر ومعبد الإله حدد ومعبد أبل وزوس..إلخ وأخذت

المعابد صوراً جديدة لها في الديانات التاريخية والشمولية وان اختلفت في الأسماء، لكن وظائفها واحدة. وصفتها دينية ومقدسة.

تقدم لنا ملحمة الخليقة البابلية توصيفاً عن الصراع الذي دار بين الآلهة وكيف استطاع الإله مرزوخ، إله بابل الخليقة العظيم الإنتصار على الآلهة تيامات، وحاز مردوخ على عناصر الكثير من الآلهة ولا نريد الإستفاضة بذلك، ولكن ما يعنينا هنا، هو الدور الذي لعبه مردوخ في الديانة العراقية، حتى أنه تحول إلى إله قومي وامتد تأثيره إلى ديانات شرقية أخرى وكان معبده «الأب كيلا» في بابل وهذه الترنيمة ترسم لنا صورة واضحة عن أهمية المكان المقدس/ المعبد في الطرف القديم بإعتبارها نموذجاً للعلاقة بين الأراضي والمكان المقدس الذي هو مكان الإله ومقر سلطته الأرضية وهو امتداد حي لجبروته السماوي.

«أيها الرب، عند ذهابك إلى المعبد [عسى أن تقول لك بيتك كن هادئاً*

أيها الأمير، الرب، مردوخ، عند ذهابك إلى معبدك، عسى بيتك أيها البطل العظيم، الرب «انبيلولو» عند ذهابك إلى معبدك، عسى بيتك.

كن هادئاً، أيها الرب، كن هادئاً أيها الرب، عسى بيتك...

كن هادئاً، أيها الرب، عسى بيتك.

كن هادئاً أيا «رب» الساجيلا، عسى بيتك.

كن هادئاً أيارب «أزيرا» عسى بيتك في أيساجيلا، بيت ربوبيتك، عسى بيتك...

عسى أن تقول لك المدينة، كن هادئاً، عسى بيتك..

عسى بابل تقول لك، كن هادئاً، وعسى بيتك...

عسى آنو العظيم، أبو الآلهة، أن يقول لك، حتى متى وكن هادئاً عسى الجبل العظيم، الأب إنليل، أن يقول لك حتى متى،...

عسى أميرة المدينة والبيت، الأم العظيمة، ننليل، أن تقول لك حتى متى....

عسى نينورتا، ابن، انليل، الرئيسي، ساعد آنو المجد، أ يقول لك حتى متى،....

عسى سن، مصباح السماء والأرض، يقول لك، حتى متى.

* د. فيصل الوائلي/ من آدب العراق القديم/ مجلة سوم/ جـ١ +٢/ مجلد ٢١/ ١٩٦٥.

عسى شمس، البطل، الإله اللملتحي، ابن نينجال، أن يقول لك حتى متى...

عسى سن، مصباح السماء والأرض، يقول لك، حتى متى.

عسى شمس، البطل، الإله الملتحي، ابن نينجال، أن يقول لك حتى متى.

عسى أيا، ملك الأعماق، أن يقول لك، حتى متى،...

عسى، دامينكا، ملكة الأعماق، أن تقول لك، حتى متى..

عسى صربانيتهم، كنة الأعماق، أن تقول لك، حتى متى.....

عسى...نابو، أن يقول لك، حتى متى....

عسى ابن أوراش البكر، أن يقول لك، حتى متى....

عسى...تاشميتوم أن تقول لك، حتى متى، وكن هادئاً

عسى الأميرة العظيمة، السيدة نانا، أن تقول لك، حتى متى

عسى بابا السيدة الموقرة، أن تقول لك، حتى متى...

عسى اداد ابن نانو آنو المحبوب، أن يقول لك، حتى متى...

عسى شالاً الزوجة العظيمة. أن تقول لك، حتى متى»

أيها الرب، الجبار الساكن في «ايكور» لتأتيك روحك الربانية بالراحة «أيا» من هو بطل الألهة عسى آلهة السماء والأرض أن تجعل غضبك يهدأ لا تهمل مدينتك نفر، أيها الرب، كن هادئاً، عسى أن يقولوا لك لا تهمل مدينتك سيار، أيها الرب، كن هادئاً انظر بعطف إلى بيتك، أنظر بعطف إلى مدينتك أيها الرب، كن هادئاً انظر بعطف إلى بابل وايساجيلا، أيها الرب، كن هادئاً.

مزلاج بابل وقفل ايساجيلا، وأجر ازيدا أعدّها إلى أماكنها أيها الرب.

كن هادئاً، عسى آلهة السماء والأرض أن تقول لك».

لدى تداعي أي معبد مخّصص لإله، كان ينتج عنه في إعتقاد السومرين والأكاديين هجر الإله لمعبده وبالتالي هجره للمدينة التي هو حاميها. وتداعي وانهيار المعبد، كان يستوجب الندب والنواح من قبل المكّلف بمرافقة طقس الترميم أو إعادة البناء وتلاوة الصلاة الملائمة لمثل

هذه المناسبة. والنّداب، وهو «الكالو» بالأكادية، هو الذي يتدخل أيضاً لدى استخراج أجرّة الأساس القديمة للمعبد المنهار ووضعها في مكان سرّي، وذلك قبل تخصيص أجرّة أساس المعبد الجديد. وعنه ذلك كان على «الكالو» تلاوة الصلاة التالية.

وهذه الصلاة تبدأ بالتذكير بزمن البدء وبتكوين النصفين المتناظرين السماء «العرق» وما يقابلها مما هو «تحت» وهنا «الإبو» لأن المتدخلين في عملية التكوين هما إله السماء آنو والإله أباء إله الخلق ومهارة الصنع ومعقّره الأبو.

على [المكلّف بإشادة] هذا البيت

ارتداء نساءٍ طاهر

وعليه أن يلبس في يده سواراً من القصدير

وأن يستعمل فأساً من الرصاص

ثم ننتزع [آجّرة الأساس السابقة]

ويتلو تفجعاً على المعبد

(و) يطلق «تحسّرات!»

بينما توضع هذه الآجّرة [في مكان]

محرم على من هو غير مؤهل بذلك

ومن محرقة البخور، على الكاهن – كالو

نشر وتصعيد روائح «التبخير، بينما» يتم على [الأجّرة]

نثر عسل وسمنٍ – دسم وحليب وجعةٍ من

النوع الممتاز، وخمر، وزيت حلوٍ.

بعد ذلك يتلو الكاهن على الأجّرة:

---

* قاسم الشوّاف/ ديوان الأساطير/ سومر كادواشور/ الكتاب الثاني/ الألهة والبشر/ قدم له وأشرف عليه/ أدونيس/ دار الساقي/ بيروت ١٩٩٧/ ص ٦٢
* قاسم الشوّاف/ ديوان الأساطير/سبق ذكره..ص ٤٢٥.

عندما آنو، خلق السماء

وخلق نوديمود الأبو مقرّه

استخرج إيا من الأبو حفنة من الصلصال

وخلق الإله كولاً للإشراف

على تجديد [المعابد]

«ثم» خلق المقاصب وغياض الشجر

«لتلبية إحتياج» مهمة بنائها

«ثمّ» خلق الآلهة نين – ابلدو ونين سيموج.

ولأن المعبد مكان الألهة وحاز قداسته من صلة الآلهة وإياه. فإن الأدب في العراق القديم يحتفظ لنا بواحدة من أهم الأحلام التي حدثت بين الإله السومري «نينجرسو» والأمير (جوديا) وهي رسالة له كي يبني معبده. ويقدم الإله وعوداً للأمير فيها الخير واستتباب النظام والوفرة والإستقرار.

وتكلم اللّه ذات مرة إلى النبي إشعيا في رؤيا. والرؤياشي أيشبه الحلم. رأى إشعيا في الرؤيا أن الله جالس على عرشه وحول العرش ملائكة كثيرون يسبحون الله قائلين: قدوس، قدوس، قدوس، الرب القدير. الأرض كلها مملوءة من مجده «إشعيا ٦:٣»



شكل ١٢
الأمير جوديا

وعرف الأدب في العراق القديم الأحلام والرؤيا باعتبارها وسيطاً مهماً في العلاقة بين الألهة والملوك. وعرف الأدب العراقي القديم كثيراً من الأحلام، ولعل أهمها ما تضمنته ملحمة جلجامش وكذلك الحلم الذي اقترن بالأمير كوديا والذي أمره فيه الإله «نينجرسو» من أجل المادة بناء معبده.

«كان نوم وارتجف جوديا، كانت رؤيا»

«صوب النائم تقدم نينجرسو وبيده لمسة، وقال له:

جئت لأنبئك بطقوسي طبقاً لنجوم السماء «نار سوف تلفح ذراعك فترفع عندئذ علامتي.

«أيها الراعي الأمين جوديا. عندما تضع يدك من أجلي سومر سوف تسكب الكثير من الزيت لأجلك. والحقول الفسيحة سوف يعلو زرعها من أجلك. وفي الليل، سوف يضيء القمر من أجلك. وفي النهار، الشمس الساطعة سوف تشع من أجلك. عندما تضع يدك على بيتي، بتأسيس بيتي».

الرجل البار الراعي الصالح جوديا والعهد الذي قطعه معه الإله السومري نينجرسو قسماً بنجوم السماء وهو ينعم عليه الوفرة ويجعل «أجره عظيماً» وجعل يده في خدمة الإله وبناء معبد له.

أيها الراعي الأمين، يا جوديا، عندما تضع يدك على بيتي آنئذ سوف أدعو السماء، لتمنحك المطر وأدعو الفيض لينزل إليك من السماء.

فينعم شعبك

بتأسيس بيتي سوف يأتي الفيض

الروابي التي لم يعل فيها الماء

سوف يعلو الماء فيها من أجلك

وسوف تهب ريح الشمال من أجلك

شفيق مقار/ الجنس في التوراة وسائر العهد القديم/ دار يعرب للدراسات والنشر/ دمشق/ ١٩٩٨ من الإله الأم إلى الإله الأب. ص ٣٨٨.

البرج في الأسطورة

والتوراة

«وكان لأهل الأرض كلها لغة واحدة وكلام واحد. فلما رحلوا من الشرق وجدوا بقعة من سهل شنعار، فأقاموا هناك، وقال بعضهم لبعض: تعالوا نصنع لبناً ونشويه شياً..فكان لهم اللبن بدل الحجارة والتراب الأحمر بدل الطين. وقالوا: «تعالوا نبني لنا مدينة وبرجاً رأسه في السماء، ونقم لنا أسماً فلا نتشتت على وجه الأرض كلها»

«ونزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونها فقال الرب: هاهم شعب واحد، ولهم جميعاً لغة واحدة، ما هذا الذي عملوه إلاّ بداية. ولن يصعب عليهم شيء مما ينوون أن يعملوه! فلننزل ونبلبل هناك لغتهم، حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض، ولهذا سميت بابل، لأن الرب هناك بلبل لغة الناس جميعاً، ومن هناك شتتهم الرب على وجه الأرض كلها».

سفر التكوين ١١: ١ – ١٠

ورد ذكر الزقورات في الأدب البابلي وأقدم إشارة تعود إلى الأمير «كوديا» ملك لكش في القرن الثاني والعشرين ق.م في جنوب وادي الرافدين، على مسافة زهاء «٥٠» ميلاً من مدينة أور فحاكم هذه المدينة السومرية يشير، ضمن مبان مقدسة أخرى إلى الـ «أي – يا» الهيكل ذي الطوابق السبعة، الذي أقامه لإله المدينة ننغرسو. ويليه ملوك عديدون يذكرون تشييدهم لمثل هذه المباني وغالباً ما يصوغون العبارات التي ينقشونها بلهجة من التفاخر والتباهي هذا ما يقوله مؤسس السلالة بالبابلية الجديدة «نابو بولاسر» ٦٢٥ – ٦٠٥ ق.م» عن البرج الذي رممه في مدينة بابل: «أمرين الرب مردوك بشأن» «ايتيمناكي» برج بابل المدرج الذي كان قبل زماني قد أصابه البلى والخراب، أن أوطد إسمه في حضن العالم الأسفلواجعل قمته كالسماء».

ويرد الملك قائلاً:

«أمرت بصنع الأجر، وكما الأمطار في الأعالي لا تقاسي أو التيارات الدافقة جعلت أنهراً من القير يؤتى بها بقناة أراهتو...أخذت قصبة وبنفسي قست الأبعاد «التي ستعطي البرج» ....اتبعت نصائح الألهة شمش واداد ومردوك، فإتخذت قرارات وحفظتها في قلبي وحفظت قياسات «البرج»...في ذاكرتي، الكنز. وضعت «في الأسس» وزمرد تحت الأجر ذهباً وفضة وأحجاراً كريمة من الجبال ومن البحر، وجعلته في الاسس، ولربي مردوك حنيت رقبتي وخلعت ردائي شارة دمي الملكي، وعلى رأسي حملت الأجر والتراب، وأما إبني البكر نبوخذ نصر، حبيب قلبي، فجعلته يحمل الطين وتقدمات الخمر والزيت برفقة أبناء رعيتي»

تبدو قداسة المكان واضحة جداً، ومتأتية من اختيار المكان للبناء ومن منحه صفة دينية، ذات قداسة، متأتية لها من تحديد مكان الكون ومركزه المتمثل بالزقورة كمكان ديني، حيث صارت سرة الماء فوق الأرض، وهي الوسيط المباشر الذي يترتب عليه إقامة الإتصال بين الأرض والسماء، أو بين السماء والأرض، وعندها تكون هي - الزقورة - المتلقية/ المستلمة لإشارات السماء/ المطلق/ المقدس. ولذا فإن الملك، أضفى قدسية على المكان/ سرة الكون عندما ساهم هو بالعمل في تشييدها، لأنه إليه ومبارك ومباركٌ ولهذا نزع رداءه، إشارة الخشوع والهيبة، لأن الملك لا يمكن أن يظل حاملاً علامته الملكية أمام ملك سماوي أكبر، لذا نزعها وارتضى بالإنصياع والقبول لسلطة الإله الذي يبحث هو الأمر ملك كل الملوك، وحامل سلطة مطلقة، لذا ارتضى الملك «نابو بولاسر» الذوبان والتلاشي تماماً في الذات الإلهية المطلقة، الذات التي اختارته ملكاً أرضياً. ومن علامات المقدس المتبدية في الزقورة، هو وضع الذهب والفضة والأحجار الكريمة في الأسس، تعبيراً عن جلالة هذا المكان المقترن مع الإله العظيم مردوك الذي طلب بأمره الإلهي إعادة بناء البرج والذي امتد عالياً نحو السماء، متناغماً مع الأعالي/ المطلق ونازلاً لآغوار العالم الأسفل/ جهنم..ليكون وسيطاً حيوياً ومتمتعاً بقداسة كبيرة في صعوده ونزوله، علاقته مع الرب في السماء وتجاوره مع الأرض التي تحت/ العالم الأسفل.

ومنذ البداية، كان للمقدس طقسه الخاص وعقائده الضرورية، لذا قدم الملك التقدمات التي هي الخمر والزيت، كلاهما مساعدان على استحضار القوة القدسية على الإنتشاء والتجلي باتجاه الواحد العالي، ومن خلال المسح والبحث عن الطهارة والنظافة.

في النقش السماوي الخاص بالملك «نابو بولاسر» تكرار لعدة ملامح في قصة التوراة التي ذكرناها، الآجّر المشوي القير، وبوجه خاص فكرة جعل القمة «كالسماء» فالقوم الذين ذكرهم الأصحاح الحادي عشر ذي عشر من سفر التكوين، استخدموا المواد الخام نفسها، وكان لهم الطموح نفسه، وكانت عملية البناء تتطلب موارد ضخمة من المواد وأعداد ضخمة من العمال.

أما الملك نبوخذ نصر ٦٠٤ - ٥٦٢ ق.م فإنه لم يستخدم رعاياه فقط، لقد كانت تلك الأيام، أيام السخرة وتجنيد العمال الأجانب وهذا ما دونه بهذا الشأن:

«كل الشعوب من أمم عديدة، أجبرتها على العمل في تشييد «ايتيمنياكي»...وأقمت المسكن

العالي لربي مردوك على قمته».

ويبدو أمر الإهتمام بالمقدس من قبل نبوخذ نصر متوارث من نابوبولاسر فعندما كان الأب ملكاً، أشرك إبنه في البناء والعمل، ويتبدى التروح نحو الإلهي في عمل نبوخذ نصر، الذي أشرك أعداداً كبيرة في العمل.



شكل ١٣ برج مراقبة في مزرعة كروم في فلسطين.

ما قاله هيرودتس عن برج بابل

لقد زار الرحالة المشهور «هيرودتس» بابل حوالي ٤٦٠ ق.م وروايته تحتوي على شهادة وثائقية، تفاوت الدارسون في تقييمها، وفي روايته نجد الفقرة التالية التي تشير إلى زقورة في وسط الهيكل، المكرس لزيوس - ببلوس بين برج متين، طوله ستاد واحد وعرضه ستاد واحد وعلى هذا البرج قام برج آخر، وعلى هذا قام برج كذلك، وهكذا، حتى كانت المجموعة ثمانية أبراج، بسلّم لولبي يحيط بها من الخارج وفي حوالي منتصف الطريق الأعلى ثمة مقاعد يستطيع القاعدون الجلوس عليها للإستراحة. وفي البرج الأعلى هناك هيكل عظيم، وفي الهيكل سرير عظيم، بديع الصنع والزينة، وقربة مائدة من ذهب، وليس هناك أي تمثال لمعبودولا يقضي الليل سوى إمرأة من أهل تلك البلاد، كلفها بذلك الإله بالذات، وهذا ما أخبرني به الكدانيون الذين هم كهنة ذلك الإله. ويحتوي البرج على سلمّين لسريرين أحدهما

موضوع في الطابق العلوي وطريق الوصول إليه بواسطة سلّم خلفي تستقبله زوجة الإله عند الإرتقاء إلى المكان المقدس والسرير السموات ويذكر الرقيم الطيني حول هذا بعض المعلومات إذ جاء فيه:

الفناء مسقف ومحاط بالدواليب وهناك من يترجم الكلمة الأخيرة بمزلاج الباب. إن فهمنا لروح هذا السطر كما يتطلب الحال يكون بالشكل الآتي:

الحجرة التي هي في العادة فناء كما يجب أن تكون هي ليست فناء بالمعنى الصحيح ولكنها مسقفة ومشيد فوقها الغرفة العليا التي يعتبرها هيرودتس الطابق الثامن من الذي يحتوي على السرير الذهبي.

وبالإمكان الإستعانة بنص هيرودتس وقراءة بعض العقائد لا بل أهمها تلك التي لها علاقة بالحياة والنظام وممارسة طقوس الخصب التي عرفها العراق القديم، واعني بها عقائد الزواج المقدس، والإتصال الذي يحصل بين الإله والآلهة أوبين الملك والكاهنة، حيث تتجسد من خلال ذلك تقاليد التطور والتجدد وانتظام الحياة واستقرار الملوكية. لذا فإن وجود الغرفتين في أعلى الزقورة، لا يعني إلاّ وجودهما خصيصاً لممارسة طقوس الإتصال الإدخالي المقدس، غرفة واحدة للأم الكبرى، المعنية بإنتاج الخصوبة والوفرة، والثاني للإله الذي يمثل القطب الآخر، وينوب عنها الملك والكاهنة. ويبدو أيضاً إهتمام البنية الذهنية الأسطورية في العراق القديم إهتماماً استثنائياً بهذه الطقوس لأنها خصصت لها مكاناً مرتفعاً في قمة الزقورة، حيث الصعود إليه بسلّم خاص ومما يؤكد على هذه الطقسية التي يشف عنها وصف المكان المقدس، هو وجود السرير الذهبي، سرير الإله مردوك ونائبه الملك الذي يقوم بتأدية طقس الإتصال الإدخالي مع كاهنة المعبد/ الممثلة للألوهة المؤنثة المعنية بإدامة الخصب واستمرار الإنبعاث.

والزقورة/ البرج هي المكان الذي حاز على قدسيته بإقترانه مع الإله، ومنذ اللحظة الأولى التي تم فيها إختيار مكانه فوق الأرض، إختيار تم بالإيحاء أو الإيعاز الإلهي، لأن الإله وهو في السماء يساهم بتحديد مكانه المقدس ويؤشر إليه، لأنه سيكون بيته المقدس. ولأن وجود البيت، يقتضي بالضرورة وجود الناس فيه، لأنه لا يكتسب وظائفه، إلاّ بتوفر عناصر أخرى مهمة، مثل التكون الأسري والإجتماعي. لأن البنية الذهنية في الشرق الأدنى – حصراً بلاد بين النهرين – لا تعتبر البيت مسكناً إلا من خلال توفر ساكنيه. لهذا نجد بأن بناء، البرج/ والزقورة قد خصص مكاناً في قمته، وتمثل ذلك كما وردت الإشارة له بوجود غرفتين، واحدة

للإله والثانية للآلهة أو من ينوب عنهما، لممارسة عقيدة الخصب، حتى تتحقق النسلّية ويكتسب المعبد وظائفه التي أشرنا إليها. لذا فإن الزقورة أو البرج هي المكان الرمزي الذي يمارس به الإله وممثله وظائف الحياة الأساسية، التي توفر له الخصب وربما كانت الذهنية العبرانية أكثر وضوحاً في العلاقة مع المكان/ البيت من البنى الذهنية الجزيرية الأخرى، حيث نجد كثيراً من النصوص في التوراة تؤكد على هذا الجانب، وتمنح المكان صفات وتضفي عليه عناصر لم تعرفها شعوب الشرق الأخرى ولعل أهمها، لا يجوز أن يحرم من بنى بيتاً من التمتع ببيته على التو.

في التوراة أيضاً، حيث تمكن الإنسان من التغلب وحسم الصراع لصالحه مع الحية.

«فقال الرب الإله للحية إذا صنعت هذا فأنت ملعونة من بين جميع البهائم وجميع وحش البرية على صدرك. تسلكين وتراباً تأكلين طول أيام حياتك. واجعل عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها فهو يسحق رأسك وانت ترصدين عقبه»

سفر التكوين ٣ : ١٥ – ١٦

في هذا النص اتضاح، حول أهمية الزرع الرمزي الذي حققه الإله وتجسد من خلال بني البشر وكل شيء مفيد وقد أكدت أسفار عديدة في التوراة على أن الإله زارع. وتمتد قدراته الخلاقة عبر الطاقة السحرية التي تمنع بها ممثلة فوق الأرض ودائماً ما يكون الملوك في الشرق تجسدات للإله السماوي.

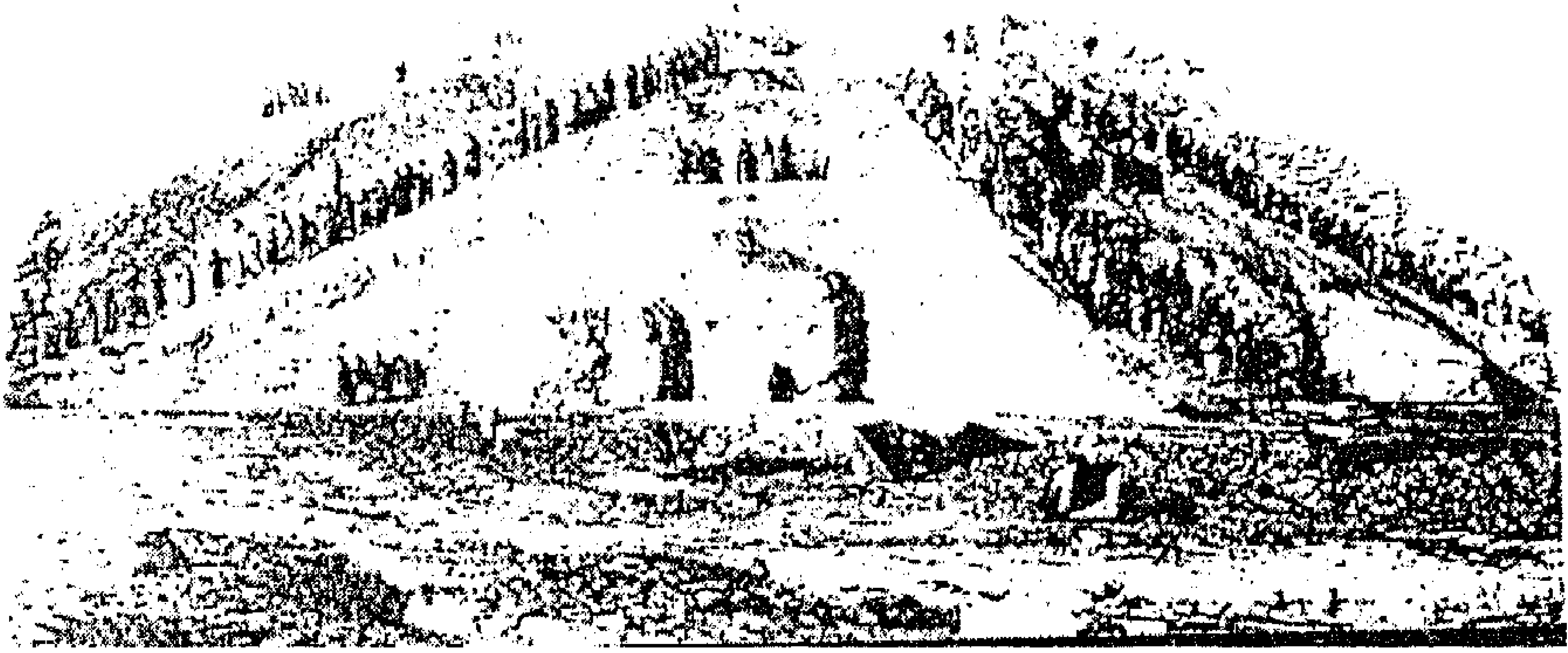
لماذا البرج ؟

قدم علماء الآثار والرحالة تفسيرات وتأويلات عديدة ومختلفة عن هذا النمط المعماري والفني والذي ساهم ببلورة تاريخ الفن في العراق القديم وكذلك في بلدان أخرى في الشرق الأدنى وخصوصاً في بلاد فارس وآسيا الصغرى وقد استطاع الأستاذ والعالم «أندريه بارو» من إختصار هذه الآراء والتأويلات:

* إقتران الزقورات بفكرة الدفن واعتبرت ضريحاً للملك أو الإله وهذا الرأي متأثر بالأهرامات المصرية وخصائصها الدفينة المعروفة. وللجغرافي (سترابون) رأي يؤكد فيه أن برج بابل كان ضريحاً لبيبلوس. وقد أشارت الكتابات المسمارية إلى شيء غامض وهو «كيكونو» والذي اعتبره الكثير أنه يعني «ضريحاً».

* التفسير الثاني: أعتبر الزقورة مفهوماً كونياً ورمزياً فبرج بورسيبا له إسم شديد الإيحاء ودار الأدلة السبعة للسماء والأرض.

أما النظرية الرمزية، فتتفق على بعض أوجهها «جانس والأب كرانج» وكلاهما يرى في الزقورة نموذجاً للأرض وأنها ملك الإله الخالص.


شكل ١٤خرائب برج أور القديمة وهي مدينة إبراهيم

ويختتم (أندريه بارو) كلامه عن البرج:

إن برج بابل هو كاتدرائية العصور الغابرة، بل أنه أكثر من ذلك، لأن البشرية عندما شيدت الكاتدرائيات كانت قد عرفت الرؤيا المسيحية. وفي الألف الثالث ق.م، كان الجنس البشري لم يزل يتلمس طريقه، ولكن الناس كانوا قد بدأوا يضمون أيديهم في وقفة الصلاة ويرفعون أعينهم بالسليقة نحو السماء.

البرج، بناء قوي لحماية الذين يحتمون فيه وأيضاً يتحصن فيه السكان ضد العدو المهاجم ويقام البرج عادة على سور المدينة ويحرسه حراس أقوياء، ويوجد به رقيب ليعطي تحذيراً بالبوق إذا رأى خطراً وكانت توجد أبراج في أسوار أورشليم:

«اللهم قد ذكرنا رحمتك في داخل هيكلك.تسبحتك يا اللّه مثل أسمائك في أقاصي الأرض ويمينك مملوءة عدلاً. يفرح جبل صهيون وتبتهج نبات يهودا لأجل إحكامك. طوفوا بصهيون ودوروا حولها. عدوا بروجها. أميلوا قلوبكم إلى متاريسها وتأملوا قصورها لكي تحدثوا بها جيلاً بعد آخر».

سفر المزامير ٤٧:

ويعبر البرج مجازاً عن قوة الحماية: إسم الرب برج حصين يركض إليه الصديق [١م ١٨: ١٠] ووردت إستعمالات للتشبيه والتغزل بالمعشوقة:

«عنقك برج من العاج

وعيناك كبركتي حشبون

عند باب بيت ربيم

أنفك كبرج لبنان»

نشيد الإنشاد ٧: ٢ – ٦

وتضمنت التوسلات المسيحية لمريم العذراء إشارة صريحة جداً

«يا برج دواد

صلي لأجلنا

يا برج العاج

صلي لأجلنا»

أخيراً، لقد أكدت الدراسات الأثارية على أن البرج، مكان مرتفع يؤدي فيه الكهنة طقوسهم الدينية المرتبطة مع إله المدينة وكان في أوربرج مشهور، وفي بورسيبا وبابل أيضاً. وكان البرج مركزاً لكل النشاط الديني، وتجري حوله الإحتفالات السنوية الخاصة بالعيد الديني المكرس لأحد الآلهة.

ولا بد من نص قديم للإستعانة به في إيضاح العلاقة التي كانت قائمة بين الملك والبرج/

الزقورة -/ المكان المرتفع وما تمثله تلك العلاقة في درجة قداستها. وسيكون أول النصوص نص خاص بالملك بنوبولاسر.

وقد ترجم النصين المسماريين العالم المعروف فايسباخ.

إسطوانة نبوبولاسر

«إني نبوبولاسر، صاحب السلطة في بابل، ملك بلاد السومرين والأكديين، الحاكم العزيز الذي يأخذ بيده كل من الإله نابو ومردوخ المتواضع البسيط، الذي تعلم من تلقاء نفسه خشية الإله والآلهة المهتم بأمور «إيساكيلا» و «إيزيدا» الذي يتفقد معابد الآلهة الكبيرة. وبناء على أمر الإله نابو ومردوخ اللذين يحبان ملكوتي، وبالسلاح القصبة القوية المخيفة «لايرا» الذي أباد أعدائي، قضيت أنا على السوبارتو وحولت بلادهم إلى خرائب وانقاض، آنذاك: أمرني مردوخ السيد «اتيمينانكي» البرج المدرج لمدينة بابل، الذي آل إلى السقوط قبل عهدي، أسطوانة نبوخذ نصر آرسي جدران الأسس في الأعماق».

اسطوانة نبوخذ نصر

«....آنذاك صليت لمردوخ، السيد العظيم، البطل القوي، النور الساطع الذي يبهر الآلهة، آباؤنا، سكن في ايساكيلا، سيد بابل، السيد الكبير، سيدي، واتمنياكنكي، البرج المدرج لمدينة بابل، الذي قام بتنظيف موقعه بنوبلالاسر، ملك بابل، والذي بفن التعاويذ وحكمة الآلهة أيامرودوخ وضع حجر أساسه وجدرانه الخارجية الأربعة بالقير والطابوق بإرتفاع «٣٠» ذراع».

وبالإمكان قراءة ما هو مشترك ومغاير من الإسطوانتين.

* الأب نبوبولاسر، ملك بابل وابنه نبوخذ نصر قد اهتما بالبرج/ باعتباره مكاناً مقدساً، يمثل السلطة الدينية في المدينة الكبيرة، مثلما تتجسد به ومن خلاله الألوهة وسلطتها وقد أكد نبوبولاسر على سلطته بإعتباره ملكاً لبابل وبلاد السومريين والأكدين وهوَ ملك، محمى بنابو ومردوخ، وأخذا بيده وحسما الصراع لصالحه الإله مردوخ أكبر الآلهة وسيدها والذي حسم الصراع لصالحه في السحرية. ويكشف نص الملك/ الأب مناصرة مردوخ والإله الشيطان «إيرا» الذي أباد أعداء الملك وتحولت بلاد السوبارتو إلى خرا ئب..لقد وجد هذا الملك البرج/ الزقورة آيلة للسقوط...أي أن الذي سبقه لم يهتم به.

* ويبدو الأمر مترابطاً ومستمراً بين الملك الأب والملك/ الإبن الذي صلى لمردوخ، الإله

والسيد العظيم، وسط مجلس الآلهة الذين حاز على عناصرهم وخصائصهم. ويتفق النصّان على أن من مدينة بابل، برج ومدرج، ومثلما أشار لذلك هيرودتس وقد وضع في أسسه الأربعة القير والطابوق.

ويكشف النصّان بقاء سلطة الإله «نابو» متمركزة، في هذا الإله الشعبي الذي يبعد قليلاً عن بابل، لم يستطع عليه الإله مردوخ في كل الصراعات التي خاضها معه، وظل الإله «نابو» صامداً وقوياً ولم يتعطل مثل الآلهة الأخرى، التي حاز على عناصرها وتعطلت تماماً. لأن مردوخ، هو الذي يقوم بوظائفها، وهي بذلك قد ماتت موتاً معنوياً عندما خسرت خصائصها، واعتقد بأن سبب بقاء الإله نابو قوياً وصامداً متأت من:

١ ـ يمثل نموذجاً للإله الشعبي الذي حاز على قاعدة واسعة من الناس وخصوصاً الفقراء وهو بذلك غادر دائرة الديانة الرسمية المعروفة في العراق، ديانة تخضع لتحولات مستمرة، ارتباطاً بالتغيرات الحضارية والسياسية.

٢ ـ كان نابو إلهاً للنسخ والكتابة والحكمة، ومثل هذا النمط تصعب هزيمته. لذا ظل ولم يستطع مردوخ البطل العظيم عليه وعندما وجده هكذا ارتضى حيازته إبناً له وكان يدّون اسم مردوخ وأولا يكون نابو [أي نابو مردوخ].

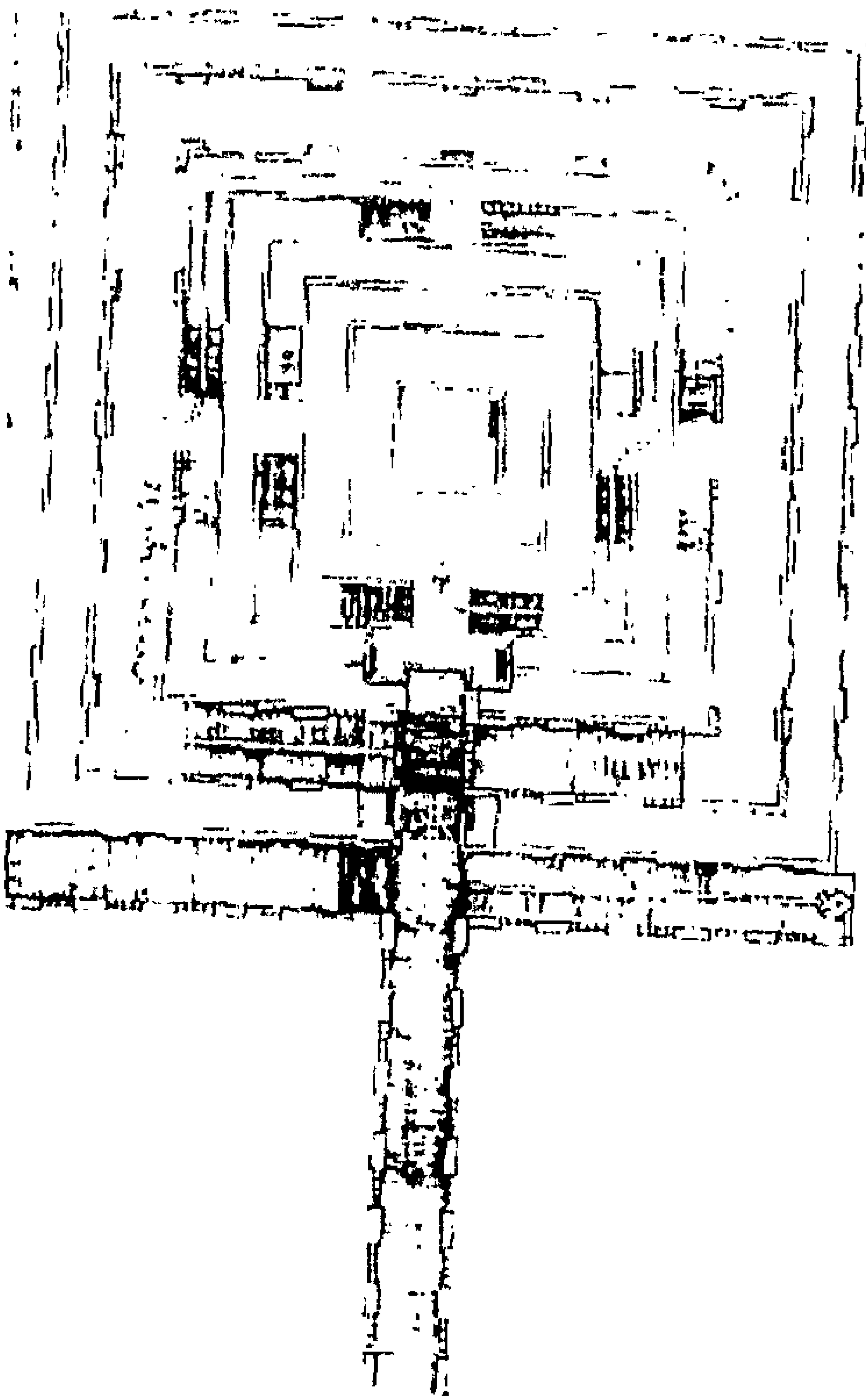
٣ ـ وجود المدرج في البرج، يؤكد الصعود إلى قمته، نحو الغرفتين الموجودتين والمخصصتين للإله والآلهة أو من الملك والكاهنة واللذان ينوبان عنهما، من أجل ممارسة عقائد للإتصال المقدس

٤ ـ نستنتج بأن ارتفاع البرج «٣٠» ذراع والبناء مثل الصندوق وهو من الطابوق والقير. نص نبوخذ نصر الكامل يكشف لنا تكرار خشب الصنوبر وكسوته بصفائح البرونز. ويعتقد العالم «فريتزكريشن» بأن مثل هذا البناء الضخم له سقف مقوس. وغرف المعبد العلوية مسقفة بالأخشاب.

إن مخطط المعبد يختلف كثيراً عن مخطط بقية معابد القطر، إذ تتجمع الغرف في هذه المعابد حول ساحة وسطية ويدخل المرء إلى الحجرة المقدسة بواسطة بوابة كبيرة. أما معبد «اتمينانكي» فعلى العكس من ذلك، إذ أنه يحتوي على أربعة أبواب خارجية موزعة على الأضلاع الأربعة وتتجه بإتجاه الجهات الأصلية الأربعة لذا فإن الدخول يكون عن طريق الشرفات أو الممرات المحيطة بالمعبد وليس من الساحة الوسطية.

يعتبر الباحث الأثاري «هنري لايارد»

أول من درس ونقب في زقورة نمرود ١٨٤٥ - ١٨٥١ ولكن ا لبحث الأثاري، كان يومئذ في طفولته، وما نستطيع الإشارة له من نتائج قليل جداً. ولكن في أواخر العشرينيات، تراكمت المعلومات وصارت وفيرة، ونشر المستشرق الألماني «أي اوبحن» دراسة عن برج بابل رأى فيها أن ثمة أنماط من الزقورات يمكن تمييزها



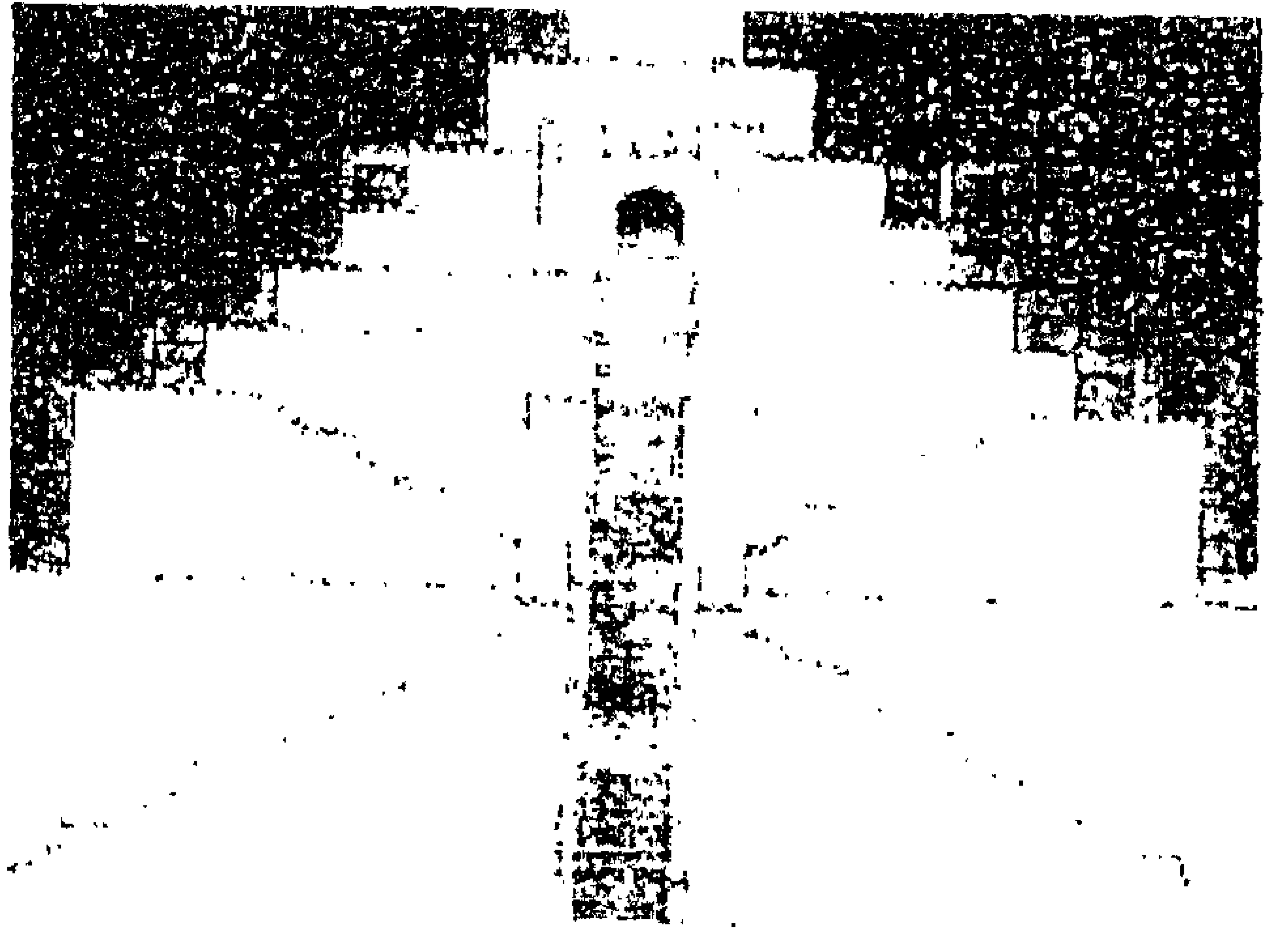
شكل ١٥مخطط تخيلي برج بابل

١ ـ النمط الأول:

المستطيل، وهو في الجنوب: أور، أوروك، نيبور، الصعود بواسطة السلالم.

٢ ـ النمط الثاني:

المربع وهو في الشمال: أشور، كالح، نمرود، خورسباد، كار - توكوتي - ننورتا، الصعو بواسطة المنحدرات.



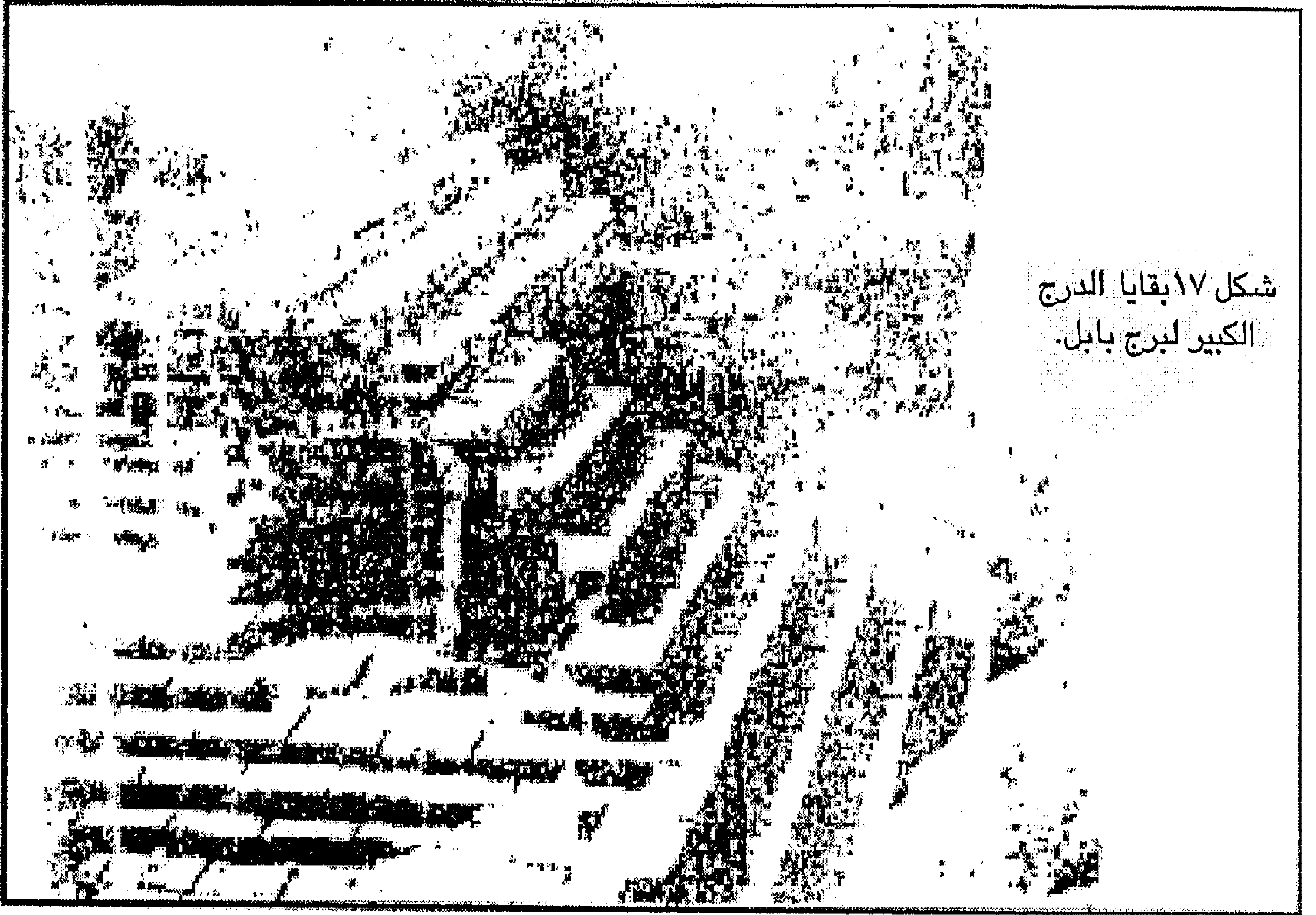
شكل ١٦برج بابل،
منظر من الجنوب.

٣ ـ النمط الثالث:

المندمج، وهو عكس قاعدة مربعة «النمط الشمالي» الصعود إلى الطوابق السفلى بواسطة السلالم، وإلى الطوابق العليا بواسطة المنحدرات، وأكمل نموذج لهذا الإندماج نجده في برج بابل.

٤ ـ النمط الرابع:

الهيكل وهو على شرفة عالية.



شكل ١٧بقايا الدرج الكبير لبرج بابل.

أساطير بابل والتوراة

أشار يوسيفوس بأن أحد أحفاد سام ابن نوح «نمرود» أصبح سيّد الأعمال، بعدما حاول جاهداً إقناع الأكثرية تسليمه إدارة المشروع، مؤكداً أنه السبيل الوحيد للخلاص من اللّه وهو وحده قادر على حمايتهم من غضب الرب. لو حاول العالم بطوفان جديد.

وكان يطمح نمرود لبناء برج عال جداً لإتطاله المياه أبداً وذلك للإنتقام لإجداده الذين

ويضيف (يوسيفوس): إن الأكثرية كانت تعتبر الخضوع لله ضعفاً فانساقت وراء وعود نمرود المجنونة وتداعت لبناء البرج بنشاط غريب وتشاركت مجموعات عمالية عديدة في العمل، فانتهى العمل قبل الوقت المحدد لبنائه، وكان مرتفعاً إلى حد قمته لا تكاد تُرى بالعين المجردة وبدلاً من الحجارة، استعملوا اللبن والصقوه بدلاً من الطين بالخمر وهي مادة كيماوية معدنية طبيعية، خوفاً من أن تذهب بها الماء فيسقط البرج كله، ولما عرف الرب بالمبادرة المجنونة بعدما فشلت دعاءات آبائهم بردّهم إلى الصّواب، لم يرديهوه أن يحميهم كلياً، فاكتفى بزرع الغرفة بينهم من خلال إجبارهم على التحدث بلغات عدّة.

أحد المطلقين المسيحين على (يوسيفوس)، سأل بكل بساطة «إذا كانت غاية نمرود بناء برج يحمي بابل من طوفان جديد، فلماذا لم يبنه على جبل عالٍ؟ وهل يمكن بناء مدينة في السّهل لحمايتها من الفيضان؟

أشار الأستاذ «جان صدقة» في كتابه «رموز وطقوس» إلى أن الرجال في مرحلة بناء البرج، كانوا يفكرون أولاً بحماية أنفسهم بحيث لا تحرقهم النار، ولا تغرقهم الماء وكانت الطبقات مفصولة عن بعضها من الداخل، بحيث تبدو أكثر فعالية في مواجهة أي إعتداء وكان نمرود قد خطط لبناء تمثال في البرج يستشرف المستقبل ويوزع النصائح ويحمي المدينة بأجنحته، ويبعد عنها إلى الأبد الماء والنار والفيضان وقادر على مواجهة أي محاولة تدمير وفي هذا كله، نلاحظ فقط عامل الخوف من فيضان جديد. أما من الناحية العملية وبعيداً عن تفاصيل الكتاب خطط البناؤون كي يصل برج بابل، أولاً، إلى السماء، فيدخل في علاقة مع الألوهة.

يتابع (يوسيفوس) قائلاً: إن البرج كان عالياً جداً بحيث أن مواد البناء المرسلة من الأرض، تحتاج إلى سنة كاملة كي تصل إلى البنائين في القمة، وفي أثناء البناء كان العمال يطلقون سهاماً عدة في وجه السماء، لكن السهام كانت تسقط عليهم مغمسة بالدم وعند سقوطها، كان العمال يعتقدون أنهم قتلوا من يسكن في الأعالي لكن ذلك، كان مخطط الرب كي ينفيهم من على وجه الأرض.

---

* شفيق مقار/ قراءة سياسية للتوراة/ دار رياض الريس/ لندن/ ١٩٩١/ ص ١٩٩.

** شفيق مقار/ قراءة سياسية للتوراة/ سبق ذكره...ص ٢٠٠.

وأكد (يوسيفوس) تدمير البرج الذي كان عملية عجائبية انفتحت الأرض وابتلعت ثلث البناء، ثم سقطت نار وحرقت الثلث الثاني. أما الثلث الباقي، فما زال متداعياً. ومن يصعد إلى قمة الخراب البرج ممكن أن يشاهد أشجار الغابة لحجم الجرار.

أما بيروس – مؤرخ وفلكي كلداني - الذي عاش في القرن الخامس ق.م فقد قال: إن الرجال الأُول كانوا يعتمدون على قوتهم وجبروتهم ويحتقرون الآلهة ويؤمنون بتفوقهم عليها. فبنوا برجاً عالياً على أرض ولما اقتربوا بالبرج من السّماء سارعت الرّياح إلى نجدة الآلهة وقلبت البناء على العمال بذلك يُسمى الركام بابل وحتى ذلك الحين، كان الرجال يتكلمون لغة واحدة، لكن الآلهة أجبروهم على التحدث بلهجات مختلفة.

أخيراً لا بد من الإشارة لكلام «دانيال روبس» في كتابه المهم «التاريخ المقدس»: إذا كانت مصر عطية النيل فإن فيروبدتاميا هديّة دجلة والفرات، لكنها هدية مشكوك بأمرها، إذ هناك مساحات كبيرة لا تغطيها هذه المياه الخالدة غريبة فيروبوتاميا في البداية، جنة عدن، ثم صحراء، واليوم هي العراق الغنّية والطيبة والفاعلة بذهبها الأسود.



شكل ١٨خرائب برج أور القديمة وهي حسب سفر التكوين مدينة إبراهيم الأولى

* شفيق مقار/ قراءة سياسية للتوراة/ سبق ذكره...ص ٢٠١.

ولإيضاح وجهة النظر اليهودية، سنشير إلى رأي الحاخام (مرجنشترن*) والذي قال فيه:

إذا كان الجنس البشري كله انحدر من صلب رجل واحد كما تقول التوراة. وكما يعتقد الكثيرون حتى الآن. فكيف تفرق البشر شعوباً وأمماً وكيف حدث أن باتوا يتكلمون لغات مختلفة؟ هذه أسئلة مثيرة للإهتمام ما زال العلم يحاول الإجابة عليها. لكن حكاية برج بابل الصغيرة في التوراة تضمنت على ما اعتقد اسلافنا إجابه شافية على كل هذه التساؤلات. والإجابة، بطبيعة الحال، جاءت على شكل حكاية فولكلورية لطيفة لأن أسلافنا بطبيعة الحال، لم يكونوا يعرفون شيئاً عن العلم، ولم يكن بوسعهم بحث تلك المسائل علمياً أو التوصل إلى إجابات علمية لها.

وهكذا فإن الحاخامات القدامى كانوا يعلمون أن النوع البشري ظل بعد الطوفان يعيش سعيداً في سلام ووفاق ومحبة «فالعصر الذهبي هنا عاد إلى عالم ما بعد الطوفان* ولماذا؟ «لأنه لم يكن هناك غير شعب واحد يتكلم لغة واحدة. تلك اللغة، أول لغة عرفها البشر. واللغة التي كان الله ذاته وملائكته يتكلمون بها فيما بينهم، كانت العبرية، كما كان آباؤنا يعلمون. ولذلك، ولان التوراة كتبت بها، عرفت بإسم «اللغة المقدسة».

ورغم إعجابه البالغ** بالحكمة العظيمة في تلك الحكاية الفولكلورية يبدي الحاخام الملاحظات التالية عليها:

فيما يتعلق بالقول: في إرتحالهم شرقاً، يبدو ذلك غامضاً ولا سبيل إلى تحديد معناه، فهو يوحي بأن النقطة التي بدأوا منها مسيرتهم لم يكن جبل أراراط بأرمينيا، بل بالأحرى، عدن التي يخبرنا سفر التكوين قبل ذلك أنها كانت في أقصى الشرق.

أما فكرة بناء برج ورأ سه في السماء فيحتمل أنها نشأت من معاينة المعابد البابلية التي كانت تبنى عادة على شكل أهرامات ضخمة أو أبراج مدرجة «الزقورات» ولا بد أن ارتفاعها كان يصل إلى مائتي أو ثلاثمائة قدم. وبالنسبة للبدو الرحّل الخارجين من الصحراء العربية وهم أناس كانوا معتادين على رؤية الخيام والعيش في أحقر المساكن. لا بد أن تلك الزقورات

العربية فشاهدوا بأنفسهم أبراج البابلين أو سمعوا عنها من البدو الرحل الآخرين [والحاخام الشاطر يحاول هنا ـ مرة أخرى – استخلاص مكسب ما من هذا الإعتراف الذي إضطرته الحقائق العلمية إليه. فيقول: وعندما كان الإسرائيليون بدواً يجوبون الصحراء. وقد وصفتهم التوراة ذاتها بـ «الأراميين التائهين».]

أما القول بأن الرب نزل لينظر المدينة والبرج فمعناه الواضح أن الإله كان يسكن السماء وأنه ما كان يشاهد ما كان يجري على الأرض كان يتعين عليه أن ينزل إليها من السماء.

ومن الواضح طبعاً أن تصور الألهة لم يكن قد وصل، وقت تأليف الحكاية، إلى المستوى الروحاني الرفيع الذي وصل إليه فيما بعد في «إسرائيل».

أ ما استخدام إسم بابل هنا فخاطئ تماماً. فهو إسم المدينة التي تقول الحكاية التوراتية أن كل البشر كانوا يتكلمونها، ولا سبيل إلى تفسيره تفسيراً صائباً إلاّ من اللغة البابلية، وهو بالبابلية يعني «بوابة الإله» أو «بوابة السماء» أما استخدام الإسم بالمعنى الذي استخدم فيه في الحكاية التوراتية فلا منشأ له إلاّ الحكاية الفولكلورية ولا سند له من التاريخ.

إن اعتراف الحاخام (مرجنشترن) بالتخلف الذي كان عليه العبران، يعد ضربة قوية لكل الإدعاءات العبرانية، التي كثيراً ما تتكرر وبشيء من المغالاة والتطرف. لأن الحاخام يدرك بشكل جيد وواضح بأن العبران «شعب» رعوي يحمل خيامه معه وينصبها أينما أراد، إرتجالاً مع الماء والكلأ، وصُدم فعلاً وهو يرى الأبراج العالية جداً، وعند ذاك عرف الفرق الشاسع بين حضارة بابل وبين رعويته وتخلفه الكبير، لهذا ظلت صدمة المشاهدة الأولى مستوطنة ذاكرة العبران، ومعشعشة فيها ولم يتخلصوا من ضغطها إلاّ بعد صياغتهم للأسطورة التوراتية المعروفة والتي لم تنطلٍّ على القارئ أو الباحث، وهذا ما اعترفت به الدراسات الموضوعية. وكانت أسطورة البرج علامة على عمق تأثرهم بالحضارة العراقية القديمة مع كثير من المصادر الأدبية التي انتجوها مرة ثانية، ومثلما حصل مع مفردات الحضارة المصرية والسورية والكنعانية.



شكل ١٩كلكامش منتصراً على الأسد.

الجبل في الأساطير

العراقية

سنحاول قراءة الجبل/ كمكان مقدس في نص أسطوري مشهور جداً ويعتبر أقدم نص أدبي أنتجته الحضارة البشرية عبر تاريخها، ويعتبر إلى الآن واحداً من أهم النصوص الملحمية التي استطاعت صياغة العناصر الدينية التي عرفها العراق القديم قبل ٣٥٠٠. إن الحضارة السومرية المتشكلة في جنوب العراق، هي التي صاغت جينولوجيا هذا النص الملحمي «من خلال الأساطير السومرية الخمس وهي» أنانا. جلجامش وشجرة الخالوب وجلجامش وأجاو جلجامش وغابة الأرز وجلجامش والموت. ولأهمية جلجامش ملكاً وبطلاً أسطورياً، أنتجت حوله البنية الذهنية الطرفية عدداً من الأساطير التي أشرنا لها واستطاعت الحضارة الأكدية ٢٥٠٠ ق.م أن تعيد إنتاج الأساطير التي أشرنا إليها لتصوغ فيها أول ملحمة في التاريخ البشري، وتعتبر إلى الآن أعظم عمل أدبي، مارس تأثيراً وهيمنة على الآداب الشرقية وكان تأثيرها واضحاً، وانعكس ذلك على بعض الديانات ومنها العبرانية حصراً وهذا ما يمكن ملاحظته في التوراة التي قال عنها العالم الفرنسي الشهير (جان بوتيرو): التوراة هي إعادة لملحمة جلجامش. أي بمعنى توزيع النص الطرفي القديم. بين الأسفار والإستفادة من العناصر الدينية في النص والعقائد والطقوس، حتى وصل الحد بالأسفار التوراتية، أن تعيد نقل وترحيل وظائف كاملة عرفتها الحضارة العراقية القديمة عبر مراحلها منذ حضارة السومرين في جنوب العراق وحتى الحضارة الآشورية، وهذا ما أكدت عليه الكثير من الدراسات التوراتية التي نشأت وتبلورت بعد ١٨٧٢ حينما تم اكتشاف لوح الطوفان أثناء تنقيبات في نينوى. ولأن هذه الدراسة معنية بالمكان المقدس الذي تبلورت خصائصه في الحضارات الأولى والتي كانت الحضارة العراقية واحدة منها، استعنت بنص ملحمة جلجامش لقراءة الجبل بشكل سريع والكشف عن وظائفه الدينية والسياسية - أيضاً - والمتغيرات الحاصلة فيه وعليه خلال التطور الحاصل في الديانة العراقية القديمة، حيث يتم الإنتقال من مرحلة إلى أخرى وترتحل مع جديد وظائف وتلغى أخرى، وتستحدث وظائف جديدة. واعتقد بأن الديانة السومرية هي أول الديانات التي ساهمت برسم حدود المكان في الطقوس والعقائد ومنحته صفته المقدسة. ولهذا ستكون «ملحمة جلجامش» مجال القراءة في التطبيق وإيضاح الطريقة التي اشتغلت بها البنية الذهنية وقدمت تجسداً من خلال الأساطير

* لدينا مخطوط «المسكوت عنه في ملحمة جلجامش. درسنا فيه النص وكشفنا عن البنى الفكرية المغيبة والتي كشفت عنها العلاقات الداخلية والمتكونة في الملحمة.

* ستيفاني دالي/ أساطير من بلاد ما بين النهرين/ ت.د. نجوى نصر/ دار بيسان/ بيرنوت/ ص ٩٣

والآداب والطقوس والمعتقدات.

بعد دخول انكيدو إلى مدينة أوروك مصطحباً من قبل كاهنة الرغبات «شمخث» وحصل الصدام الأول بينه وبين الملك جلجامش الذي كان ينوي الدخول إلى المعبد وممارسة طقس الإتصال الإدخالي، باعتباره حقاً من حقوق الملك. أنه واجب الليلة الأولى. وبعد الصدام الحاصل بينهما، نشأت صداقة تعمقت. ووجد الملك جلجامش فرصته لاستكمال مهامه ووظائفه المعطلة، إعتماداً على قوة انكيدو وشجاعته. وكان من أواليات تلك الأدوار المرسومة له من قبل الإله «شمش» هو السفر إلى غابة الأرز. باعتبارها واحدة من الأماكن المقدسة والتي منحتها القداسة، الألوهة المؤنثة. لذا توجب على الملك جلجامش أن يسافر إلى هناك للقضاء وتصفية الرموز والعلامات الدالة على الألوهة المؤنثة، لأن مرحلتها الحضارية قد انتهت وتعطلت سلطتها بإنتاج الثقافة والفكر* لذا يجب على كليات المرحلة أن تتوصف بشكل جديد ومن هنا جاء قرار الرحلة إلى غابة الأرز للقضاء على الرموز الموجودة هناك والقضاء عبرها على سلطة الألوهة المؤنثة.

«وهناك» حفرا بئراً أمام شمش*

[وملأ] القِرَبَ بالماء

وصعد كلكامش إلى قمة الجبل

وقدم قربان الطحين إلى [ ]

أيها الجبل، إبعث إليّ حلماً، حلماً حبباً

كان أنكيدو ربّب (؟) له الأمر لكلكامش

ومرَّ بهما شيطان غبار، وهو الذي ثُّبتَ (؟) [ ]

جعله يستلقي داخل دائرة و [......]

يوفر هذا النص أول فرصة للقراءة المعنية بالمكان المقدس/ الجبل باعتباره مكاناً مرتفعاً، حيث يكون الجبل أقرب الأمكنة للإله شمش أثناء ظهوره وارتبط الجبل مع الإله شمش، ويظهر شمش في عدد من الأختام الأسطوانية وهو يخترق الجبل من جهة الغرب/ الظلمة ليغادرها نحو الشرق/ الحياة – النهار.

ويتناوب المكان المقدس مع رمزه الإلهي. ويكون ممثلاً له وعليه عناصر الألوهة يضاً. لذا وجه جلجامش كلامه إلى الجبل من أجل أن يرسل له رسالة، تنبئ عن مستقبل سفرتهما...لأن الألهة دائماً ما تكون مبلغة رسائلها إلى بني البشر والملوك عبر الأحلام وعرف الأدب الطرفي القديم عدداً مهماً وخطيراً من الأحلام، منها حلم كوديا وسنحاريب مثلاً. لذلك صعد الملك جلجامش إلى قمة الجبل، باعتبارها أعلى مكان عليه وقدم قربانه الزراعي للإله شمش. إنه قربان الطحين وقال له متوسلاً:

أيها الجبل، ابعث إليّ حلماً، حلماً محبباً

وفعلاً، استجاب الجبل/ المكان المقدس إلى طلب جلجامش، وكان مؤكداً فعل الإستجابة، لسبب مهم وحيوي، هو ارتباط الإله شمش مع التحولات الفكرية والدينية التي حصلت وستتعمق في البنية الذهنية الأسطورية. واقترن شمش مع الجبل في الأساطير والنصوص الدينية.

يا صديقي، إن حلمك محبّب*

ولهذا الحلم مدلول لهم [ ]

يا صديقي، فالجبل الذي أنت شاهدته

[ ] يعني

سوف نقبض على خمبابا وننحره

ونلقي جثته فوق الأرض اليباب

وعند بزوغ الفجر، سوف نسمع الكلام

المحبب من شمش

ويبدو من خلال النص، الإختلاف في معنى الجبل كرمز ديني، لقد ارتحل معناه ومضمونه الديني إلى مدار إجتماعي، حيث اقترن الجبل باعتباره مكاناً ثابتاً وقوياً ومتماسكاً بالوحش خمبابا، الوحش القوي جداً والذي تكفل بحراسة وحماية غابة الأرز، مكان الألوهة

* ستيفاني داني/ أساطير من بلاد ما بين النهرين..ص ٩٤.
* ستيفاني داني/ أساطير من بلاد ما بين النهرين ص ٩٧.
* سنيفاني داني/ سبق ذكره/...ص ٩٨.

المؤنثة/ عشتار. ولا بد من الإشارة إلى تداخل العلامة السيميائية مع بعضها حيث كان المدلول الأول، هو الإله شمش والمدلول الثاني المجازي هو الشيطان الشرير خمبابا. وسنجد لهذا الدال معان عديدة يتشكل المعنى من خلال إنتظامه في سياق والسياق هو الذي يرشح عن المعنى المحدد. وهذا الإختلاف والتباين الحاصل في الدال هو الذي يوسع مجال قراءة الدال ويمنحه تنوعاً ويوفر له أيضاً – عند القراءة – مستويات جديدة، وعديدة.

والمدلول الآخر للجبل، هو المتاعب والمشاق الصعبة جداً. وهو مدلول واقعي ومجازي، مجازي بمعنى الأسطورة وعلاقتها بالمجاز والرموز الكثيرة.

اسمع كلكامش صوتَه وتكلَّم، وقال لأنكيدو:*

لماذا، يا صديقي، [نتكلم (؟) كالجبناء؟

باستطاعتنا أن نجتاز جميع الجبال

وهنا، تبدو مفهومات الجبل حياتيه، واقعية، مثلما تجسد العديد من المدلولات المجازية، وهي حتماً موجودة، وذلك للصلة ما بين المجاز والأسطورة.

وتؤكد ترجمة (ستيفاني دالي) جغرافية النص الملحمي، الجغرافية التي ظلت غائمة في الترجمات العديدة الأخرى. إلاّ أنها ولأول مرة تكون واضحة ومحددة ومحصورة في لبنان مرة وفي بلاد الشام – فلسطين مرة أخرى كما في هذا النص:

ولما كان جبل الزيتون، مواطن الآلهة. ومزار ارنيني* أثمرت أشجار الزيتون بوفرة حتى في سفح الجبل لم تعرف المنطقة الشمالية في العراق القديم زراعة الزيتون أبداً وما يعنيه النص، هو جبل الزيتون في كنعان. وهو موطن للآلهة وهذه الإشارة تقدم لنا مقاربة عن الحضارة الكنعانية ومرحلتها التقريبية، وعلى الأقل مرحلة إنتاج المرحلة وتحريرها لذا كان جبل الزيتون الكنعاني مكاناً للآلهة. التي اختارت مكاناً حقيقياً ووصفته بالقداسة. هل الآلهة غادرت مكانها السماوي إلى الأبد؟ أم أنها تختار مكاناً متوزعاً بين السماء والأرض [الجبل] وهو الأقرب إلى الأرض. كما أن هذا النص، يفصح عن زيارة الآلهة «عشتار/ ارنيني» إلى جبل الزيتون. وهل الزيارة لها وظيفة عشتارية؟ أم أنها ذات صلة بشجرة الزيتون، والتي ربما

حازت على عناصر مقدسة من زمن بعيد. الجبل، هذا، جبل مقدس وقداسته طاغية، لأنه مكان الآلهة ومزار الآلهة عشتار ولهذه الصفة فإن أشجار مثمرة، حتى تلك التي في السفح.

والجبل مكان للوفرة والخصب والإنبعاث، لأن صفته القدسية وسيلة استدعاء لهذه الوظائف.ولذلك حاولت أنانا/ عشتار إغواءه وإغراءه حتى يتزوجها،

ستلثم قدميك العتبة المدهشة الصنع*

وسينحني أمامك الملوك، والنبلاء، والأمراء

وستغدق عليك الجبال والأرياف النضرة (؟) محاصيلها.

ص ١٠٤

وتتنوع صفات الجبل في البنية الذهنية الطرفية، كما قلنا قبلاً وتقدم هذه النسخة من نص الملحمة معلومات عديدة، وجديدة ولعل أهم هذه المعلومات ماله علاقة بالمكان الذي حطت عليه سفينة أوتابنشتم.

رست السفينة فوق جبل نيموش

سَنَدَ جبل نيموش السفنية بإحكام

ولم يدعها تتزحزح.

في اليوم الأول كما في الثاني، سند جبل نيموش

السفينة بإحكام ولم يدعها تتزحزح

في اليوم الثالث كما في الرابع، سند جبل نيموش

السفينة بإحكام ولم يدعها تتزحزح

في اليوم الخامس كما في السادس، سند جبل نيموش

السفينة بإحكام ولم يدعها تتزحزح.

ص ١٤٢.

لقد حطت* السفينة فوق جبل «بير عمر غدرون» شمالي السليمانية شمالي شرقي كركوك، وكان سكان لولو/ لولوبو يدعونه «كينيبا» وفيه قمة مهيبة.

---

* سنيفاني داني/ سبق ذكره/...ص ١٦٥.

وللاله شمش صفةمقترنة مع الجبل، وذلك لأنه المكان الذي يخترقه يومياً في الغروب والشروق، ولهذه الصفة فأنهالسيادة على الجبل ماشو*

حاول خمبابا التقاط انفاسه وخاطب كلكامش قائلاً *:

انت شاب يا كلكامش، وقد ولدتك أمّك وانت من ذرية [ ]

إنتفضت (؟) تلبية لأوامر شمش، سيد الجبل

وحاز الإله شمش خصيصة الاشراف على الطبيعة، وذلك لعلاقته اليومية والمباشرة معها، لان الطبيعة لا يمكن ان تمنح الوفرة والخصب بمعزل عن الاله شمش، ولهذا فانه كان سعيداً عند انتصار جلجامش وانكيدو على الشيطان خمبابا، حتى يتمكن بهما من إستكمال وحسم الصراع حتى نهايته. ولهذا فان الاشجار وخمبابا والافعى ،هم كل العلامات الموجودة في الغابة والتي تجسد الالوهة المؤنثة والتمكن من هذه العلامات، يعني تحقيق الانتصار على سلطة الانثى والحكم عليها بالانهيار.

فاضت الوفرة (؟) على الجبال ***

فاضت الوفرة (؟) على الجبال

---

* يراجع/ ستيفاني دانيل لإطلاع أكثر..ص ١٢٣

** ستيفاني داني/ أساطير من بلاد ما بين النهرين/ سبق ذكره ص ١٠١

* سنيفاني داني/ سبق ذكره/...ص ١٠٢.

الجبل في العقائد •

العربية

في المعتقدات العربية أن عدد الجبال المعروفة في الأرض ١٩٨ جبلاً، منها ما طوله عشرون فرسخاً ومنها ماطوله مائة فرسخ إلى ألف فرسخ. ويذكر العرب أشهر الجبال، ومن أعجبها «جبل سرنديب» وطوله ٢٦٥ ميلاً وفيه أثر قدم آدم. ويقال «أن الياقوت الأحمر موجود على هذا الجبل» فتحدره السيول والأمطار من ذروته إلى الحضيض. ويوجد فيه الماس أيضاً الذي يقطع به الصخور ويثقب به اللؤلؤ وفيه كذلك، العود والفلفل ودابة المسك ودابة الزّباد «ويضيف العرب أنه لا يمضي يوم إلاّ ويسفك الدّم على هذا الجبل. ويوجد أيضاً «جبل الروم» وطوله ٧٠٠ فرسخ و «جبل أبي قبيس» وقد سمي بذلك بناء على إرادة آدم حين اقتبس منه النار و «جبل القدس» وهل جبل شريف مبارك فيه غار يضيء بالليل من غير سراج ويزور الناس.



شكل ٢٠جبل سيناء في شبه الجزيرة العربية

وجبل أروند بهمدان وفي رأسه عين تخرج من صخرة تشفي المرض «وجبل الشام» لونه أسود كالفحم وترابه أبيض تبيّض به الثياب وجبل سمرقند يقطر منه ماء وفي الصيف يصير جليداً وفي الشتاء يحرق من حرارته وجبل الصورة في «كرمان» يكسر حجره فتخرج منه صور لآدميين قائمين وقاعدين ومضطجعين وجبل الأرجان في طبرستان يقطر منه ماء، وكل قطرة تصبح حجرا مثمناً. وجبل هرمز ينزل منه ماء وكل قطرة تصبح حجراً مثمناً وجبل هرمز ينزل منه ماء إلى وهدة فإن صاح إنسان صيحة وقف



شكل ٢١ منظر من سطح أحد منازل قرية نين [نايين] ويرى جبل الطور في المؤخرة وهو المفروف بجبل التجلي.

* جان صدقة/ رموز وطقوس/ دراسات في الميثولوجيا القديمة/ دار الرياض الريس للكتب والنشر.

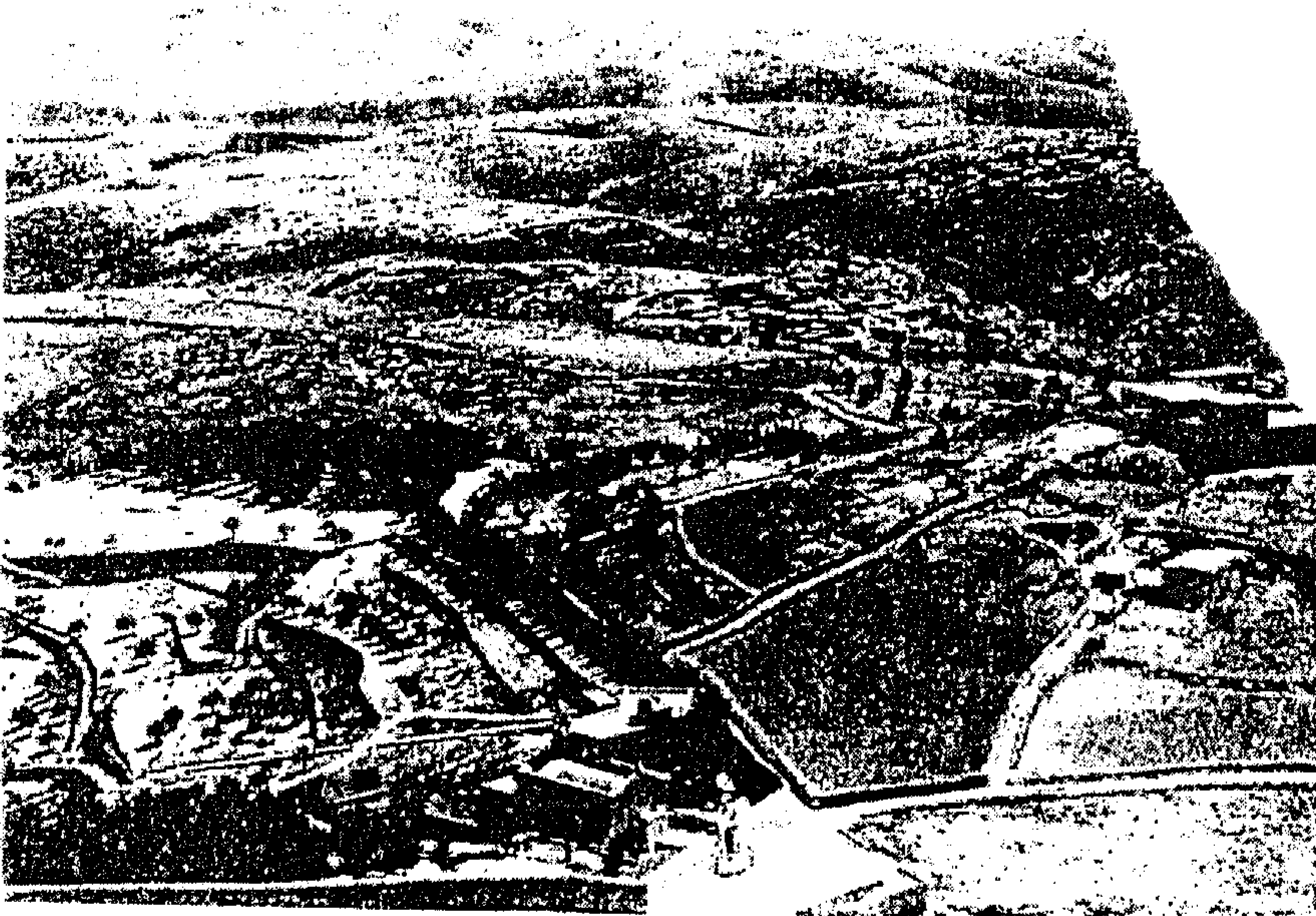
النهر وإن صاح مرتين مشى، وجبل الطير في إقليم الصعيد يجتمع عنده الطير مرة في كل سنة ويدخل في كوة هناك فتمسك الكوّة على واحد وتطير وهي علامة الخصب في تلك السنة وجبل طارق في طبرستان وفيه حضارة فيها بدكّة سليمان داوود.

وجبل طور سيناء، وقيل أن الرب أعطى منه خطابه لموسى عند خروجه مع بني إسرائيل من مصر وجبل طور هارون وهو جبل مشرف على بيت المقدس وسمي بذلك لأن موسى بعد قتل عبدة العجل، أراد المضي إلى مناجاة ربه، فقال له هارون إحملني فإني لست أمناً أن يحدث ببني إسرائيل حدث ما، فتغضب عليّ مرة أخرى، فحمله موسى معه، فلمّا مشيا قليلاً التقيا برجلين يحفران قبراً، فوقفا عليه وقالالهما: لمن تحفران هذا القبر فأجابا: لأشبه الناس بهذا الرجل، وأشار إلى هارون، ثم قالا له: بحق إلهك، هلا نزلت وأبصرت هل هو واسع؟ فنزع هارون ثيابه ودفعها إلى موسى أخيه ونزل القبر ونام فيه فقبض اللّه روحه في الحال وانضم القبر عليه، فانصرف موسى باكياً حزيناً على مفارقته وعاد إلى بني إسرائيل بثياب هارون فاتهموه بقتله فدعا الله تعالى حتى أراهم تابوته على رأس الجبل، فسُمِّيَ الجبل بإسمه.



شكل ٢٢
دير سانت كاترينا القديم وهو مقام عند سفح جبل سيناء.

وعند العرب «جبل غروان» في الطائف، تجمّد فيه الماء وحبلاً غوير وكسير، وهما جبلان في وسط البحريين عمان والبصرة تصعب عكس المراكب سلوك طريقها في هذا المكان وجبل فرغانة وينبت فيه نبات عكس صورة الرّجال وعكس صورة النساء وجبل قيلوان، وفيه حفرة ترشح منها الماء وجبل قاسيون يشرف على دمشق وفيه مغارة تعرف بمغارة الدّم حيث قتل قايين هابيل، وفيه مغارة ثانية يسمّونهامغارة الجوع، حيث قضى أربعون نبياً جوعاً وجبل قاف وهو جبل يحيط بالدّنيا يوزّع الخضرة على الكون.



شكل ٢٣ قمة جبل الزيتون، ويبدو، على بعد، البحر الميت وجبال موآب.



شكل ٢٤
وادي حطين كما يرى من سهل جنيسارت وهو مكان الموعظة على الجبل كما يظن الكثيرون

وفي معتقدات العرب، أيضاً «جبل فدفد» في مكة وهو من الجبال التي لا ترتقي ذروتها وجبل قصران وفيه عسل كثير وجبل الكحل الأثمد في الأندلس يخرج منه الكحل الأسود وجبل كرنان وفيه معادن. ويذكر العرب «جبل الهند» وتقول الميثولوجيا الهندية إنه يوجد على الجبل تمثال لأسدين يخرج الماء من فمها، حتى يصبح ساقيتين تشرب قريبتان منهما. وبسبب الماء وقعت بين القريتين خصومة، فكسروا فم أسد من التمثال فانقطع النبع وخربت القريتان. ورد في الميثولوجيا العبرانية* أن آدم ولد في الفردوس الموجود في الوسط الكوني، بحسب الموروث العبراني أن آدم ولد في المكان الذي ارتفع فيه صليب السيد المسيح لاحقاً. هذه المفاهيم نجدها أيضاً في التراث السوري.



شكل ٢٥
بستان جسماني وجبل الزيتون.

ويمثل الجبل في التراث العبراني رمز اللقاء السماء والأرض وأحاطته الميثولوجيا بالأسرار الغامضة الجميلة، وجعلته خليفة من صنع الرّب، حتى أصبح «يهوه» في المعتقدات إله الجبال. وفي العهد القديم، صلوات عديدة من الأنبياء والمرسلين فقال داود في أحد مزاميره:

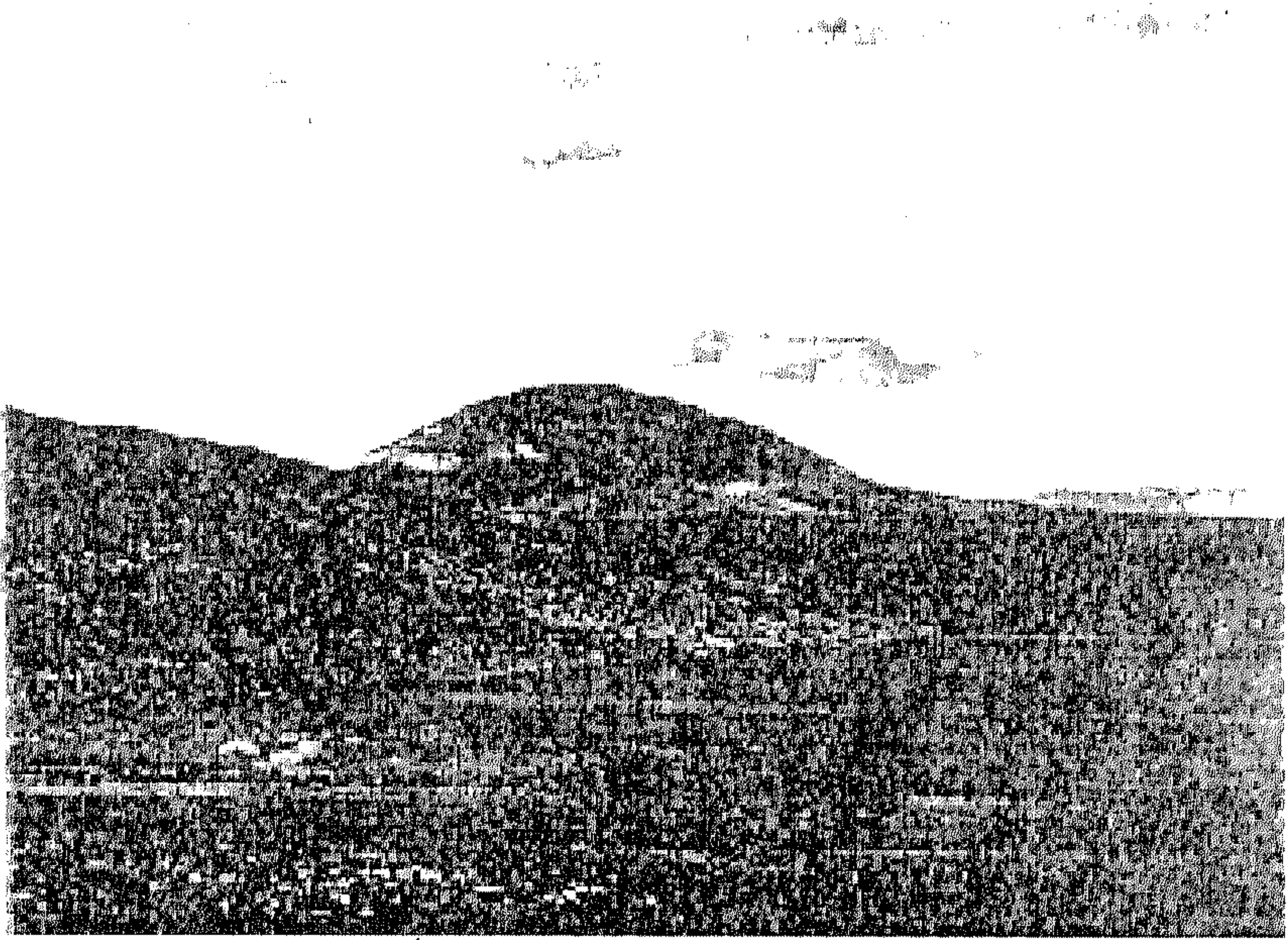
«إني رافع عينّي إلى الجبال إلى حيث تأتي منها نصرتي»

وأيضاً: باركي الرّب أيتها الجبال والتلال»

و «صهيون جبل قدس الرّب» وجاء في النبوة إرميا» إن الجبال ترتجف، وجميع التلال تقلقل، حين نظر إليها النبي «وفي أحد المزامير «أنها تصبح دخاناً إذا ما مسّها القدير الموجود من الأزل إلى الأبد «وفي مزمور آخر« أنها تذوب كالشمع «وفي نبوءة إشعيا أن» كل مرتفع ينخفض ويتعالى اللّه وحده». وفي رؤيا يوحنا» أنها تزول في آخر الأزمنة، ولا بد».

وفي التراث اليهودي، إن الرب دعا موسى في «حوريب» جبل اللّه في طور سيناء وقال له إخلع نعليك، إن الأرض التي تطأها مقدسة، وربما أخذت بعض الشعوب السامية والمتوسطية من هنا عادة خلع الحذاء قبل الدخول إلى أماكن العبادة، ولا تزال هذه العادة جارية، حتى اليوم في التراث الإسلامي، إذ يخلع المؤمنون أحذيتهم قبل الدخول إلى الجامع للصلاة.

من الأنبياء اليهود، أيضاً، صعد إيليا على جبل الكرمل ليصلي وقبله إبراهيم قصد جبل موريّة ليقدم إبنه قرباناً للّه، ثم موسى وقد وقف على جبل نبو ينظر إلى الأرض المقدسة.



شكل ٢٦جبل تابور الذي يقال عنه منذ زمن قديم جداً بأنه المكان الذي حدث فيه التجلي

إن هذه الأمكنة المقدسة والتي خلقها الرب، ومنحها حقيقتها السامية، هو الوحيد في الكون بقادر على منحها القوة والهيبة ويضفي عليها القداسة ويكرسها تكريساً، مثلما هو الذي لوحده يسحب عنها تلك الصفة ويلغي حقيقتها.

«لأن النار بغضبي فتتوقد إلى الهاوية السفلى وتأكل الأرض ونباتها وتحرق أساس الجبال».

تثنية ٣٢ = ٢٢

* جان صدقة/ رموز وطقوس/ سبق ذكره...ص ٦٩.

«سالت الأطواد من وجه الرب وسيناء أمام الرب إله إسرائيل».

القضاة ٥ = ٥

ويلاحظ بأن غضب الرب يهوه متنوع، ولم يكن متآلفاً فهو في غضب ناري، يحرق الأرض وما أنبتت، كما تحرق ركائز الجبال وتدفع بها إلى الهاوية. ولم يرد يهوه تناسِ خصائصه الأولى الذي تبدى بها ومن خلالها إلى موسى لحظتها غادر مصر، حيث تجسد بنار العليقة.

ويتضاعف فعل يهوه وغضبه الكاسح، لأنه لا يريد إستقرار وهدوء للإنسان. ويريد أن يظل ملاحقاً له بالدمار والإبادة. حيث دمر كل شيء وساد الخراب والظلام، ليؤكده من خلالهما قدراته الربانية الكاسحة.

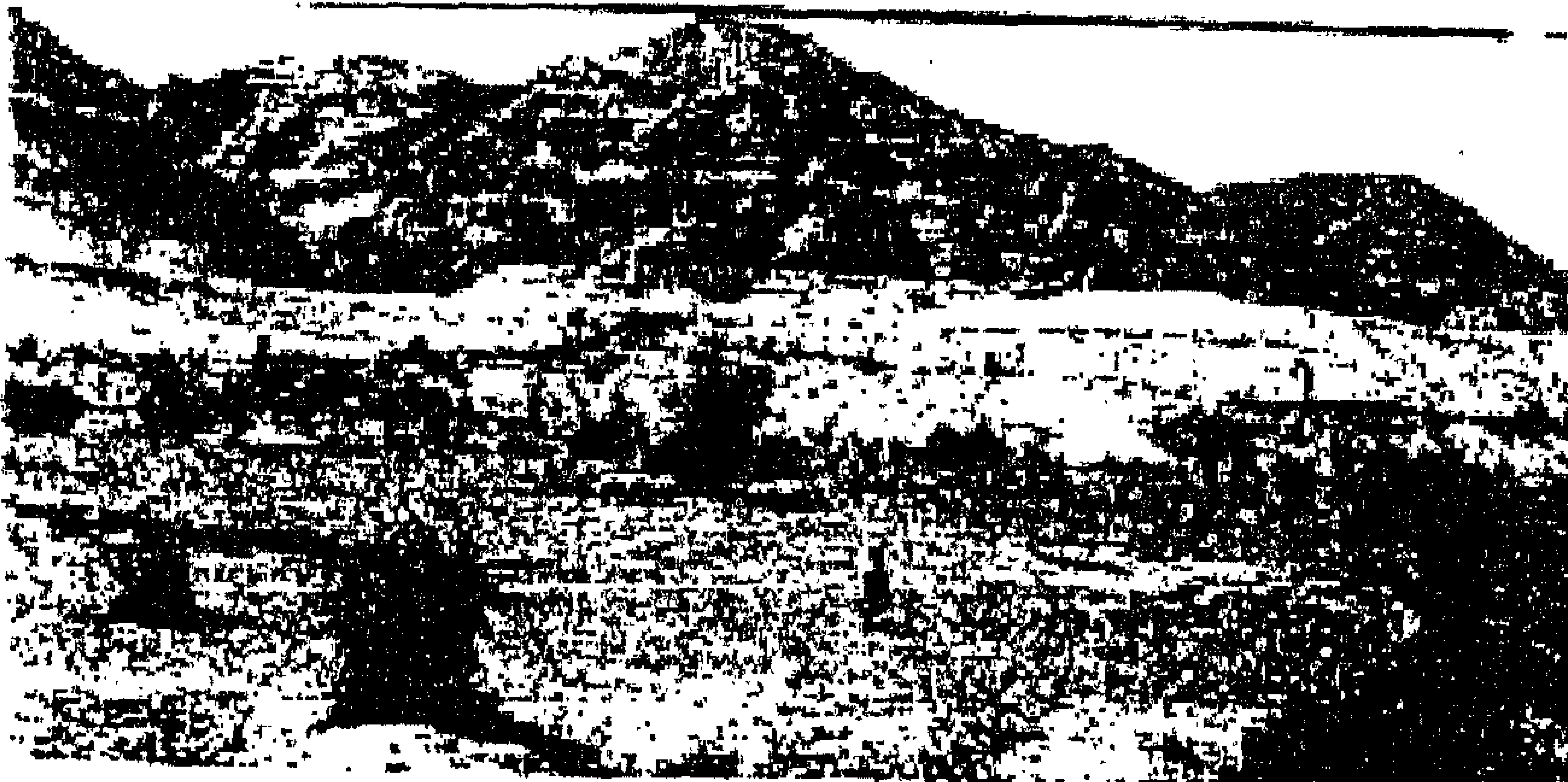
نبوءة ارميا ٤ = ٢٢ – ٢٨

«نظرت إلى الجبال فإذا هي ترتجف وجميع التلال تتقلقل. نظرت فلم يكن إنسان وكل طيور السماء قد انهزمت. نظرت فإذا الكرمل قد صار برية وجميع مدنه هدمت من وجه الرب من وجه شَدة غضبه. فإنه هكذا قال الرب ستتوحش الأرض كلها لكني لا أفنيها. فلذلك تنوح الأرض وتسود السماوات من فوق لأني قد تكلمت وعزمت ولا أندم ولا أرجع عنه».

نبوءة ارميا ٤ = ٢٢ – ٢٨

وفي يوم غضب الرب، تفقد الجبال صفتها الصيانية وتتلاشى تماماً قدرتها على حماية الإنسان، لأن غضب يهوه، يعصف بكل شيء موجود فوق الأرض، لأنه يعتبر الأرض مكاناً للإنسان، الذي أغضبه. وهذا ما يتضح أكثر في سفر توما ويوشع:

«وستدمر مشارف آون خطيئة اسرائيل ويعلو مذابحهم الشوك والحسك فيقولون للجبال غطينا وللآكام أسقطي علينا».
هوشع ١٠: ٨



شكل ٢٧
الجبل المعروف بجبل التجربة، كما يرى من سهل أريحا.

لأن الجبل وسيط – كما ذكرنا – بين الأرض والسماء فهو موجود وسط العالم وفي مركزه، ولأنه مكان مرتفع فقد حاز على القداسة، مثله مثل المعابد والقصور والمدن المقترنة مع قداسة فيها الكثير من السحرية. ويتحول جبلاً كونياً. فجبل «تابور» و «جرزيم» في فلسطين، كانت مراكز وفلسطين أرض الميعاد وتعد المكان الأكثر إرتفاعاً في العالم ولم يدمرها الطوفان. وتقول صلاة يهودية: «إن الأرض إسرائيل لم يغمرها الطوفان» وبالنسبة للمسيحية لم يغمر الطوفان أورشليم وصهيون.



شكل ٢٨ منظر أورشليم الحديثة كما تظهر من جبل الزيتون.

وفي المسيحية، أيضاً، توجد «الجلجلة» في وسط العالم، لأنها قمّة الجبل الكوني، المكان الذي دفن فيه آدم، بحيث أن دم المسيح روى جمجمة آدم المطمورة على أقدام الصليب ففداه وخلصه.

واعتبر الإسلام الكعبة، المكان الأعلى في الأرض. لأن النجم القطبي يؤكد أنها توجد تماماً فوق وسط السماء. وبحسب التراث الرافدين، تشهد أسماء المعابد والهياكل والأبراج المقدسة على هذا الشبه مع الجبل الكوني «الجبل البيت» و «بيت جبل كل البلدان» و «بيت العواصف» هي نقطة الوصل بين الأرض والسماء.

وفي اللغة السومرية، تعني كلمة U-Nir الجبل «المكان الذي يرى من البعيد وبحسب السومرين، يعد الجبل كونياً، ما يعني أنه صورة رمزية للكون، ثم أن معبد هو أيضاً، صورة

طبق الأصل عن الكون، وهو مبنى على شكل جبل إصطناعي، يحتوي على سبع طبقات تمثل السماوات السبعة الكواكبية، أو تمتلك الوان العالم، كما في «أور» وتطورهذا المفهوم وصارت المدن الشرقية تتحول بحد ذاتها إلى مراكز وصار إسم بابل «بيت الوصل بين الأرض والسماء.

برج أور

وفي الصين، تقع عاصمة الملك، تماماً، في وسط االكون، أي على قمة الجبل الكوني، قرب الشجرة العجائبية حيث تلتقي الأرض والسماء والجحيم، وهي الأماكن الكونية الثلاثة. وهذا يعني أن الإرتفاع فضيلة، لذلك اكتسبت كل المناطق المرتفعة صفة القداسة. فالصعود إلى هذه المرتفعات تجربة مقدسة ويضيف الأستاذ جان صدقة:

إن الدخول في أسرار الكون وغموضه البهي المخيف وربما من هنا يمكن أن نفهم نظرة الديانات القديمة إلى الأنهر القريبة من الجبال كحدود بين الأرض والسماء، فكان الأحياء يصعدون الجبل للقاء الموتى، حيث يدخلون في السرّ الأعمق للحياة وما وراءها.

وفي الديانة البابلية، كانت الآلهة تنزل من السماء إلى الأرض، عن طريق «بابل» وتعني «باب إيلاني» أي باب الآلهة.

كل «مركز في القديم كان يعني «الخلق» وفي ميثولوجيات عديدة نلحظ أن الخلق ينطلق من «المركز» ففي اليهودية، خلق العالم إبتداءاً من صهيون وفي ملحمة «ريغ فيدا» تكون العالم من الوسط أي من المركز وفي البوذية، صورة مشابهة، فينطلق العالم من نقطة هي، في الوقت نفسه، مركزية وتصاعدية ويسكن بوذا على أعلى نقطة كونية.

سياسياً، الجبل ملجأ المضطهدين في العالم. وعلى سبيل المثال الأكراد والذين كثيراً - وإلى الآن - مالجأوا إليه.

هكذا، كان الجبل رمزاً لالتقاء الأرض والسماء ومركزاً للآلهة ومهبطاً للوحي، وموئلاً للإشراق، وملجأ للنسّاك، ومنفذاً للرّوح الباحثة عن الحقيقة الإلهية المطلقة. فالجبل مكان مقدس في كل الديانات القديمة والمعاصرة. وهو مكان مقدس منذ تكوينه وربّما أصبح هنا ما قاله «ڤان در لوي» إن المكان المقدس لا يختاره الإنسان، إنما يكتشفه.

أضفى الرب يهوه صفات معينة ومحددة على الجبال كي تقوم بدورها الحياتي والديني،

على الرغم من أن مصيرها مثلما ظهر لنا محكوم بالغناء والتحول، مثلها مثل الإنسان، لأنها واحدة من مخلوقات الرب. لكنه منحها قداسة خاصة، تأتت لها من عناصر دينية تمثلت في:

١ ـ * كان حوريب جبل الرب يهوه في طور سيناء. وكان جبلاً مقدساً. وعليه دعى اللّه موسى «وكان موسى يرعى غنمه بترو حميه كاهن مدين فساق الغنم إلى ما وراء البرية حتى أفضى إلى جبل اللّه حوريب فتجلى له ملاك الرب في لهيب نار في وسط العليقة فنظر فإذا العنيقة تتوقد بالنار وهي لا تحترق فقال موسى أميل وانظر هذا المنظر العظيم ما بال العليقة لا تحترق. ورأى الرب أنه قد مال لينظر فناداه اللّه من وسط العليقة وقال موسى . قال هائنذا. قال لا تدن إلى ههنا اخلع نعليك من رجليك فإن الموضع الذي أنت قائم فيه أرض مقدسة».

خروج: ٣: ١ – ٦

وأمره الرب أن يصعد إلى جبل حوريب، حتى يقدسه من خلال الشريعة التي سيعطيها له، كذلك يمنحه الوصية.

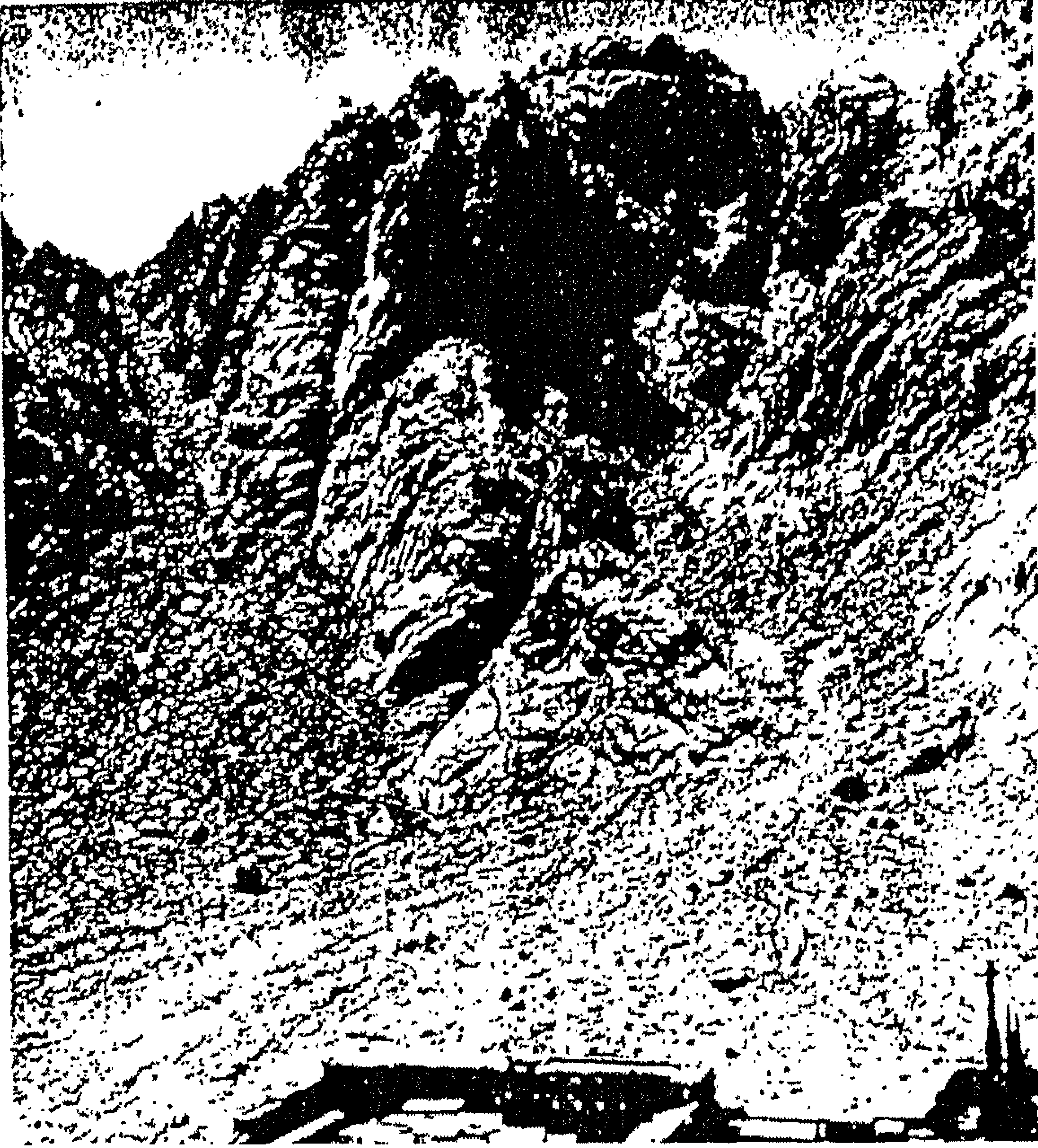
«وقال الرب لموسى إصعد إلى جبل وأقم هنا حتى أعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم فقام موسى ويشوع خادمه وصعد موسى إلى جبل اللّه. وقال للشيوخ اقعدوا ههنا حتى نرجع إليكم وهوذا هرون وحور معكم من كان له أمر فليتقدم إليهما. وصعد موسى الجبل فغطى الغمام الجبل. وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه الغمام ستة أيام وفي اليوم».

«دعا موسى من جوف الغمام. وكان منظر مجد الرب كنار آكلة في رأس الجبل أمام عيون بني إسرائيل. فدخل موسى في وسط الغمام وصعد الجبل وأقام موسى في الجبل أربعين يوماً وأربعين ليلة».

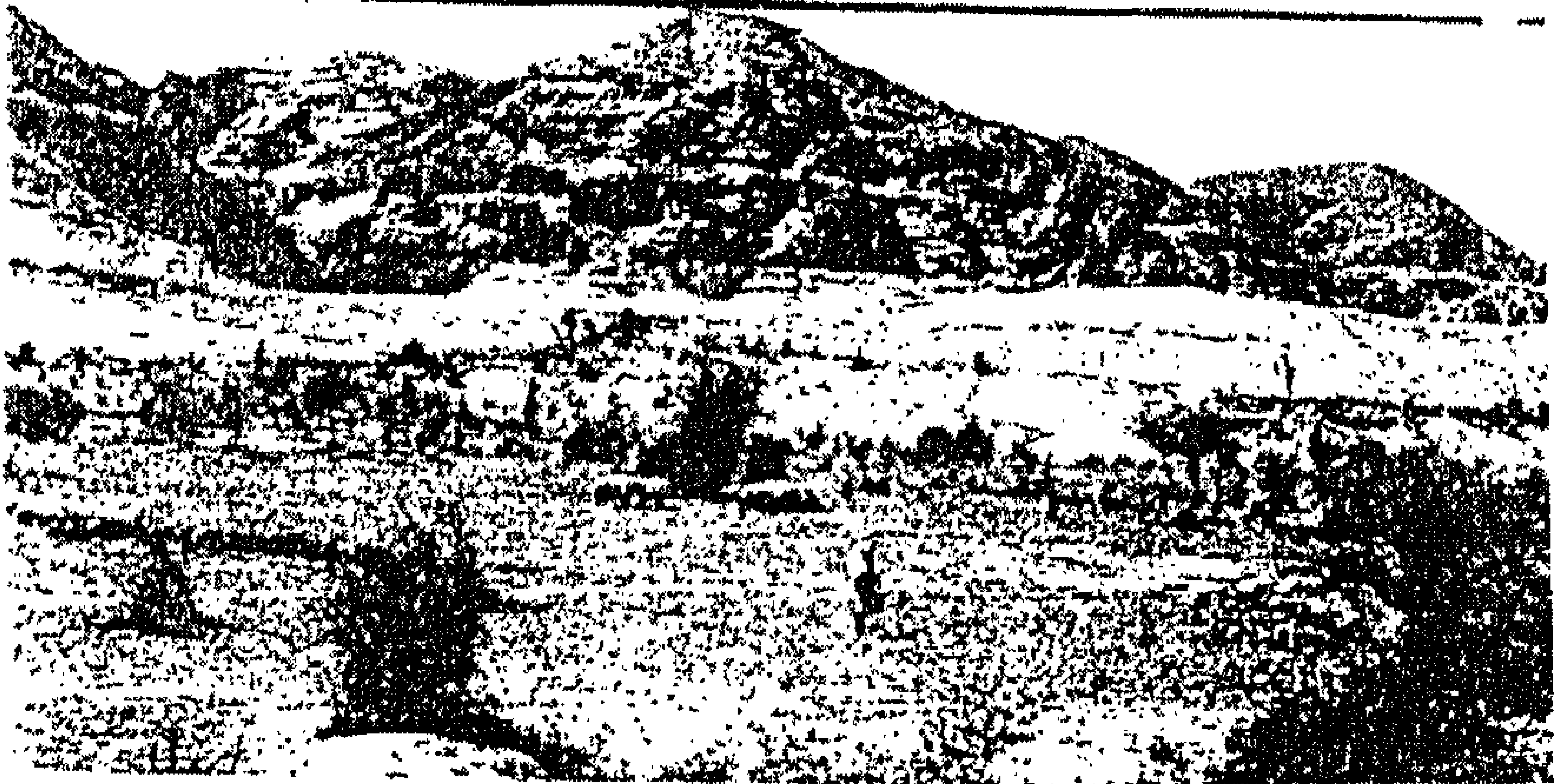
خروج: ٢٤: ١٢ – ١٨

صعد موسى ويشوع. وربما كان يشوع متكفلاً ببعض الخدمات التي يحتاجها موسى. وربما – أيضاً – يعرف بالفترة الزمنية التي يقضيها فوق الجبل، لذا كان بحاجة إلى يشوع من أجل خدمته ولم يكن السبب دينياً. فلو كان كذلك لصعد معه هرون.

وفعلاً ظل هناك فترة طويلة جداً، انصرف فيها لإستلام صوت الرب يهوه مردداً له



شكل ٢٩ جبل سيناء وبالقرب منه الدير القديم لذي يسكنه منذ ١٥٠٠ سنة مسيحيون يتكلمون اليونانية وقد حفظت في هذا الدير مخطوطات الكتاب المقدس المعروفة «بالمخطوطات السينائية».



شكل ٣٠ الجبل المعروف بجبل التجربة، كما يرى ممن سهل ارخا

الوصاية والشريعة التي دونها على الألواح التي اتسعت للوصايا فقط. ولم يكن ممكناً له رؤية وجه الرب يهوه. لأنه حوريب سابح وسط الغمام. وربما كان الغمام من تبديات يهوه، لأنه يظهر بعلامات عديدة ومختلفة والغمام ممكن فوق جبل عال. أما على الأرض الصحراوية المليئة بالشوك والعاقول، فلم يكن إلاّ النار.

وصعود موسى فوق حوريب والغمام الذي سبح فوقه لمدة ستة أيام. وفي اليوم السابع دعا اللّه النبي ومنحه الوصايا وبهذا: حل مجد الرب على جبل سيناء.

«وعندما حارب العبران العماليق، أختار موسى قمة اليفاع لمراقبة قومه:

فقال موسى ليشوع إختر لنا رجالاً واخرج لمحاربة العمالقة وغداً أنا أقف على رأس اليفاع وعصا اللّه في يدي».

سفر الخروج: ١٧: ٩ – ١٠

وكان الصعود فوق جبل حوريب حلم كل الأنبياء، للأسباب التي أشرنا لها. وهكذا فإن الممارسة الدينية وأشارات الرب هي مانحة القداسة للمكان المرتفع. لذا نجد ايليا واليشع يصعدان أيضاً فوق جبل الكرمل تماهياً مع صعود موسى ويشوع المكان المرتفع، مكان أصلح للعبادة وتقديم فروض الطاعة والولاء للرب واعتبر (ميرسيا الياد) المكان المرتفع – الجبل – مكان للتعبد ويمثل وسط العالم، أي مركز الكون، والإرتفاع يختصر المسافة بين ثنائية الأرض/ السماء وبين الإنسان/ الرب لذا فإن الجبل، سمح وبنجاح بملاقاة الرب.

«فإن أدخلك الرب إلهك الأرض التي أنت صائر لتملكها فأتل البركة على جبل جرزيم واللعنة على جبل عيبال وهما على عبر الأردن وراء طريق مغيب الشمس في أرض الكنعانيين المقيمين بالسهل مقابل الجلجال عند بلوطات مورة»

التثنية ١١ = ٢٩ – ٣١

ويتضح لنا من خلال النص التوراتي، تحديد الرب يهوه نوعاً من الجبال، لتقديم البركة وأخرى لتلاوة اللعنة، ولأن اللعنة متلوة فوق جبل عيبال أمر الرب ببناء مذبح فوق هذا الجبل وتقديم التقدمات لتخليص المكان من لعنة اللّه.

«حينئذ أتبنى يشوع مذبحاً للرب إله اسرائيل فوق جبل عيبال»

يشوع = ٩: ٣٠

وعلى أكمه أيضاً يقام التابوت، بعد رجوعه من عند الفلسطينين وفي الكتاب المقدس أشارات كثيرة حول تقديم الذبائح للرب فوق الجبال.

قضاة ٦: ٢٦. صموئيل ١: ٩: ١، املوك ٣: ٤ : املوك ١٨: ١٩ – ٢٠

ومن المؤكد بأن هذه الطقوس والعقائد التي مارسها العبران، هي في الأصل أساسيات الديانة الكنعانية وقد ارتحلت إلى العبران لأنهم وجدوا عند اقترابهم من الحضارة الكنعانية، حضارة راكزة، وديانة مهيمنة ولم يستطع العبران الصمود أمام تفاصيل العقائد والطقوس التي رسخها الكنعانيون. وللتأثير البارز والواضح جداً، ظلت العقائد الوثنية الكنعانية تلاحق العبران فترة طويلة جداً. حيث تعدد أماكن العبادة: أرميا ٢: ٢٠، ٣: ٢٣.

وينمو مكان جديد، يطغي على المكان الأول، الذي قدسه الرب بدعوة موسى للصعود إليه. وبعد زمن طويل تكمن قداسة جبل سيناء، لتبرز قداسة وصفات إلهية لجبل صهيون الذي اعتبره الكتاب المقدس مكان سكني الرب الجديد والحقيقي وكل الأماكن السابقة، كانت مساكن مؤقتة.

لا نستطيع تكوين موقف موحد يتحكم بالأناجيل في موقفها مع الجبل كمكان قداسة وصلته مع يسوع. لكنها – الأناجيل – تتفق على أن يسوع يفضل الأماكن المرتفعة والجبال لإقامة الصلاة.



شكل ٣١ سفح جبل سيناء

«ولما صرف الجموع صعد وحده إلى الجبل ليصلي
وعند المساء كان هناك وحده»

متى: ١٤: ٢٣

«وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلي وقضى ليلته في الصلاة إلى اللّه».

لوقا ٦: ١٢

«وبالحق أقول لكم أن قوماً من القائمين ههنا لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت اللّه. وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام أخذ بطرس ويعقوب ويوحنا وصعد إلى الجبل ليصلي».

لوقا: ٩ = ٢٧ – ٢٩.

وتركز الأناجيل إشاراتها الدينية وتأكيدها على قداسة جبل الزيتون. وتغفل تماماً جبل صهيون الذي ارتحلت إليه العقائد العبرانية بعد جبل سيناء وربما لذلك السبب الجغرافي وعقائدي. وذلك لإرتباط الممارسة مع المكان الغريب من أجل تأدية الشعائر.

في نظر «متي» تشكل جبال الجليل مكاناً مفضلاً لظهور المنتظر، والمخلص. وتدور حياة يسوع العلنية في إطار مشهدين ينمّان على الجبل. في بدايتها، يعرض الشيطان على يسوع السلطان على العالم أجمع.

«فأخذه أيضاً إبليس إلى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها. وقال له أعطيك هذه كلها إن خررت ساجداً لي....

متى ٤: ٨

فوق الجبل، يعلم يسوع الجميع، ويشفي المساكين، ويعطيهم خبزاً وعليه أخيراً يتم الحادث المهم، التجلي. لكن «متي» لم يخبرنا بالجبل المجدد. لأن يسوع قد حذره من خطر تقييد سكناه بواحد منها. فالذكرى وحدها تظل حية لدى الذين «عاينوا جلاله» وقد تحققت أقوال الأنبياء عن «الجبل المقدس» ولكن يسوع لا يعلق رسالته على مكان ما من أمكنة الأرض، بل على شخصه بالذات.

أما «لوقا» فيرى في الصعود إلى أورشليم طريق المجد بواسطة الصليب وليس الغرض من هذا الصعود مجرد الحجّ الذي يقوم به أيضاً إسرائيل [لوقا ٢: ٤٦] وإنما هو الصعود المصيري الذي يشمل حقبة من حياة يسوع [٩: ٥١ – ١٨: ٣١ راجع ٢١: ٣٨] وإذا يتجاهل

لوقا جبال الجليل حيث ألقى يسوع تعاليمه وأجرى عجائبه يركز كلّ انتباهه على جبل الزيتون. وإن كان لا يذكر بأن يسوع ألقى منه خطابه عن نهاية العالم [قارن متي ٢٤: ٣، مرقس ١٣: ٣] فهو يعّد هذا الجبل هدف الصعود إلى أورشليم [لوقا ١٩: ٢٩] ومنه بحسب التقاليد الرؤيوية [زكريا ١٤: ٣] ينطلق الرب ليغزو العالم. ويحتفل به الشعب رسمياً [لوقا ١٩: ٣٧] وفيه أيضاً تبدأ مرحلة الالام [٢٢: ٣٩] ومعه أخيراً يصعد إلى السماء [أعمال ١: ١٢] إذ أشار الكتاب المقدس إلى جبل معين، فيبدو أنه لم يفعل ذلك إلاّ ليعلمنا أن «نرفع» أعيننا نحو السماء أو بالأحرى نحو الذي رفع من الأرض [يوحنا ٣: ١٣، ١٤، ١٩: ٣٧] بحسب الفكر اللاهوتي للقديس يوحنا.

لا تقدم كتب العهد الجديد الأخرى تعليماً عن الجبال المتمتّعة بالإمتيازات الواردة في العهد القديم. وفي دفاعه عن تعليمه. يشبّه القديس بولس طور سيناء ببيت العبودية [غلاطية ٤: ٢٤ – ٢٦] أو يرى فيه الوجه المضاد لجبل صهيون.

الفصل الخامس

الختان
وشم موسى لليهود

أصل الختان عند اليهود والمسيحين والمسلمين هو التوراة ويستعمل اليهود في العبرية كلمة «ميلاً» التي تعني القطع وهذه الكلمة تستعمل ضمن عبارة «بريت ميلاً» اي «عهد القطع» التي تذكر بالعبارة العربية «قطع العهد» وهذه العبارة إشارة للفصل السابع عشر من سفر التكوين الذي يّدعى ان الله قطع عهداً لابراهيم بأن يعطيه ونسله الارض الموعود، أي أرض كنعان ومقابل العهد أمر الله آبراهيم بأن يقطع غلفته وغلفة كل ذكر من نسله وعبيده. هناك إذاً، تلاعب بالكلمات وتسييس لعملية جراحية وتستعمل التوراة أيضاً «تبر» والكلمة نفسها في العربية تعني هلك أهلك، وتُذكر بكلمة «تبر» مع قلب الاحرف التي تعني قطع. والجزء الذي يقطع يسمى في العبرية «غرله» وغير الختون يسمى بالعربية «أغرل» ولايوجد في التوراة ذكر لختان الاناث.

يستعمل علماء اللغة العربية كلمات عدة للإشارة الى الختان مثل الخفضى* والخفاض والاعذار. والعامة هي كلمة ختان أو طهور او طهار أو طهارة للذكر والانثى. والقطعة التى تقطع عند الذكر تسمى «الغرله» كما في العبرية، او«الغلفه» او «القلفه» وغير المختون يسمى «أغرل» أو أغلف او أقلف. وكلمة الختان التي تشير الى عملية القطع لها معان ذات صله بالزواج، يقول ابن منظور:

الختن أبو امرأة الرجل وأخو امرأته وكل من كان من قبل امرأته والجمع أختان. والأنثى ختنه وخاتن الرجل الرجل اذا تزوج اليه....وفي الحديث : على ختنى رسول الله «ص» اي زوج إبنته. والاسم الختونة[......] والختنى زوج فتاه القوم، ومن كان من قبله من رجل أو أمرأة فهم كلهم أختان لأهل المرأة.وأم المرأة أبوها: ختان للزوج.

وما زال اليهود والمسلمون يعتبرون الختان علامة المؤمن من الكافر وكلمة «خفاض» التي تطلق خصوصاً على ختان الاناث تعني تشريحاً ازالة تركيب مرتفع للهبوط الى مستوى اكثر أنخفاضاً. أما لغوياً فتتضمن ايضاً معنى الإهانة والاذلال. يقول ابن منظور:

«خفض: في أسماء الله تعالى الخافض هو الذي نتخفض الجبارين والفراعنة أي يضعهم وتهيئتهم وأن خفاض الانثى يقصد منه خفض شهوة المرأة لأحكام سيطرة الرجل عليها ومنعها من الانزلاق في الرذيلة. وفي اللغات الاوربية يمكن إستعمال كلمة واحدة للدلالة على

* سامي الذيب/ ختان الذكور والاناث عند اليهود والمسحين والمسلمين/ رياض الرب/٢٠٠٠/ ص ٢٨

ختـان الذكـور والاناث وهـي بالانكليـزية« Circumcisin » وهذه الكلمـة من أصـل لاتيني وتـعني « القطع دائرياً »

والختان علامة إنتماء للشعب اليهودي وعلامة عهد بين الله وهذا الشعب. لذا كان لزاماً تعريف من هو اليهودي حسب التعاليم اليهودية، اليهودي هو من ولد من أم يهودية مهما كان دين والداه. واذا أصبحت الأم يهودية قبل ميلاد الطفل، حتى وان كان في زمن الحبل، فأن طفلها يصبح يهودياً بالتبعية. أما اذا أصبحت يهودية بعد ولادته، فيجب ان يحول الطفل يهودياً قبل أن يختن، والشريعة اليهودية مثل الاسلامية لاتعترف بالتبني. ولكن في إسرائيل هناك قانون يسمح بالتبني وكذلك الأمر في دول أخرى فاذا تبنت عائلة يهودية طفلاً غير يهودي فأنه يصبح يهودياً بالتبعية ويختتن.

* سامي الذيب/ ختان الذكور والاناث/ سبق ذكره ص ١٤٢

الختان وشم

موسى لليهود؟

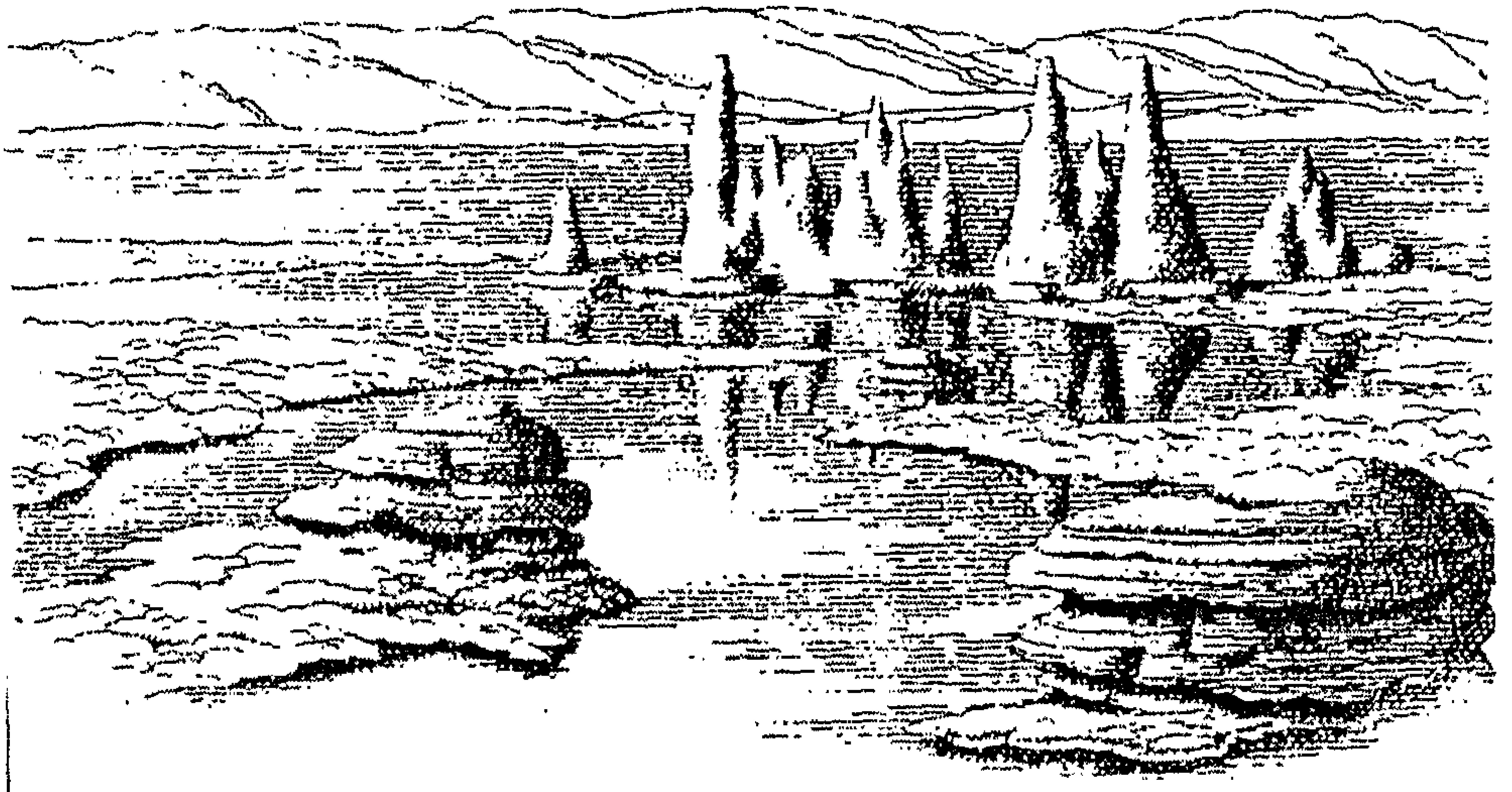
مارست عدد من الشعوب ألختان باعتبار معتقداً دينياً وقد وردت إشارات عن ذلك مفصلة في الدراسة. ومايهم هنا هو الإشارة لارتباط الختان مع تقدم العمر، ودخول الإنسان مرحلة النضج، حيث مارسه عدد من الشعوب البرية، للإعتماد عليه. في إعلان نضج المختون والدفع به الى الحياة العامة، واستعداده لتحمل ما يمكن ان يؤمربه، ويمارس افعال الرجال الراشدين، وبهذا فأن الختان، هو التصريح برجولة الشاب، والتأكيد من خلاله تحقق هذا الفعل على لحظة الرجولة وإكتمالها، وبهذا الفعل، يشعر المختون بزهوه. لأنه دخل محيطاً جديداً، ومختلفاً تماماً، هو محيط التناظر مع الأب والرجال الأشداء، الذين ساهموا في الدفاع عن القبيلة وارضها ونسائها، ويكون هذا الإعلان والإعتراف بالتناظر وسط حفل تدعى له القرية ورجالها وشبابها واطفالها، وآكثر المشاهد إثارة وبهجة، هو مشهد النسوه والفتيات وهن يساهمن بتلك الإحتفالية، التي ستفتتح – إيضاً – منفذاً للبركة والإنبعاث من خلال انعاش فعل الخصوبة، التى سيلعب المختون دوراً مهماً فيها، من خلال تأهيله للزواج وممارسته لفعل الإتصال الادخالي الثنائي/ البيالوجي. لأن القبائل الافريقية مثلاً تؤمن وتعتقد أيضاً بأن الإتصال الجنسي الثنائي، بين الزوج وزوجته لم يكن استهلاكياً فقط، ولا يتبدى شهوانياً، يشبع حاجة جسدية، وانما تؤمن بأن أي اتصال بين قطبي الحياة، الزوج/ الزوجة، يعني بالتناظر اتصالاً بين السماء والارض، وبين الفصول بعضها مع البعض الآخر. هو بشكل عام، تجسد اتصالاً حيوياً وفعالاً بين الموجب والسالب في الحياة والكون، لذا سيكون لذلك الإتصال الشهوي نتائجه الإيجابية. في الحياة والمجتمع وحتى داخل الاسرة الصغيرة.

وأعتقد بأن العبران، أخذوه من المصريين القدماء الذين من المحتمل قدعرفره من شعوب أخرى، لكن العبران صاغوا به ومن خلاله نموذجهم الديني/ السياسي الجديد، الذين يميزهم عن غيرهم من شعوب الارض، لذا كان الختان علامة العبران المميزة لهم والمؤسسة لعلاقتهم مع الرب، الذي اراده لهم، كي يكونوا إختلافاً عن غيرهم. وتؤكد النصوص التوراتية قّدم هذا المعتقد ومزاولته من قبل العبران»

«ولما كان في الطريق في المبيت التقاه الرب فطلب قتله. فأخذت صفورة صوانة فقطعت قلفه إبنها ومست رجليه وقالت إنك في عرس دم. فكف عنه عندما قالت عروس دم من أجل الختان»

الخروج: ٤:٢٤–٢٧

ان استعمال حجر الصوان في الختن في قصة صفورة المعرفة وكذلك ختان يشوع لليهود بعد وفاة موسى وتحمله مسؤلية قيادة اليهود، هذا الإستعمال لم يكن بسبب عدم وجود النحاس او البرونز، لان المصرين قد عرفوه في الفترة التي غادر فيها موسى مصر في ملحمة خروج العبران وإنما هي محاولة لإستعادة المشهد الاول، او الذي ظل في الذاكرة الفردية أو الجمعية وهو يصور عملية الختان في النقوش المصرية الموجودة على جدران المعابد والقصور وبإستعمال أحجار الصوان. وتلك المشاهد المعروفة هي قبل ان يعرف إبراهيم الختان، وهذا يأخذ القراءة الخاصة بتأويل إستعمال صفورة ويشوع للصوان لبقاء الهيمنة وتمركز الديانة المصرية واستمرار تأثيرها على الديانة الجديدة وعلى العبران الذين قادهم موسى هرباً من مصر ودخولاً الى سيناء.



الشكل(٣٢) رموز قضيبية عند البحر الميت وتمثل معبودات مقدسة

والختان في النص التوراني، يمثل بديلاً قربانياً، إختصر ذلك المعتقد، وهذا واضح من النص، لأن صفورة، ادركت بالذي اراده الرب أنذاك، فحملت حجراً صوانياً وقطعت القلفة ومست بالدم رجليه. حيث تحقق للرب عرس، من خلال الدم، عرس الإله اليهودي الذي يقيم أفراحه على الاضاحي والقرابين البشرية، والختان نموذجها المختزل بجزء بسيط من الجسم، ليكون تعويضاً عن الكل. واستعمال الحجر، يشير الى المرحلة المبكرة التى ساد فيها الختان كمعتقد عند العبران، وهي مرحلة الإستعانة بحجر الصوان، أي قبل معرفة النحاس أو البرونز.

«في ذلك الوقت قال الرب ليشوع إصنع لك سكاكين من الصوان واختن بني اسرائيل مرة أخرى. فصنع يشوع سكاكين من صوان واختتن بني اسرائيل عند تل القلف وهذا سبب ختن يشوع لهم. كان كل الشعب الذين خرجوا من مصر، كل ذكر منهم رجل حرب قد ماتوا في البرية على الطريق بعد خروجهم من مصر. وكان كل الشعب الذين خرجوا من مصر فلم يختنوا. لأن بني اسرائيل ساروا أربعين سنة في البرية إلى أن انقرضت كل جماعة أقسم الرب ان لا يريهم الأرض التي أقسم لآبائهم أن يعطها لنا أرضاً تدرُّ لبناً وعسلاً. وبنوهم الذين أقامهم مكانهم هم ولما فرغ جميع الشعب من الإختتان أقاموا مكانهم في المحلة إلى ان «برئوا»
يشوع ٥:٢- ١٠

ويبدو للقراءة الدقيقة بأن العبران أثناء الخروج، وفي مرحلة شتاتهم في سيناء قد تركوا وصية الرب بالختان الذي جعل علامة له على العبران وغادروا هذا المعتقد نهائياً، واعتقد بأن ذلك يمثل جانباً جديداً من الشخصية العبرانية التي تمردت مرات كثيرة على موسى اثناء الشتات والأسفار الاولى من التوراة تؤكد على تلك الإنتفاضات والتمردات* واعتقد بأن ترك العبران للختان يمثل ثورة خطيرة على أحد العناصر المهمة التي جاءت بها الديانة التوحيدية الجديدة، وأرى بأنها تتناظر من حيث الأهمية والخطورة مع تجاوز العبران لقداسة السبت وضرورة التعطل فيه ويكشف لنا نص يشوع، بأن موسى لم يقدر أبداً على تثبيت الختان وتكريسه مع عرفته بأنه يمثل عرساً للدم. مثلما يعنى لنا بأن العبران ولكثرة انتفاضاتهم، لم يخشوا من موسى أبداً عندما تجاهلوا طلبه بالختان، كي يظل علامتهم الفارقة بين الشعوب، وظل العبران هكذا حتى وفاة موسى المجهولة والتى ربما كانت مماثلة لوفاة إخناتون.

ان صعود يشوع قائداً للعبران بعد موسى يمثل عتبه حضارية/ دينية، جديدة تماماً، لما يتمتع به يشوع من قوة واصرار واستعداد على البطش والإبادة. لانه عرف جيداً وأدرك بقوة، بأن العبران لا مستقبل لهم إذا لم يعلن عن دمويته وقسوته لا سيما وانه يدنو تدريجياً من مدينة اريحا، حتى يحصل على اللبن والعسل.

ففي فترة قيادته أمره الرب يهوه بضرورة صنع سكاكين من الصوان كي- يختن بها العبران مرة أخرى. والنص التوراتي يثير إشكالية مهمة، أولها ان المصريين وحضارة كنعان والدويلات الآرامية قد عرفت صناعة النحاس في الفترة التي كان فيها يشوع قائداً للعبران، لحظة استعداده لاجتياح اريحا. وهذا يعني بأن العبران وعلى الرغم من وجودهم على محيط

حضارى مهم وحيوي، ظلوا في قطيعة تامة عن مؤثراتهم الحضارية، ولم يستطيعوا التفاعل مع تلك الحضارات. كما أن نص يشوع يؤكد قراءتنا الخاصة بترك الختان لفترة طويلة، انطفأت فيها أجيال، هي تلك التي عصت أمر الرب.

لأن بني اسرائيل ساروا أربعين سنة في البرية إلى أن انقرضت كل جماعة رجال الحرب الخارجين من مصر الذين لم يطيعوا أمر الرب الذي أقسم أن لا يريهم الأرض التي أقسم لآبائهم أن يعطيها لنا ارضاً تدُّر لبناً وعسلاً»

يشوع ٥:٦- ٧

وواضح بأن القائد موسى قد تعب كثيراً من انتفاضات العبران وتمرداتهم مثلما لم نجد في القسوة والإبادة الجماعية حلاً ناجحاً وحاسماً لتلك الإشكالات التي كثيراً ما تظهر مرة أخرى فوق السطح، لذا اكتفى بالصمت ولم يواجه الرجال، وهم رجال الحرب، الذين هو بحاجة لهم بالقسوة، حتى إنطفأ هذا الجيل بالكامل، ونشأ جيل جديد، هو الجيل الذي قاده يشوع نحو أريحا، وهو ذاته الذي طلب منه الختن كي يكون اللبن والعسل حصته لهم، وهي الحصة التي أقسم الرب أن لايعطها لآبائهم، رجال الحرب، لأنهم لم يلتزموا بعهد الرب، الذي أعلنه منذ لحظة خروجهم من مصر، وجعله شارة خاصة بهم.

لقد إستعاد يشوع طقس الختان، بصفته الجماعية وليس الفردية لأنه جمع كل العبران في مكان واحد واجرى لهم الختان. وتركهم بمكانهم وربما لفترة طويلة، الى أن برئوا.

يثير النص التوراتي سؤالاً مهماً. وهو لماذا أجرى يشوع الختان للعبران في محطتهم الاخيرة، القريبة من أريحا؟ وقبل إجتياحه لها ايضاً.

عرفنا بأن رجال الحرب الجدد، هم شباب، وهم الجيل الجديد الصاعد، بديلاً عن رجال الحرب الذين خرجوا من مصر الى الصحراء، والذين ماتو تماماً، وانطفاء جيل، يعني بقاء رواسبه في الحياة والذاكرة الفردية والجمعية ولا بد للقائد الجديد يشوع ان يزيل تماماً من الاذهان بقايا تمردات وانتفاضات الجيل الأسبق/ رجال الحرب. ولم يجد أفضل فرصة من إستعادته لمعتقد الختان وممارسة طقس الختن الجماعي، لذا تحمس لذلك ونفذه بيده، مثلما هو واضح في النص، كما جعل من ذلك وسيلة لقمع رجاله الشباب، عبر فعل الختن/القاسي،

* درسنا ذلك في تتابنا«التوراة السياسي» والذي سيظهر قريباً

ليتقدم به ومن خلاله نموذجه الدموي، لرجال سيترتب عليهم فعل، يحدد مستقبل وجودهم في الحياة، وهو الزحف على أريحا، التي تسلل اليها القائد زمن موسى مع عدد من رجال القبائل الاشدّاء. وفعلاً إستطاع يشوع النجاح بشكل لامثيل له. وارى بأن الختن كان مزاولة لمعتقد ديني، كما كان اشارة واضحة لما يمكن ان يكون عليه الخطاب الجديد، الذي مهدّ له يشوع بواسطة الختان. كما إن يشوع أوضح لهم مستوى علاقته مع الرب، لأنه الذي كلفه موسى بقيادة الشعب أولاً، وهو الذي أعاد إحياء هذا المعتقد، لانه يمثل لديه أمراً من الرب يهوه، ولا يمكن تعطيله او التهاون مع من يرفض تطبيقه وتعطل معتقد الختان زمن موسى يكفي لتبيان مستوى الرفض الشعبي لتلك الممارسة. ويوضح لنا ضعف شخصية موسى بعد تتالي التمردات والأحباطات، مع علمه بأن الرب اليهودي/ يهوه لا يقبل بشكل من الأشكال التنازل عن نظام القرينة الدموي، الذي تمركز في الجزءكبديل عن الكل. ولماذا إرتضى موسى بالصمت وهو البين العارف بأمر الرب والذي لايمكن التنازل عنه، أو التهاون مع من ينوي ويريد تأسيس القطيعة واياه، لان الختان، يعني كونه علامة على العهد بين العبران والرب ، وهو ايضاً رتبة طقسية، تنطوي على مكان ديني. وتقدم هذه الممارسة، كرتبة كثيراً، كي تتحول في الادب الكهنوتي، علامة جسدية للعهد بين الشعب ويهوه كما قلنا سابقاً- ويجب على كل عبري أن يحمل هذه العلامة في جسده منذ اليوم الثامن لولادته. واشار سفر الخروج وبنص واضح الى ان الدم النازف لحظة الختن، يمثل دماً للعهد، وعرساً في آن.

وعلى الرغم من تأكيدات الرب على الختان بأعتباره شركاً وعلامه للعهد معه، نجد شمشون - يخرق هذا العهد.

ونزل شمشون الى تمنة فرأى في تمنة أمرأة بنات فلسطين: فصعد وأخبر أباه وأمه وقال رأيت في تمنة أمرأة من بنات الفلسطينين فأتخذاها لي زوجة. فقال له ابوه وأمه اليس في بنات إخوتك وفي شعبي كله إمرأة حتى تذهب وتأخذ أمرأة من الفلسطينيين القلف. فقال شمشون لأبيه بل اياها لي لأنها حسنت في عيني»

القضاة ١٤:١- ٤

وسبب الرفض واضح، لأن العبران ينظرون لغير المختونين نظرة دونية، ومثل هذا النوع لا يستحق الإحترام ولا يمكن إقامة علاقة تبادلية معه، مهما كان نوعها. لأنه غير المختون لايمكن

ان يكون إنساناً. واعتبر العبران الختان رتبة طقسية تأخذ الإنسان وتدفع به منتحياً الى الجماعة وبدون ذلك لا يحصل على شرطة الإنساني. ويتعامل معه العبران بلغة النفور.

«فقال لي الرب يا أبن البشر وجه قلبك وانظر بعينيك واسمع بأذنيك كل ماأكلمك به في جميع رسوم بيت الرب وجميع شرائعه ووجه قلبك الى مدخل البيت وجميع رسوم بيت الرب وجميع مخارج المقدس. وقل للمتمردين لآل، إسرائيل هكذا قال السيد الرب حسبكم جميعً ارحابكم يالآل اسرائيل. وادخالكم بين الغرباء الغلف القلوب الغلف الأجساد ليكونوا في مقدس ويدنسوا بيتى وتقريبكم طعامي الشحم والدم مع إنكم نقضتم عهدي بجميع أرحابكم. ولم تقوموا بحراسة أقداسي بل أقمتم حراساً يحرسون عنكم في مقدسي. هكذا قال السيد الرب لا يدخل مقدسي أبن غريب أغلف القلب والجسد من جميع بني الغرباء الذين بين بني اسرائيل»

حزقيال: ٤٤:٥ – ١٠

وواضح من نص حزقيال بأن الختان صا رعلامة لا محيد عنها، على الرغم من اختلاط الطقوس والعقائد بين العبران وسكان بابل،وواضح ايضاً بأن العلاقة ظلت مهمة على العلاقات السائدة فيما بينهم، ليجعل منها حزقيال علامة تميز بين العبران وغيرهم من الشعوب.

«فقال داود للذين كانوا واقفين معه ماذا يكون لمن يقبل هذا الفلسطيني ويصرف العار عن إسرائيل ومن عسى ان يكون هذا الفلسطيني الأقلف حتي يفرع صفوف الله الحي»

الملوك الول ١٧:٢٦– ٢٧

«فقال داوود لشاول كان عبدك يرعى غنم أبيه فكان يجيء أسد وتارة دب ويخطف شاة من القطيع: فكنت أخرج وراءه وأضربه وأخلعها من فيه فلما وثب عليّ أخذت بذقنه وضربته فقتلته. فقد قتل عبدك أسداً ودباً وسيكون هذا الفلسطيني الأقلف مثل واحد منها لأنه قرع صفوف الله الحي»

الملوك الول:١٧ =٣٤– ٣٧

ومارس العبران عنفاً ضد الشعب اللفلسطيني تارة، وأخرى اضطهاداً وقتلاً وتدميراً. فقي الوقت الذي تراجع فيه العبران عن دينهم التوحيدي وهم داخل فلسطين، نراهم يؤكدون على العلامة الفارقة – الختان - التي جعلتهم ينظرون للشعب الفلسطيني نظرة دونية، وهذا

ماتوكده النصوص التوراتية بشكل واضح، لأن العلاقة اليومية/ الإجتماعية، بين العبراني والفلسطيني، داخل وطنهم الأم تمثل عاراً عليهم، ولذا لايجوز البقاء على الفلسطيني، لانه أقلف، ولم يختن. وكلام داوود، فيه استعداء واضح على الشعوب الأخرى، ليؤكد من خلال ذلك على موقف عرقي وعنصري.

«فقال شاول لحامل سلاحه آستل سيفك وأوجاني لئلا يأتي هؤلاء القلف ويقتلوني ويتشفوا بتشنيعهم فيّ»

اخبار الايام الأول ١٠= ٤-٥

وصار الاقلف صفة للفلسطيني، ويختصره العبران بتلك الصفة لأنها كافية للإشارة له والتعريف به.

إن المساهمة بعيد الفصح أمر ملزم وواجب على العبران، لأنه اليوم الذي أخذهم فيه الرب يهوه واخراجهم من مصر وانقذهم من الملاحقة - كما ادعت التوراة - والفصح واحد من أهم الاعياد العبرية ويجب على من يريد المشاركة بهذا العيد والإحتفال به أن يكون مختوناً وهذا ما نص عليه التشريع اليهودي:

«وفي اليوم الثامن تختن قلفة المولود»

الاحبار ١٢:٣

إن من ينفذ أمر الرب اليهودي في اليوم الثامن، يجوز على شرطة الإنساني ويعلن صراحة عن علاقة عهده مع الرب، بواسطة عرس الدم النازف عند الختان، وهو بذلك يعلن كونه صار فرداً ضمن الشعب المختار الذي اختاره الربّ واصطفاه ليميزه عن غيره من شعوب الأرض.

«وكان عند إنقضاء الأربع مئة والثلاثين سنة في ذلك اليوم عينة أن خرج جميع جيوش الرب من أرض مصر. هي ليلة تحفظ للرب لاخراجهم من أرض مصر هذه الليلة تحفظ للرب من جميع بني إسرائيل مدى أجيالهم. وقال الرب لموسى وهرون هذا رسم الفصح كل أجنبي لا يأكل منه. ،كل عبد مشترى بفضة فأختنه ثم يأكل منه»

الخروج ١٢:٤١-٤٥

«واذا نزل بكم غريب وأراد ان يصنع فصحاً للرب فليختتن كل ذكر له ثم يتقدم فيصنعه ويصير كالصريح في الأرض وكل أقلف لايأكل منه. شريعة واحدة تكون للصريح والدخيل النازل فيما بينكم. فصنع كل بني إسرائيل كما أمر الرب موسى وهرون هكذا صنعوا. وفي ذلك اليوم عينه أخرج الرب بني إسرائيل من أرض مصر بجيوشهم»

الخروج ١٢:– ٥١

هنا يتأكد الموقف اليهودي وعلاقته العرقية/ العنصرية مع الأقوام والشعوب المتجاورة واياهم حتماً. وذلك بسبب إحتلالهم لفلسطين. ولهذا كان الفصح موعداً للإحتفاء بخلاص العبران من مصر، بعد عودته قائدهم/ النبي موسى وصايا يهوه بعدما عاد إلى مصر،مثلما هو يومهم الذي يجب أن يكون فيه العبران، أنقياء من خلال طهارة أجسادهم. وكما لا يجوز أبداً السماح للأقلف بالإحتفال بالفصح، إلا بعد الإختتان، كي يدخل محيط العبران الذي رسمه يهوه، ومنحهم صفة خاصة بهم لم يحزها شعب آخر، وهنا تنشأ منذ لحظة الخروج الأولى وتتبلور صفتهم وتتميز عناصرهم، لأن الرب إختارهم شعباً له. وهنا يتبدى وضوح الرب اليهودي، باعتباره إلهاً خاصاً وقومياً للعبران مرتضياً بصفته تلك، والتي هي من صفات الآلهة الجزرية/ الوثنية تلك الآلهة التي تميزت – أيضاً – عن يهوه بعناصرها وخصائصها التي تجسدت بوظائف أوسع وأشمل، وصارت بتلك العناصر آلهة كونية وإنسانية، مثل الإله مردوخ، إله بابل العظيم، وآبل الكنعاني. لما يؤكد بأن العبران عند خروجهم أخذوا صفة التوحيد فقط من أخناتون ولم يأخذوا شموليته وكونيته وكليته الشاملة ولم يتجاوزوا مع الديانات المتجاورة وإياهم بما هو فكري شامل، بل ظلوا على إختلاف كبير وواسع في عنصرية الإله يهوه وعرقيته التي دفعت به إلى صراعات كثيرة، دموية وإرهابيه مع الشعوب الموجودة.

وسنحاول متابعة طقس الختان الجماعي، باعتباره فعلاً يسعى العبران من خلاله تحقيق رتبة خاصة، فيها شيء من القداسة والتمايز والتباين مع غيرهم. ولعبت الظروف السياسية والمتغيرات دوراً بارزاً في زحزحة بعض العقائد وحصول متغيرات عليها، واستبدالات، وذلك بفعل التجاور، ولهذا وردت إشارات صريحة جداً في التوارة/ العهد القديم على تأثير الديانات الموجودة في المنطقة على الديانة اليهودية، وعودة أعداد كبيرة منهم إلى العبادة الوثنية.

«فهرب أهل أورشليم بسببهم فأمست مسكن غرباء، وصارت غريبة للمولودين فيها وأبناؤها هجروها. وردّ مقدسها خراباً كالفقر وحولت أعيادها مناحة وسبوتها عاراً وعزها إضمحلالاً. وعلى قدر مجدها أكثر هوانهما ورفقها آلت إلى مناحة وكتب الملك انطيوكس إلى مملكته كلها بأن يكونوا جميعهم شعباً واحداً ويتركوا كل واحد سننه. فأذعنت الأمم بأسرها لكلام الملك. وكثيرون من إسرائيل ارتضوا دينه وذبحوا للأصنام ودنسوا السبت. وانقذا الملك كتباً على أيدي رسل إلى أورشليم ومدن يهوذا أن يتبعوا سنن الأجانب في الأرض. ويمتنعوا عن المحرقات والذبيحة والسكيب في المقدس. ويدنسوا السبوت والأعياد. وينجّسوا المقادس والقديسين. ويتبنوا مذابح وهياكل ومعابد للأصنام ويذبحوا الخنازير والحيوانات النجسة. ويتركوا بينهم قلفاً ويقذروا نفوسهم بكل نجاسة ورجس حتى ينسوا الشريعة ويغيروا جميع الأحكام. ومن لا يعمل بمقتضى كلام الملك يقتل».

المكابيين الأول: ١ = ٤٠ – ٥٣

وفي هذه الفترة التي اتسعت فيها الملاحقة والإضطهاد، حصل خروج واسع عن الديانة اليهودية ولم يعدّ يهوه إلهاً خاصاً بالشعب «المختار» وانما أزاحته إلهة الكنعانيين، وعاود العبران إلى ممارسة عقائد الكنعانيين والأقوام الأخرى، واستيقظت طقوس وشعائر قديمة لدرجة أن العبران تراجعوا تماماً عن الختان، ويلاحظ بأن الختان واجه تذبذباً عبر التاريخ الطويل منذ إعلان الرب بذلك لإبراهيم ومن بعده القبائل التي انفرطت لاحقاً وانقطع هذا الطقس الديني.

وحصل توقف شبه كامل لهذا المعتقد حتى وفاة موسى وتولي يشوع قيادة العبران ليحقق حلم موسى في الدخول إلى كنعان واجتياح مدينة أريحا ومن بعد يشوع حصل توقف عن هذه الممارسة، بسبب سياسي واضح. ولم يمارسه إلاّ العبران المؤمنين بالديانة اليهودية/. وكان التعبير عن يهوديتهم الحقيقية، لا يتم إلاّ بالختان ومن خلاله الذي ظل علامة الإختيار الحقيقي للشخصية العبرية. وهذا الإختيار صعب ومجلب للمتاعب، وهنا واجهت الشخصية العبرية نوعاً جديداً من الصراع النفسي والضغط الداخلي، الذي مارس فعلاً تسلطياً عكس تلك الشخصية، فما بين التزامها الديني وارتباطها القومي والعرقي نشأت رغبة التخفي أو التقية المعروفة في المذهب الشيعي وما كان منهم إلاّ الصمت والسكوت على دينهم والتكتم علي عقائدهم وطقوسهم ومن تلك العقائد والطقوس، كان الختان أحدها وأكثرها أهمية بالنسبة للعبران، لأنه الرتبة المقدسة والعلامة على الذات التي ارتضت إقامة عهد مع الرب.

«وكل من وجد عنده سفر من العهد أو اتبع الشريعة فإنه مقتول بأمر الملك. هكذا كانوا يفعلون بسطوتهم في إسرائيل بالذين يصادفونهم في المدن شهراً فشهراً وفي اليوم الخامس والعشرين من الشهر ذبحوا على مذبح الأصنام الذي فوق المذبح. والنساء اللواتي ختن أولادهن قتلوهن بمقتضى الأمر. وعلقوا الأطفال في أعناقهن ونهبوا بيوتهن وقتلوا الذين ختنوهم. وإن كثيرين في إسرائيل عزموا وصمموا في أنفسهم على أن لا يأكلوا نجساً واختاروا الموت لئلا يتنجسوا بالأطعمة. ولا يدنسوا العهد المقدس فماتوا. وكان على إسرائيل غضب شديد جداً».

المكابيين الأول: ١ = ٦٠ – ٦٧

يُقدم هذا النص إضاءة، كثيراً ما اعتمدت الأسفار التوراتية الإشارة إليها والتركيز على تفاصيلها، لتأكيد حقيقة كون العبران/ اليهود واجهوا عنفاً رمزياً ومادياً وواجهوا القتل والإبادة عبر التاريخ الطويل. وتحاول البنية الذهنية العبرانية إيجاد جذر قديم للإضطهاد الذي واجهه اليهود. في التاريخ لاحقاً. وأن الهولوكست ما هي إلاّ إمتداد طبيعي لنمط معين من الإضطهاد. وحاولوا التأكيد على أن تاريخ الملاحقة والإبادة واحد في كل العصور، وما يأتي متحققاً ما هو إلاّ تكملة للأصول. وقد أضاف هذا النص إضطهاد للنسوة اللاتي مارسن الختن لأطفالهن، كما أن الملاحقة وشدتها، ساهمت بصياغة دور للمرأة العبرية، كي تمارس عقائدها من خلال رضاها عن ختان إبنه، أو هي تمارسه. لذا تعرضت للإضطهاد.

«وصدر أمر إلى المدن اليونانية المجاورة بإغراء البطالمة أن يلزموا اليهود بمثل ذلك وبالتضحية. وأن من أبى أن يتخذ السنن اليونانية يقتل فذاقوا بذلك أمرّ البلاء فإن إمرأتين سعي بهما أنهما أختتنا أولادهما فعلقوا أطفالهما على أثديهما وطافوا بهما في المدينة علانية ثم ألقوهما عن السور».

المكابين الثاني ٦ = ٨ – ١١

ولم يكن الختان الممارسة الوحيدة الملاحقة. وإنما كان السبت أيضاً حيث لجأ العبران/ اليهود إلى المغاور والكهوف لممارسة طقس السبت وواجه منهم الحرق. إن الديانة اليهودية/، ظلت قلقة ومضطربة، وتعرضت إلى خلخلة قوية، عبر مراحل زمنية مختلفة لذا كانت العقائد الكنعانية تغزو هذه الديانة، وأحياناً يستيقظ راسبها في الوعي أو اللاوعي الجمعي.

وسعى العبران من أجل الإبقاء على عهدهم مع الرب اليهودي عبر الإصرار على ممارسة طقوسهم التي لا يمكن التنازل عنها، لأنها هي الوحيدة التي تشير إلى رتبة القداسة، وإلى علامة العهد التي أقامهاإبراهيم مع ربه فكانوا يمارسون الختان سراً، وعلى الرغم من الإضطهاد.

«وانظم إليهم جميع الذين فروا من الشرفاء فازدادوا بهم تعزيزاً. والفوا جيشاً وواقعوا بالخطأة في غضبهم وبرجال النفاق في حنقهم وفر الباقون إلى الأمم طالبين النجاة. (ثم جال متتياً) وأصحابه وهدموا المذابح. وختنوا كل من وجدوه في تخوم إسرائيل من الأولاد الغلف وتشددوا».

المكابين الاول ٢ = ٤٢ – ٤٧

وعاشت الديانة اليهودية/ صراعاً واضحاً في داخلها وخارجها وواجهت تنبذاً وسكوناً في أحيان كثيرة، وهي أكثر الديانات إختراقاً من داخلها، وذلك لقوة الديانات الوثنية المتجاورة معها والفاعلة في تأثيرها عليها، مضافاً لذلك العوامل السياسية الداخلية داخلياً وخارجياً وضغط الهيمنة في مراحل الإنهيار السياسي والإحتلال واعتقد العبران بأن الختان وسيلتهم الوحيدة للإعلان عن العهد مع الرب، لذا اكتفوابه، حتى يحققوا لأنفسهم الرتبة المقدسة، ويفوزوا بعلاقة جيدة مع الرب اليهودي. وظل هذا الإعتقاد سائداً لفترة طويلة جداً. ويعتقد بأن النبي آرمياً هو أول من كسر هذا الإعتقاد وخلخل القناعة به. النبي آرميا الذي مارس فتحاً مهماً وعميقاً في بنية الديانة اليهودية، وحولها إلى ديانة يهودية شاملة وحررها من إطارها القومي الضيق. لذا كان النبي آرميا مجدداً في الديانة وساعياً إلى تحقيق إنتقالة خطيرة، قادت لاحقاً إلى تطورات في عمق الدين، لا مثيل لها. ومن تطوراته الجديدة، سعيه إلى إلغاء الدور المركزي، المهيمن لطقس الختان، حيث لا يمكن أن يكون وحده كافياً لتحقيق العهد المقدس مع الرب. ولهذا تبلور مفهوم مغاير وجديد، استهدف الختان في الجسد، والذي مارسته كثير من الشعوب ولم يكن له في حدّ ذاته قيمة روحية عالية.

وشدد النبي آرميا على الدور الذي يلعبه ختن القلب وتطهيره من شوائبه فهذا ما يريده الرب، فما فائدة ختن الغرلة وبقاء القلب مضطرباً وخائفاً، يعشش وسطه التردد.

«تكلم. هكذا قال الرب إن جثث البشر تسقط كزبل على وجه الصحراء لا يفتخر الجبار بجبروته ولا يفتخر الغني بغناه. بل بهذا فليفتخر المفتخر بأنه يفهم ويعرفني إني أنا الرب المجري الرحمة والحكم والعدل في الأرض لأني بهذه أرتضيت.

يقول الرب. ها انها تأتي أيام يقول الرب أفتقد فيها كل المختونين مع الغلف. مصر ويهوذا وأدوم وبني عمون وموآب وكل مقصوصي الزوايا الساكنين في البرية لأن كل الأمم غلف وكل آل إسرائيل غلف القلوب.

نبوءة آرميا ٩ = ٢٢ – ٢٦

هنا التجسد الجديد والمغاير لما هو مهيمن في الذهنية العبرانية والذي تأسس عبر مراحل طويلة جداً وواجه النبي آرميا عتبة خلخلت الراسخ واعتبر ختان الجسد رتبة وأن تحققت، ليست غاية مهمة ووحيدة. فما فائدة إجراء ختن الغرلة لنبي إسرائيل وهم كلهم غلف القلوب. ودعوة آرميا، تنطوي على عناصر حديثة، نادى بها بعدما أدرك ضرورة تجديد الديانة وفتح نوافذ أوسع لها وتخليصها من طابعها القومي/ العرقي المحدود، وجعلها إنسانية/ شاملة ولأن آرميا قد أدرك تأثير الآلهة الكنعانية والطرفية القديمة على تفكير الإنسان العبراني، لأنها آلهة عامة/ شاملة ولم تكن خاصة بالعراقيين فقط، ولا بالسوريين أو الكنعانيين، بحيث حازت على سمة إنسانية شاملة.

لذا نجد نص آرميا دعوة صريحة جداً، ركزت على جدوى ختن غلف القلوب، كي تكون متسامحة، محبة، ساعية للمحبة والخير لكل البشر وهذه عناصر، صعدت لاحقاً في الديانة اليسوعية «اختتنوا للرّب وأزيلوا قلف قلوبكم يا رجال يهوذا وسكان أورشليم لئلا يخرج غضبي كالنار فيحرق وليس من مطفئ لأجل شر أعمالكم»

نبوءة آرميا ٤ = ٤ – ٥

وتنطوي دعوته الجديدة على تطوير جريء، تمثل بوجوب تحقق تناغم بين طرفي الختان، وهما الجسدي والروحي.

ويطّور آرميا لغة نصه ويضفي عليه شعرية عالية، حققت لها المجاز، كي يتسع مدلول كلامه ويتوفر عكس فرصة كبيرة للتأويل لأن مثل هذه القراءات مساحتها الحقيقية هي النص الديني «من ذا أكلمه وأشهد عليه فيسمعوا. ها إن آذانهم غلف فلا يستطيعون الإصغاء. ها إن كلمة الرب صارت لهم عاراً لا يسرُّون بها»

نبوءة آرميا ٦ = ١٠ – ١١

وواضح بأن الإستعارة في كلام آرميا تضفي على الغلفة مدلولاً واسعاً وتمنحه شعرية،

تفضي لتأويل واسع. ولأنه طالب بختن غلفة القلب، فإن الغلفة – الضرورة – موجودة في أجزاء أخرى من جسم الإنسان، غلفة الأذن – كما قال هو – وغلفة اللسان...إلخ ومثلما الإستعارة متمتعة بدور فني وفكري، في كلام النبي آرميا، نجد نصاً في سفر الأحبار لايختلف عن نص آرميا في شفافية الإستعارة وقوة المجاز والإنزياح الذي يتبدى في النص كما:

«وإذا دخلتم الأرض وغرستم كل شجر يؤكل فاعزلوا غرلته أي ثمره، ثلاث سنين يكون لكم أغلف لا يؤكل منه. وفي السنة الرابعة يكون جميع ثمره قدساً لتمجيد الرب.

وفي السنة الخامسة تأكلون ثمره فيراد لكم في غلته أنا الرب إلهكم»

الأحبار ١٩ = ٢٣ – ٢٦

لقد خضعت التوراة لمتغيرات عديدة، بسبب إختلاف التدوين وتعدد المرويات، وذلك لحصول ما يستوجب ذلك، وأهم ما أعنيه هو الحروب والأسر أولاً والتجاور مع الحضارات المجاورة وصعوبة الصمود أمام مؤثرات تلك الحضارات القوية والراسخة. كما أن التدوين استجاب لقوة وانفتاح الأسفار اللاحقة، وبعد فترة طويلة جداً وهذا يبدو واضحاً في إنفتاح سفر التثنية على نبوءة آرميا والإستفادة منها، سعياً من أجل تحقق التناظر في المفهوم الديني والمدلول الإنساني، ومعروف بأن آرميا بني لمرحلة متأخرة جداً. والتثنية من الأسفار التوراتية الأصلية التي شكلت العهد الضيق.

لذا ركز سفر التثنية – مثلما سنجد في النص – على النداء الحيوي والحميم الذي أعلنه النبي آرميا والقاضي بضرورة ختان القلب ومحبة الرب التي تتسع بعد تحققها لمحبة البشر.

«إن الرب إلهك السماوات وسماوات السّماوات والأرض وكل ما فيها. لكنه لزم آباءك فأحبهم واصطفى ذريتهم من بعدهم وانتم هي من بين الشعوب إلى يومنا هذا. فأختتنوا قلف قلوبكم ورق بكم لاتقسوها أيضاً»

التثنية ١٠ = ١٤ – ١٧

ونجد ترجيعاً للمفاهيم التي أكدها سفر التثنية حول الختان في التعاليم الكهنوتية والتقاليد الدينية المتوارثة في سفر الأحبار:

«لذلك أنا أيضاً أسلك معهم بالخلاف وأدخلهم أرض أعدائهم حتى تتذلل قلوبهم الغلف وحينئذ فإنهم يفُون عن إثمهم»

الأحبار ٢٦ = ٤١ – ٤٢

ويحصل تصاعد في اللهجة الدينية والأمر اليهودي، في زمن وجود اليهود أسرى بابل، حيث لغة النبي حزقيال المحملة بالوعيد والتهديد من بقاء الغلفة الثنائية، الجسدية والروحية لدى غرباء، يدخلون تجاوزاً على قدس أقداس الرب

«فقال لي الرب يا ابن البشر وجه قلبك وانظر بعينيك واسمع بأذنيك كل ما أكلمك به في جميع رسوم بيت الرب وجميع شرائعه ووجه قلبك إلى مدخل البيت وجميع مخارج المقدس.وقل للمتمردين لآل إسرائيل هكذا قال السيد الرب حسبكم جميع أرجاسكم يا آل إسرائيل. وإدخالكم بين الغرباء الغلف القلوب الغلف الأجساد ليكونوا في مقدسي ويدنسوا بيتي وتقريبكم طعامي الشحم والدم مع أنكم نقضتم عهدي بجميع أرجاسكم»

نبوءة حزقيال ٤٤ = ٥ – ٨

ويلاحظ بأن الأسفار التوراتية اللاحقة للأسفار الخمسة الأولى تؤكد على الدور الروحي والنفسي لختان القلب، والذي يصوغ الرتبة المقدسة، الدالة على العهد مع الرب. ولا شيء أهم من غلفة القلب وختانها كي يفوز العبري بمحبة الرب لكن العبران لم يستطيعوا الفوز بهذه الرتبة القدسية. لذا فإن الله أعطاه لشعبه في يوم الإنتظار الطويل/ لحظة الخلاص.

«ويرجع بك الرب إلهك إلى الأرض التي امتلكها آباؤك فتتملكها ويحسن إليك وينميك أكثر من آبائك. ويختن الرب إلهك قلبك نسلك لتحب الرب إلهك بكل قلبك وبكل نفسك لكي تحيا»

التثنية ٣٠ = ٥ – ٧

ويتحقق للعبري خلاص كلي، بواسطة ختن القلب وختان قلوب نسله مدى الحياة، ويمنحه قدرة على الحياة، وطاقة على التجدد والبقاء ويكون الخلاص بواسطة النعمة والبركة والإيمان. إنه ختان من نوع جديد، يتجسد في خلاص كلي للرجل المؤمن والصالح.

«أما البرُّ الذي من الإيمان فهكذا يقول فيه لا تقل في قلبك من يصعد إلى السماء، أي لينزل المسيح. أو من يهبط إلى الهاوية. أي ليصعد المسيح من بين الأموات. لكن ماذا يقول. إن الكلمة قريبة منك في فيك وفي قلبك. يعني كلمة الإيمان التي نبشر نحن بها. لأنك إن اعترفت بنعمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله قد أقامه من بين الأموات فإنك تخلص. لأنه بالقلب يؤمن الإنسان للبر وبالغم يعترف للخلاص»

رسالة القديس بولس إلى أهل رومية: ١٠ = ٦ – ١١

يتمركز الختان عبر الخلاص الروحي والنفسي، وتسامي المعاني التي صرح بها الرب: فالإيمان يعلن عنه بالفم وينزوي في القلب لأنهما يقودان إلى الرب يسوع في صعوده إلى السماء ومغادرته للعالم الأسفل. فالكلمة تأخذ مساراً جديداً مثلما هي عليه في ديانات الشرق القديم، وحصراً العراق بالذات، حيث كانت للكلمة طاقة سحرية خلاقة قادرة على تحقيق ما هو صعب وهذا ما كشفت عنه ملحمة الخليقة البابلية وأكدته في لحظة حيازة الإله القومي لبابل/ مردوخ عليها – أي الكلمة – استطاع من الإنتصار والفوز على الحياة المظلمة والمعتمة، حيث قتل تيامت وانقذ البشر منها وحقق للحياة مجالاً حيوياً جديداً، وانهارت بذلك سلطة الأم الكبرى في تاريخ العراق القديم، وصعدت السلطة البطرياركية.

ولهذا نجد إمتداداً لقوة الكلمة وسحرها الطاغي في كلام بولس «إن الكلمة قريبة منك في فيك وفي قلبك» وتمثل إمتداداً منطقياً للدور الذي عرفه الكلام في حضارات الشرق وحتى في الديانات السماوية. وهذا هو الخلاص الذي أشار له آرميا في نبوءته....خلاص امتد إلى ديانة يسوع ليتبلور واضحاً وطاغياً وهذا ما سنحاول متابعته في القسم الآتي من هذه الدراسة.

يعترف فرويد بأن طقس إجراء الختان سحيق القدم في التاريخ، حتى صار صعباً التعامل مع هذا الطقس وفهمه ومعرفة لحظة التبلور والنشوء، وكيف اتفقت عليه عدد من الشعوب ذات الحضارة والتاريخ، وأخرى ظلت خاضعة لمهيمنات حضارة زراعية، مشدودة لذاكرة رعوية. وطقس الختان، فعالية دينية، لكنها مع خصائصها الدينية، تبدو مفزعة لمن لا يمارسها كما قال فرويد، وعلى العكس نجد الشعوب الممارسة لها، تتعامل معها على أساس كونها واحدة من أهم العلامات المميزة لشعب من الشعوب لتميزه عن غيره من شعوب العالم وهذا ما كان سبباً عند المصريين للأخذ بطقس الختن، واعتقد المصريون بأن الختان يعظم من قدرهم ويمنحهم صفة النبل والإختلاف، ولهذا لم يحز الأغلف على مكانة لائقة ومحترمة في المجتمع والحياة، لأنه متهم بالنجاسة. وأشر فرويد بأن اللعنة التي تلاحق المسيحي، بقاؤه أغلف، ويوصف بأنه كلب أغلف.

ويبدو بأن موسى كان مختوناً، لأنه مصري وفرض موسى الختان على قومه، ليوجد صلة عقد معهم باعتبارهم بديلاً لشعب غادره حتى الأبد وهو الشعب المصري، لذا اختارهم وخصهم بتلك العلامة. ولم يرد لهم مكانة في التاريخ والحضارة، أقل من مكانة المصريين، حتى طمح أن يكون شعبه مختاراً كالشعب المصري، ولهذا منح الرب يهوه صفة الإختلاف لهم

واعتبرهم شعبه المختار والذي لا يشبهه شعب من شعوب الأرض، معلناً منذ البداية خاصية العبران العرقية ومنها نشأت عدوانيتهم ضد شعوب المنطقة وهذا ما عززته أيضاً سنوات الشتات الطويلة والمريرة في الصحراء، تلك السنوات التي واجه فيها موسى تمردات العبران الكثيرة* شتات على محيط الحضارة الكنعانية المزدهرة، حينها عرف العبران بنية الطرد والإلغاء المستمر، حيث ظلوا هامشاً على محيط تلك الحضارة، وتعاملوا معها - لاحقاً - وبعد الإجتياح تعاملاً دموياً وهو معروف، وتضيئه النصوص التوراتية.

ولأن دراسة فرويد، توصلت إلى مصرية موسى، فبالضرورة كانت الديانة التي غادر بها مصر هي الديانة المصرية/ الأخناتوية، وكتحصيل حاصل فإن الختان عادة مصرية، ارتحلت مع موسى عند الخروج. ويشير فرويد لشكوى الشاعر اليهودي، هنري هانين من دينه في القرن التاسع عشر الميلادي:

«تلك الآفة الوافدة من وادي النيل، تلك العقيدة الموبوءة لمصر القديمة»

× × ×

أكد الأستاذ (فالح مهدي) في كتابه «البحث عن منقذ» على مصرية الختان لكن أستاذاً هو (محمد العزب موسى)، أكد بأن البابليين والسومريين لم يعرفوا الختان. وتذكر النصوص التوراتية الشيء نفسه عن سكان كنعان، ويبدو هذا مقنعاً من خلال قصته المغامرة المعروفة بين إبنة يعقوب والأمير شكيم:

«وخرجت دينة إبنة ليئة التي انجبتها ليعقوب لتتعرف على بنات المنطقة المحيطة، فرآها شكيم بن حمور الحّوي رئيس المنطقة، فأخذها واغتصبها ولوث شرفها، واغرم قلبه بدنية ولاطفها وقال شكيم لحمور أبيه «خذ لي هذه الفتاة زوجة» وسمع يعقوب أنه قد لوث إبنته دينة. وكان بنوه آنئذ يرعون مواشيه في الحقل، فسكت حتى رجعوا.

ووفد حمور والد شكيم على يعقوب ليخاطبه بشأن دينه وأتى بنو يعقوب من الحقل عندما سمعوا بالأمر، وقد استشاطوا غضباً وغيظاً لأن شكيم قد ارتكب فاحشة في إسرائيل بمضاجعة إبنة يعقوب وهو أمر محظور. وقال لحمور «لقد تعلقت نفس إبن كشيم بإبنتكم، فأطلب إليكم أن تزوجوه منها. صاهرونا، وزوجونا بناتكم، وتزوجوا من بناتنا، واسكنوا معنا، فها هي الأرض أمامكم. أقيموا بها واتجروا وتملكوا فيها. قال شكيم لأبيها واخوتها: دعوني أحظى برضاكم ولك ما تسألونه أعطيه أغلوا عليّ المهر والهدية فأبذلهما كما تطلبون، إنما

* درسنا هذه التمردات في كتابنا المخطوط - التوراة السياسي

زوجوني من الفتاة، وأجاب أبناء يعقوب شكيم وأباه حمور بدهاء، لأنه كان قد لوث شرف أختهم وقالوا لهما، لا يمكن أن يحدث هذا الأمر فتعطي أختنا لأغلف، لأن هذا عار علينا. غير أننا نوافق على طلبكم إن صرتم مثلنا، واختتن كل ذكر منكم، عندئذ نزوجكم بناتنا، ونتزوج من بناتكم فنقيم بينكم ونصبح شعباً واحداً، وإن لم تسمعوا لنا وتختتنوا، نأخذ إبنتنا ونمضي» فاستحسن حمور وولده شكيم كلامهم. ولم يتوان الشاب عن تنفيذ الأمر، لأنه كان مغرماً بإبنة يعقوب. وكان أكرم جميع بيت أبيه. فجاء حمور وشكيم إبنه إلى مجلس المدينة وقالا لرجالها:

إن هؤلاء القوم مسالمون لنا، فلندعهم يقيمون في الأرض ويتجرون فيها. فالأرض رحبة أمامهم. ولنتزوج بناتهم وهم يتزوجون بناتنا وقد اشتركوا للإقامة بيننا وأن نصبح شعباً واحداً، أن نختتن كل ذكر كما هم. عند ذلك تصبح ماشيتهم ومقتنياتهم وكل بهائمهم ملكاً لنا فلناوفقهم على ذلك فيقيموا معنا. فوافق جميع الحاضرين في مجلس المدينة على كلام حمور وإبنه شكيم فاختتن كل ذكر في المدينة»

التكوين ٣٤: ١ – ٢٤

وهذا النص لا يحتاج إلى تعليق، فهو مكتف بذاته، وكاشف لمعناه الذي يؤكد على طقس الختان كعلامة عبرانية، مارسها إبراهيم إستجابة لطلب الرب يهوه. كما يشير إلى حقيقة عدم معرفة الكنعانيين إلى الختان لذا فإن الشعب المصري، هو أول الشعوب الجزرية التي عرفته ومارسته، إنطلاقاً من خصائصه المميزة له، كما أنه – الختان – يوفر فرصة أن يكون الإنسان طاهراً ونقياً. كما ثبت من فحص المومياءات المصرية القديمة، ومن الرسوم الموجودة على جدران المقابر.

ولكن ما هي الأسباب التي جعلت موسى يأخذ معه هذه العادة وأرغم شعبه على ممارستها، وهي عادة خاصة بالمصريين الذي اعتبرهم العبران أعداء لهم.

إن التوراة – وفي النصوص التي أشرنا إليها – فيها شيء من التناقض الواضح في الإجابة على السؤال الذي أثرناه قليلاً. فهي – التوراة – تقول مرة، إنها مفروضة من قبل الرب كعلامة على ميثاق عقد بين إبراهيم والرب يهوه، ومن ناحية أخرى، ذكر النص التوراتي في عبارة مبهمة، أن الرب غضب على موسى عقاباً له على ذلك. غير أن زوجته، وهي إمرأة من

مدين - كما قال فرويد - أنقذت زوجها من غضب الرب حيث سارعت لإجراء هذه العملية الجراحية له.

إن جواب التوراة عن هذا السؤال لا يعطي حلاً نهائياً عن ممارسة هذه العادة. فيما إذ عرفنا بأن المصريين هم أول من مارسها وبذلك يرجع السؤال ثانية: ماالذي دفع موسى إلى ارغام شعبه على ممارسة عادة بغيضة عليهم.

وأشار الأستاذ (محمد العزب موسى) إلى أن المسألة تتحدد في كشف العلاقة الجدلية بين الذين يمارسون هذه العادة، والذين لا يمارسونها. فالذين يمارسون الختان، يعتبرون أنفسهم مطهرين وأنقياء، وأن بقية الأجناس قذرة، لا تصل إلى مستواهم وأنهم فخورون بهذه العادة، ويشعرون بأنهم أسمى أو أكثر نبلاً، وينظرون باستعلاء واحتقار إلى الآخرين الذين يبدوّن في أعينهم غير نظيفين. أما الذين لايمارسون هذه العادة فيعتبرونها عادة شاذة للغاية وبغيضة، لا تتناسب مع الناس الأسوياء. ونستطيع التوصل من بعض السر في إجبار العبران على الختان، وهو - السر - مرتبط بموسى الذي غادر وكان مختوناً وعرف مايعنيه الختان لشخصية المختون، وأراد أن يحقق تطابقاً بين القائد وشعبه، لا يجوز أن يكون القائد - موسى - حاملاً لعلامة الختان، الطهارة والنقاء، ويظل شعبه فاقداً للطهارة التي تمناها له.

ونقل فرويد رأياً لهيردوس الذي زار مصر في حوالي ٤٥٠ ق.م حول واقعة صالحة لتميز الشعب المصري، وتنطوي على محاكاة مذهلة لبعض الخصائص المعروفة عن اليهودية المتأخرة [أنهم من جميع الوجوه أكثر ورعاً وتقوى من سائر البشر الذين تميزهم عنهم أيضاً عادات أخرى. وهكذا كانوا يمارسون عادة الختان، الذي كان فهم من (فرويد)، أم خطأ ترجمة التوراة؟ إن ما يجعلنا نميل إلى الإحتمال الثاني، هو أن (فرويد) نفسه وصف هذا المقطع بأنه «شديد الغموض» ثم بأنه [ملغز]



شكل ٣٣ الفطر المقدس رمز يهوه القضيبي.

وقد وقع الأستاذ الباحث (محمد العزب موسى) في ذات الخطأ، نقلاً مباشراً، وأخذ عنه الأستاذ فالح مهدي).

أول من أخذ به لدواعي النظافة، وينقل فرويد رأياً «لماير» لم يشك فيه بأن ثمة قسطاً من الحقيقة في قصة المقام في مصر والخطب الذي ألم بالمصريين. ولكن من دون أن يدري - بالطبع - كيف يحدد زمن هذه الأحداث، ولا كيف يستخدمها، وهو لا يرضى بأن يعزوا أصلاً مصرياً للختان. وهذا يغني الجواب للتوصل إلى مقاربة مقبولة، إعتماداً على ما قاله يشوع بن نون خادم موسى وخليفته وقائد العبران نحو كنعان واجتياحها:

سأل الشعب أن يأخذ بعادة الختان، تحاشياً لسخرية المصريين. ويستشهد ثانية بهيرودوس الذي قال بأن الفنيقيين والسوريين، أقروا إقتباسهم للختان من المصريين. وأكد فرويد، أنه لامفر من الإبقاء على الختان وهو أبلغ دليل على التبعية لمصر.

وفي سفر الخروج مقطع ملغز، ورد فيه أن يهوه سخط من رؤيته موسى يتخلى عن الختان وأن زوجته الأخيرة المديانية، أنقذت حياة زوجها، بإجرائها العملية - كما قلنا - وهذه هي المرة الثانية التي أشار فيها (فرويد) إلى هذا النص من سفر الخروج. وأشار الأستاذ (جورج طرابيشي)، إلى أن الرجوع إلى النسخة العربية المتداولة من التوراة [المطبعة الجامعية، كامبردج، بريطانيا ١٩٥٢ بإشراف جمعيات الكتاب المقدس المتحدة] يتبنى بأن المقصود ليس موسى وإنما إبنه من زوجته صفورة، إبنة كاهن مدين. ويتساءل طرابيشي: أهو سوء أشار فرويد بصراحة تامة أن تجريد شعب من الشعوب من الرجل الذي يحتفي به على أنه أعظم أبنائه ليس بمهمة بهيجة ينجزها المرء بخفة قلب ولكن ليس ثمة إعتبار، مهما جلّ، بقادر على إغوائي بتجاهل الحقيقة. إن موسى، الرجل الذي كان للشعب اليهودي «محرراً» والذي وهب هذا الشعب شرائعه وديانته، ينتمي إلى عصر موغل في القدم يبيح لنا أن نتساءل على الفور هل ينبغي فعلاً أن يعده شخصية تاريخية أم أنه لايعدو أن يكون شخصاً خرافياً.

إن تاريخ حضارة أي شعب يمارس سطوة عبر ضرورات موضوعية ومعنوية/ نفسية من أجل إنتاج رمزها الأسطوري، ولهذا كثرت الأساطير الخاصة بميلاد البطل القومي، الذي قاد شعبه نحو خلاصات، وصار منقذاً لهم وحلماً لمستقبلهم، وتمركز في حضارتهم حتى صار صعباً التخلص من ذلك الرمز/ البطل، وإزاحته من الذاكرة وتعطيل الثقافة التي أنتجها العقل

* سيغموند فرويد/ موسى والتوحيد/ ت. جورج طرابيشي/ دار الطليعة/ بيروت/ ط٤ ١٩٨٦/ ص ١١

الشفاهي عنه، بحيث اتسع مجالها التبادلي، باعتبارها نصاً جمعياً، يتسرب مروياً إلى محيط آخر، ويجد الشعب/ المرسل إليه في تلك الثقافة/ أسطورة البطل ورمز المنقذ ضرورة التطابق وإياه عبر عناصر التكون والتشكل، لذا تصوغ عبر التناظر ثقافتها الخاصة بها، لذا نجد تكرر هذا النموذج باعتبارها بردعاً في كل الثقافات .إن جميع* الشعوب المتمدينة الكبيرة بلا إستثناء تقريباً.....قد عظمّت في الشعر والأسطورة من باكر الأزمان أبطالها الملوك والأمراء الأسطوريين، مؤسس الديانات أو السلالات المالكة أو الحواضر، وباختصار أبطالها القوميين. وقد راق لها، بوجه خاص، أن تسبغ على تاريخ ميلاد هؤلاء الأبطال وحداثتهم ملامح خارقة. ومن الحقائق المعروفة منذ طويل الأزمان والتي لفتت إنتباه العديد من العلماء التشابه المذهل، بل التطابق في تلك القصص لدى شعوب متباينة، تفصل بينها في غالب الأحيان مسافات شاسعة.

وسنجد في تحليلنا لأساطير البطل النموذجي والمخلّص الذي أنقذ شعبه، سنجد بأن عناصرهم الشخصية وخصائصهم الفردية متماثلة مع بعضها، وكأنها نسخت أثناء إرتحالها، مع حصول إستبدال طفيف وبقاء البنية الداخلية لذلك البطل ثابتة. وأشار شتراوس إلى أن الإستبدال الذي يحصل في الأسطورة أو الحكاية، يتبدى في العلاقات الخارجية للنص، وتظل البنية الداخلية أثناء إرتحالها، من هنا حصل التشابه والتناظر بين أساطير البطل القومي، ذات التماثل في:

* البطل سليل أسرة رفيعة المقام إلى أبعد الحدود وهو بوجه* عام إبن ملك، وميلاده مسبوق بمصاعب. واضطر الوالدان إلى معاشرة سرية فيما بينهما. وأثناء الحمل أو حتى قبله تعلن نبوءة ما [حلم أو عراف] إن ميلاد الطفل سيكون سبباً في كارثة والأب بوجه عام هو المهدد بها. وبناء عليه يصدر الأب أمره بقتل الطفل أو بتعريض الوليد لحظر مميت ويوضع الرضيع في سلة صغيرة ويسلم أمره لتيار الماء ويجري بعد ذلك إنقاذه من قبل حيوانات أو على أيدي أناس بسطاء وترضعه أنثى حيوان أو إمرأة وضيعة.

وأول ما عرف التاريخ أسطورة سرجون/ موسى/ قورش/ رومولوس* لكن رانك تمكن أن يجمع عدداً من وجوه الأبطال الذي تتردد أسماؤهم في الأشعار أو في الأساطير والذين عاشوا طفولة مشابهة كلياً أو جزئياً وعلى سبيل المثال (أوديب، كارنا، باريس، تيليفوس،

* فرويد/ موسى والتوحيد/ سبق ذكره...ص ١٢

برسيوس، هرقل، جلجامش، امفيون، زيتوس). وقد أتاحت لنا أبحاث (رانك) أن نعرف مصدر هذه الأسطورة ومنحاها.

وسيبدو لنا بأن الصراع الدائر في الأسطورة، هو صراع بين الأب والإبن، تعبيراً عن هيمنة التمركز البطرياركي وضرورة انتقال السلطة إلى اللاحق/ الإبن ولكن بطريقة ليست سلمية، يلعب الحلم فيها دوراً مهماً. والإبن نموذج للبطل الذي يتصدى لوالده** بشجاعة ويتغلب عليه في خاتمة المطاف. والأسطورة التي تحظى باهتمامنا هنا تحكي قصة هذا الصراع، مرجعه إياه إلى ما قبل تاريخ البطل، مادام الطفل قد رأى في سلة تمثيل رمزي صريح للولادة. والعلاقات بين الوالدين والأطفال تمثل في عدد لا يحصى من الأحلام، في فعل الإنتشال من الماء أو الإنقاذ من الماء.

ويضيف (فرويد) معتمداً على توصلات (رانك) حول أسطورة البطل القومي ورمز الشعب وقائده:**

وحين يطبق الخيال الشعبي أسطورة الولادة هذه على شخص مشهور، فهذا للتأكيد على أن هذا الشخص قد تقيد بالمخطط النموذجي لحياة بطل.

ولكن مصدر الأسطورة كلها يكمن في ما يسمى برواية الطفل لعائليه فهذه الرواية هي التي تعرض ردود فعل الإبن تجاه تغير علاقاته العاطفية بوالديه، وبأبيه بوجه خاص. فالسنوات الأولى من الطفولة يهيمن عليها تهويل عظيم من قدر الأب. وملوك الأحلام وقصص الجن وملكاتها هم في الواقع رموز للوالدين. ولكن الطفل ينفصل فيما بعد عن والديه، تحت تأثير تنافس وخيبة أمل فعلية، ويتخذ من والده موقفاً نقدياً. وهذه التفسيرات تمكننا من أن نفهم إنتشار أسطورة ولادة البطل وذيوعها وتماثلها النمطي في آن واحد.


شكل ٣٤ مايكل انجلو (تمثال موسى)
كنيسة القديس بطرس في فنكولي، روما.

* فرويد/ موسى والتوحيد/ سبق ذكره...ص ١٣

«وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي. أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يختن منكم كل ذكر. فتختتنون في لحم غرلتكم. فيكون علاقة عهد بيني وبينكم. إبن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم. وليد البيت والمتباع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك. يختتن ختاناً وليد بيتك والمبتاع بفضتك. فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً. وأما الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها. إنه قد نكث عهدي».

التكوين ١٧ =

الختان واجب على العبري وعلى من يعيش وإياه. وكلام الرب لإبراهيم واضح جداً ولا يقبل الإختلاف والجدل، حيث طلب منه الحفاظ على العهد، وهو المرتبة الدينية المقدسة بين العابد ومعبوده/ الرب ويجب على العبري المحافظة على هذا العهد وإجراء الختان في الغرلة وبعد ولادته بثمانية أيام. والختان ضرورة دينية، حتى لمن يبتاعه العبري. وهذا النص يكشف بما لا يقبل الشك من أن لإبراهيم عبيد في بيته لإدارة شؤون ثروته الطائلة التي عاد بها من مصر، مضافاً إلى ما تكون في كنعان.

«فأخذ إبراهيم إسماعيل إبنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضته. كل ذكر من أهل بيت إبراهيم وختن لحم غرلتهم في ذلك اليوم عينه كما كلمه الله. وكان ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين خُتن في لحم غرلته. وكان إسماعيل إبنه إبن ثلاث عشرة سنة حين خُتن في لحم غرلته وفي ذلك عينه ختن ابراهيم واسماعيل أبنه وكل رجال بيتة. ولدان البيت والمبتاعين بالفضة. من ابن الغريب ختنوا معه»

التكوين ١٧=

واستجاب ابراهيم لنداء الرب وأجرى لغرلته الختان، حيث كان عمره تسع وتسعين سنة واسماعيل ابن ثلاث عشر سنه. وواضح من النص بأن ابراهيم أسس عهده مع يهوه، حيث إتضح لنا بأن بيت ابراهيم فيه عدد غير قليل من الذكور إشتراهم إبراهيم بالفضة. مضافاً لذلك يضيء لنا النص التوراتي وجود رجال في بيت ابراهيم وهم غير الولدان. وحصل ختن كامل للرجال إبتداءً من إبراهيم وولديه والرجال المبتاعين بفضة من ابن غريب وحصل هذا في اليوم الذي أمر فيه الرب ابراهيم

«وختن أسحق أبنه وهو ابن ثمانية أيام كما أمر الله»

إن أمر الرب اليهودي/، إستلمه ابراهيم أولاً. وهو الذي جعل منه – عند التطبيق – عهداً ورتبه على الولاء والطاعة للرب. ولابد لنا من الإعتماد على التحديد الزمني الذي أمر به الرب اليهودي، وهو ضرورة اجراء الختن في اليوم الثامن من عمر المولود، وهذا التحديد يضيء لنا جانباً مهماً من عقائد التقدمات والأضاحي والبواكير، إقتراناً مع محيطها الجزري لأن الديانات الجزرية، عرفت هذه الممارسات وضاعت بعضاً من عقائد زراعية، لها علاقة –ايضاً – بالخصوبة كنظام ثقافي، وللعبران صله بذلك النظام الذي صاغته البنية الذهبية العبرانية من عقائد الشعوب الجزرية المجاورة لها، وأجرت عليه تغيراً إستبدالياً، إقتضته متطلبات مرحلة جديدة، خاصة بالعبران، وشروط قومية/وموضوعية، الزمتهم باحداث متغيرات، لكنها طفيفة، ومرتبطة. بجذرها وتومىء له وتشير اليه. ونقل العبران طقس قربان الدم من الشعوب الجزرية في منطقة الجزيرة العربية وأجروا تغيراً عليه، حيث أشارت الاسفار التوراتية الى أهمية الدم كشكل من اشكال التضحية والقربنة، ولهذا نجد بأن العلامة وثيقة بين معتقد الختان وطقس القربان الدموي. لأن الختان شكل من أشكال التضحية الآدمية الذي تطور وتمركز مكتفياً بالتضحية الجزئية، حيث ساهمت عملية الختان– كما قال (سميث) – بترحيل المولود من عشيرة الام الى عشيرة الاب، وهذا النقل، يعني ترحيلاً كليا للعلاقة التي كانت سائدة، واستبدالها وتغيرها بأتجاه علامات بطرياركية، لحظة إنتقال المولود الى عشيرة الاب/ الاله الذكري،وبهذا يضع التنقل حداً لنمط من التفكير وانتاج الثقافة، إتخذت لها شكلاً ومعياراً وظيفياً جديداً.

إن طقس تقديم البكورية ممارس ومزاول على نطاق واسع وكان العبران يقدمون ابكارهم الذكوري الى الاله الهودي/ اليهودي الذي لا يقدر بقاءاً بدون المحرقات البشرية.

وقال (روبرت سمث):انه في العصور القديمة حيث كانت بعض الظروف الإستثنائية تستدعي التقرب بضحية آدمية كانت هذه الضحية طفلاً وبفضل ان يكون بكراً أو إبنا وحيداً تختاره الشعوب التى كانت تعيش بفلسطين وحولها*

والتفسير العام لهذا القربان هو أنه أغلى تقدمه يمكن لبشر أن يقدمها، ولكن يجب أعتباره اختياراً لأشد أنواع الضحايا قدسية للغرض خاص.

ويؤكد سمث على ان مميزات البكر عند الأقوام الحزرية كانت في أصلها مميزات الطهارة، فدم العشيرة المقدس يجرى في عروقه في أنقى صورة واقواها.

«ثم أستدعى يعقوب أبناءه وقال: التفوا حولى لأنبئكم بما سيحدث لكم في الايام المقبلة. أجتمعوا واسمعوا يا أبناء يعقوب واصغوا الى إسرائيل أبيكم. رأوبينى أنت بكري وقوتي وأول مظهر رجولتي، فصل الرفعة وفضل العز»

التكوين ٤٩:٣-٤

«فحين يوزع ميراثه على أبنائه، لا يحل له ان يقدم أبن الزوجة الأثير ليجعله بكرٌ في الميراث على بكره أبن الزوجة المروهة. بل عليه ان يعترف ببكورية ابن المكروهة ويعطيه نصيب أنثى من كل ما يملكه، لأنه هو أول مظهر قدّرتة، وله حق البكورية»

التثنية ٢١ = ١٦-١٧

تعني القدسة المتأصلة في البكر سواء في حالة الاطفال، أوفي حالة الماشية بانه من المحتم التقرب به أو تقديمه للاله على المذبح، بل كان معناه انه إذا كان لابد من تقديم قربان فهو أفضل الضحايا وأصلحها لأنه أقدسها. وللصلة الموجودة بين عيد الفصح وتقديم البواكير مدلول عميق يشف عن آلية مقترنة بين الزمن اللازم إجراء الختان فيه – وهو ثمانية أيام من عمر المولود – وبين عيد الفصح، والذي تقدم فيه الابكار للرب، ،الغرله هي البكورية، لأن عمرها ثمانية أيام.

إن باكورة الثمار تقدمه سنوية من أبكر ثمار العام وافضلها** أما أبكار الحيوان فهي أول ما تلده انثى الحيوان، والمقابل لها في مملكة النبات نجده في تشريعات اللاويين ١٩/ ٢٣ وما بعدها حيث تقضي بأن تعامل ثمار الحديقة الجديدة بوصفها «غلفاء» [اي غير مختنة] لمدة ثلاث سنين فلا تؤكل، وبأن تكون ثمارها في السنة الرابعة قدساً للرب، ثم يحل أكل ثمارها بعد ذلك.

وأجد بأن توصل العالم المعروف (جان بوتيرو) عن التقدمات والأضاحي العبرية، والمرحلة من عقائد وطقوس الشعوب الجزرية تلك التقدمات الإعتبارية، التي أخذت لها صفة جديدة تماماً ومختلفة، هذه التقدمات التي استقرت وثيقة عهد من خلال الدم، الذي كان مهيمناً

---

* روبرت سميث/ محاظرت في ديانة الساميني/ ت:د. عبد الواهاب علوب+ د. محمد خليفه حسن/ المجلس الاعلى للثقافة/ القاهرة/١٩٩٧/ص٥١٩

* روبرت سميث/ محاضرات في ديانة الساميني/ ترجمة: د. عبد الوهاب علوب + د. محمد خليفه حسن/ المجلس الزعلى لثقافة/ القاهرة ١٩٩٧/ص ٥١٩

* روبرت/ محاضراتت في ديانه الساميني/ سبق ذكره ص ٥١٦

في عقائد وطقوس العبران.

ولهذه الغاية* لجأ موسى الى تقليد «سامي» قديم. كانوا يستعيضون عن القرابة الدموية بقرابة إعتباريه، لا تقل متانة عن الأولى وتتم بأقامة طقوس تعبر عن التآخي في اللحم والدم وعن المصير الواحد: حفلة العهد مع تآخي في الدم. وليمة مشتركة وقسم يقوم به كل طرف بأحترام وتنفيذ واجاباته تجاه الأخر.

إن الاقتران بين عيد الفصح والختان، عنصر ديني واضح تماماً وردت إشارة في سفر التثنية الى ان عيد الفصح هو عيد إبتداء المنحل في العيدان. وليس صعباً على القراءة ان تتوصل الى مدلول ذلك، ومعناه الرمزي، وسنحاول مناقشة ذلك لاحقاً.

وذكر (فرويد) ان طقس** التضحية الذي عرفناه ابداعاً خاصاً بالمجتمع الأبوي الرعوي، والذي إستمر بعد تزاوج المجتمعين الأبوي والأمومي وعبادة الخصب في هذه المجتمعات، وإقتران الأضاحي بطقوس، الجنس، فإنا نجد له ترديداً واضحاً في القرابين الحيوانية، والتي كانت تقدم لآلهة اليمن، وفي النقش [مختنى، ملكن. بمكي] كانت كلمة مختنى تعنى المذبح ومنها الختان الذي هو بدوره رمز جنسي واضح، يرجع نوعاً من الطقوس الجنسية في العبادات اليمنية.

جاء في سفر التثنية بأن عيد الفصح هو إبتداء المنجل في العبران وتأسيساً على هذا النص فأني أجد بأن فعل الختان الذي يجريه الاب لأبنه، هو بديل لفعل التضحية الاولى في التاريخ، التضحية البشرية المقدمة الى الاله، والتي حصل تبديل لها بالأضحية الحيوانية. ونظراً للتطورات الكبيرة التي حصلت على الأديان في الشرق، تحقق إستبدال مهم وخطير على الكثير من العقائد والطقوس وأشار الاستاذ (تركي على الربيعو): لقد حدث تطور على القربان الحيواني بان إستبدل دم الاضحية بالنبيذ «دم الكرمة» واللحم الآدمي بالخير، مثلما يشهد على ذلك القربان المسيحي، واشار ايضاً الى ان الختان، ظاهره وجدت عند كثير من الشعوب، وهي شاهد أخر على التحوّل، الذي طرأ على فكر التضحية بالبشر، فقد كانت فدية التضحية أخرى أشدّ منها قسوة، حيث يكتفي الإله هنا «في طقس الختان » بأخذ جزء من كلّ. وبتحقق فعل التضحية التي قام بها الأب فإنه يتقرب – بواسطة إبنه – الى ربه ومعبوده المقدس.

* جان بوتيرو/ ولادة اله/ التوراة والمؤرخ/ ترجمة عبد الهادي دي عباس + جهاد الهواش/ دار الكلمة + دار الحصاد/ سوريا- دمشق/ ١٩٩٩/ ص٣٧

** سيد محمودا القمنى/ الاسطورة والتراث/ دار سينا/ القةاهرة ١٩٩٢/ ص١٢٢

والختان نمط تضحوي، والغرلة قربان قدم للرب. والإبن بديل للاب وهو شكل إستبدل تبدى في هذا الطقس. لأن الاب قد وصل الى عتبة زمنية متقدمة ولا يمكن الإبقاء على إرتباطه بالتضحية فانه يستعيض بالأبن ليكون بديلاً للتضحية، وهكذا يكون الختان فعلاً قربانياً محكوماً بالعود الابدي.

وبما أن القربان الإلهي متناظر مع الدم، فأن الختان، ظل العلامة على ذلك. انه إمتداد وتطوير لعرس الدم التوراتي ولعهد الاخوة«الكريف» عند الطائفة اليزيدية، وهو الآن نفسه، يعني ولادة جديدة، ولادة للإبن الذي سيكون بطريركاً في مستقبل الايام ويدفع بإبنه أو أحفاده للقربنة الجزئية وتطور المفهوم التضحية، وتحولها من فردية الى جمعية في المجتمعات الزراعية، لانكاد نجد ختاناً فزدياً لأن الاب يتشاءم من ختان ولده لوحده، واذا تقدر عليه وجود عائلة توافق على ختن. إبنها مع الطفل الاول فأن إختـه تختن معـه، وهو خـتـان رمـزي وليس حقيقي، حيث تخدش ويسيل منها الدم، وهذا ختان رأيته في قرية «عنانه» التابعة لقضاء مركز الحلة؟ محافظة بابل.

والاشتراك بالختان هو الإستبدال الحاصل في هذا الطقس، وبعد سنة ١٩٦٨ في العراق وبدون اسنثناء، كانت المؤسسات الرسمية تجري احتفالات لختان جمعي وكبير. واتساع فعالية الختان كطقس، هو إبدال من فردية التضحية الى الجمعية، وفي ذلك اتساع لمنظومة العنف الجسدي والرمزي، لأن الختان – ايضاً – في منظومته الداخلية، يمثل عقاباً للسلطة المبكرة على الذكر/ ومحاولة لضبطة وإلزامه بالإنسجام مع محيطه. ولهذا أجد بأن الختان هو شكل من أشكال العقاب الاولي، وتتبدى به ومن خلالة السلطة، او الذي إمتلك حق السلطة في التصرف.

وأرى تأويلاً جديداً ومختلفاً للختان، له ارتباط مع السلطة البطرياركية/ الاب التي إقترفت كثيراً من الأخطاء عند ممارسة العقائد والطقوس، حتى وصل الى عتبة الضعف والمناورة والخوف من المقدس ولذا فأن – الاب – غير قادر على طلب المغفرة من خلال الدعاء ورجاء الغفران، فلم يجد وسيلة له غير التضحية الجزئية بغرلة ولده الذي تحول الى شفيع للأب وهكذا تستمر الدورة والعود المستمر.

والختان شكل رمزي – وإن كان دموياً – للقربان الكلي واختصاراً له وأنتقاء بالغرلة. ومن يمنح غرلته للرب، فأنه يعطي جسده كله ويتحول إلى فاد لمن إقترف الأخطاء في عائلته ولان الاب نظام، او عناصر أرضية/ دنيوية، تشير في رمزيتها الى الالوهة الذكرية/ الشمسية،

التي لا يمكن ان تضحى بذاتها، وانما تكتفي بأستدعاء النسلية/ الإبن ليكون مضحياً وبديلاً – وكأن الدور الاول الخاص بتطور طقس التقدمات ظل باقياً حيث كان رب الاسرة، والملك يقدمان الذبائح. وظل الأب يقدمها ايضاً عبر نسليته/ إبنه ليؤكد دورة في الحياة وليحقق لنفسه النجاة والخلاص، ويعد الشيخوخة، يحتل الابن مكان أبيه وهكذا يكون العود الابدي الذي أشرناله.

تقطع تلك النفس من شعبها»* أي «يجتث» غير المختن من الشعب بقتله« إن الاله إعتبر النكوص عن تشكيل القضيب تلك العملية الجراحية في لحم الغرلة [قلفة الذكر] معصية بالغة الخطورة عقاً بها الموت. فلا بد أذن انه كانت للقضيب في ذهن القائل، سواء كان إلهاً او كان مؤلفاً بشرياً أحرى الكلام على لسان إله، ولكل ما تعلق بالقضيب، أهمية فائقة وضعت على رأس قائمة أواليات علامة المعبود بالعباد والا كما كانت سيرة تلك العبادة – متى أخذنا بتأكيد مؤلفى العهد القديم أن تلك السيرة، بدأت بذلك التعاقد القضيبي بين المعبود وبين الحبر أبرام الآرامي، يوم بلغ ذلك الحبر التاسعة والتسعين من العمر.........ولما كان الشرط الأوحد الذي أشترطه الاله كيما يسير أبرام أمامه ويصبح كاملاً، وكيما يصبح هو بالتالي إلهاً لأبرام ولنسله من بعده هو أن يختن ذلك الحبر الذي بلغ التاسعة والتسعين. في لحم غرلته، وان يختن كذلك كل نسله ابتداء من الذكر ابن ثمانية أيام.

من الواضح الذي لايقبل** العقل المراوغة في شأنه أن تلك كانت مسألة بالغة الخطورة وهامة الى الحّد الذي جعل من الضروري التأكيد بالتكرار في النص التوراتي على وجوب تختين كل طفل ذكر بمجرد بلوغه سن ثمانية أيام ولاشك في أن ذلك كان إحتياطاً لاهوتياً واجباً بالنظر الى ان المعبود كان قد إشترط – كشرط أساسي في التعاقد – أن يقدم اليه ضحّية بشرية عضة على مذبحه كل ذكر بكر ابن ثمانية ايام، وبالنظر الى أن تلك الممارسة ظلت ملزمة ومنفذة الى ان إستبدلها الكهنة، بعد كبر من رجاحة العقل، بحيله «بديون هـ – إبن –» [فدية الابن] فلم يكن مما يقبله المعبود ان يقدم اليه ذلك الرضيع ضحية الاّ اذا كان قضيبه قد شكّل بالشكل الواجب عن طريق التختين في لحم الغرلة.

واشار الاستاذ (شفيق مقار) الى أن طقس الختان مقتبس من المصريين، ذاهباً بأتجاه كل الدراسات التي سبقت، لكنه يؤشر ملاحظة جديدة ومهمة، وأجد بأنه أول من اشار لها

* شفيق مقار/ اللجنس في التوراة وسائر الهعد القديم/ من الالاهة الام الى الاله الاب/ الكتاب الاول/ دار يعرب للدرايات والنشر والتوزيع/ دمشق/١٩٩٨/ص١٨

**شفيق مقار/ الجنس فب التوراة....سبق ذكره ص١٨

وهي الرمز القضيبي لمعبود المديانيين والذي إقتبسه يهوه له وهو نبات«الفطر المقدس» [الأمانيتا موسكاريا] كما في الشكل، وحصل دمج سحري لرمز المعبود المدياني مع طقس الختان المصري ووضع في خدمة العبادة اليهودية باعتباره أداة ثقافية فعالية، جعلت بالوسع ترسيخ وهم الخصوصية الحصرية في جذور تلك العبادة وفي تصوّر «الشعب».

خاصة جسدية واحده* مكتسبة لأأصيلة هي التي إشترك فيها القوم على إختلاف سحنهم وأعراقهم والوان بشرتهم وهي «التختين» في لحم غرلاتهم المباركة وحقيقة ان تلك الخاصية إستعيرت من المصريين. كما استعير الكثير الذي لا يحصى، الاّ انها عندما استعير لهم – ادُّعي إنها ممارسة خاصة بهم وحدهم ومملاه من معبودهم القبلي الخاص بهم وحدهم. وهو ما كان بالوسع الأدعاء به نظراً للشكل القضيبي للمعبود الذي إستعير من المديانيين العرب.

وأشار الاستاذ (شفيق مقار): إلى أنه لم يعد ضرورياً التركيز عليه بعد ان صار التأكيد لـ «الشعب» الذي لم يرقه ذلك الكلام إطلاقاً – أن ذلك المعبود المستورد من أطراف سيناء كان من قديم الأزل «الهاً لأبائهم» ولو أنه لم يعرف لدى اولئك الأباء بأسمه يهوه« وعملاً على ترسيخ ذلك، تعاقب المنشددون التختن من الكهنة. والقادة الذين عنو كيشوع – كما تملص «الشعب» من عادة الختان المصرية التي فرضت عليه بـ «دحرجة عار مصر» أي دحرجة عار عدم التختن عنه، وبعد المنشودين الجوالين والقادة، عُنى المحررّون وبخاصة «الكاتب عزرا» والمناضل (نحميا) بتختين وضع الإله القضيب لمختن» وجعل صورته تلك رمزاً دينياً بالغ الخصوصية تلاحمت من خلاله هوية«الشعب» بهوية معبوده الخاص به.

أعطي يهوه المعبود* القبلي لـ «الشعب» أصلاً عريقاً ضارباً في القدم هو الأخر، جعل بمكنة واضعي السنياريورن يطلقوا عليه أسماء من قبيل «الهالاباريه» و«قديم الأيام» والأهم من ذلك إن عليه التجميع والتأليف والتحوير والتعديل والتحرير جعلت بمكنة من إضطلعوا بها من الكهنة اللاويين ان يطمسوا هوية يهوه كنصبٍ حجري على شكل القضيب المنتصب المختن كان يعيد، في بعض الطقوس، مغلّفاً بلذهب، وفي طقوس أخرى كعمود حجري مغطى بالزيت، وأتاحت لهم أن يحولوا ذلك الوثن الفضيبي الذي عبده المؤابيون بأسم [«بعل مغور» اي الرب السيد الفحل فاتح الأرحام] وأخذة عنهم المديانيون فعبدوه باسم «هوى» «ياهو» «يهوه» الى إله متعال سماوي.

* شقيق مقار/ الحنس في التوراة وسائر العهد القديم . سبق ذكره..ص١٩

* شقيق مقار/ الجنس في التوراة....سبق ذكره ص٣٤







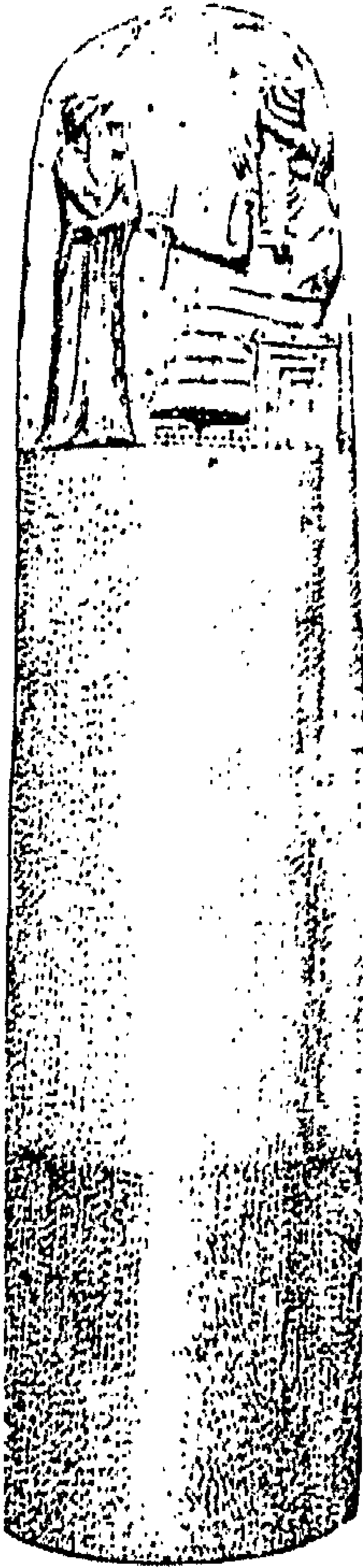
شكل«٣٥» نماذج من الاعمدة والشواهد القضيبية الممثلة للذكر المنتصب والمعّبرة عن تصوّر الاله القضيبي.

بدا واضحاً أن الإله يهوه متحمس لطقس الختان ومندفع له وكنا قد عرفنا الاصول السحرية والدينية وصلتها بمعبود المديان. وحماس الاله اليهودي للختان يكاد يكون إستثنائياً ولا يتماثل واياه الاّ يوم السبت المقدس.

ولا يستطيع القارىء المهتم بالطقوس والعقائد العبرانية/ اليهودية ان يجد تأويلا مقنعاً للإقتران الذي حصل بين عهد الرب الذي أعلنه الى ابراهيم وبين سقوطه «ابراهيم» على وجهه، هل هي الخشية من الاله اليهودي/ والذي أسمع ابراهيم صوته؟ أم أن الضحكة بعد سقوطه، كانت فكهة خاصة لابراهيم - كما قال الاستاذ (شفيق مقار) والذي يضيف الى أن الضحكة لم تكن بسبب إهتمام يهوه بالغلفة، والعهد الذي أبرمه مع ابراهيم والوعد واياه حيث سيخصب الاله يهوه ساراي، بعد ان يختن ابراهيم وقومه. ولذا حصل تغير واضح جداً ومهم للغاية إذا تعاملنا معه ضمن نظام معرفي شرق متوسطي، إعطى للأسم أهمية حيوية وخطورة

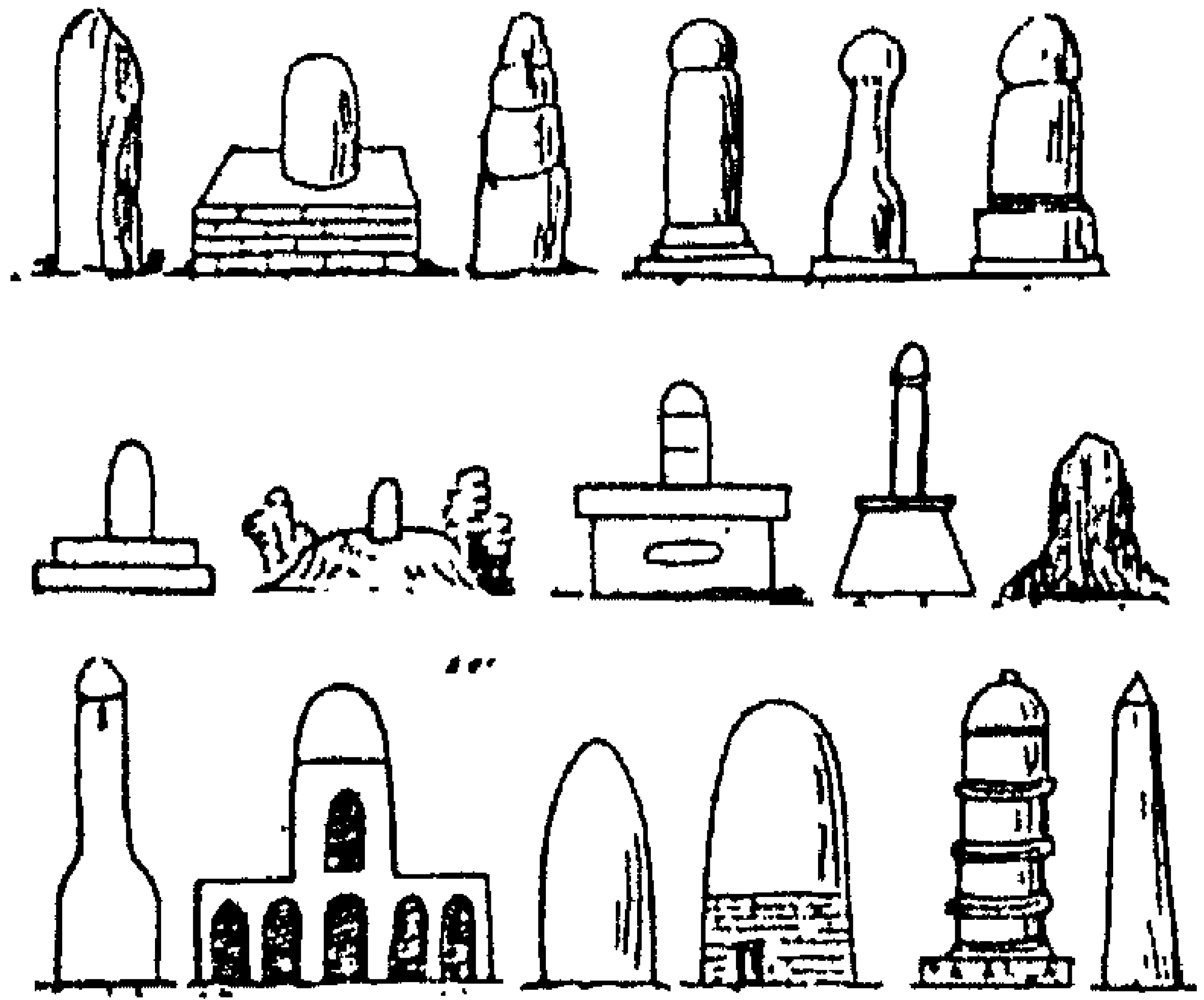
* شفيق مقار/ قراءة سياسة التوراة/ سبق ذكره ص ٣٩

في تحديد كينونة الإنسان، لهذا نجد ساراي الآرامية قد تحولت الى سارة العبرانية، أي حصل إرتحال عرقي وعنصري واول ما تبدى هذا الإرتحال في تغير الاسم، الذي قاد واياة تغيرات بايولوجية. واضاف*



شكل (٣٦) مسلّة حمورابي الممثلة رمزياً السلطة الذكورة ويلاحظ بانها تشبه تماماً الذكورة

فرغم ان العهد القديم «لايظهر ان الكهنة الذين كتبوه إتصفوا في أي وقت بروح الدعابة او الفكاهة، يبدو أن الحبر الذي حرر هذا السرد لحكاية الختان واهتمام الإله البالغ بها الى حد الإصرار على ان يختن العبيد ايضاً لا نسل ابراهام فحسب. قد يكون حشر ضحك ابراهام بعد الحكاية تعليل و«لسانه في شدقه» كما يقولون، استمتاعاً منه لصغر عقول من سيقرأون هذا الكلام فيصدقونه ويأخذونه مأخذ الجد.



شكل (٣٧)انصاب حجرية تمثل رموزاً قضيبية

الختان في الاسلام

أشار د. (محمد القمني) الى ان الدين الاسلامي، أوجد تغيراً في منظومة التضحية، من بشرية الى حيوانية، وحرم الوأد فالغى من عالمه القرابين البشرية وإستعاض عنها بالختان تناظراً مع الجد إبراهيم وامتثالاً لسنته.

وقال النبي (ص):

«الختان سنّة للرجال، مكرمة للنساء».

وكتب (عبد الله بن جعفر الحميري) الى (أبي محمد الحسن بن علي) [ع] انه روي عن الصالحين:

ان اختنوا اولادكم يوم السابع، يطهروا فأن الارض تفج الى الله من بول الاغلف.

وعن الصادق [ع] في الصبي أذا ختن قال: اللهم هذه سنّتك وسنّة نبيك بمشيئتك وارادتك وقضائك، لأمر أردته وقضاء صحته وأمر نفذته، فأذقته حر الحديد في ختانه وحجامته لأمر أنت أعرف به منّا.

وعنه [ع] قال: اي رجل لم يقلها على ختان ولده فليقلها عليه من قبل ان يختتنه: فأن قالها كفى حّر الحديد من قتل او غيره.

وعن موسى بن جعفر قال: لّما ولد ابني الرضا[ع] ولد مختوناً طاهراً مطهراً. ومن طب الأئمة عن النبي (ص) قال: أختنوا أولادكم في السابع، فأنه أطهر واسرع لنبات اللحم، فقال: ان الارض تنجس ببول الأغلف أربعين يوماً، وعن الصادق [ع] ثقب أذن الغلام وختانه من السنة، وخفض النساء مكرمة وليست من السّنة، واي أكرم من المكرمة.

الختان من شعائر الاسلام*

إتفقت كلمة فقهاء المذاهب على أن الختان للرجال والنساء من فطرة الاسلام وشعائره وانه أمر محمود ولم ينقل عن أحد من فقهاء المسلمين فيما إطلعنا من كتبهم التي بين أيدينا، قول يمنع الختان للرجال أو النساء أو عدم جوازة أو إضراره بالأنثى، اذا هو تم على الوجه الذي علمه الرسرل «ص» لأم حبيبه في الرواية المنقولة أنفاً.

أما الإختلاف في وصف حكمة، بين واجب وسنّة ومكرمة فيكاد يكون إختلافاً في الإصطلاح الذي يندرج تحته الحكم. يشير الى هذا: ما نقل في فقه الإمام أبي حنيفه من أنه من شعائر الإسلام وخصائصه. كما يشير اليه أيضاً ان مصدر تشريع الختان هو اتباع ملة ابراهيم وقد أختتن وكان الختان من تشريعته، ثم عدّه الرسول «ص» من خصائل الفطرة، وأميل الى تفسيرها بما فسرها (الشوكاني) وغيره، بأنها الشنّه التي هي طريقه الإسلام ومن

شعائره وخصائصه، كما جاء في فقه الحنفيين* وليس المراد الشنّة الإصطلاحية. ويؤكد هذا ماذهب اليه الفقه الشافعي والحنبلي، ومقتضي قول سحنون من المالكية من أن الختان واجب على الرجال والنساء، وهو مقتضى قول الفقه الحنفي، انه لو إجتمع أهل بلدة على ترك الختان حاربهم الإمام، كما لو تركوا الأذان.

أما وقت الختان، فقد ذهبت الشافعية والحنابلة الى أن الوقت الذي يعبر فيه الختان واجباً هو بعد البلوغ الان.

الختان من أجل الطهارة، وهي لاتجب علية قبله، ويستجيب ختانه في الصغر الى سن التميز لأنه أوقف به، ولأنه آسرع برءاً فينشأ على أكمل الأحوال.

وللشافعية في تعيين وقت الاستحباب وجهان: والصحيح المفتى به انه* اليوم السابع، وتحسب يوم الولادة معه لحديث جابر: عن رسول الله عن الحسن والحسين وختنهما لسبعة أيام وفي مقابلة، وهو ما عليه الاكثرون انه اليوم السابع بعد يوم الولادة. وفي قول الحنابلة والمالكية ان المستحب ما بين العام السابع الى العاشر من عمره، لأنها السن التي ئومر فيها بالصلاة.

وفي رواية عن مالك أنه وقت الأثغار اذا سقطت أسنانه، والاشّبة عند الحنفية ان العبر بطاقة الصبي، اذ لا تقدير فيه فيترك تقديره الى الرأي وفي قول : أنه إذا بلغ العاشر لزيادة الأمر بالصلاة اذا بلغها، وكره الحنفية والمالكية والحنابلة الختان يوم السابع، لان فيه تشبيهاً باليهود. ولما كان الظاهر مما تقدم أنه لم يرد نص صريح من الشّنة لتحديد وقت للختان، فيترك لولي أمر الطفل بعد الولادة– صبياً أو صبية، إذ أن ما ورد من النبي «ص» ختنى الحسن والحسين – رضي الله عنهما – يوم السابع غير مسلم بثبوته من البهيقي ومن الذهبي ومن ثم أميل الى الفتوى بتفويض أمر تحديد وقت وسن الختان للولي.

إتفقت كلمة ان الفقهاء على انه ** لا يختن الميت الأغلف الذي مات غير مختون لأن الختان كان تكليفاً وقد زال بالموت، ولأن المقصود من الختان التطهير من النجاسة وقد زالت الحاجة بموته ولأنه جزء من الميت فلا يقطع، كيده المستحقة في قطع السرقة، أو القصاص وهي لاتقطع من الميت. وخالف الختان قص الشعر والظفر لأن هذين يزالان في الحياة للزينة، والميت يشارك

---

* سامي الذيب/ ختان الذكور والاناث عند اليهود والمسخين والمسلمين/ الجدل الديني/ دار رياض الزيس/ الندن/ ٢٠٠٠/ ص ٤٤٣

** سامي الذيب/ ختان الذكور والاناث......سبق ذكره ص٤٤٤

الحي في ذلك. أما الختان فأنه يفعل للتكليف به، وقد زال الموت.

وفي قول ثان للشافعية: انه يختن الكبير والصغير لأنه كالشعر والظفر وهي تزال من الميت والقول الثلث عندهم: انه يختن الكبير دون الصغير، لأنه وجب على البالغ دون الصغير.

أشار (الاستاذ سامي الذيب). في ضمانه الخاتن الى آتفاق الفقهاء على تضمين الختان اذا مات المختون بسبب سراية جرحه الختان، أو اذا جاوز القطع الحشفة أو بعضها، أو قطع في غير محل القطع، وحكمة الضمان حكم الطبيب، أي أنه يضمن من التفريط أو التعدي، وكذلك إذا لم يكن من أهل المعرفة بالختان وللفقهاء تفصيل في هذه المسألة:

فذهب الحنفية الى ان الخاتن اذا ختن صبياً، فقطع حشفته ومات الصبي فعلى عاقله الخاتن نصف ديته. وان لم يمت فعلى عاقلته الديه كلها، وذلك لان الموت حصل بفعلين: أحدهما مأذون فيه وهو قطع الغلفة، والآخر غير مأذون فيه وهو قطع الحشفة، فيجب نصف الضمان، أما اذا يريء فيجعل قطع الجلدة وهو المأذون فيه كأن لم يكن، وقطع الخشفة غير مأذون فيه، فيجب بدلة ببدل النفس كما في قطع اللسان. وذهب المالكية الى أنه لاضمان على الخاتن اذا كان عارفاًمتقناً لمهنته، ولم يخطيء في فعلة كالطبيب، لان الختان فيه تغزيز فكأن المختون عرض الخاتن لما أصابه، فرن كان من أهل المعرفة بالختان واخطأ في فعلة فالدية على عاقلته فإن لم يكن من أهل المعرفة عوقب. وفي كون الدية على عاقلته أو في مآله قولان. فلا بن القاسم إنها على العاقلة وعن مالك وهو الرابح انها في حاله لأن فعله عمد والعاقلة لا تحمل عمداً (الاستاذ سامي الذيب) في تدوين أراء المذاهب الدينية وقال: ذهب الشافعية الى أن الخاتن اذا تعدى بالجرح المهلك، كأن ختنه في سن لا يحتمله لضعف أو نحوه أو شدّة حر أو برد فمات لزمه القصاص، فان ظن كونه محتملاً فالمتجه عدم القود لانتفاء التعدي ويستثنى من حكم القود الوالد وان علا. لانه لا يقتل بولده وتلزمه دية مغلظة في ماله، لأنه عمد محض - فإن احتمل الختان وختنه ولي. أو وحي او قيم فمات فلا ضمان في الأصح لإحسانة بالختان اذ هو أسهل عليه مادام صغيراً بخلاف الاجنبي لتعدية ولومع قصد إقامة الشعائر.

وذهب الحنابلة الى انه لاضمان على الخاتن اذا عرف منه حذق الصنعة ولم تجن يده، لأن فعل فعلاً مباحاً فلم يضمن سرايته كما في الحدود. وكذلك لاضمان اذ كان الخاتن بان وليه أو ولي غيره او الحاكم. فان قطع فقد فعل محرماً غير مأذون فيه، لقوله «ص» «من تطيب

---

* سامي الذيب/ ختان الذكور والاناث/ سبق ذكره ص ٤٤٥

** سامي الذيب/ ختان الذكور والاناث/ سبق ذكره ص٤٤٦

ولا يُعلم منه طب فهو ضامن«وكذلك يضمن اذا أذن له الولي وكان حاذقاً ولكن حنت يدة ولوخطأً مثل ان جاوز قطع الختان فقطع الحشفة أو بعضها او غير محل القطع، او قطع بآلة يكثر ألمها او في وقت لا يصلح القطع فيه وكذلك يضمن اذا قطع بغير إذن الوالي.

وفي شأن الختان عامة للذكر والانثى– نذكر المسلمين بما جاء في قائلهم الإمام «اى ولى الأمر «لأنه من شعائر الإسلام وخصائصه. اذ مقتضى هذا لزوم الختان للذكر والانثى وانه مشروع في الاسلام.

خفاض النساء

لقد إستدل الفقهاء على خفاض النساء بحديث أم عطية رضى الله عنها قالت: ان امرأة كانت تختن بالمدينة: فقال لها النبي «ص» «لا تنهكي، فأن ذلك أحظى للزوج وأسرى للوجه» وجاء ذلك مفضلاً في رواية أخرى تقول: انه عندما هاجر النساء كان فيهن أم صبية، وقد عرفت بختان الجواري، فلما رأها الرسول «ص» قال لها: يا أم حبيبه هل الذي كان في يدك هو في يدك اليوم؟ فقالت نعم يا رسول الله. إلاّ أن يكون طرماً فتنهاني عنه. فقال رسول الله «ص» بل هو حلال، فادني منى حتى أعلمك، فدنت منه فقال يأم حبيبه اذا انت فعلت فلا تنهكى، فأنه أشرف للوجه وأحظى للزوج.

ومعنى «لاتنهكي» لا تبالغي في القطع والخفض، ويؤكد هذا الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه ان الرسول «ص» قال: «يا نساء الأنصار اختضن «اي اختن» ولا تنهكن» اي لا تبالغن في الحفض» وهذا الحديث جاء مرفوعاً برواية أخرى عن عبد الله بن عمر وهذه الروايات وغيرها عمل دعوة الرسول «ص» الى ختان النساء ونهيه عن الإستئصال. وقد علل هذا في إيجاز واعجاز، حيث أوتى جوامع الكلام فقال: «فانه اشرف للوجه واحظى للزوج»

وهذا التوجيه النبوي – كما قال (الذيب) انما هو لضبط ميزان الحس الجنسي عند الفتاه فأمر بخفض الجزء الذي يعلو مخرج البول، لضبط الاشتهاء مع البقاء على لذات النساء واستمتاعهن مع أزواجهن ونهى عن إبادة مصدر هذا الحس واستئصالة وبذلك ليحقق الإعتدال، فلم يعدم المرأة مصدر الاستمتاع والإستجابة –ولم يبقها دون حفض فيدفعها الى الإستهتار. وعدم القدرة على التحكم في نفسها عند الاثارة.

* سامي الذيب/ إختان الذكور والاناث عند اليهود والمسحين والمسلمين/ الجدل الديني/ دار رياض الريس/ الندن/ ٢٠٠٠/ ص٤٤٢

الختان عند الشعوب

والطوائف الأخرى

يُذكر أن العرب لم تتمسك – في الجاهلية – بشيء في دين إبراهيم غير الختان وحج البيت ولهذا فكل من حج البيت واختتن قيل له حنيف. وقد أضاف بعضهم إعتزال الأصنام والإغتسال من الجنابة. وجعلوا ذلك من أهم العلامات الفارقة التي ميزت الحنفاء عن المشركين، لأن الحنيفة – على حد قولهم – لو كانت حج البيت والإختتان لوجب أن يكون الذين كانوا يحجّون ويختتنون في الجاهلية من أهل الشرك حنفاء. وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفاً بقوله: ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين.

قام الأب (سكيبستا) ضمن إهتماماته الأنثربولوجية بدراسة حياة الأقزام في إفريقيا. وقد وجد العديد من الآثار الطوطمية، لدى جميع الأقزام الذين زارهم وإن كانت ضعيفة، وتختلف كثيراً عن طوطمية الأوستراليين. ورأى أنهم أقتبسوها من الزنوج الذين أتصلوا بهم باستمرار.

ويظن أن ليس لطوطمية الأقزام طابع ديني وأن عادة الختان التي يطبقونها في حفلات الإرشاد [الإطلاع على الأسرار] لا بد وأنهم إقتبسوها من الزوج. وأشار الأستاذ (طه الهاشمي) في كتابه الموسوعي: تاريخ الأديان وفلسفتها، إلى ديانات الشعوب البرية وتناول بالبحث أديان الزنوج وقال، إن كل بالغ إذا كان رب أسرة ومالكاً لبيت وأجريت له عملية ختان، هو أهل للقيام بالتضحية، ويعتقد الناس: بأن القوى الحيوية للضحية تنتقل إلى المعبود، الذي تقدم إليه الضحية: ويعتبر الختان طقساً وشعاراً لا بد من ممارسته عند قبائل المانجا: حيث قال أحد الباحثين الأنثروبولجيين: أنه عند بدء فصل الجفاف يقام لهذا الغرض معسكر بظاهر القرية في غابة صغيرة على مقربة من نهر، حيث يحشد الصبيان الذين ستجرى لهم عملية الختان. وهناك ينامون على أسرة من جريد وحشوات من أوراق الشجر، يُشدون إليها كل ليلة ليظلوا راقدين على ظهورهم، ويقام في وسط المعسكر محراب مقدس، هو عبارة عن فرع شجرة مطوق من نحاس وأول ما يدخل الشباب المعسكر يفرض عليهم الصوم ثلاثة أيام، يتدربون فيها على الرقص، ثم يغتسلون في النهر، ويقومون باستعراض رياضي، مارين بين صفين من المراهقين الذين اجتازوا التلقين قبلاً ويضربونهم بالسياط، ثم تبدأ عملية الختان، وهم وقوف على شاطئ النهر وترمى غرلتهم في مياة النهر، وتضمد جروحهم، وفي المساء نفسه يرغمونهم على الرقص، دون أي اهتمام بما ينزف من دمهم. وبعد إنقضاء إثني عشر

* تركي على الربيعو/ العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية/ المركز الثقافي/ بيروت/ ١٩٩٥

يوماً داخل المعسكر في تمرين وتدريب، يسمح لهم بالخروج إلى الصيد. ومن تقاليد هذا الإحتفال طلاء الرأس والجسد بالغرين الأبيض على صور متنوعة الأشكال. ويلبس كل شاب أزراراً من ليف الشجر، ويعلق على رأسه وبدنه أوشجة وزينات تقليدية مختلفة.

ويتناول التعليم – تدريجياً – درساً على الرقص الديني وإرشاداً في التعليم الأخلاقي والعادات القبلية، ووصايا عملية في الحياة ونبيهاً إلى المحرمات الدينية والجنسية.

ويقدم لنا وصف الطقوس المرافقة لعملية الختان بأنه فعالية دينية لدى قبائل المانجا وله وظيفة إخصابية مرتبطة مع مفاهيمهم تجاه الحياة والتجدد، وهذا واضح من خلال وجود رموز لها صلة مباشرة بالخصوبة، مثل وجود النهر كضرورة لازمة والأشجار والطلاء بالغرين. إنها رموز مساهمة بصياغة عقائد لها صلة مباشرة بعقائد الخصوبة في الحياة.

ويتسم حفل الأسرار/ التلقين الخاص بالنبات لدى قبائل المانجاوالذي يستمر شهراً قمرياً كاملاً في مكان منعزل، ويفرض عليهن قضاء الوقت في الغناء والرقص، ثم الإغتسال في النهر، وتجري لهن عملية الختان بواسطة إحدى العجائز ويلقى ما اقتطع في النهر مثلما جرى للصبيان، وبعد تضميد جراحهن يرقصن في الليلة نفسها، وتطلى أجسادهن كما ورد في كتاب الديانات في إفريقيا السوداء بالزيت وتصبغ باللون الأحمر ويتلقين كذلك تعليماً وتدريباً خاصاً، بهن وتلتزم قبائل المانجا بختن الجنسين. وختان النساء أكثر دلالة على إرتباط الختان كفعل جنسي بالحياة والخصوبة، لأن ما يجري من طقوس لهاوظيفة واضحة بالجسد المعلن عنه، والمكشوف أمام البنية الذهنية الدينية المكتملة والمراقبة والتي حازت على خبرتها بالتواتر، وهي المرأة العجوز، الختانة، التي تقوم بالفعل علناً ولتعترف بأن الفتاة جاهزة لفعل الإتصال وحاضرة للتبادل الثقافي، عبر الإتصال الجسدي وإقامة حفل التلقين «بث الأسرار لهن» لمدة شهر قمري كامل مرتبط أيضاً مع نظام الكون القمري والذي، هو الآخر ممثل لنظام الجسد الأنثوي فسلجياً من خلال دورة الطمث، وبهذا تدخل الفتاة حفلة التلقين والأسرار منذ بداية الشهر القمري، وهي متهيئة الجسد، لتلقي البذور الممثل لها بالإستعداد الروحي/ النفسي لإستقبال الشعائر والطقوس السرية ومعروف بأن إحتفاليات

---

* ميشيل فوكو/ إرادة المعرفة/ ت: مطاع صفدي وجورج أبي صالح/ بيروت، مركز الإنماء القومي/ ١٩٩٠/ ص ٧٢.

* تركي على الربيعو/ العنف والمقدس والجنس/ سبق ذكره...ص ٨٨

الأسرار، طقوس مرتبطة بعقائد الخصوبة، وهذا ما عرفته الديانات البّرية، إبتداء بالأورفية وحتى آخر الديانات البّرية المتأ خرة. ولأن سلطة الأنوثة مقموعة في قبائل المانجا وهذا يتبدى عبر إقامة معسكر منعزل لهن، بعيد عن الرجال/ والمراقبة. إنه حفل سري، لا مجال فيه للذكورة إلاّ رمزياً من خلال إستعداد الإناث لممارسة هذه الطقوس وإجراء الختان تحضيراً للجسد ولفعل الإتصال. ويتماهى فعل ختان الإناث مع فعل الذكورة في حرث الأرض تهيئة لها، للبذار ونزول المطر من السماء وتتفرغ الفتيات في المعسكر للغناء والرقص وكلاهما يؤديان وظائف سحرية/ دينية، وكأنهن بتلك الفعالية يدخلن أجسادهن وبقدرات ذاتية التي تؤهل الفتاة لدخول عتبة جديدة، هي عتبة الإكتمال والإستعداد للزواج، وبعد أن تنتهي هذه الفعاليات المؤكدة على مقدرة الجسد الأنثوي في تأدية فعالياته، تنزل الفتيات إلى النهر للإغتسال وكأنهن بذلك يمارسن فعل الإتصال الرمزي والأرض هي الرحم الواسع، يتغذى على منظومة رمزية إبتدعتها البنية الذهنية الأسطورية وعبرت عنها بطقوس كثيرة وتؤكدها ممارسات طبيعية مرتبطة بالفصول وحركتها، وكذلك مع الدور الذي تقوم به السماء/ المطر، لدرجة أن الرمز الأسطوري، تعاد صياغته في المرددات الشعبية الشرقية، وحصراً في العقائد لتكون ذكراً/ وفحولة، لذا يردد الجماعة ومن ورائهم العريسان في الهند مردة تصوغ مفهوم الخصوبة إرتباطاً مع الأرض:

تقول العروس: أنا الأرض

يقول العريس: وأنا المطر

هذه الشفاهية، تتحول لحظة ترديدها من قبل العريسين إلى عقد حياتي يعلنه الإثنان أمام حشود الناس المحتفلة، وهو في الوقت نفسه كشف لفعل إتصالي تحقق نفسياً وروحياً، ويعني حتمية التحقق البايولوجي، والتقاء الجسدين معاً بإدخال ثنائي. وظلت الأرض معروفة بهذه الوظيفة/ الخصوبة وقد درسها جيمس فريزر في كتابه المهم، الغصن الذهبي/ السحر والدين، لكني أ ود الإشارة والتذكير بواحدة من أهم الأساطير العراقية القديمة، تشير إلى ما ذهبنا إليه وتؤكده. وكان فيها عرش الألوهية* هو بيت الجنس المقدس، البيت الذي شهد إتحاداً جنسياً مقدساً بين كبير الآلهة وأمهم الأولى، والذي كثيراً ما يأخذ صيغاً وأشكالاً من العلاقة بين السماء [آن] والأرض [كي] ومن إتحادهما وفرج أفواههما يأتي الأولاد.

ويكون للأرض [مكان للحرث والغرس] مفهوماً رمزياً/ جنسياً، يقود حتماً لإتصال

خارجي/ تمثيلي. وقد اختصرت الألوهة المؤنثة كل إمتداداتها الإناث، وصارت مختصرة لهن في الوظائف والخصائص لذا فإنها كانت طالبة، ومحتاجة للقطب الآخر/الرجل/ الإله، كي يقيم الإتصال معها، والشواهد كثيرة. في الخطابات الأسطورية، الخاصة بالشرق القديم. والألوهة المؤنثة/ هي الأرض التي تفتح أحضانها بواسطة الحرث، ليتقدم منها الإله المذكر/ الرجل ويتصل بها/ السماء – المطر إنه سقي، لحرثها من أجل التخصيب والإنجاب، وصعود الغرس يعني إنجاب رمزي، فالحراثة* في جميع الميثولوجيات القديمة، من حراثة الأرض إلى حراثة الفرج [نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم] هي فعل ديني مقدس، ثم يتعارفا بعرفات والتعارف هو الوقوف بعرفات، يروي إبن منظور في شرحه لمعنى عرفات. أن آدم (ص) لما هبط من الجنة وكان من فراقه حواء ما كان لقيها في ذلك الموضع فعرفتها وعرفته، والتعريف، الوقوف بعرفات.

ولأن الأم الكبرى/ الأرض، هو التي خصبها الإلهة وانجبت آلهة وبعد ذلك البشر كي يقوموا بخدمة الآلهة – ظلت الأم الكبرى/ الأرض مقياساً للحضارات وتطوراتها الزراعية والرعوية في آن، لذا يظل رمز الأرض الأنثوي/ الرحمي، رمزاً عانياً لمفاهيم خصوبية متعددة وليس بالإمكان حصرها وتحديدها. لأن الأرض مدلولاً، يتسع في كل قراءة وتأويل، لكنها ومع تلك الإختلافات والتباينات، تظل راشحة عن الإيروتيكية ذات الوظيفة المعنية بالخلق والتجدد والخلود، وتستطيع هذه القراءة الإستعانة برأي لميشيل فوكو ومحاولة تطبيقه على مفهوم الأرض ومدلولها تناظراً مع السماء/ آن/ المطر إن لهذا الفن [الجنس المقدس] العظيم مزايا منها*

السيطرة المطلقة على الجسد، متعة فريدة، نسيان الزمن والحدود، إكسير إطالة الحياة، إستبعاد الموت وتهديداته وسأحاول تطبيق مفهوم ميشيل فوكو الايروتيكي على الأرض من أجل التوصل إلى التطابق الكلي/ التام بين الأم/ الأنثى وبين الأرض .

* السيطرة على الجسد بشكل مطلق، هو سيطرة بالطرف الثاني على ما هو أبعد وأشمل وأكثر كلية وهو الأرض، ولحظة الإتصال الإدخالي/ الثاني بين الرجولة/ والأنوثة فإنه يعني حسب مفاهيم (ميرسيا إلياد) هو إتحاد الزواج. فالزواج يعيد ولادة [السنة] وبالتالي يهب الخصب والوفرة والسعادة. والإتصال الثنائي بين الزوج وزوجته هو إمتداد، وتمثيل حقيقي/ واقعي/ موضوعي لإتصال الزواج المقدس الذي حصل في فجر التاريخ وطفولة الحضارة، بين

الإله والألوهة المؤنثة من أجل ضمان إستمرار الإنبعاث وخصوبة الأرض. لأن السومرية الخاصة بعلاقة الإله إنليل + ننليل، قد سهلّت عملية هطول آن/ السماء/ بالمطر، ولهذا فإن الإله أنليل مسؤول العواصف والهواء وقد دخل المطر في مغامرة خطيرة، لأنه اقترف ذنباً عندما اتصل مع ننليل ولم يكن هذا الإله الجبار ضمن منظومة الألوهة الكلية في الديانة السومرية معنياً بالعقوبة التي فرضها عليه مجمع الآلهة لأنه لم يخسر شيئاً وذلك لأنه قدم للحياة مدارها اللازم والضروري والمطلوب، وهو الخصب.

* هبوط المطر على حرث الأرض المنثورة بذراً متعة بصّرية تثير حسياً صورة الإتصال الحقيقي، ومنذ تلك اللحظات الأزلية في التاريخ ظلت الأرض/ صاعدة بغرسها نحو السماء، لتعلن شكرها وامتنانها واستمر الماء نازلاً، من السماء أو الأنهار. وقد اتسع هذا في الدراسات النفسية الفرويدية، حيث اكتشف في أسطورة برومثيوس النار مثنى الأرض ومحتوية لمدلول جنسي أيضاً.

* تفقد الأرض/ الأنثى، اللحظة التداخل اللحظة الزمنية للإحساس بالفعل الأيروتيكي، وتتسع الحياة كثيراً، لتشمل الكون الرمزي/ والحقيقي.

* نزول/ الهابط/ الماء - المطر نحو فرج الأرض/ الأنثى، هو فعل للإمساك بالحياة وبقائها وإستمرار خلودها حتى الأبد، ولولا هذا الفعل الإتصالي لأستوطن الخريف الحياة حتى لا بد، وهذا يعني إزاحة للجفاف/ الموت والتقليل من تهديداته، لذا فإن الإكتفاء بالإتصال الإدخالي الفسلجي بين الزوج وزوجته وبعيداً عن النسلية هو إتصال إستهلاكي/ شهوي لا يحقق لواحد منهما - الزوج أو الزوجة أو كليهما النشوة التي يمسك بها الزوجان وهما يحققان إمتداداً نسلياً لهما.

إن الإتصال الرمزي/ التمثيلي مع القطب الآخر في الحياة/ الماء، يحققن خاتمة مطلوبة وهي حلم كل الفتيات، وبعد أن تجتاز الفتاة هذه الإختبارات المؤكدة على استعدادهن وقدراتهن الجسدية والنفسية، تجري لهن عملية الختن بواسطة ممثلة البنية الذهنية الدينية/ العجوز وترمى قطعة البظر - إلى الماء، وبهذا الطقس، يرمى جسد الأنثى - البظر - نحو

* الطبري/ القرطبي/ الثعلبي/ نقلاً عن تركي علي الربيعو/ العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية/ المركز الثقافي العربي/ بيروت/ ١٩٩٥/ ط ٢.
* تركي علي الربيعو/ العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية/ المركز الثقافي العربي/ بيروت/ ١٩٩٥/ ط ٢/ ص ١٧٥.

حاضنة ذكورية/ الماء، كي تتم عملية إتصال تمثيلي ورمزي بين المدارين الأنثوي/ الذكري وينتهي حفل الختان المعلن على طاقة الجسد الأنثوي الخلاق بإقامة حفلة أخرى ترقص فيها الفتيات فرحاً لإجتيازهن إختبارات إكتمال الأنوثة، فيدخلن الحياة بشكل آخر وجديد معلنات عن رضاء وقبول بالآخر/ الذكورة، وهي دعوة لحاجة الجسد لطاقة مقابلة، تتحاور معه وتساهم وإياه بإنتاج ثقافة لتؤسس الخطاب الأنثرجولي.

وفي ليلة الختان، تضمد جراح الفتيات، ويرقصن أيضاً. إن هذا الطقس الخاص والسري، يضيء طبقة جديدة لمستواه التأويلي حيث يكون قطع البظر بإلة ما، ممارسة إتصالية أيضاً. حيث تحوز الآله القاطعة صفة رمزية للذكورة ودفق الدم، افتضاض للبكارة. وتحقق طقس الرقص في الليلة ذاتها تعبير عن فرح الفتاة وسعادتها لنجاح الجسد الأنثوي في أول إختباراته الإتصالية.

أ ما مكملات الطقس الإخصابي، المتزامن مع فعل الختان والذي يتناغم مع العناصر الجنسية تشف عنها الطقوس كلها.

يشف طقس طلاء أجسادهن بالزيت عن تماه مع فعل الإتصال الإدخالي وصعود النشوة كاملة وتحقق ذروتها بالقذف وفيضانه على جسد المرأة، حيث يكون الزيت شبيهاً له وبديلاً طقسياً فاعلاً، يمنحها النشوة والتحقق المطلوب والذي تحلم به المرأة.

وطقس الطلاء مشترك عند القبائل الإفريقية، لكن المادة التي يطلى بها مختلفة، لكنها مع إختلافها تؤدي وظيفة فعل الإتصال الرمزي أو التمثيلي. وإن كان الزيت مادة لدهن جسد الأنثى، فإن الغرين، وهو مادة عمق النهر وترسباته اللزجة، وأضفت عليها الطقوس لوناً أبيض، ليتشابه أو يقترب من لون السائل الذي تقذفه المرأة أثناء الإتصال الثنائي الإدخالي، وهنا الوظيفة مختلفة تماماً، عن وظيفة طلاء الإناث لأجسادهن. فنجدها معكوسة تماماً عند الذكور والغرين الأبيض هو السائل اللزج الذي تراكم في عمق النهر/ الرحم وهنا يحصل حرف في مدلول النهر الذكري، ليكون مدلولاً أنثوياً ويمارس من خلال غرينة الذكور إتصالهم مع الإناث ليتم تحقق فعل النشوة.

واهتمت الأساطير كثيراً بالأنهار والماء وتمركزت في الديانات التاريخية والسماوية، فنجد بأن ولادة يسوع قد ارتبطت تماماً مع النهر. فالقرآن يصف ولادة يسوع تحت النخلة:

«فاجأها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً» مريم ٢٣ - ٢٥

والشجرة باعتبارها علامة مهيمنة في الخطاب الأسطوري والديني وصاغت ديانة خاصة بها كما قال (جيمس فريزر)، واقترنت هذه العلامة مع النهر في كثير من الطقوس والممارسات السحرية وهذا ما اتضح لنا بجلاء في عقائد وطقوس الختان الخاصة بالقبائل الإفريقية، وهذا تبدى - أيضاً - في الكتب السماوية، حيث صاغت عناصر أسطورية خاصة، استقرت في النصوص المقدسة، بعد ارتحالها عبر الأزمنة والعصور. إلى جانب عجيب الشجرة*، هناك عجيب النهر «السري» حيث يقول الطبري إن سرياً هو إسم النهر الذي تحت مريم حين ولدت المسيح. وقيل هو الجدول، وأنه إسم نهر بالسريانية وقال آخرون عني به عيسى. القرطبي يرى أن السري من الرجال العظام الخصال السيد. وأن السري كان نهراً قد انقطع ماؤه فأجراه الله تعالى لمريم والنهر يسمى سرياً لأنه الماء يسري فيه. وقال آخرون أنها لما ولدت عيسى أجرى الله لها نهراً من ماء عذب بارد، إذا شربت منه وفاتراً إذا استعملته.

ولاحظنا بأن للماء وظيفة مركزية شكلتها منظومته المقترنة مع نظام الخصوبة في الشرق. لذا نجد في معظم الميثولوجيات القديمة والحديثة للماء وظيفة*ميثولوجية ودلالة كونية كبيرة. وفي حالة مريم هذه فإنه سرعان ما يتحول من مستوعب في الجسد إلى مستوعب للجسد وعلى حد تعبير ليفي شتراوس في دراسته لإحدى الأساطير الهندية. وفي حديثه عن البنية الرمزية لما يقول (ميرسيا إلياد): «ترمز المياه إلى المجموع العالمي لكل ما هو كامن «موجود بالقوة» فهي الخزان الذي يحتوي جميع إمكانات الوجود تسبق كل صورة أو شكل، وتساند كل خلق) «ويضيف في مكان آخر بقوله «الإحتكاك بالماء ينطوي دائماً على ولادة جديدة، لأن الإنحلال يعقبه «ولادة جديدة» والإنغماس يخصّب قدرة الحياة الكامنة ويضاعفها. لذلك تحتفظ المياه في بعض الأنظمة الدينية بوظيفتها على نحو لا يتبدل: تظهر وتولد ولادات جديدة قدرها أن تسبق الخلق وأن تمتصه ما دامت عاجزة عن تجاوز نمط وجودها الخاص، أي أن تتجلى في «أشكال» المياه لا تستطيع أن تتجاوز شريط الموجود بالقوة، فالأجرام والممتلكات وكل ما هو شكل فإنما يتجلى فوق مستوى الماء، بانفصالها عنه.

ولأهمية الماء باعتباره وسيطاً حيوياً في ولادة يسوع، ظل هذا الوسيط مرتبطا معه

ومناظراً وإياه. لذا لا يمكن قراءة شخصية يسوع بمعزل عن وسيطه المائي، ولأن يسوع يمثل إرتحالاً للعديد من الشخصيات الأسطورية، وحصلت عليها تغيرات بسيطة، لم تستطع التعتيم على أصوله ومكوناته الأول، فإن ارتباطه مع الماء إرتحل، ناقلاً عناصر الألوهة الشابة القتيلة التي عرفتها ديانات الشرق الأدنى القديم إبتداءاً بالإله دموزي بتموز/ ادونيس/ آتيس/ اوزيريس/ يوسف/ يسوع، هذه المنظومة الإلاهية ذات عناصر متماثلة مرتبطة مع الماء، لأنها لا تستطيع بدونه أو بمعزل عنه، لسبب بسيط، وهو ارتباط هذه الآلهة الشابة بنظام الخصوبة، وارتباط الخصوبة بمكونها الأول والأساس وهو الماء، لذا كان الماء وسيطاً ليسوع وارتبط به منذ لحظة البداية، حيث عمده يوحنا المعمدان، وصار طقس التعميد ممارسة هي التي تضفي على المولود جانباً أساسياً من كينونته وتمنحه بعد ذلك وظائفه في الحياة.

ومضافاً لذلك كله، تتسع هذه القراءة للإشارة إلى المحيط المائي «الأبسو» الذي عرفته الحضارة العراقية القديمة سومرياً وأكدياً، وهو المحيط الذي شكل نظام الحياة وتبلورت فيه عناصر الحياة، واقترن الأبسو مع انكي/ أيا، ممثلاً للحكمة والمعرفة ولذا تمتعت شخصية يسوع بالحكمة أيضاً.

ونختصر وجهة نظرنا عن الماء بالإشارة إلى ملاحم الخلق في العراق القديم وارتباط الماء بمنظومة خلق الآلهة والإنسان والنبات وكل شيء في الحياة كذلك أساطير الخلق في العالم.

وهناك عدد من القبائل الإفريقية لم تعرف عادة الختان ويعوض عنها في حفلات التلقين باختبارات أخرى. فعند قبائل النوير توسم الناصية بآلة حادة. وعند قبائل «سارا» توسم الخدود وتقلع بعض الثنايا السفلى وتجعل بعض الثنايا العليا من الأسنان مدببة ويطلب من الشبان أثناء التدريب شرب حساء فيه مواد غريبة ويزعمون أنه حساء يحول قلب الشاب إلى قلب رجل، ثم يسمونهم بالإسم الجديد. وحفلات التلقين تقام عند كل ثلاث سنوات. وتستمر لمدة شهرين. وفي جنوب الكونغو، تبدأ حفلة تعليم الفتاة عند ظهور أول طمث، أما الهوتنتوت فتحور عملية الختان للفتيات إلى مط أشفار عضو التأنيث، حتى يتورى ويحظر على النساء في كل الحالات حضور حفلات تلقين الذكور مثلما يحظر على الرجال حضور إحتفالات تعليم النساء.

وتتشكل في قبائل (البامبار الإفريقية) جمعيات تضم المراهقين المختونين في القرى ويتولى الشاب حراسة المعبد وإدارة شؤون التراث القبلي ومعبد القبيلة الكبير [كومو] ويقبل

في عضويته كل من تم ختانه ويقام لذلك إحتفال ديني في الليل.

إن إعتماد قبائل (النوير) الوسم للناصية هو البديل للختان، لأنهم يتعاملون مع الوسم باعبتاره طوطماً وعلامة تدل على القبيلة. والعلامات الفارقة هي طواطم للقبائل الإفريقية. ويقترن تلقين الفتيات في جنوب الكونغو مع ظهور أول طمث. وذلك لإرتباط الطمث مع الإستعداد الفسلجي للخصوبة.

نشيد مندائي

حرمّت الديانة الصابئية المندائية الختان، وأدخل التحريم في واحد من أهم الأناشيد أو الترديدات الدينية وذلك عند الإستعداد للوضوء والصلاة، يختار للصائبين مكان عند شاطئ النهر، متوجهاً نحو الجدي [الشمال] ويتلو نشيده أو دعاءه باللغة المندائية وبالعربية:

السلام عليك

أيها الماء الجاري

من تحت عرش الرب الذي يجيء بك

كل ما في الأرض

«ويغسل يديه وهو

يقول كما يقول الفرحاني"

غسلنا أيدينا المفتوحة بالإيمان

ناطقين بنطق صحيح

وقلب مؤمن بعنصر الأنوار

«ثم يغسل وجهه ثلاثاً ويقول»

رسمت بماء الحياة.

«ثم يمضمض فمه مرة واحدة ويقول»

ركبتيٌ ساجدتان إلى الرب

«ويفعل مثل هذا على ساقيه ويقول»

رجليّ ماشية نحو شريعة العهد والإيمان

«ثم يعتدل بجلسته ويقول»

رسم عليّ لأني لست من عبدة النار

ولا من المختنين

ولا من المسيحيين

رسم عليّ بماء الحياة الجاري

في الأنهار من عالم الأنوار.

وتعتبر الديانة الصابئية المندائية من ديانات الخصب المبكرة والتي عرفها العراق القديم، وتكاد تكون هذه الديانة من أوائل الديانات الموحدة والتي اقترنت بالمحيط المائي ومنذ الأزل ومن هنا تتشكل صفتها الخصوبية. والصابئة، هم أول من عرف التعميد بالماء الجاري، لذا اختاروا مساكنهم عند ضفاف الأنهار. ومن هذه الديانة، أخذت المسيحية طقس التعميد. وكان يحيى نبياً للصابئة المندائية والذي صارت وظائفة التعميدية في الديانة المسيحية ويقال بأنه «يوحنا المعمدان» هو الذي عمدّ السيد المسيح.

بعد أن يعمّد اليزيدي طفله، يجري له عملية الختان وكأنه يسعى لتطهيره أولاً بطقس التعميد ومن بعد تحصل عملية الختن له ولا يوجد عمر محدد لليزيدي لختان ولده مثلما هو حاصل في الديانة اليهودية، وهم بذلك يتشابهون مع المسلمين، وهو تقييد إسلامي وقال السيدي «بادجر» و «أمبسن» بأن الطائفة اليزيدية أخذت طقس الختان من المسلمين. ولكن قبيلة (رضوان) وهي من القبائل اليزيدية القاطنة على ضفاف دجل الشمالية لا تتبع سنة الختان، إذ كان يزيدي واحد فقط لم يمارس الختان لأولاده مجاراة لنصارى قريته في (رضوان)، وهذا دليل غير كاف للسيد (بادجر) للإعتماد عليه وتعميم هذا الرأي على سكان (رضوان) كلهم، علماً بأن اليزيدي نفسه [الذي لم يعمل على ختان أولاده] قاطعته يزيدية قريته، حتى أنهم رفضوا دفنه – عندما توفي – في مقبرة القرية.

ويجد اليزيدي بأن الختان مناسبة ملائمة كي يدخل بها ومن خلالها بعلاقة دم [كرافة] مع مسلم، يقدرونه ويرغبون الإرتباط وإياه بصلة قوية مع عائلتهم، وكل الذي يعمله الرجل المسلم، هو وضع الطفل المراد ختانه في حجرة أثناء عملية الختان، حتى يقع شيء من دم

المختون على ثوب الرجل المسلم وإذا تعذر على [الكريف] حضور الحفل واحتضان الطفل لحظة ختانه، وهو لا يزال راغباً بتلبية طلب عائلة المختون كي يكون [كريفاً] لهم فيمكنه أن يأخذ قطرات دم في منديل. ويقول الأب انستاس الكرملي: إن على الطفل، أو أقرب إنسان إليه، إن كان غير قادر على الكلام أن يقول أثناء عملية الختان: أنا خروف يزيد المنير.

ولأهمية طقس الختان لديهم، تقيم عائلة الطفل حفلة، قبل ختان ولدهم مثلما يفعله المسلمون.

أخوة الدم

تعني [الكرافة] علاقة الدم، ولها أهمية عظمى بين اليزيديين فالرجل المسلم الذي أجلس الطفل اليزيدي في حجره، أثناء طقس الختن وسقطت قطرات من دمه على ثوبه الذي يرتديه أو أعطى قطرات من دم الطفل في منديل له، يصبح لعائلة الطفل المختون كريف دم [كريف خوني] وللمكارفة حرمة عظمة لدى اليزيدي يحترمها ويقدسها. وأشار (د. سامي سعيد الأحمد) في داراسته الموسعة عن اليزيدية، بأن أصل المكارفة متأت عن خروج ملاك الرب على موسى وزوجته واراد قتل موسى ولم يتركه إلاّ بعد أن ختنت زوجة موسى إبنها، ومست ثوب الملاك بدم الطفل.

ويذكر لنا (هيردوت): بأن كانت لهم قديماً ما يماثل هذه المعتقد [الأخوة عن طريق الدم] وذكر آخر بأن المغول يعتبرون الدم خير وأداة لعقد المواثيق، حيث يشرب الواحد قطرات من دم الآخر. ويحترم اليزيدي الكرافة إحتراماً كبيراً. وتتولد بينه وبين المسلم أخوة، لا يمكن لها أن تنفصم، حيث يسارع اليزيدي إلى نجده كريفه في كل مكروه، ويغار على شرفه وعرضه، ويحاول مساعدته في الملمات قدر إمكانه. ويقول (الدملوجي): إنه إذا ما كانت الكرافة بين اليزيدي [حيث يمكن أن يكون الكريف مسلم أو يزيدي] فقد يدخل الواحد منهم في محرمات الآخر مثل أخ الرضاعة إلى خمسة أجيال. وينقل (د.سامي سعيد الأ حمد) رأياً لأحد مثقفي اليزيدية، مفاده أن الضوابط العقائدية لدى اليزيدية حول الكرافة، تحتم أن لا يحوز يتزوج [إن كان يزيدياً] بين عائلتين المتكارفين بعد الختان بسبعة أجيال [أما إذا كان الكريف مسلماً فتستمر الكرافة لأربعة أجيال] ويجوز الإرث بينهما من مال وبنين، وعلى الكريف أن يأخذ بثأر كريفه، ولو كلف ذلك حياته، وللكريف التصرف بكريفه، وهو مسؤول عن رعايته، وعليه أن يحضر زواج كريفه ووفاته أينما كان وبالعكس.

ومن يعرف هذه الطائفة واختلط بها يتذكر الكثير من الأمثلة حيث ذب الكريف اليزيدي كريفة ودافع عنه حتى الموت، وبذل من أجله الغالي والنفيس. ويخبرنا الأستاذ (الدملوجي): بأن المسلم وخاصة في مدينة شيخان [عكس منطقة سبخار] غالباً ما يهمل واجبات الكرافة، بل ربما يخون كريفة اليزيدي. ونصت تعاليمهم: «على المؤمنين أن يختتنوا قبل العقد الأول والموعد المناسب هو الشهر الأول من الولادة» لكن اليزيدين لم يلتزموا بهذا التحديد، وظل موعد إجراء الختان مفتوحاً وحراً.

١- سامي الذيب/ ختان الذكوروالاناث، عند اليهود والمسحين والمسلمين/ الجدل الديني/ دار السامي/ الندن/٢٠٠٠/ص ٥١٩ -٥٢٠

الختان في النصوص المقدسة

الختان في التوراة

* «وافتقد الرب سارة كما قال وفعل الرب لسارة كما وعد. فحملت ساره وولدت لإبراهيم ابناً في شيخوخته في الوقت الذي ذكره الله. فسمي ابراهيم أبنه المولود له الذي ولدته له سارة إسحق.و ختن ابراهيم اسحق ابنه وهو ابنى ثمانية أيام حسب ما أمره الله به»

التكوين ١٢١ – ١-٤

* «وكلم الرب موسى قائلاً: كلم بني اسرائيل وقل لهم أية امرأة حبلت فولدت ذكراً فلتكن نجسه سبعة أيام كحكم أيام طمثها يكون حكم نجاستها. وفي اليوم الثامن تحتن قلفة المولود»

الاحبار ١٢: ١-٤

*«واذا دخلتم الأرض وغرستم كل شجر يؤكل فاغرلوا غرلته أي ثمرة ثلاث سنوات يكون لكم أغلف لا يؤكل منه. وفي السنة الرابعة يكون جميع ثمرة قدساً لتجميد الرب»

الاحبار ١٩:٢٢ – ٢٥

* «وتبادون بين الأمم وتأكلكم ارض أعدائكم. والباقون منكم يقرضون بذنوبهم في أرض أعدائكم وايضاً بذنوب أبائهم معها يضمحلون. حتى يعترفوا بأثمهم وبأثم أبائهم في خيانتهم التي خانونى وفي سلوكهم معي بالخلاف. لذلك انا ليضاً أسلك معهم بالخلاف وادخلهم أرض أعدائهم حتى تتذلل قلوبهم الغلف وحينئذ فانهم يفون عن إثمهم»

الاحبار: ٢٦: ٣٨ –٤٤

* ولما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنه، تراءى له الرب وقال له: انا الله القدير، فسر أمامي وكن كاملاً. سأجعل عهدي بيني وبينك وشاكراً لك جداً جداً. فسقط ابرام على وجهه. وخاطبه الله قائلاً. ها أنا أجعل عهدي معك فتصير أبا عدد كبير من الأمم. ولا يكون أسمك ابرام بعد اليوم........واقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك مدى أجيالهم، عهداً أبدياً لأكون لك الهاً ولنسلك من بعدك. واعطيك الأرض التي أنت نازل فيها، لك ولنسلك من بعدك. كل أرض كنعان ملكاً مؤبداً وأكون لهم الهاً. وقال الله لإبراهيم وانت فأحفظ عهدي، انت ونسلك من بعدك: يختن كل ذكر منكم فتختتنون في لحم غلفتكم، ويكون ذلك علامة عهد بيني وبينكم. وابن ثمانية أيام – يختن كل ذكر منكم من جيل سواء أكان يختن المولود في بيتك أم مشترى بالفضة من كل غريب ليس من نسلك. يختن المولود في بيتك والمشتري بفضتك، فيكون عهدي

في أجسادكم عهداً أبدياً. واي أغلف من ذكور من لم- يختن في لحم غلفته، تفصل تلك النفس من ذويها، لأنه قد نقض عهدي. وقال الله لإبراهيم: سأراى امراتك لا تسميها ساراي بل سميها ساره. وانا أباركها وارزقك منها إبناً وأباركها فتصير أمماً، وملوك شعوب منها يخرجون[.......] فلما فرغ من مخاطبته ارتفع الله عن ابراهيم. فأخذ ابراهيم اسماعيل أبنه وجميع مواليد بيته وجميع المشترين بفضته، كل ذكر من أهل بيته، فختن لحم غلفتهم في ذلك اليوم عندما ختن لحم غلفته. وكان اسماعيل أبنه، ابن ثلاث عشره سنه حين ختن لحم غلفته. في ذلك اليوم عينه ختن ابراهيم واسماعيل أبنه وجميع رجال بيته، سواء أكانوا مواليد بيته ام مشترين بالفضة من الغريب، ختنوا معه.

رأي موسى بن ميمون «توفي سنة ١٢٠٤م »

كان الختان إحدى عللها تقليل النكاح واضعاف هذه الأله حتى يقصر هذا الفعل ويحجّم ما أمكن. وقد ظن ان هذا الختان هو تكميل نقّص الخلقة، فوجد كل طاغي موضعاً للطعن. وقيل كيف تكون الامور الطبيعية ناقصة حتى تحتاج لتكميل نقص الخلقة، بل تبنى من منطقة تلك الجلدة لذلك العضو. وليس هذه الغريضة لتكميل نقص الخلقة، بل لتكميل نقص الخلق الأذية الجسمانية الحاصلة لهذا العضو هي المقصودة التي لا نحتل بها في الأفعال التي قوام الشخص والأبطل بها التناسل، ولكن نقص بها الكلب والشره الزائدة على ما يحتاج، واما كون الختان يضعف قوة الايعاظ، ربما نقّص اللذة، أمر لاشك فيه، لان العضو اذا أدمي، وازيلت وقايته من أول نشوئه، فلا شك انه يضعف. وبيان قال الحكماء. في قوله:«انا أعلم أنك امرأة جميلة المنظر» تك ١٢:١١

وفي الختان أيضاً عندي معنى آخر وأكيد جداً وهو أن يكون أهل هذا الرأي كلهم، أعني مغتقدي توحيد الله، لهم علامة واحدة جسمانية تجمعهم، فلا يقدر من ليس منهم يُدعى أنه منهم وهو أجنبي، لأنه قد يفعل ذلك كي ينال فائدة أو يغتال أهل هذا الدين.

وهذا الفعل لا يفعله الإنسان بنفسه، او بولده الاّ عن إعتقاد صحيح لأن ما ذلك شرطة ساق أو كيّة في ذراع، بل أمر كان مستصعباً جداًجداً. معلوم أيضاً قدر التحابب والتعاون الحاصل بين أقوام كلهم بعلاقة واحدة وهي بصورة العهد والميثاق. وكذلك كا من يختن انما يدخل في عهد ابراهيم والتزام عهده لإعتقاد التوحيد «لاكون لها إلهاً ولنسلك من بعدك» تك ٧:١٧

وهذا ايضاً معنى وكيد مثل الأول في تعليل الختان، ولعله أوكد من الاول. ،كمال هذه الشريعة، وتخليدها إنماتمٌ بكون الختان في سن الصغر. ففي ذلك ثلاث حِكَم:

١- انه لو ترك الصغير حتى يكبر، قد لا يفعل.

٢- كونه لا يتألم تألم الكبير للين جلده ولضعف خياله لأن الكبير يستهول ويتسصعب الأمر الذي يتخيل وقوعة قبل ان يقع

٣- إن الصغير يتهاون والده بأمره عند ولادته لانه لم تتمكن الى الأن الصورة الخيالية الموجبة لمحبته عند والديه. لأن تلك الصورة الخيالية إنما تزيد المباشرة وهي تنمو مع نموه ثم تأخذ في الإنحطاط والأغماء أيضاً، أعنى تلك الصورة الخيالية فأن ليس محبة الاب والأم للمولود عندما يولد كمحبتهما إياه وهو ابن سنة، ولا محبة ابن سنه كمحبة لإبن ست. فلو ترك سنتين او ثلاث، لكان ذلك يوجب تعطيل الختان لشفقة الوالد ومحبته له واما عند ولادة فتلك الصورة الخالية ضعيفة جداً، وبخاصة عند الوالد الذي هو المأمور بهذه الفريضة.

أما كون الختان في الثامن ، لان كل حيوان عندما يولد ضعيف جداً في غاية رطوبةوكأنه الى الأن في البطن الى انقضاء سبعة أيام وحينئذ ينفذ من المباشرين للهواء.الا ترى أن في البهائم ايضاً هذا المعنى:«سبعة أيام يكون مع أمه» خروج٢٢:٢٩.فكآنه قبل ذلك سقط. وكذلك في الإنسان بعد إنقضاء سبعة أيام يختن وصار الأمر مضبوطاً ولا تترك أمورك الى الاختلافات ومما إشتملت عليه ايضاً هذه الجملة النهي عن إفساد آلات النكاح من كل ذكر من الحيوان «رسوم واحكام عادلة» تثنية ٤:٨.

أعنى تعديل الامور كلها لا بفرط في الجماع كما ذكرنا، ولا يعطل أيضاً بالكلية الأمر وقال:

«اثمرى وأكثرى» ١:٢٢ كذلك هذه الآله تضعف بالختان، ولا تستأصل بالقطع بل يترك الأمر الطبيعي على طبيعته ويُتخفَّظ من الافراط.

يسوع والختان..

وبعد ولادة يسوع بثمانية أيام أجرى له الختان ومنح إسمه وكان اقتران الختان مع منح الاسم. وبهما معاً يكون الانسان متمتعاً بكينونيته وهذا ما إهتمت به الديانات الشرقية القديمة حيث يظل الانسان خارجاً عن محيطه الأنساني والاجتماعي، ولا تحوز عناصره الانسانية

والبشرية الاّ بعد حيازته على اسم يميزه عن غيرة وهذا ما تؤكده الأساطير الطرفية القديمة.

«ولما تمت ثمانية أيام ليختن الطفل، سمي يسوع، كما كان قد سّمي بلسان الملاك قبل ان يحُل به في البطن. ثم لما تمت الايام لتطهيرها حسب شريعة موسى صعدا به الى اورشليم ليتقدماه الى الرب»

لوقا٢:٢١-٢٢

كان شأن يسوع مع الختان متماثلاً مع المعمدان الذي أختتن ايضاً.

وصار يسوع خادماً للمختونين:

«فأني أقول أن المسيح صار خادم أهل الختان إظهاراً لصدق الله وتوطيداً لوعوده للاباء. وان الامم-يمجدون الله على الرحمة»

متى ١٥:٨-٩

ولهذا كان إنجيله قد أعلم الامم كلها بذلك[رومه١٥:٩] لم يكن الختان في الديانة المسيحية إمتداداً ملزماً للمسيحيين، وهل هو - الختان - رتبة تدل على الإنتماء الى الاصل/ ذرية ابراهيم. واشارات المصادر الكهنوتية الى ان المعمودية تمنح للوثنيين الذين يهتدون في اماكن عديدة دون ان يفرض عليهم الختان. ومارس المسيحيون الذين هم من أصل يهودي صنفاً قوياً من أجل بقاء واستمرار هذا الطقس في الديانة المسيحية، لذا ونتيجة للصراع المشتدبين طرفين متضادين في الموقف الفقهي، أصدر مجمع أورشليم قرارة القاضي بالمصادقة على الحرية المتوفرة لهم في مجال ممارسة الحق في إجراء الختان أؤ عدم إجرائه.

«واذا بصوت يقول قم يابطرس إذبح وكل. فقال بطرس حاشى يارب فأني لم آكل قط نجساً أو دنساً. فخاطبه الصوت ثانية ماطهره الله لاتنجسه أنت»

أعمال الرسل١٠:١٣- ١٥

ويبدو واضحاً بأن الوحي النازل على بطرس هو دليل على دور الرب، حيث يمكن للانسان أن يعتمد على علاقته مع الرب، وهو الكفيل بمنح النظافة له وطرد النجاسة عنه، ولذا لا يمكن أن يكون الختان شرطاً مهماً للنظافة وصفاء القلب، الذي يحتاج هو الى ختان غلفته كما قالنا سابقاً وهذا الوحي الذي قدم رسالة الرب الى بطرس، أوجدت مجالاً جديداً ومهماً

بين بطرس باعتباره وسيطاً بين السماوي والأرضي، بين المطلق والدنيوي، وحمل لهم رسالة الرب، ،حصل اتصال واضح وتفاهم جدي ومختلف، وهذا منح عدد غير قليل من الناس القبوك بالديانة المسحية الجديدة، التي خلصتهم من الختان ، وانقذتهم من مشهد التعذيب والتشويه الذي يوجده البتر.

«وفيما كان بطرس يخاطبهم بهذا الكلام حل روح القدس على جميع الذين سمعوا الكلمة. فدهش المؤمنون من أهل الختان كل الذين رافقوا بطرس من إفاضة موهبة الروح القدسي على الامم ايضاً، فانهم كانوا يسمعو انهم يتكلمون بلغات ويعظمون الله. حينئذ أجاب بطرس ألعل أحداً يستطيع ان يمنع الماء فلا يعتمد هؤلاء الذين الروح القدس مثلنا. ثم أمر ان يعتمد بإسم الرب فسألوه حينئذ ان يمكث عندهم أياماً»

اعمال الرسل ١٠:٤٤-٤٨

ومن هذا ندرك بأن الوعد لا يشترط تحقيق الختان. والخلاص لا يأتي بعلاقة تتشكل بعد الختان والكيف استطاع ابراهيم ولسنوات طويلة ان يؤسس وعده مع الرب وقبل ان يمارس طقس الختن ولهذا فإن الخلاص لا يوفر الختن، لأن المؤمن سيكرس جل اهتمامه على هذه الممارسة ويترك نهائياً الشعائر الأخرى التى توجد صلة له مع الرب. وتتضح قوة الناموس الذي ارتبط مع يسوع وتمركز بالازمنة اللاحقة وكلام القديس بولس الى أهل غلاطيه في منتهى الوضوح، وكاف للإشارة لبعض منه، وهو المؤكد على العلاقة التي نشأت بين الناس والمسيح، علامة لا يمكن لها ان تنفصل، لأن الناموس يغذيها. والناموس هو الفاعل الجديد في ديانه، مارست التغّير تماماً في كثير من العقائد والطقوس، وحصول التغيرّ، لم يكن للإختلاف، وانما للتطوير جاء المسيح ليكمل وليس لينقص.

«فالناموس اذن كان مؤدبنا يرشدنا الى المسيح لكي نبرر بالإيمان. فبعد أن جاء الايمان لنا بعد نحت مؤدب. لأن جميعكم أبناء الله بالإيمان بيسوع المسيح. لأنكم انتم جملة من اعتمدتم في المسيح قد لبستم المسيح. ليس يهودي ولا يوناني. ليس عبد ولا حر، ليس ذكر ولا أنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع. فإذا كنتم للمسيح فأنتم كنتم للمسيح فأنتم إذن نسل إبراهيم وورثه بحسب الوعد»

رسالة القديس بولس إلى اهل غلاطية: ٣: ٢٤ – ٢٩

وكان لرسالة القديس بولس تأثير واضح على من كان معه، وعلى الذين إستمعوا لها وخصوصاً بما له علاقة مع طقس الختان. ولأن القديس بولس أدرك تماماً بأن الخلاص والوعد يتحقق من خلال العلاقة مع يسوع وليس عبر طقوس ليس ذات أهمية، مثلما هو في الختان «كان صعودي عن وحي عرضت عليهم الإنجيل الذي أكرر به بين الأمم وعرضته على ذووي الإعتبار على انفراد لئلا أسعى أو أكون قد سعيت باطلاً. حتى أن يطمس الذي كان معي وهو يوناني لم يضطر إلى الختان. ولا لأجل الأخوة الكذبة الداخلين زورًا الذين استرقوا الدخول ليتجسسوا على حريتنا التي نحن عليها في المسيح يسوع فيستعبدونا. الذين لم ننقد لهم خاضعين ولا ساعة ليستديم فيكم حق الإنجيل. فأما ذوو الإعتبار. مهما كانوا حيناً فلا يعنيني فإن الله لإيحابي وجه البشر. فذووا الإعتبار لم يزيدوا على ما عرضته. بل بالعكس لما رأوا أني قد آئتمنت على إنجيل القلف كما آئتمن بطرس على الختان. فإن الذي عمل في بطرس لرسالة الختان عمل فيّ أيضاً للأمم. ولما عرفوا النعمة الموهوبة لي مدّ يعقوب وكيفا ويوحنا المعتبرون كأعمدة إلي وإلى برنابا يمناهم للشركة لنكون نحن للأمم وهم للختان. على عهد واحد أن نتذكر الفقراء وذلك قد اجتهدت في إنجازه. فلما قدم كيفا إلى انطاكية قاومته مواجهة لأنه كان ملوماً. لأنه قبل قدوم قوم من عند يعقوب كان يأكل مع الأمم فلما قدموا تنحى واعتزل مخافة من أهل الختان»

رسالة القديس بولس إلى اهل غلاطية: ٢: ٢ – ١٤

إن البراءة لا يمنحها الختان إلى المؤمن، وإنما تكتسب بالإيمان بالمسيح الذي يرتديه المؤمن ويقترن به. لأن المؤمن إذا اعتمد في إيمانه على طقس الختان، فإن ذلك يعني إلغاء الصليب وإبطال صلة يسوع به. وهو الذي يوفر لنا ويومن الوعد المجاني.

«وأنا أيها الأخوة إن كنت أكرر إلى الآن بالختان فلم أُضطهد بعد. شك الصليب قد أبطل. ياليت الذين يفتنوكم يقطعون، فإنكم أيها الأخوة إنما دعيتم إلى الحرية على هذا فقط أن لا تجعلوا الحرية فرصة للجسد بل أخدموا بعضكم بعضاً بمحبة الروح. لأن الناموس كله يتمم بكلمة واحدة وهي أحب قريبك كنفسك.»

رسالة القديس بولس إلى اهل غلاطية: ٥: ١١ – ١٥

الختان الروحي

إن النداء النبوي الحامل لرسالة من الرب يسوع الناس، هي رسالة السماء إلى الأرضي، رسالة داعية إلى ختان القلب وتنظيف الروح والتصديق داخلياً على الرتبة الخارجية. هذا هو الذي دعت له المسيحية وكرسته وسيعمل به. والسعي - أيضاً - لإلغاء المميزات العنصرية التي كان الختان يفترضها ويؤكد على وجودها وهذا مالاحقته الدراسة في الحديث عن الختان في الديانة اليهودية. وفعلاً كان التمايز العرقي/ العنصري مداراً فكرياً ضمن المدارات العديدة التي صاغتها اليهودية، إبتداءاً بطقس الختان وعلاقة العبران مع الأقوام التي لا تمارس هذا الطقس، ومروراً بالإله اليهودي/ إله العبران فقط، مؤكداً عن الدور العنصري والعرقي في الدين الجديد، على الرغم من أن صفاء العنصر ونقاء العرق تمثل إستحالة تامة بالنسبة للعبران.

«فأثبتوا الآن ولا تعودوا ترتبطون بنير العبودية. فها أنا بولس أقول لكم إنكم إن إختتنتم فالمسيح لا ينفعكم شيئاً. وأشهد أيضاً لكل من أختتن أنه ملزم بأن يعمل بالناموس كله. لقد أبطل المسيح من هجوتكم أيها المبررون بالناموس وسقطتم من النعمة. لأنا إنما ننتظر رجاء البر بالروح من الإيمان. لأنه في المسيح يسوع لا يقوى الختان ولا القلف على شيء، بل الإيمان الذي يعمل بالمحبة»

رسالة القديس بولس إلى اهل غلاطية: ٥: ١ - ٧

لم يعد للختان قيمة باعتباره طقساً دينياً ولاله تأثير في التطورات التي حصلت في الديانة المسيحية. والقيمة وحيوية الإيمان، تكمن في العلاقة مع يسوع والعمل بالمحبة. وما هو مهم في الديانة الجديدة أن يكون الإنسان خلقاً جديداً أو أن يحفظ وصايا الرب ويعمل بها صادقاً وبقلب نظيف، مملوء بالمحبة.

«أُدُعي أحد وهو مختون فلا يعد إلى القلف. أدعي أحد وهو في القلف فلا يختتن. ليس الختان بشيء ولا القلف بشيء بل حفظ وصايا الله»

رسالة القديس بولس إلى اهل كورنتس ٧ = ١٧ - ٢٠

*لأهمية هذه المعلومات ضمن البحث من أجل تنوعه، اعتمدنا فيه على كتاب سامي الذيب/ ختان الذكور والإناث وقد مرّ ذكره سابقاً

إن الإيمان يبرر المختون، مثلما هو يبرر غير المختون. لأن الدور الحيوي لم يكن لهذا الطقس وإنما للبرارة والمحبة. بسبب بسيط وهو أن يسوع، هو الرب للجميع، وبدون إستثناء، رب المختون والقلف.

«فأين المفاخرة. إنها قد ألغيت. وبأي ناموس، إبنا موسى الأعمال. لإبل بناموس الإيمان. لأنا نحسب إن الإنسان إنما يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس. ألعل الله إله لليهود فقط، أليس للأمم أيضاً .بل هو للأمم أيضاً.»

رسالة القديس بولس إلى اهل رومية : ٣: ٢٧ – ٣٠

ويؤكد هذا النص على دور الرب. فيسوع هو كل شيء وهو في كل شيء.

«ولا يكذب بعضكم بعضاً، بل إخلعوا الإنسان العتيق مع أعماله. والبسوا الإنسان الجديد الذي يتجدد للمعرفة على صورةخالقه.

حيث ليس يوناني ولا يهودي ولا ختان ولا قلف ولا أعجمي ولا إسكوتي ولا عبد ولا حر، بل المسيح هو كل شيء وفي الجميع»

على الرغم من الرتبة الطقسية قد أُلغيت. إلا أن المفردة واللفظ ما زال لهما معنى ومفهوم لدى الناس في التخاطب، وبإمكان المؤمن أن يصرخ قائلاً «إنما انا ذو ختان» لأن عبادته، عبادة روح الله.

«وبعد أيها الأخوة فأفرحوا في الرب. أما تكرار الأشياء الواحدة في رسائلي إليكم فليس به من كلفة عليّ وهو أمن لكم. إحذروا الكلاب. احذروا عملة السوء. احذورا ذوي القطع. لأن ذووي الختان إنما هم نحن العابدين بروح الله المفتخرين بالمسيح يسوع غير المعتمد ين على الجسد. مع أن لي أنا أيضاً أن أعتمد على الجسد. فإنه أن ظن أحد أن له أن يعتمد على الجسد فإني أحق منه بذلك. أنا الذي قد أختتن في اليوم الثامن والذي هو من آل إسرائيل من سبط بنيامين الذي هو عبراني من العبرانيين ومن جهة الناموس فريسي.

رسالة القديس بولس إلى اهل فيلبي : ٣: ١ – ٧

يكشف لنا هذا النص بأن النداءات النبوية الخاصة بالختان الحقيقي والخفي، والروحي، والداخلي/ السري/ الباطني، لن يصنع بيد البشر وإنما يصنعه الرب ويهبه للإنسان المؤمن به.

«إن الختان إن عملت بالناموس ولكن إن كنت متعدياً للناموس فقد صار ختانك قلفاً. فإن

كان الأقلف يحفظ حقوق الناموس أفلا يعد قلفه ختاناً ويكون القلف الذي بالطبيعة وهو يتم الناموس بدينك أنت الذي بالحرف والختان تتعدى الناموس. لأنه ليس اليهودي

هو من كان في الظاهر ولا الختان ما كان ظاهراً في اللحم. بل إنما اليهودي هو من كان في الباطن والختان هو ختان القلب بالروح لا بالحرف ومدحة، ليس من الناس بل من الله»

رسالة القديس بولس إلى اهل رومية : ٢: ٢٥ – ٢٩

إن الناموس هو الذي يصوغ نظافة الجسد ويطهره بالكامل. وختان يتكون بالناموس، ينفع الإنسان، أما الإنسان الذي يتجاوز الناموس فقد تحول ختانه الجسدي، الحقيقي إلى قلفاً. ومن كان أقلفاً وحافظاً للناموس فإن قلفه يعتبر ختانا. وليس اليهودي الحقيقي من كان ختانه ظاهراً في لحمه وإنما من كان دينه في الباطن. والختان، وهو نظافة القلب والروح.

ولم يكن بأمكان البشر اجراء الختان ،مثلما كان من قبل «وفيه أيضاً ختنهم ختاناً ليس من فعل الأيدي بأن خلع عنكم جسد البشرية بختان المسيح. مدفونين معه في المعمودية التي فيها ايضاً أقمتم معه بايمانكم بعمل الله الذي أقامة من بين الأموات. وحين كنتم أمواتاً في الزلات وفي قلق أجسادكم ، أحياكم مهة مسامحاً لكم بجميع الزلات»

رسالة القديس بولس إلى اهل كوسي : ١١:٢ – ١٤

ويعني القديس بولس بهذا القول من ان الختان الروحي متماثل مع المعمودية ويؤديان معاً دوراً واحداً، وموحداً، المعمودية البشري خلقاً كلياً يحيى مع المسيح الى الأبد.

وواضح لنا الدور الذي لعبة القديس بولس في سحب الديانة المسيحية الى منطقة جديدة تماماً، بحيث أتهم بالكفر والإبتعاد عن جوهر الديانة المسيحية الجديدة ، وكانت أراء القديس بولس مطلقة من جوهر يسوع [لم ير بولس يسوع ولم يتعرف عليه من قبل] لذا كانت آراء بولس أوسع إنتشاراً، بحيث لعبت دوراً مهماً في توسيع قاعدة الديانة المسيحية.

وقد سمحت الديانة الجديدة إلى الرومان بالدخول إلى المسيحية بدون ختان، وقد صارت لاحقاً شرطاً بتحريم الختان، بعدما كانت بمثابة غض النظر، من أجل فتح الباب للمؤمنين جدد.

تكريم ختان المسيح وغلفته

رغم أن التيار العام عند المسيحيين قد سار وراء حذف فريضة الختان، فقد أقامت

الكنيسة عيداً لختان المسيح ولم يُلغ هذا العيد عند الكاثوليك إلاّ بعد الإصلاح الليتورجي في عام ١٩٧١ على أساس قرارات مجمع الفاتيكان الثاني.

كان اليوم الأول من السنة مكرساً لذكرى اليوم الثامن من ميلاد المسيح ولتكريم العذراء مريم. وقد أضيفت إليه ذكرى ختان المسيح. ولا يعرف تماماً متى تم إدخال هذا الحدث في الشعائر المسيحية. فمنهم من يرجعه إلى الرسل وأول ذكر له نجده في المجمع الذي عقد في مدينة «تورز» الفرنسية عام ٥٦٧. وهذا المجمع يتكلم عنه وكانه عادة قديمة يتم الإحتفال بها في أول يوم من السنة. وهذا اليوم كان يصادف في روما وفي مدن رومانية أخرى عيداً وثنياً شهيراً لتكريم الإله «يانوس» ومن هنا جاء إسم الشهر «يناير» وهو يوم عبث وفواحش. والقصد من وضع العيد المسيحي في هذا اليوم هو تجنب المسيحيين المشاركة في العيد الوثني والتفكير بالصلاة والصوم عن الأثام التي تقترف في هذا اليوم.

بالإضافة إلى عيد ختان المسيح، هناك هوس ديني حول غلفة المسيح وقد جاء ذكر لهذه الغلفة في رواية يحكيها «الإنجيل العربي للطفولة» الذي ينسب إلى القرن السادس الميلادي، وهو من الأناجيل المنحولة التي لا تعترف بها الكنيسة. تقول الرواية في نصها العربي:

«ولما كانت أيام الختانة وهو اليوم الثامن، أوجبت السنّة ختانة الصبي مختنوه في المغارة أيضاً. وأخذت العجوز العبرية تلك الجلدة المقطوعة. وقد كان لها ابن عطار فوصفتها عنده في قارورة دهن الناردين الفايق وتقدمت إليه وقالت إياك أن تبع هذه القارورة الناردين ولو دفع إليك بها ثلاثمائة دينار. وهذه القارورة هي التي إبتاعتها مريم الخاطئة وسكبتها على رأس يسوع «وقصة هذه القارورة دون ذكر لغلفة المسيح جاءت في ثلاثة أناجيل. ومهما يكن من مصير هذه الغلفة، إلاّ أنها أصبحت موضع تعبد القرون الوسطى. وهناك عدد من الكنائس الأوربية التي تتنافس في إمتلاك غلفة المسيح. وقد طرح أمر تكاثر غلفة المسيح على البابا «انوسينسوس الثالث ١١٦٠ – ١٢١٦ = فحكم بأنه من الأفضل ترك الأمر لعلم الله بدلاً من البت فيها دون تيقن. وهكذا تجنب غضب مالكي الذخيرة. فاستمرت الكنائس بعرض ذخيرتها المقدسة. ولكل ذخيرة أسطورتها وأعاجيبها.

فمثلاً غلفة المسيح التي في Abbaye de - Couloumbs عندها مقدرة على شفاء العقم وتساعد الحبالى في ولادة أولادهن. وفي عام ١٤٢٢، طلب الملك هنري الخامس من رئيس الدير أن يعيره تلك الذخيرة بعد إحتلاله لجزء من فرنسا لكي يأخذها لزوجته كاترينا في لندن

التي كانت حاملاً. وما لمست تلك الذخيرة، حتى وضعت إبناً ذكراً هو الذي أصبح الملك هنري السادس. وبعد ذلك أعادها الملك إلى فرنسا. إلاّ أنه خوفاً من أخطار الحرب على الدير التي أتت منه، وضعت الغلفة مؤقتاً في باريس في Sainte - chapelle depatise وعند تذمر الدير قرر وضعها في دير آخر ينتمي إلى الجمعية نفسها في باريس على أن لا تخرج من هذه المدينة. ولكن رهبان الدير الأصلي، إستطاعوا الحصول على قرار ولكي عام ١٤٤٧ بعودة الذخيرة إليهم. وقد قدم الملك لويس الحادي عشر عام ١٤٦٤ إلى الدير ليكرمها.

وقد رأى القديس واللاهوتي «بونافتوار» توفي عام ١٢٧٤م أن المسيح قام مع غلفته والتي قد تكون قد نمت مع التغذية تاركاً غلفته التي قطعت منه للتعبد. أما اللاهوتي اليسوعي «سوارين» توفي عام ١٦١٧م فقد تعاض لسؤال مشابه حول الذخيرة المحفوظة في Sanit - Jean de Latran في روما. فأجاب أن جسد قد قام كاملاً فيما يخص أجزائه المتماسكة: لحمه وعظمه ورأسه ويديه ورجليه...إلخ وكذلك الأمر فيما يخص شعره ولحيته وأسنانه وأظافره...إلخ. أما غلفته فلم تقم معه. وقد ذكر «روجي بيرفيت» في روايته المعنونة «مفاتيح القديس بطرساً» إن الكنيسة الكاثوليكية قد منعت التكلم عن غلفة كنيسة اللاتران بقرار صادر عام ١٩٠٠ تحت طائلة الحرمان بعد أن نشر بروتستانت ألمان مقالات عن هذه الغلفة تستهزئ بالكنيسة. وقد أكدت الكنيسة هذا المنع عام ١٩٥٤. وكتب المؤلف وصفاً مطولاً للجلسة التي عقدت في الفاتيكان في هذا الخصوص ولا ندري إن كانت هذه الجلسة حقيقية أم من نسج خياله. إلاّ أن المعلومات التي عرضها حول قصة هذه الغلفة تاريخية.

وبخصوص غلفة المسيح الموجودة في Charroux تذكر الأسطورة أن «شارلمان» قد حصل عليها من الأمبراطورة «إيرين» كهدية بمناسبة خطبته، ثم أهداها «شارلمان» إلي دير Charroux بمناسبة عن تأسيسه له. وقد منح عدد من البوابات بركات خاصة لمن يحضر عرض هذه الذخيرة في إحتفال ديني. وقد اختفت هذه الذخيرة من الدير خلال إحتلاله من قبل البروتستانت في القرن السادس عشر. ثم عادت للظهور عام ١٨٥٦ في علبة إكتشفها عامل كان يهدم حائطاً. فقرر الأسقف أن ما بداخل العلبة هو غلفة المسيح المختفية. فأعادها إلى دير الراهبات الأصلي مع التكريم وأعاد عرض الغلفة في الإحتفالات الدينية.

وهناك قصص دينية كثيرة تدور حول غلفة المسيح. فالراهبة «أغنيس بلانبيكان» توفيت عام ١٣١٥م كانت منذ صغرها تتألم ألماً كبيراً كل أول كانون الثاني/ يناير، يوم ذكرى ختان

المسيح وكان لها رؤيا متكررة وهي تبتلع تلك الغلفة ثم تشعر بها على لسانها بلذة كبيرة. والقديسة «بريجيت» توفيت عام ١٣٧٣م تروي أن العذراء مريم ظهرت لها وأوحت لها أموراً قامت بتسجيلها، من بينها «عندما ختن ابني، احتفظت بغلفته بكل تبجيل حيثما ذهبت. كيف يمكنني أن أضيع ماكوّن من بطني دون خطيئة أصلية؟ وعندما نمتُ نومي الأخير، سلمت هذه الغلفة إلى القديس يوحنا الإنجيلي الذي كان حارسي وبعد ذلك أخفيت لتجنب خبث الناس فبقيت مجهولة مدة طويلة. ولكن ملاك الله أوحى بوجودها إلى النفوس التقية. آه يا روما لو عرفت لابتهجت، أو لبكيت، لأن فيك كنزاً عزيزاً عليّ ولكنك لا تمجدينه «كما أن القديسة «كاترين دي سيين» توفيت عام ١٣٨٠م كانت تدعي أنها عروس المسيح وأنها تحمل بخصرها خاتماً لا يراه غيرها هو غلفة المسيح.

الفصل السادس

الرقص في الأسطورة والتوراة

موسى والعجل الذهبي

إقترن الرقص منذ الأزل مع عدد من الطقوس والعقائد الدينية المبكرة، وأكثر تلك العقائد صلة مع الرقص، هي العقائد السحرية وطقوسها التي عرفتها الحضارات الأول، وذلك باعتبارها - العقائد السحرية - العتبة الأولى في سلسلة المراحل الفكرية التي عرفتها الحضارات، وبشكل أدق عرفتها الديانات. ولأنه العتبة الأول في التحليل الهيكلي/ الماركسي، كانت هيمنتها واضحة وكبيرة.

لقد لعبت الممارسات السحرية دوراً خطيراً في الإبتداء الحضاري، وقدمت عوناً روحياً للإنسان عندما استعان بها من أجل مقاومة حياته وصعوباتها ومخاطرها، التي واجهته في الغابات، مثلما استعان بها لإقامة حواره الطبيعي مع الظواهر الطبيعية والإنواء، الأمطار/ العواصف/ الرعود/ الأصوات الغريبة، غير المعروفة له قبلاً، حتى ابتدأ يتآلف مع مكانه وظروفه، وكان بدون وعي منه يقوم بحركات ورقصات حول فرائسه أو طرائده لحظة التمكن منها، ليعبر عن فرصته وسعادته بتحقق الفوز والإنتصار، وابتدأت هذه الممارسات تتطور وتأخذ شكلاً مختلفاً أو صارت محكومة بوقت معني، وهي - عموماً - أكثر الأوقات إثارة لخوفه ورعبه وأهمها زمن الغروب ودنو الظلام من محيطه الفردي/ الجمعي، بحيث يقاوم الأصوات الضاجة في الغابة، وخصوصاً القريبة من مأواه، والتي تطلقها الحيوانات، فيطلق صوتاً مشابهاً، يسحبه من محيطه ويدنو به للمحيط، حتى يشعر بالألفة ويطرد خوفه، وهكذا، ابتدأت هذه الطقوس المسائية/ مع أخرى صباحية وأخرى عند ملاحقته للحيوانات، تتمركز في سلوكه ويعززها مطوراً لها، لكنها وعلى الرغم من كل الإضافات التي حصلت عليها، ظلت محكومة بدورتها حول الحركة/ الرقص لأنها امتلكت سلطة السحر وقوته التي عرف عبرها وبالتالي نجاعة، قادته إلى تحقق إنتصارات كثيرة على محيطه ومكانه الغابوي. واتساع هذه الممارسات والطقوس، ساهم بتطور الألفة الفردية بإتجاه علاقة جمعية مع مثيله، وحصل الترابط مع غيره من بني البشر، بازدياد العدد، أضفى على الممارسة السحرية صفة جمعية، تركزت عبرها وتكرست أكثر، وحصل عليها تطور أكبر، كذلك تنوعت. والمهم في هذه الممارسات السحرية كلها هو هيمنة الحركة والرقص فيها وعليها، حتى شملها تطور أكبر، بحيث حازت على عناصر جديدة، إضافة إلى خصائصها السحرية، ومنها خاصيتها للتعبير عن الفرح والسعادة، كذلك مصاحبتها لأي ممارسة دينية/ إحتفالية، لأن الإحتفالات والطقوس لا تكون أبداً، بمعزل عن الرقص.

وتكرس الرقص طقساً دينياً مصاحباً لبعض الترانيم والأدعية وخصوصاً في الفترات اللاحقة والتي صارت فيها للمرأة مكانة قيادية في الحياة والدين/ الحضارة، أي في فجر المرحلة الحضارية التي كانت فيها السلطة للألوهة المؤنثة، عندها لعبت الأم وممثلاتها دوراً مهماً في تطوير الرقص وجعله فناً ملازماً للعقائد الدينية والممارسات السحرية، لأن المرأة، دخلت عنصراً حيوياً فيه، مشاركة للرجل وذلك من أجل تطويره، كما أجد بأن الأم الكبرى وجدت في الممارسة الرقصية وسيلة للإغواء والإغراء، مثلما صار فناً خاصاً بها ولها، استطاعت به ومن خلاله إدامة طقس الإتصال الإدخالي/ الثنائي، وتطوير عقائد الجنس المقدس من أجل تحقق الكثير وأهمها منظومة الخصب واستمرار بقاء الحياة بإنبعاثها وتركز تطورها باستمرار، كما كان للرقص عند كثير من الشعوب والقبائل وظائف ما تزال إلى الآن محافظة على طابعها السحري/ التوسلي بالآلهة والطبيعة من أجل نزول المطر مثلاً. وأكثر الوظائف اقتراناً بالرقص وارتباطاً به لدرجة الإندغام الكامل، هي الوظائف ذات العلاقة بنظام الخصوبة الكلي، أي المنظومات والوحدات ذات الصلة بخصب النساء/ والأرض/ الأشجار/ الحيوانات/ السماء.

وإذا حاولنا ملاحقة الرقصات الجماعية المؤداة قديماً من قبل الرجال والنساء، فإننا سنجد أقدم الرقصات المقدمة في ممارسات سحرية وشعائرية لها صلة عميقة مع نظام الخصوبة في الحياة، بحيث لعبت دوراً بارزاً ومهماً في الديانات القديمة لتلك الشعوب، ونلاحظ ذلك في المخلفات الموجودة على جدران كهوف التاميرا مثلاً، حيث الراقصات منتشيات، وتاثرات شعورهن ويحوطهن مجموعة من الحيوانات الوحشية. وهذا يزيد الإعتقاد بسحرية تلك الرقصات التي توفر لهن صوناً وحماية من الوحوش.

ومن الرقصات القديمة جداً، المرتبطة بمنظومة الخصوبة* هي تلك الرقصات التي ظهرت في الشمال الشرقي في إسبانيا ونجد فيها مجموعة من النساء يرقصن حول تمثال ذكري والرقصات النسوية حول تمثال ذكري واضحة الوظيفة تماماً، فالسحرية هدفها وغايتها، لأنها تحلقت حول التمثال/ وهو شكل عمودي/ قضيبي، بحيث يعني وبوضوح شكلاً من أشكال المشاركة بين قطبي المنظومة الإخصابية في الحياة، وهما الأنوثة/ الذكورة والدوران حول التمثال/ القضيبي، هو في مستوياته الداخلية العميقة، إتصال روحي/ رمزي مباشر بين الراقصات والرجل/ الذكر/ القضيب، ليحقق لهن وللنساء/ والحياة وفرة وانبعاثاً وتجدداً،

ووجود التمثال/ هو حضور رمزي للرجولة/ الذكورة، مثلما هو تمركز للقضيب وسط الدائرة التي تحلقت حولها النسوة الراقصات ليمجدن قوة الحياة وديمومتها، عبر مثولهن حوله، ومن خلال هيمنته القضيب/ التمثال - في الوسط، الذي يعني أيضاً وسط المرأة، وقوتها الإخصابية، ولولا ذلك لما أختزن له في ذلك الطقس مركز الدائرة المتحلقات حولها. ومن أقدم المدوّنات الخاصة بالرقص هي التي نجدها في التوراة.

«فأوصوا بني بنيامين وقالوا لهم انطلقوا واكمنوا في الكروم. وارصدوا، فإذا خرجوا كنبات شيلوا لأقامة الرقص فأخرجوا من الكروم واخطفوا كل رجل امرأة من بنات شيلو وانطلقوا إلى أرض بنيامين......ففعل بنو بينامين كذلك واتخذوا نساءً بحسب عددهم من الراقصات اللواتي اختطفوهن وانصرفوا ورجعوا إلى ميراثهم وبنوا المدن وسكنوها».

سفر القضاة ٢١: ٢٠ – ٢٤.

وواضح من النص التوراتي – سندرس لاحقاً الرقص في التوراة – بأن الرقص يعني فعالية سحرية، لها صلة بالخصوبة الكلية في الحياة، لأن نبات شيلو يدخلن إلى مزارع الكروم وبني بينيامين إليها أيضاً .ويبدو بأن توفر هذ النوع من الأوليات الطقسية، تحقق للقطبين علاقة حب واقتران، أو ممارسة لطقوس الجنس المقدس/ روحياً أو رمزياً، لكن النص التوراتي يتسع أكثر، مغادراً الإتصال الرمزي، إلى التحقق الإقتراني بين الإنسان/ الرجل والمرأة. لأن بني بنيامين أختطفوهن ورجعوا إلى ميراثهم وبنوا المدن واستوطنوها.

وأشار الأستاذ (فوزي العنتيل) إلى وجود طقس، يجسد صلة الأنوثة مع الخصوبة، حيث خروج بنات شولح للرقص في مزارع الكروم في فلسطين، وأهمية هذا الطقس، تكمن بخروج عذراء عارية، لتؤدي بعض الرقصات الشعائرية المعينة وسط الحقول، إبان فصل الربيع، وبصفة خاصة عند الفجر. فإنها تهلك الآفات التي تفتك بالمحصول.

وملاحظة الأستاذ (فوزي العنتيل) منقولة، ومرحلة بالكامل من قاموس الفولكلور، وبدون إبداء ملاحظة على النص الذي رحلّه من أجل تكريسه تماماً. وأنا أعتقد بغير ما أشار له الأستاذ العنيل حيث لا يمكن أن تكون الوظيفة السحرية للرقص قاتلة للآفات وإنما وظيفتها – وهذا ما أكدته كل الدراسات – الحفاظ على الكروم من اللصوص الذين يأتون مداهمين إليها فجراً، للتمكن من رؤية والتقاط الناضج، كما أن هذه الرقصة مقترنة بزمن ووقت محدد،

* M.A. Marray - Ancient Ritual dances in the near Eeast [Folklore Journal - Vol. Lxvi 1955.

وليست مفتوحة على مدى أوسع. فالتعري، هو شكل طقسي/ سحري، له أكثر من وظيفة أهمها:

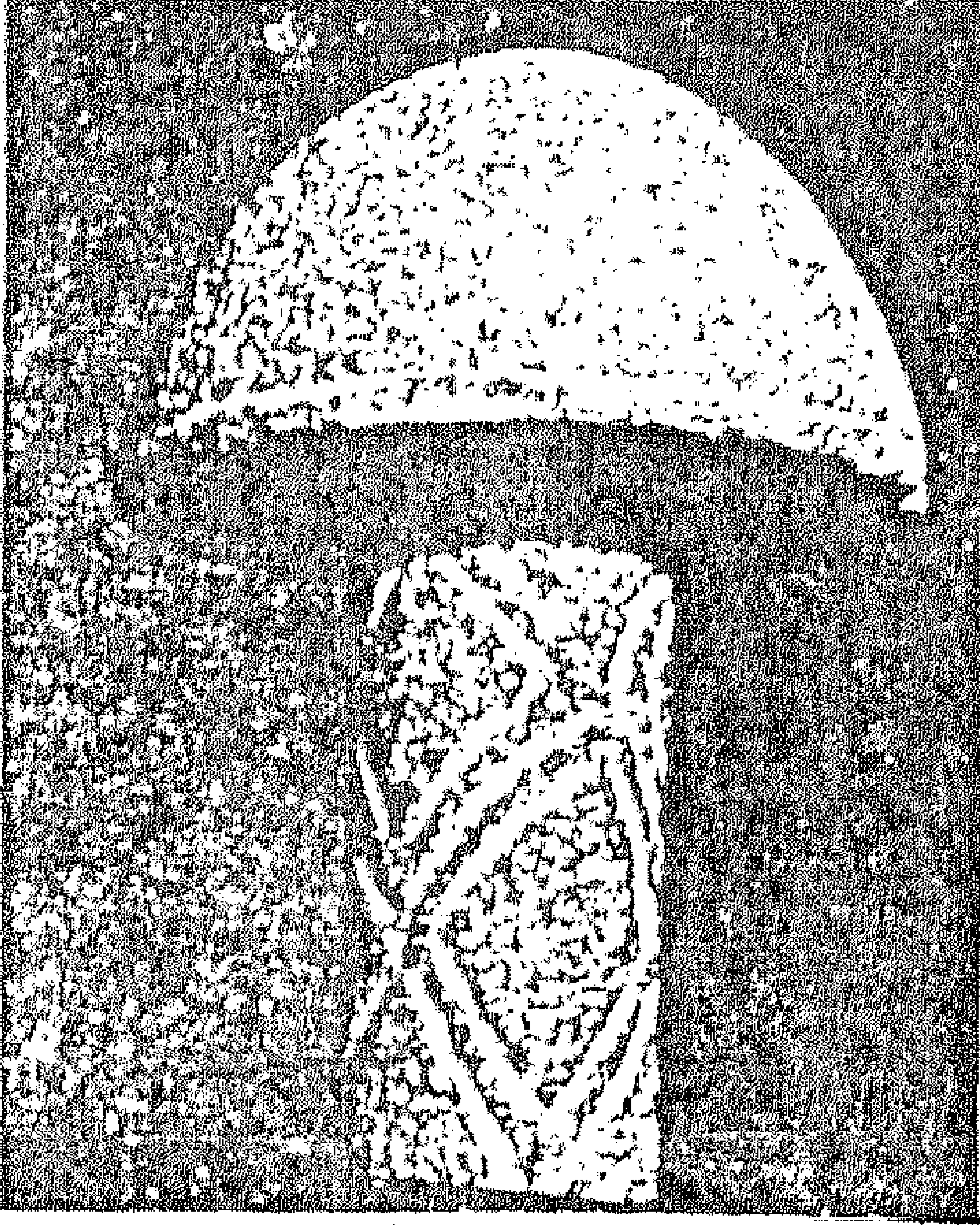
محاولة المرأة للتماهي مع الشجرة المثمرة والمعمرة، كي تحوز على تلك الصفة الخاصة، إضافة إلى وجود تشاكل بين المرأة والكروم، وهو تشاكل روحي/ ديني، لأن الكروم مساهمة في بعض الطقوس الدينية، وكذلك ما تسببه للرجل من صعود في الشهوية. وهذا هو السبب الذي دفع المرأة/ الأم الكبرى في الديانات السابقة لإكتشاف بعض النباتات المخدرة، وتناولتها أثناء طقوسها الدينية، وهي التي عرفت بوقت مبكر طريقة حفظها وتخميرها واسقاء الرجل منها.

ولذا أجد بأن طقس التعري وسط مزرعة الكروم، هو إستعادة لعتبة السلف الأنثوي ومعرفة النبات المخدر ومصدره وكيفية التعامل وإياه. لذا كان طقس المرأة العارية، تجسيد وتكملة لممارسات سحرية، ذات صلة بنظام الخصوبة في الحياة، وقد عرفته ديانات الشرق الأدنى القديم. ويبدو لي بأن الأستاذ فوزي العنتيل قد إقتنع بالرأي الذي ينقله، لأنه وجد له ما يطابقه في كتاب – الرقص المصري القديم – لأيرينا لكسوفا – والتي أشارت إلى أن ظاهرة العري لم تكن ظاهرة غريبة ومثيرة لدى المصريين القدماء، لأن الفتيات يقدمن رقصاتهن عاريات، أو مرتديات عباءات مفتوحة من أمام – حول القارب المقدس – أثناء إجراء المراسيم الدينية، وبمصاحبة الموسيقى، وكن يعملن بعريهن التام أو الجزئي على طرد الأرواح الشريرة.......وكان الملك أو من ينوب عنه مضطراً إلى ممارسة الرقص في أعياد الحصاد إكراماً للمعبود «مين» إله الخصب.

والعري في الشعائر السحرية والممارسات الرقصية، تعبير أنثوي/ وذكري من أجل التماهي مع الألوهة عبر تماثيلها الموجودة في المعابد والأماكن الدنيية، وتأكيداً على الخصوبة التي ينطوي عليها الجسد الأنثوي/ والذكري. وكلنا نعرف جيداً بأن الأمومة الكبرى، قدمت جسدها فضاءاً للخصوبة، عبر رموزه الحيّة والمؤثرة، مثل الصدر والبطن والتّبة والفخذين، كذلك الرجل، بوقفته عارياً ليكشف عن سلطته الشهوية، مرموزاً لها بالقضيب الذي عرفته كثيراً من ا لحضارات وصار معبوداً لها.

لذا فإن العري، هو وسيط مهم ومركزي في الطقوس المتصلة مع بعضها البعض، والتي لها حيوية تكريس المعتقد الخاص بنظام الخصوبة في الشرق. ولهذا اتسع العري، باعتباره وحدة مهمة، ساهمت بصياغة منظوم الخصوبة، وهذا ما كشفت عنه التماثيل الأيروتيكية للأم الكبرى في التاريخ.

وظل العري موجوداً في الكثير من العقائد ولفترة متأخرة في الجزيرة العربية - مثلاً - وهو قريب لنا ضمن قياسات الحضارة وحركتها، وطريقة انتقال الأسطورة وحصول المتغيرات في البنى، وسأشير إلى أسطورة



شكل ٣٨ نحت حجري يجسّد رؤية الإنسان القديم لنبات «الفطر المقدس».



شكل ٣٩ «عشتار ملكوم» الأم الأولى

* الازرقي/أخبار مكة/ تحقيق رشدي صالح ملحس/ دار الأندلس/ ص ٨٨

** الأزرقي/ أخبار مكة/ سبق ذكره ص ١٢٢.

آساف ونائلة والعري المرتبط وإياهما وقد أشار لها عدد من الإخباريين:

إن جرهماً* لما طغت في الحرم دخل رجل منهم وإمرأة يقال لهما أساف ونائلة البيت، ففجرا فيه فمسخهما الله تعالى حجرين، فأخرجا من الكعبة فنصبا على الصفا والمروة ليعتبرهما من رأهما وليزدجر الناس عن مثل ما ارتكبا فلم يزل أمرهما يدرس ويتقادم حتى صارا صنمين يعبدان.....ثم حولهما قصى بن كلاب بعد ذلك فوضعهما يذبح عندهما وجاه الكعبة عند موضع زمزم.

إذا حج الصيرورة**من غير الحمى رجلاً كان أو إمرأة لا يطوف بالبيت إلاّ عرياناً. الصرورة أول ما يطوف إلا أن يطوف في ثوب أحمسي، إما إعارة وإما إجارة، يقف أحدهم بباب المسجد فيقول: من يعير مصونا؟ من يعير ثوباً؟ فإن إعارة أحمس ثوباً أو إكراه طاف به. وإن لم يعره ألقى ثيابه بباب المسجد من خارج ثم دخل الطواف. وهو عريان. يبدأ بآساف فيستلمه، ثم يستلم الركن الأسود، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه فإذا ختم طوافه سبقاً، استلم الركن، استلم نائلة فيختم طوافه، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس.

تقدم لنا أخبار مكة للازرقي مداراً مهماً، سيساعدنا على تقشير هذه الأسطورة، والإمساك بعلاقات جديدة، والإعتماد عليها من أجل تكوين آلية مغايرة للقراءة الجديدة، وأول هذه العلاقات هي دخول آساف ونائلة إلى الكعبة وممارستها للإتصال الإدخالي ومن ثم مسخها اللّه إلى صنمين وظلا عاريين. ولأن يطوف الحجاج حولهما عراة أيضاً.

لقد تحقق الجنس وسط مكان مقدس، أضفى عليه التراتب الإتصالي والتواصلي قداسة مكرسة، ولولا هذه القداسة لما كان فضاءاً للإتصال الجنسي، وكأنه بذلك يستعيد عبر تلك الممارسة النموذج الأزلي لطقس الزواج المقدس والذي يمارس وسط المعبد، ولكن بدون مسخ لمن يمارسه. والسبب هو الإختلاف الحاصل في ثقافية المكان واتساعها ودخول ملامح جديدة، وخصائص، لم تكن من قبل، وأهم ما تثير هذه الأسطورة، هو طغيان هيمنة الرب واشتغال سلطته عبر المقدس المقترن به. لهذا نجد اللّه قد عاقبها بعنف فردي، إنه عنف اللّه المقدس، والذي يشف عن جمعية كامنة، مرتبطة بالذات الإلهية التي ارتضت الجماعة الذوبان وإياها.

وتشير هذه الأسطورة إلى التلازم التام بين الجنس والعنف وسنلاحظ أيضاً استمرار العنف المقدس مع هذه الأسطورة.

وبقاء الصنمين مكشوفين وعاريين عقوبة أخرى وهي شكل من أشكال الصدام الحاصل بين الطقس المنفذ «الإتصال وبين العقاب المقدس» وكان الرب ترك العاشقين/ الصنمين مكشوفين، علاقة واضحة ورادعة للآخرين للتعلم من تلك التجربة، وحصول الخشية من المكان وقداسته، ومن رب المكان. ووجودهما عند زمزم تأكيد لبقاء المنظومة الفكرية الخاصة بالخصوبة في الحياة. وظل طقس العري والطواف حول الحرم ملازماً إلى الصيرورة أثناء حجهم. ويتبادل الحمس ملابسهم مع الصرورة أثناء الطواف. وبقاء هذه الطقوس تأكيد على أهمية القائد المرتبطة بالخصب والحياة وانبعاثها لذا فإن العري الخاص بالمرأة أو الرجل وفي أي مكان ما تكون له وظيفة إخصابية، وهي الوظيفة المركزية والمكرسة وهذا لا يعني إلغاء الوظائف الأخرى أو تهميشها. وتكاد تتداخل الوظائف بعضها مع البعض الآخر.

إن إخراج آساف ونائلة من الحرم، عقوبة وتمثل أقسى أنواع العنف الرمزي، ولم يكتف الإله المقدس بهذه العقوبة، بل ألح أكثر وفي مرحلة قادمة، حيث، ترسخ في العقل الجمعي، دليلاً أكيداً وصارماً على هيمنة القدس وقوة قداسته التي ظلت ملاحقة لهما. وحسمت البنية الذهنية العربية/ قبل الإسلام اسطورتهما واقترنت مع نظام الخصوبة الذي عرفته الجزيرة العربية نظاماً حياً وقوياً أخذ من الآخر، مثلما أشار الأزرقي إلى أن الطواف حول الحرم، لا يكون بالثياب التي قارف بها الرجال والنساء ذنوبهم، وكان بعض نسائهم تتخذ سيوراً فيعلقها في حقوتها، وتستتر بها، أما الحمس/ قريش وأحلافها، هي الوحيدة التي تطوف بثيابها حول البيت، وكانوا إذا رأوا غيرهم يطوف بالبيت وعليه ثيابه ضرب وانتزعت منه.

وهناك رواية، منسوبة لإبن عباس، تقول أن قريشاً كانت تطوف بالبيت عراة، فقد ذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى: «وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتعدية» قال ابن عباس: كانت قريش تطوف عراة. يصفقون، ويصفرون، فكان ذلك عبادة في ظنهم [والمكاء: الصغير، والتصدية: التصفيق، قاله مجاهد والسدى وابن عمر رضي الله عنهم....ومهما يكن من أمر فإن ما ذكرناه يؤيد فكرة الرقص ودوافعها، ويؤيد أيضاً فكرة الجرد من الثياب. كما أن الرجال والنساء لم يكونوا يختلطون أثناء الرقص، وإن كان الألوسي في روح المعاني قد ذكر

* فوزي العنتيل/ الفولكلور ماهو؟/ دار المسيرة – بيروت، مكتبة مدبولي – القاهرة/ بدون تاريخ/ ص ١٥٨.
* د. قاسم البياتلي/ الوشاح الذهبي/ الرقص في المجتمع العربي الإسلامي/ دار الكنوز الأدبية/ بيروت/ ١٩٩٧/ ص ١٧.

بأن الرجال والنساء يطوفون مشبكين بين أصابعهم، يصغرون ويصفقون* .

لو أخذنا بعين الإعتبار ما يؤكده «كريمر» حول الديانة السومرية فسنجد الآلهة الأم، آلهة الخصب في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م، وكانت تدعى باسم عشتار: آلهة الحب والحرب ويشكل مختصر فإن حكايتها، كما يمكن أن نستخلصه من الأسطورة الخاصة بها، وهي أسطورة «نزول انانا إلى العالم السفلي»*من خلال مرورها في الأبواب السبعة، التي ترمز للعوالم الأرضية السبعة، حيث تنزع ثيابها بالتدريج وتخلع حليها أمام كل باب تصله لكي تجتازه وتدخل في مصاف الآلهة بعد عودتها من جديد لتجدد الحياة مع رجوعها، حياة الإنسان والحيوانات وتبث فيهم الحب والخصب. ومن المحتمل أنه في فرح تلك الأيام كانت تعج حياة الناس بالحب والنشوة إثارة الأحاسيس جراء ممارسة الجنس، وفي تلك الإحتفالات كانت الخادمات والمومسات المقدسات للمعبد يحتفلن بـ «انانا، عشتار» وكأنهن أخوات للآلهة المتعطشة للحب أو تحولت الأسطورة بعد ذلك إلى ممارسة طقسية على شكل احتفالات عامة، وأصبح الإحتفال عبارة عن تكرار منظم لتلك الأسطورة يشترك فيه كل الناس.

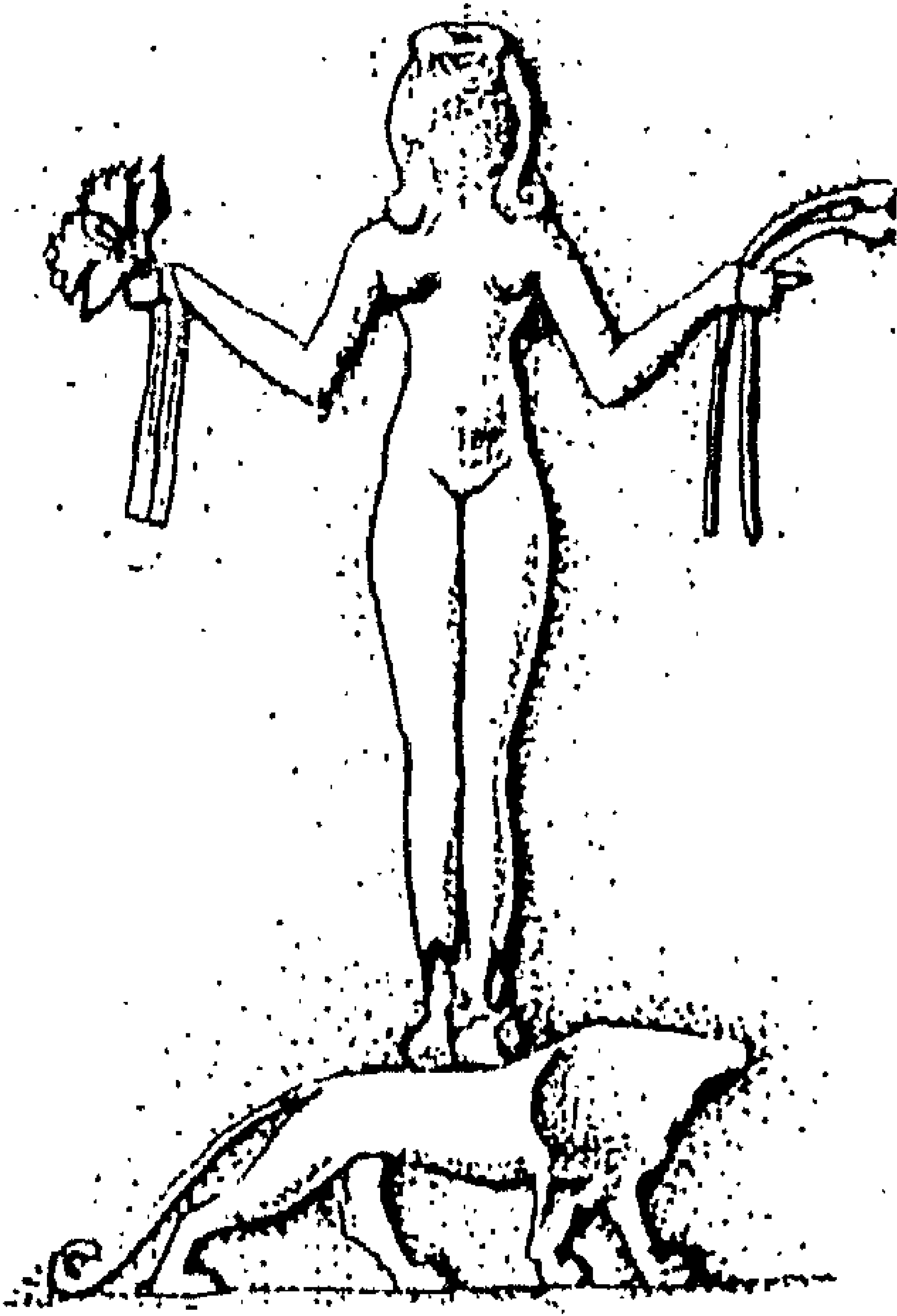
ولقد كانت الآلهة** تتزاوج مع الرجال والحيوانات وتنجب الأطفال منهم. وكان الإنسان في تلك الفترة يتحدث عن الآلهة وكأنها تعيش معه في الحياة، وكان يعتبر نفسه وأفعاله كإنعكاس لكينونة وأفعال الآلهة،



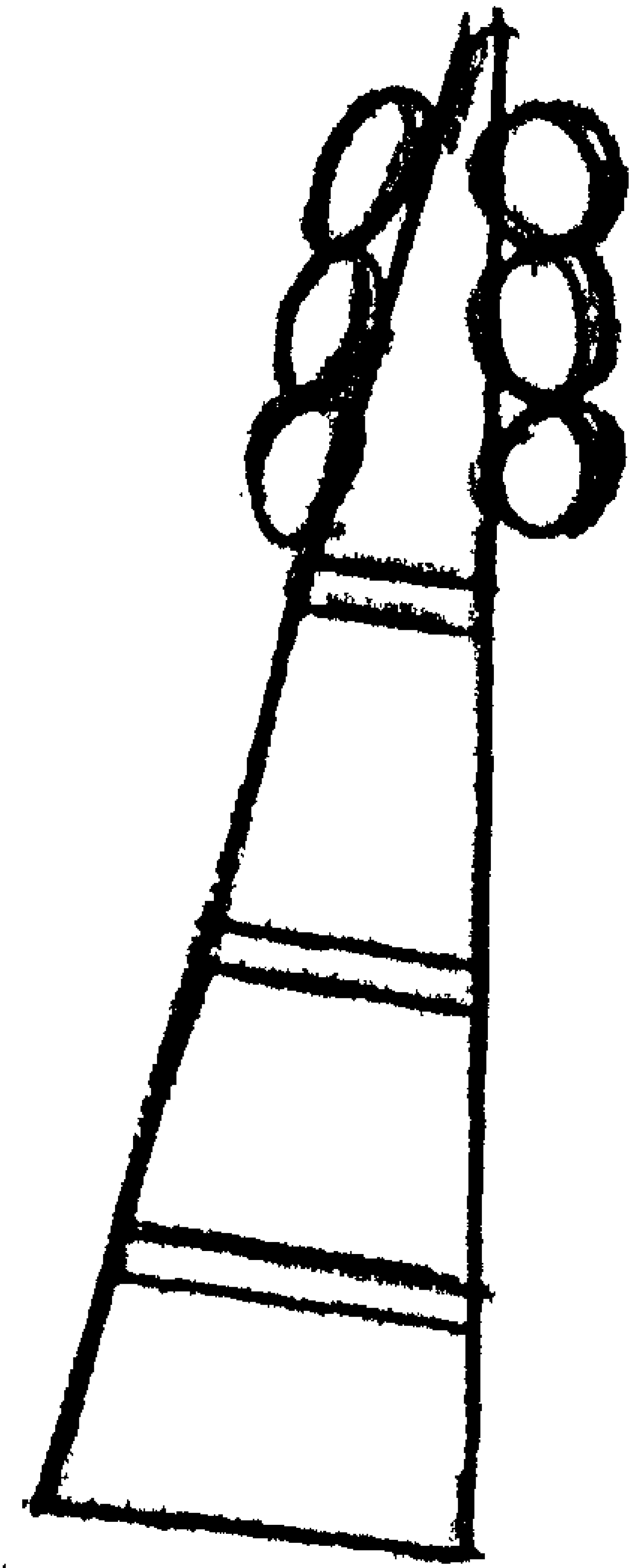
شكل ٤٠ فينوس وليندروف ١٥,٠٠٠ - ١٠,٠٠٠ ق.م

* د. قاسم البياتلي/ سبق ذكره...ص ١٨.

ولهذا فإن الحديث عن الآلهة بالنسبة له لا يختلف عن حديثه عن الحياة نفسها. ومن هنا أثر بعديد من الحضارات المتجاورة. وهذا يقود الدراسة لتأكيد العلاقة بين الرقص بوظائفه السحرية والإخصابية والوظائف الأخرى - لتأكيد علاقته مع المرأة والألوهة المؤنثة في التاريخ الخاص بديانات الشرق البشرية. لأنها - المرأة - رمز لنظام الخصوبة ولهذا التركيز حصل على المناطق المثيرة في جسدها كما في الشكل أدناه لأنها الوحيدة المعنية بالرقص كطقس قديم، بوظائفه التي أشرنا لها، وهي المعنية أيضاً لوحدها في الرقص الحديث، ويرتبط الرقص أصلاً بالجسد وهذا هو الراسب، الكامن، من بقايا الألوهة المؤنثة في الشرق وفي العراق القديم.



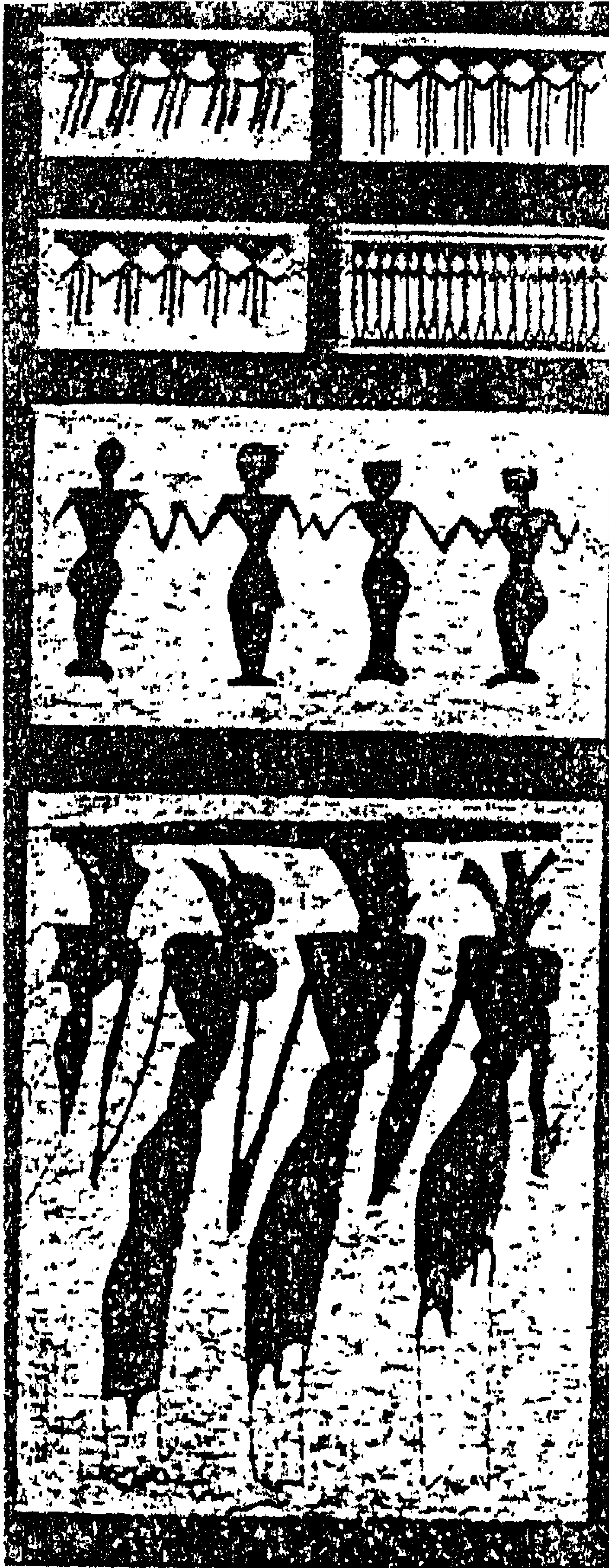
شكل ٤١ عشتار إلهة الحب والحرب



شكل ٤٢ رمز الآلهة عشتار ISTAR [٧]

ومن هنا يمكن أن تستنتج من أن الآلهة نفسها كانت تتميز بخصال من ولع وشغف الإنسان نفسه، ونرى ذلك بوضوح في العديد من الأناشيد والأساطير. ففي أحد الأناشيد الدينية التي خصصت للآلهة عشتار نرى أنها توصف على الشكل مفعمة بالإغراء والشهوة! شفاهها كالعسل، فمها كالحياة».

ويمكن ملاحظة التماثيل السابقة والتي ترجع للألف الثاني ق.م، أنه يمثل صورة الآلهة الأم، وبالإمكان ملاحظة العري والأهمية الممنوحة للجسد العاري، جسد أنثوي ممتلئ، مكتنز، ومثير. وهذا ما عرفته الحضارات القديمة، وخصوصاً في فترات تشكل دويلات المدن وازدهار النظم السياسية وأشار (د. قاسم البياتلي) إلى التأثير الواضح للطقوس الدينية والشعائر السحرية على الرقص وانعكاسها على كثير من العقائد التي لا تقدم منعزلة تماماً مع الرقص، وكان للجسد المكتنز وامتلاء البطن والكشف عن الصدر، تأثيرات لاحقة على طريقة الرقص، حيث ظلت البطن/ الصدر مكاناً مثيراً للرغبة والشهوية أثناء أداء الرقص، أي حصل ارتحال كامل للمناطق التي كانت مثيرة، ومكشوفة في تماثيل الآلوهة المؤنثة إلى الرقص الأنثوي المعاصر. ولم يستطع (د. قاسم البياتلي) الإشارة المؤكدة لوجود الرقص كطقس في ديانة العراق القديم، مع وجود كثير من المكتشفات الفنية تؤكده معرفة العراق القديم لفن الرقص، باعتباره طقساً، تداخل مع طقوس أخرى، لها صلة بنظام الخصوبة وكذلك الوظائف السحرية أيضاً وبالإمكان ملاحظة ذلك في الشكل ٤٣ .



شكل ٤٣ راقصات على فخار
سامراء وحسونة ٤٥٠٠ ق.م.

وقد قرأ (د. فوزي رشيد) مدلول هذه الصورة، وأصر على أنها رقصة سحرية تؤدى ضمن طقوس الإستسقاء.ولكن البنية الذهنية الأسطورية العراقية لم تعرف طقوس الإستسقاء إلا في فترة متأخرة جداً، وهناك نصوص عراقية أكدت بأن صلاة وطقوس الإستسقاء قد عرفت في القرن السادس ق.م.

وبالإمكان إستخلاص قراءة، تقرب مفهومنا إلى موضوعة الرقص وهي أن النفان الطرقي القديم، أنتج عدداً كبيراً من التماثيل الصغيرة، محاكياً فيها العديد من العقائد والطقوس مغلفة بما هو سائد دينيا، وهذا ما تكشفه الأشكال العديدة، والكثيرة للنساء اللاتي يقدمن رقصات، وتلك الأشكال والأجساد قد ميزت الفن العراقي الذي اقترن تماماً بالديانة لذا لا يمكن معرفة الفن العراقي القديم بمعزل عن الديانة السائدة، وبمعزل – أيضاً – عن نظام الألوهة ودورها في الحياة، لذا فإن [حسونه] يجسد بوضوح تام طقساً دينياً.

وإن كانت فنون المحاكات* تعكس جانباً بسيطاً ونتفاً متقطعة من الحياة وجانباً جزئياً من الرؤية، ومع ذلك يمكن أن تزودنا بعناصر عديدة تتشابك ما بينها ضمن البنية العامة المعقدة للطقس. وبما أن الفن التشكيلي البلاستيكي هو وحده الذي يمكن أن يعكس لنا [على المستوى البصري] صوراً من ذلك الواقع، فإننا سنركز حديثنا على بعض الصور بالدرجة الأولى، للوصول إلى تحليل بسيط كبنية تلك الصور التي تعكس لنا بعضاً من الحركات والوضعيات في ذلك الرقص. وسيكون إنتباهنا منصباً على بعض الصور من أجل إبراز تخطيط أولي لعناصر لها علاقة بملاحظتنا المطروحة في دراسة هذا الموضوع. ولكن بالرغم من ذلك فإننا نعي بأن الصور المنحوتة أو المرسومة لا يمكنها، في كل الأحوال، أن تعكس لنا طبيعة الرقص.

ولا تسمح لنا بالحديث عن تلك العناصر المهمة في هذا الفن، ألا وهي الحركات المركبة والعلامات الفضائية وعلاقة الموسيقى أو الغناء بالحركات وسيرورة الخط البنيوي العام للرقصات بالرغم من ذلك، فمن المهم أ ن نأخذ بعين الإعتبار العناصر المرئية التي تشكل بنية هذه الصور القليلة التي تعكس حركات الرقص، إغناء معرفتنا.

إن الأمثلة التي نجدها على السطوح الخارجية للأواني الفخارية وخصوصاً فخار سامراء، الألف الخامس ق.م تعكس لنا*صور متكررة للراقصين، وتكشف لنا عن الخطوط

* د. قاسم البياتلي/ سبق ذكره...ص ٢٦.
* د. قاسم البياتلي/ سبق ذكره...ص ٢٧.

الأساسية لحركات الرقص، ويمكن أن نقول دون حصر معاني هذه الصور أو تحميلها عناء جهد لا تتحمله، يمكن أن نقول أن ما يتعلق بالصور التي نراها في الجانب العلوي تتميز بما يلي:

إن الراقصات يمسكن بيد إحداهن الأخرى مع ثني الذراع قليلاً، أي وجود ارتفاع اليد بمستوى الكتف، بينما عكس الذراع يحاذي القفص الصدري من الجنب. الأرجل متلاصقة مع بعضها، الأقدام مفتوحة على شكل إنفراجي ومتلاصقة في كعبها. كافة الأشكال المصورة تتميز بأكتاف عريضة، الوسط - الخصر - ضيق، أرداف مدورة، شبيهة بتماثيل صورة الآلهة الأم. بينما نرى في مجموعة الأشكال المصورة التي تظهر في الأسفل خطوط محددة واضحة [أشبه بصورة خيال الظل] ونرى أيضاً الراقصات وهن يمسكن بيد إحداهن الأخرى، ولكن الأذرع ممتدة نحو الأرض. أكتاف عريضة وخصر ضيق وأطراف منحنية، ويظهر في الرأس نوع من الأشكال غير المتناسقة كغطاء للرأس أقنعة، وفي رأي «اندريه بارو» إن هذه الصور لها علاقة بطقوس الرقص المقدس: إيماءات وحركات مخصصة لغرض جلب سقوط المطر. وفي صورة أخرى نجد أجساد بشرية ترقص «في لوح طيني صغير يرجع إلى فترة ١٩٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م» حيث نرى صورة أمرأتين في حالة رقص طقوسي. ولكن أي طقس؟

إن المهم في* هذه الصورة هو ملاحظة الأشكال التي تبدو وكأنها في حالة تضاد ما بين الجزء العلوي والجزء السفلي للجسد «التفاتة» فالصدر والذراعين في حالة مواجهة أمامية، بينما الرأس «بشعره الملفوف ململم» والأرجل المنفرجة في وضعية جانبية «اليف» هل أن ذلك هو إحدى مميزات الفن البلاستيكي لبلاد العراق القديم أم هي حركة ووضعية للرقص؟

ونرى عكس أطراف اللوح، صور لحيوانات: إثنين منها جالسين في وضعية مقرفصة، كما لو أنها في حالة تأهب للحركة، بينما صورة الحيوان الثالث «إنسان مقنع» في وضعية وقوف على الأرجح مع ثني الركبة قليلاً «وهذا النوع من الثني يستخدم في حركة أساسية «كوضعية» في الرقص الشرقي عموماً، وخصوصاً في اليابان والهند من أجل الإمساك بالطاقة الجسدية والإنطلاقة بها «والجذع مائل نحو الأمام قليلاً وكأنه في حالة تأهب لفعل لينجز به ضربة بالعصى التي يمسك بها بكلتا يديه وفي مستوى الرقبة. وفي وسط اللوح نلاحظ أشكالاً على هيئة صورة أطفال «بشرية» وفي وضعية الجلوس على مقعد صغير مع انفراج الأرجل وتلاصق الأقدام، وهم يعزفون على آلة موسيقية.

---

* د. قاسم البياتلي/ سبق ذكره...ص ٢٩.



شكل ٤٤ راقصات على فخار سامراء وحسونه

ونحن نختلف مع قراءة (د. قاسم البياتلي) حول الشكل (   ) والإختلاف يتبدى في مجموعة من الملاحظات وأهمها:

* هذا الشكل لا يمت بصلة للفن العراقي القديم وإن أكتشف.

* لأن الفن العراقي وفي مراحله لم يعرف هكذا إهتمام بالجسد الأنثوي وتجسيد تفاصيله الدقيقة والإشارة لمواطن الإثارة في الجسدين، وهي إثارة عرفتها تماثيل الألوهة المؤنثة وما يميز هذا الشكل تميزاً مغايراً هو طول الجسدين ودقة تفاصيلهما ويبدو لي بأن هذه القطعة الأثارية نازحة إلى العراق ولم تكن من نتاجه الفني/ الديني وهي قريبة تماماً من الفن المصري القديم، واعتقد بأن هذه المؤثرات/ المصرية تبدت بوضوح في الأعمال الفنية في

حلف ومنها إلى منطقة حسونه. وما يؤكد هذه القراءة ويدعمها هو وجود الأشكال الحيوانية الثلاثة وهي مقنعة بأجساد القرود، وهي تشير إلى الإله بس، وهو إله يتخفى بجلد قرد، ويقدم هذا الإله مجموعة الطقوس والحركات الإحتفالية وتقدم في مسير إحتفال الزواج، مثلما تكون له وظيفة لمراقبة المرأة الحامل لحظة ولادتها. و نلاحظ بأن وظائفه لها علاقة بالخصوبة، إبتداء بالزواج ووصولاً إلى الإنجاب، أما الشكلين الموجودين في الوسط، فهما يقدمان فعالية بهلوانية، مضحكة وتصاحبها معزوفات موسيقية.

يعتبر الرقص فن أبدعته الجماعة وكرسته بواسطة طقوسه الخاصة كما أنه يمثل مداراً حيوياً من مدارات الحياة الإجتماعية/ الدينية/ الترفيهية، وجسد أرقى نشاطات المرأة بوظائفه المختلفة، تلك الوظائف المستمرة في عمق التاريخ والحضارة، حاز عبر المراحل الحضارية على وظائف جديدة، بعدما تشاكل وإياه الغناء السحري/ الديني/ الإجتماعي، وتحول إلى ملازم روحي للناس والجماعات، التي ابتكرت رقصاتها الخاصة، الوطنية والقومية، حتى صار واضحاً التفريق بين قبيلة وأخرى، وشعب وآخر من خلال طقوسه وفنونه. لذا بإمكان الدارس أن يؤسس قراءة خاصة لمعرفة تاريخ شعب من الشعوب، كذلك الظروف التي كان يعيشها والأنواء المصاحبة لكل طقس أو ممارسة واعتقدت الشعوب القديمة، بأن الرقص مقترن مع الحياة/ الخصوبة – وهذا ما تحدثنا عنه بإسهاب – ويتشاكل مع تحقق الوفرة والغزارة في الحياة والطبيعة، بسبب عناصره السحرية التي وثقت صلة الإنسان به. وأشار أدولف أورمان» المختص بالمصريات إلى إعتباد الفلاحين على ممارسة الرقص عند تقديم بواكير محصولهم إلى المعبود «مين» رب مدينة «قفط» كما تقدم الرقصات إحتفاء بمناسبات المرح والسعادة والتي تقام تقديساً للمعبودتين «حتمور» و «باستت» وهذا ما أكدته «ايرينا لكسوفا» في دراستها عن الرقص المصري.

وتتأكد وظائف الرقص مقترنة بالأم الكبرى والألوهة المؤنثة. ولذا كان الإستمرار على الرقص، يتبدى في زيادة المحاصيل والإنقطاع عنه، يعني نقصاً في الغلة*

ولازمت الرقص قيم سحرية/ دينية وخصوصاً في حضارات الشرق فقد ارتبط الرقص برغبة بعض القبائل الهندية في تحقق إستنزال للمطر وبوقت مبكر.

---

* A.H.Krappe - the Science of Folklore. London 1990.
* ch.S.Burne,the Hand Book of Folklore - London - 1914.
** G. Gorer - Africa Dances. Penguin B 1945.

ومثل الرقص – أيضاً مظهراً من مظاهر التطور الملحوظ لبعض الشعوب، وخصوصاً سكان استراليا الأصليين، حيث يكون الرقص لديهم وسيلة تعبيرية – واضحة – للإعلان عن كل ماهو جديد في حياتهم وسلوكهم، أي أنهم – يختزنون الكثير بواسطة الحركة والإيماء، وهم بذلك يساهمون بإغناء وتطوير ثقافتهم القومية ويؤسسون علامات جديدة للخطاب المشترك.

كانت قبائل الأمازون تغني كلمات لا تعني شيئاً بالنسبة إليهم، وإن كانت قد انتقلت إليهم مشافهة كعناصر كانت تصاحب أنماطاً من الرقص*وظل الرقص متنوعاً بوظائفه عند القبائل الإفريقية التي ترقص تعبيراً عن أفراحها وأحزانها، حبها، بغضها، وسعياً لتحقيق الوفرة واستمرار النماء والإنبعاث، أو التصدي للأوبئة والأمراض. وتعتقد هذه القبائل، بأن استمرار حياتها الأسرية المستقرة، شكل من أشكال البركات والنعّم ويجب عليه التحاور مع الرب عبر الشعائر السحرية، وتقدم هذه الممارسات بحيوية بالغة وطاقة خلاقة ومهارة. إنهم يفرحون ويغنون ويقدمون رقصاتهم في الغابات وحول الأشجار ليلاً، من أجل أن يزداد إثمارها وتكثر لهم البركات**

وعلى الرغم من أن الرقص يمثل تاريخاً للحضارة التي أبدعها شعبا من الشعوب، فإنه يعني صورتها الدينية وممارساتها الطقسية، وهو الراوي، عبر الحركة لذلك التاريخ والحافظ له من الإندثار، لأن الأجيال تسلِّم فنونها وشعائرها جيلاً بعد جيل، مؤكداً على ملامحه الوطنية وتقاليده في الحياة والملابس، والزواج، والوفاة وكل ماله علاقة بالتاريخ الخاص لثقافة قبيلة من القبائل وخطاب شعب من الشعوب.

وأشار الأستاذ (فوزي العنتيل) إلى أن حركات الجسم تمثل أحداث صيد الحيوانات الآبدة، أو تمثل حرث التربة، أو هدهدة الطفل كي ينام، ونظراً لما كانت تمتاز به من فطرية فإنها قد استطاعت أن تعبر عما يقوم به الراقص، كما أنها قد استطاعت كذلك أن تعطي فكرة عن الأحداث التي يراد وصفها. فرقص الصيد، يعبر عن مخاطرات الصيد، وعن التوفيق الذي صادفه الصياد، كما أن الرقص الأم يعبر عن قلق الأم من أجل طفلها.

وهناك رقصات – كما قلنا – ذات وظائف سحرية معينة ولذا نجد بعضها محاكياً ومقلِّداً لحركات الحيوانات. وارتباط الرقص بالسحر، لم يكن مقترناً بالقبائل البّرية التي ظلت لفترة طويلة تعيش على جمع القوت، وإنما ظل هذا الإرتباط – الرقص بالسحر – ممتداً في التاريخ،

وحتى مع التقدم الحضاري ولا زلنا إلى الآن نرى عدداً من الرقصات المصاحبة للطقوس الدينية ومميزة بخصائصها السحرية الملازمة لها. وهذا يؤكد لنا من أن السحر خطاب، متداخل مع الوحدات الدينية والخطابات الثقافية العامة السائدة، بحيث حصل ذوبان له وسط تلك الخطابات، وإن غابت عناصره الدالة عليه، لكن مدلولاته كامنة في الوعي أو اللاوعي المتعامل مع الخطابات الأخرى، لذا ليس سهلاً التخلص من السحر كتفاصيل يومية دقيقة، أو باعتباره نسقاً ثقافياً، ساهم بصياغة البنية الذهنية لشعب من الشعوب ولازلنا نرى كثيراً من الممارسات السحرية في الحياة الأسرية في العراق مثلاً وتلك الممارسات ذات صلة مباشرة بالحياة والخصب وطرد الأشباح. وتوجد عوائل ذات تكّون ثقافي ممتاز، تطغي السحرية على سلوكها اليومي وتعاملها مع الآخرين، ويلعب السحر – إلى الآن – دوراً في تحديد تصرفات الإنسان، ويعتمد عليه بالإستخارة قبل البدء بعمل ما.

وما زالت إلى الآن في الريف العراقي رقصات قصيرة، بمثابة وثبات خاطفة يؤديها رجل، ويفضل أن يكون بعيداً عن عائلة الميت يحمل سيفه أو خنجره، ويفتض مناحة النساء المستمرة لمدة ثلاثة أيام. وهذه الرقصة لا يؤديها إلاّ الرجل، والرجل الواحد فقط. وسحرية هذه الرقصة واضحة، وهي ملاحقة الموت أو شبحه المستقر وسط بيت الميت منذ أيام ثلاثة.

وللنساء رقصات خاصة، ذات طابع رثائي، يعتمد على حركات معينة، ذات إيقاع راقص وضرب على منطقة الصدر، وهو رقص يؤدي جميعاً، وهذا نمط عرفته مراثي النسوة في العراق بشكل عام. وأكثر هذه البكائيات الراقصة تميزاً، ما تقوم به النسوة في محافظة ميسان. حيث هناك خاصية غير موجودة في مدينة أخرى، وهي رقصة جمعية أيضاً، يطغى عليها إيقاع أكثر وضوحاً من إيقاع مراثي النسوة في المدن الأخرى.



شكل ٤٥ رقص شرقي

في عيد الميلاد مالا، وبعد جني محاصيل الجنائن القديمة، وبينما الجنائن الجديدة بانتظار إعدادها – فالميلامالا، هو عيد للرقص الذي يدوم طيلة قمر الميلامالا فقط، لكن يمكن تمديده إلى شهر قمري آخر أو حتى شهرين. أما في أوقات أخرى من السنة فلا يحدث رقص حقيقي.

يفتتح الميلامالا بممارسات طقسية محددة، بالقرع على الطبول والرقص. هذه الفترة السنوية للرقص الإحتفائي، يصاحبها – بالطبع – إزدياد في الحياة الجنسية. وتجري بعض الزيارات الطقسية، يقوم بها مجتمع قروي إلى مجتمع قروي آخر، ويتم الرد على هذه الزيارات المتعلقة بالهدايا والتعامل، كبيع وشراء الرقصات*

يأتي عيد الميلامالا عند سكان Kiriwina في تعاقب حتمي لنشاطات الحصاد التي تقدم طابعاً إحتفالياً واضحاً، مع أنها تفتقر إلى عنصر الإستمتاع الأساسي لديهم. فالمواطن يجد بهجة غامرة ومتعة في إحضار الموسم إلى البيت. فهو يعشق حديقته، ويتفاخر حقيقة بمحاصيلها. ويستغل مناسبات عديدة في إحضار الموسم إلى البيت، فهو يعشق حديقته ويتفاخر حقيقة بمحاصيله ويستغل مناسبات عديدة لعرضها قبل أن تؤخذ للتخزين في أبنية تقع ضمن مجال أكثر إتساعاً وبروزاً في القرية. وهكذا عندما تقتلع الـ Taitu «نوع من اليام» من الأرض، وهي المحصول الأكثر أهمية في الجزء من العالم، يتم تنظيفه من التراب.وتزال بواسطة أحد القواقع، الألياف التي تغطيه، ويكوم في أكوام مخروطية ضخمة وتشيد أكواخ أو حظائر خاصة في الحديقة لحماية المحصول من الشمس، ولتعرض تحتها، وفي المنتصف كومة مخروطية كبيرة، تمثل أفضل ما في المحصول، وتعرض حولها كومات عديدة أصغر منها حجماً لـ Taitu الأصغر، بالإضافة إلى عرض الدرنات التي ستسخدم للبذار.تمر أيام وأسابيع في تنظيف وتكويم هذه الدرنات فنياً في العمل، ينجزه صاحب المحصول وتساعده زوجته إن كان لديه زوجة، وتقوم جماعات من القرية بالسير بين الحدائق للتزاور وإبداء الإعجاب «باليام» ويكون الموضوع الرئيسي لأحاديثهم هو المقارنة بين المحاصيل والثناء عليها* .

قد يبقى محصول «اليام» على هذه الحالة لمدة إسبوعين في الحديقة، وبعدها ينقل إلى

---

* برونسلاف مالينوفسكي/ السحر والعلم والدين/ ت: محمد الجورا/ دتر الحورا للنشر والتوزيع/ اللاذقية/ ١٩٨٢/ ص ١٣٤.

* برونسلاف مالينوفسكي/ سبق ذكره ص ١٣٤.

القرية وتتم هذه الأعمال بطابع إحتفالي واضح، فحاملوا المحاصيل يزينون أنفسهم بأوراق النباتات، ويتطيبون بأعشاب عطره، ويطلون وجوههم، غير أنهم لا يرتدون كامل لباسهم الذي يرتدونه في فترة الرقص.

يعلو صوت المجموعة التي تنقل الدرنات عند وصولها إلى القرية بالإبتهالات، حيث يردد أحد الرجال كلمات يرددها الآخرون بصرخة حادة، وعادة ما يدخلون القرى راكضين، وبعدها تنشغل المجموعة بترتيب الدرنات في كومة مخروطية مماثلة تماماً للكومات في الحديقة. في النهاية يقام إحتفال آخر في القرية لمدة يوم.

بعد أن يتم تخزين الغلال في المخازن، يحدث توقف عن خدمة الحدائق، يملأ فترة التوقف هذه احتفال الميلامالا، يبدأ طقس التدشين لفترة الإحتفال كلها. ويعقب طقس التدشين مباشرة بداية قرع الطبول. فقبل انتهاء طقس التدشين – كمعظم الطقوس في Kiriwina – من توزيع الطعام، حيث يوضع الطعام المطهو – والطعام يطهى في هذا الطقس تحديداً – في كومات على أطباق خشبية أو ضمن سلال. ثم يأتي رجل وينادي إسماً بصوت عالٍ عند كل كومة. فتقوم الزوجة أو القريبة الأنثى للرجل المنادي بأخذ الطعام. وحمله إلى منزله للأكل، أي الأكل لا يتم بشكل جماعي، بل في الدائرة الأسرية فقط. لكن العامل الإحتفالي يكمن في الإستعدادات وفي جمع الطعام المعد، وفي جعله ملكية مشتركة للجميع «لأن على كل فرد أن يساهم بنصيب في كمية الطعام المعد، التي تقسم بشكل متساو بين جميع المشاركين «وفي نهاية في التوزيع العام. هذا التوزيع هو الطقس الإفتتاحي للميلامالا، ثم يلبس الناس عند العصر ويؤدون الرقصة الأولى*

بعد ذلك تتغير الحياة في القرية بشكل واضح. فلا يذهب الناس إلى الجنائن إطلاقاً، ولا يقومون بأي عمل منتظم، كصيد السمك، أو بناء القوارب. وتعج القرية صباحاً بحيوية جميع سكانها الذين كفوا عن الذهاب إلى العمل، وغالباً ما يكون معهم زائرون من قرى أخرى. لكن الإحتفالات الحقيقية تبدأ في أواخر النهار. بعد أن تنقضي ساعات الهاجرة من النهار، في حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر، يعتمر الناس أغطية رؤوس تتألف من عدد كبيرة من ريش طير الببغاء الأبيض، المثبت في الشعر الأسود الكث، الذي يبرز منه في جميع

---

* برونسلاف مالينوفسكي/ سبق ذكره ص ١٣٥.

** برونسلاف مالينوفسكي/ سبق ذكره ص ١٣٦.

الإتجاهات، كأشواك القنفذ، فتشكل حول الرأس هالة بيضاء، ويعطي آثار لون وصقل للريش الأبيض بواسطة ريشات حمراء كبيرة تعلو فوقه، يقابل كنوع غطاء الرأس الريش الرائع الموجود في مناطق عديدة أخرى من New Guinea هذا النوع التزيين فقط لدى سكان Kiriwina، والذي يتكرر بشكل ثابت عند جميع الأفراد وفي جميع أشكال الرقص. يترافق هذا الغطاء مع عرف الشنيم [طائر يشبه النعامة لكنه أصغر منها حجماً] المعلو بريش أحمر مثبت في سوار وسط الحزام، ليعطيا الشكل العام للراقص جمالاً آخاذاً. ويبدو اللباس منسجماً مع حركة الرقص الإيقاعية المتنظمة التي يقوم بها الراقص، فألوان الريش المخطط بالأحمر تنسجم مع لون جلد الراقص البني. وغطاء الرأس الأبيض مع شكله البني يبدو أنهما يتحولان إلى كل آخاذ منسجم، همجي لحد ما، لكنه ليس بشعاً، وهو يتحرك بشكل إيقاعي منسجم مع أغنية عذبة رتيبة، ومع صوت قرع الطبل العالي. ويستخدم ترس ملون في بعض الرقصات، وفي بعضها الآخر تمسك في الأيدي أعلام ورقصات النوع الثاني دائماً ذات إيقاع أبطأ بكثير وأغلب الرقصات دائرية، قارعوا الطبل والمغنون في المنتصف بينما يتحرك الراقصون حولهم في حلقة*

ويلاحظ من خلال الوصف الدقيق لحفلات الرقص، بأنها ذات وظيفة سحرية واضحة، ولها علاقة بالخصوبة في الحياة، ونظام الوفرة الزراعية المحتفل بواسطة الرقص والغناء وتقام هذه الإحتفاليات الراقصة في مكان تجمعات السكان والقبائل، و المشاركة فيها جماعية، وتؤكد عقائد التزيين أثناء الإحتفالات، بأنها تعني لديهم عيداً مهماً، يتبدى حتى في العلاقات الثنائية بين الرجل والمرأة، أي أنه مناسبة للحب والسعادة.

لا تقام الرقصات الطقسية أثناء الليل بالزينة الكاملة فعندما تغيب الشمس يتفرق الرجال ويخلفون ريشهم، وتتوقف الطبول فترة، فقد حان وقت تناول المواطنين لوجبتهم الأساسية في ذلك اليوم، وعندما يهبط الظلام يسمع قرع الطبول من جديد. ويدخل الراقصون إلى حلبة الرقص دون ارتداء الزينات، أحياناً يغنون أغنية رقص حقيقية. وتقرع الطبول إيقاعاً مناسباً، ومن ثم يؤدي الناس رقصة منتظمة، لكن عادة، يتوقف الغناء والرقص ليلاً ويستمر قرع الطبول فقط في جوف الليل. ويشارك الناس رجالاً ونساء وأطفالاً في السير حول المجموعة المركزية لقارعي الطبول مثنى، أو ثلاث. النسوة يمسكن الأطفال الصغار بأيديهن، أو على صدورهن. والشيوخ من النساء والرجال يمسكون بأيدي أحفادهم ويسيرون بدأب واحداً

تلو الآخر. مفتونين بإيقاع الضربات الطبلية الإيقاعية ويتابعون دورانهم في حلقة لأهدف لها ولا نهاية. يطلق الراقصون بين الحين والآخر صيحة «آ.....إي....بنبرة حادة في نهايتها. تتوقف الطبول في وقت واحد ويبدو إن الإحتفال الصاخب الذي لا يتعب قد تحرر من تعويدته للحظة دون أن يتفرق أحد أو يتوقف عن الحركة، وعلى الفور يغير قارعوا الطبول لحنهم لينسجم مع بهجة الراقصين، ويتيح للأطفال فرصة للعب حيث يدورون حول وعبر سلسلة الشباب المتحركين ببطء ويتيح للعجائز والنساء المشاركة، للإستمتاع بشكل فعال، على الأقل بتقليد الرقص، وهو مناسب في الوقت نفسه لعروض حب بين الشباب والشابات* ولأن احتفالات الرقص، لها علاقة وثيقة بالخصوبة والجنس/ المرأة واستمرار الحياة، نجد بأن سحرية الطقس، تأخذ شكلاً مكتملاً ومثيراً مع اكتمال القمر، لصلة ذلك بالنظام الزراعي/ الأنوثة حيث يتكرر الرقص يوماً بعد يوم، وليلة بعد ليلة، وبينما يكتمل القمر يشتد الطابع الإحتفالي، والحض المتكرر على الرقصات التزينية فتزداد فترانها، حيث يبدأ الرقص أبكر وتستمر طيلة الليل.

تتغير الحياة وتتصاعد في كل القرى، وتقوم مجموعات كبيرة من الشباب من كلا الجنسين بزيارة قرى مجاورة. تجلب هدايا الطعام من الأمكنة البعيدة، فعلى الطريق يمكن أن تقابل الناس المحملين بالموز، وجوز الهند، وعناقيد من الأربقة والقلقاس كما تقوم قرية بأكملها بزيارة قرية أخرى زيارة طقوسية تحت زعامة رئيس القبيلة. والزيارات هذه مرتبطة أحياناً بصفقات آنية. كشراء الرقصات التي تعتبر دائماً كإحتكارات تباع دائماً بأسعار لا بأس بها. وتعتبر صفقة كهذه جزءاً من تاريخ وطني يروي لسنين وأجيال لاحقة.*

وسنلاحظ علاقة الرقص بالجنس والإتصال الإدخالي من خلال بعض الشعائر والمارسات السحرية التي تقدم باعتبارها تمثيلاً رمزياً لعلاقة ثنائية بين الرجل والمرأة. فعندما يقارب عيد الميلامالا على النهاية، تحدث زيارات يومية، تقوم بها قرى بعيدة جداً. لهذه الزيارات في العصور القديمة طابع مركب. فقد كانت تدل على المودة والألفة دون شك وهذا هو المقصود، لكنها كانت تحمل في طياتها وراء الصداقة الرحمية شيئاً من الخطر فالمجموعات

---

* برونسلاف مالينوفسكي/ سبق ذكره ص ١٣٦.
* برونسلاف مالينوفسكي/ سبق ذكره ص ١٣٦.
* برونسلاف مالينوفسكي/ سبق ذكره ص ١٣٧.

الزائرة كانت مسلحة دائماً، وقد حدث في بعض المناسبات أن تحول الإحتفال إلى عرض طقسي للسلاح. وفي الحقيقة، فإن حمل السلاح لم يختف تماماً حتى الآن، لكنه في الوقت الحاضر ليس أكثر من أدوات زينة واستعراض، يبدو فيها تأثير الرجل الأبيض. فأعمدة السيوف المصنوعة بعضها من الخشب الثقيل الصلد المزين بالحفر والعكاكيز المزينة بالحفر، ورماح تزينية قصيرة.

إن السلاح لخدم هدفين، المباهاة والعمل، المباهاة لأن عرض الثروة والنفائس والمزخرفات الجميلة، هي إحدى الرغبات السائدة عند سكان Kiriwina حيث يقوم شاب باستعراض إحتفالي لهذا السيف المزين بالحفر الجميل، وكأنه يستخدم للقتال وقد أظهر أنفاً أبيض تماماً من وجه أسود، أو عيناً واحدة سوداء، وكثيراً ما كان يستخدم شاب هذا السلاح. وقد يلجأ إليه حتى الآن في حرارة إنفعال أبيض، كان يرغب بفتاة أو فتاة ترغب به، محاولته هذا مالم تتم بشكل ذكي، تصبح مكروهة. في الميلامالا تعتبر النساء والشك في ممارسات سحرية سببين رئسيين من أسباب المشاجرات والمنازعات التي ما كانت وما تزال تحدث بشكل أكبر في أيامنا هذه انسجاماً مع التسارع العام للحياة القبلية*

ويتعزز الإقتران بين إحتفالات عيد «الميلامالا» والقمر، حيث ينتهي الإحتفال تماماً في الليلة التي يكتمل فيها القمر ويصير بدراً ويظل الطبل مستخدماً ولا يتوقف أبداً، إلاّ أن الرقص يتوقف تماماً. ويحصل تمديد للميلامالا لفترة إضافية وسبب ذلك التمديد هو الرقص خاصة. ويكون للرقص مكان محدد وثابت كما ذكر ذلك (مالينوفسكي)، ويحوز على صفة القداسة، مثله مثل الأماكن المقدسة الأخرى، لأن حلبة الرقص هي مركز الحياة والعالم، عبر الإحتفال والطقوسية.

واشار (مالنيوفسكي) الى وجود نوعين من الرقص في Boiowa:

اولاً: الرقصات الدائرية، تقف فيها الاوركسترا «الطبول والمغنون» في الوسط ويدور الراقصون حولهم في مسار معاكس لعقارب الساعة ويقسم الراقصون الى: أ– bisila- رقصات ذات حركة بطيئة

ب – kitatuva، حركة سريعة تستطيع النسوه المشاركة في رقصات bisilaبشكل استثنائي جداً – ويلبس الراقصون تنورات مسائية.

* برونسلاف مالينوفسكي/ سبق ذكره ص ١٣٧.

ثانياً: kasawaga يرقص فيها ثلاثة رجال فقط، مقلدين حركات الحيوانات وهي رقصات مصاغة بتقليدية كبيرة وغير واقعيه. لايشكل الراقصون في هذا النوع شكلاً دائرياً ولاترافقها أغان ،تتألف الاوركسترا من خمس طبول



شكل ٤٦ رقصة ثنائية

واذا ما سلمنا بما قاله «يوربدسي» فإن الراقصين كانوا يصلون الى درجة من الانفعال يجعل في مقدورهم تمزيق الضحية الى أشلاء صغيرة من غير أن يعرفوا ماذا يفعلون.

وإذا كان العقل الحديث لا يستطيع أن يفهم فكرة عبادة الله في مثل هذه الإحتفالات المخمورة، لكن مادام الاغريق قد اعتبروها كذلك، فلربما يفسر لنا هذا، لماذا كان بين ألهتهم الأله «سيلينس» الذي يزعمون أنه كان دائماً مخموراً.

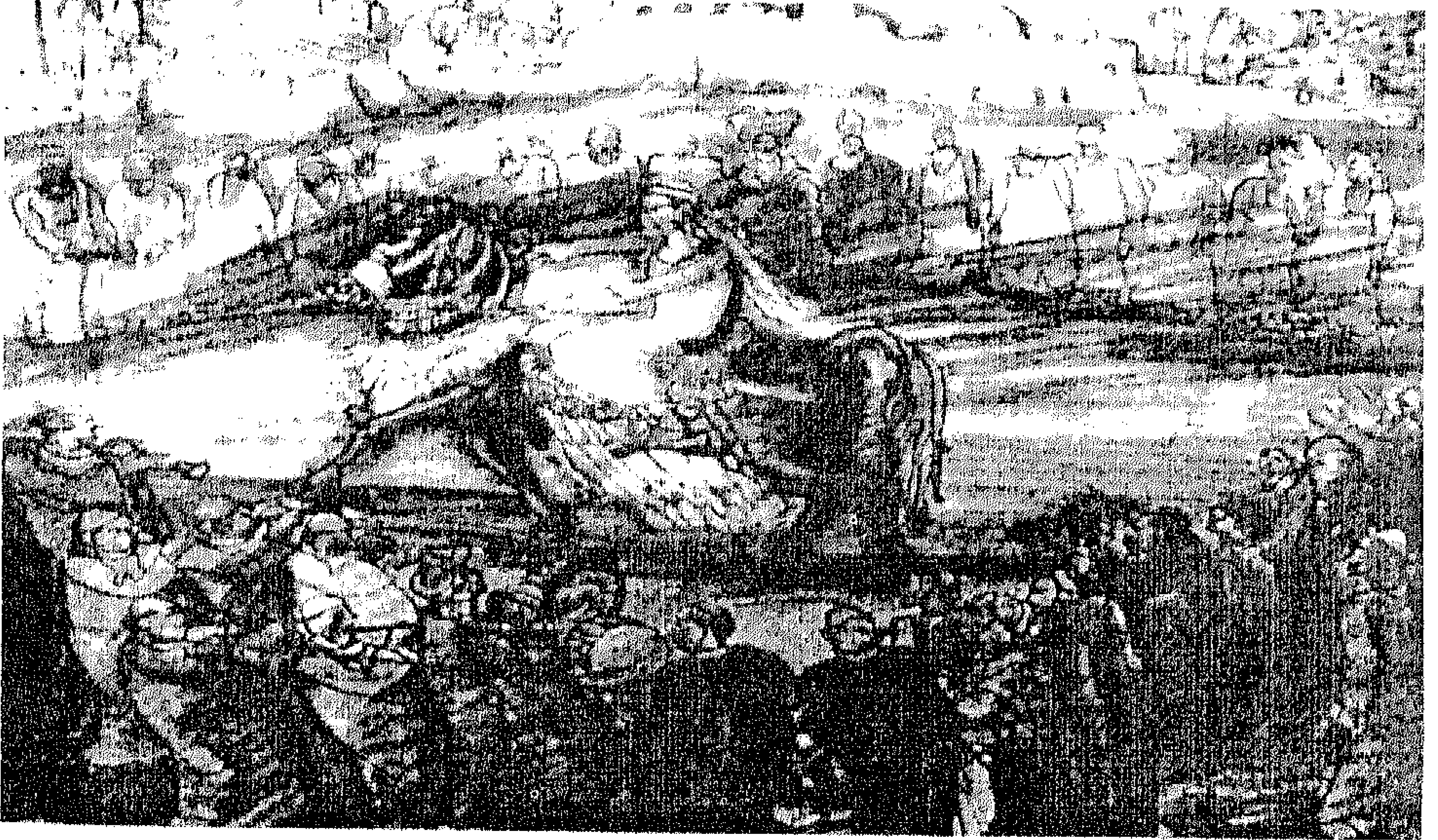
* فراس السوّاح/ لغزعتنا/ دار علاد الدين/ دمشق/١٩٨٦/ ص ٢٦٠

واشارت «مرجيت مري» الى نوع الرقصات الخاصة بالحرب حيث عرفت العديد من الشعوب رقصات خاصة بالحرب ووظائفها هي إيقاظ روح القتال لدى المحاربين، لكن لها غرضاً ثانياً وهو إنها تكون بمثابة تدريب عضلي، وانها تعلم الرجال ان يتحركوا في إنسجام وبالطبع فان هذا النوع من الرقص خاص بالرجال، غير أنه في فلسطين وفي الاردن نجد الذي يقود الرجال في هذه الرقصة هي المرأة.

انها تقف عى نشر حيث تواجه صفوف الرجال، وفي يدها سيف تلوح به فوق رأسها، وبهذه الطريقة تعطى إشارتها لهم بما ينبغي إن يفعلوه.

أما الرجال فإنهم ينتصبون ثم يخرون محركين أجسادهم على حين تظل أقدامهم ثابتة، وتستمر حركاتهم تلك يميناً ويساراً. ونجد ان هذه الرقصات تتكرر كثيراً في القرى الفلسطينية وغالباً ما نراها مرة في كل إسبوع. وفي بعض الأماكن تمارس كعرض من أجل السائحين. غير ان الغرض منها عادة هو أن يتمتع الراقصون أنفسهم بممارستها.

وان ما كانت تقوم به نساء العصر الحجري من طقوس سحرية* لمد الرجال بالقوة في حقول صيدهم، قد إستمر في عادات وطقوس القبائل البدائية، ففي جزيرة مدغشقر الى عهد ليس بالبعيد، كانت نساء القبيلة اذ توجه رجالهن الى الحرب، يبدأن رقصاً طقوسياً لايهدأ ليل نهار، إعتقاداً منهن ان مثل هذا الرقص الطقوسي يهب الرجال في ساح المعركة البأس والشجاعة.



شكل ٤٧رقصة الخيل لوحة للفنان راغي عياد

* فوزي العنتيل/ الفولكلور ما هو/ سبق ذكره ص ١٤٨.

أما نساء الهند – في المناسبات المشابهة– فكن يرقصن وفي أيدهن نصال مشحوذة يمثلن بها عملية قتال الاعداء، ويتجلي فعلهن السحري وفي أرض القتال حقيقة .

رقصات الخصب*

لاحظت «مارجريت مري» بأن بعض الحركات الراقصة التي يقوم بها الأطفال الأوربيون فيها وضوح لإستمرار رقصات الخصب القديمة وقد قدمت وصفاً لنوع من الرقص وقالت بأنه شائع حتى وقت قريب ورجحت أنه استمرار لتعويذه المطر. ويظهر فيه تقليد صوت العاصفة الرعدية، ويسمى أيضاً برقص «العاصفة» ويمسك فيه الرجال بأيدي بعضهم البعض، ويقفون في حلقة متجهين إلى الداخل، بينما نجد النساء متشابكي الأذرع في داخل الحلقة وهن متجهات إلى الخارج، وعند إعطاء إشارة البدء – يخبط كل واحد بقدمه، ثم يبدأ الرقص. وعندما يتحرك الذين في الخارج، فإن الفريق الآخر يقف مع دق الأقدام، ثم يصفق كل واحد بيديه ثلاث مرات، وأثناء ذلك يتبادل كل واحد مكانه مع شريكه، حتى نجد أن النساء قد أصبحن خارج الحلقة وهن متماسكات ومتجهات إلى الداخل، وبذلك يصبح الرجال في داخل الحلقة واذرعهم متشابكة، وتمضي الحركة هكذا.

وتجري كل ذلك بسرعة فائقة، وبذلك يصبح صوت إندفاع الأقدام وخشخشة الثياب محاكياً لصوت الريح، أما المطر فيمثله التصفيق، لكن حين يمثل دق الأقدام صوت الرعد. ولدينا – كذلك – وصف قدمه أحد الباحثين لهذا النوع من الرقصات الإفريقية التي رأها في ساحل العاج منذ زمن غير بعيد....كانت هناك فعلة كبرى للرقص في هذه الليلة، لأن أول أمطار الموسم قد أقبلت، وكانت العاصفة قد هبت قبل منتصف السحب. وكانت مجموعة الراقصين تتألف من حوالي العشرين من الشباب عرايا إلاّ من الضروري، وقد علقوا في أيديهم أجراساً.

بدأ الراقصون ملاصقين تقريباً للطبول، صانعين حلقة صغيرة، بينما كان بقية السكان يجلسون متحلقين في دائرة كبيرة، وهم يرددون نوعاً من الترانيم التي كان الراقصون يجيبون عليها.

ولم يمض قليل حتى أخذ المشاهدون ينضمون إلى حلقة الرقص شيئاً فشيئاً، تقدم الرجال المسنون أولاً، ثم النساء المسنات، ثم الشابات من النساء، وأخيراً الصبية الذين كانوا

يستطيعون المشي بصعوبة، غير أنهم كانوا قادرين على الرقص في إيقاع متقن.

وبعد فترة من الزمن أصبح الراقصون الأول أكثر إنتشاءاً، وأخذت خطواتهم تزداد تعقيداً. بعد ذلك عاد جماعة من المسنين، إلى وسط الحلقة. وهم يقبضون بأيديهم على الصنوج، وفي أفواههم «نايات» مختلفة الأحجام، ثم أخذوا يؤدون نوعاً من الرقص الصامت [المقلد] يمثل أوضاعاً معينة للطيور، والوحوش المختلفة، كان كل واحد منهم يمثل برقصاته حيواناً بعينه. كما كان صغيرة يمثل - بصورة ما - دلالة ملائمة لذلك الحيوان.

ويستمر الرقص وطقوسه حتى تأخذ العاصفة في الإقتراب وحينئذ يرتفع صياح الراقصين، وفجأة تسقط أول قطرة من المطر وعندئذ نجد الراقصين يخترقون الحلقة، ويعدون نحو الطبول، وبعد ذلك يعود الجميع إلى القرية. هذا فيما يختص برقص الحلقة، أما الرقصات الإحتفالية، أو رقصات المواكب من أجل زيادة الخصب فإنها على وجه التحقيق أحدث من رقصات الحلقة، لأننا نجد أن الأولى ما تزال باقية في أجزاء كثيرة من أوربا، وفي الشرق «حوض البحر المتوسط». في مصر القديمة، يبدو أن هذه المعرفة قد جاءت في بداية العصر البرونزي وطبقاً لأسطورة «ايزيس» نجد أنها هي التي علمتها للناس. وعلمتهم أيضاً أن يحملوا في مواكب الرقص رمزاً جنسياً.

وقد ظلت مواكب الرقص الجنسي تعيش في بريطانيا حتى وقت متأخر حوالي «١٢٨٢م» حيث كان القس يقود أفراد أبريشيته في الرقص وفي الرقص الحديث، كان هذا النوع يجري في مصر في الإحتفالات السنوية بمولد اكسيد البدوي في طنطا حيث تخرج «الغانيات» في موكب يطوف بشوارع المدينة وهن يحملن هذه الرموز.

٢ ـ الرقص الجنائزي*

لايمكن التأكد من الغرض الحقيقي للرقصات الجنائزية وقد نشأت هذه الرقصات مبكرة في مصر القديمة، ونجد أن هناك فرقاً بيّن الوضوح بين الرقصات التي يؤديها الرجال، والرقصات التي تؤديها النساء التي كانت دائماً جماعية. وكانت أيضاً أكثر مما تقتضيه طبيعة

* فوزي العنتيل/ سبق ذكره ص ١٥٠.
* فوزي العنتيل/ الفولكلور ما هو/ سبق ذكره ص ١٥٢.

الإستعراضات العضلية، كما كانت تتسم بكثرة حركات الأرجل.

ولدينا وصف لبعض الرقصات «الإحتفالية» التي كانت تؤدى أثناء التشييع الخاص بالجنازات، وجرت العادة على أن تحتل النساء أماكنهن في تلك المواكب، وهن متشحات بأردية طويلة يعزفن على الآلات الموسيقية، ويلوهن بأغصان الشجر في الهواء..أما الرجال فيسيرون بخطوات هادئة ينظم إيقاعها تصفيق النساء، وقد وضعوا على رؤوسهم قبعات من السمار وقد تسيطر على حركاتهم في بعض الأحيان حيوية دافقة، فيندفعون مسرعين إلى الأمام، وقد رفعوا أقدامهم إلى أعلى.

كان يقودهم في بعض المناظر قائد سريع الحركة يحمل معدات القرابين...ولا تزال تلك الرقصات تمارس في الجنازات في مصر وفيما يجاورها من دول. والهدف من هذا الرقص هو الرغبة في إدخال السرور على روح الميت وأيضاً طرد الأرواح الشريرة التي قد تؤذيه ولعل ما يؤيد ذلك أن المصريين كانوا يوصون دائماً بعدم إغفال هذا الرقص عند تشييع جنازاتهم، وكان المعبود «بس» هو المثل الذي اتخذه المصريون. ويظهر في الرسوم وهو يرقص ليحمي الشمس من أعدائها .

وينبغي أن نشير إلى أن الرقصات التي كانت تؤدى في فناء الكنيسة، والتي كانت شائعة في بعض الأوقات في بريطانيا، تعود في أصلها إلى الرقص الجنائزي. وهناك ما يوحي بأن هذه الرقصات، نشأت عن شعائر وثنية. أما سبب هذا الرقص فيرجع أنه خليط من المعتقدات مثل إيقاظ الموتى. وأيضاً قدرتهم على التناسخ. ويجب أن تذكر بأن الرقص في المقبرة كان – وما يزال – مهانة للميت.

٣ – رقص الضحية*

لقد بذلت جهود كبيرة لدراسة هذا النوع من الرقص سواء نشأته أو فيما بقيَمنه مستمرا في العاب الاطفال ، على انه مما تجب ملاحظته هو اننا دائماً نجد رقص الحلقة وكذلك نجد الضحية في الوسط. ومن أمثلة هذا النوع الرقص، رقصة المسيح مع حوارييه« مونتاجيو ويعقوب وابو كرافا» وتعبر الترميمة التي تؤدى في هذه عن آلام المسيح وصلبه .وفي هذه الرقصة أيضاً يتحلق الحواريون حوله راقصين، مجيبين في نهاية كل ترنيمة آمين،ويبدو أن

M.A.Murray - Ancient and Modern Ritual dances..

ذلك كان أحد الشعائر المقدسة للمسيحيين الأوائل، ومع أن أقدم تسجيل يرجع تاريخ تدوينه الى القرن الخامس فإن الترنيمة المقتبسة يعود تاريخها الى القرن الثاني، وفي هذا النوع من الرقص نجد أن الراقصين جميعهم من الرجال.

الـرقـصـات الـديـنيـة*

قلنا سابقاً، بأن للرقص وظائف دينية وغير دينية. ولكن ما يهم هو النمط الأول والذي يؤدي لباعث ديني جمعي/ تواتري، ويمثل شكلاً من أشكال العبادة وطقوس التدين، ويؤدي هذا الرقص غاية العابد القصوى في إقامة إتصال مع المعبود كي يحقق مرتبة التجلي في الإتصال الإلهي عن طريق الوجد الروحي، ويتسنى بلوغ هذه الحالة بعدة طرق، وكان يتم في الأزمنة الغابرة بواسطة الرقص المصاحب مع الإيقاع المستفز للجسد الساكن والمتغير شيئاً فشيئاً، حتى يدخل حلقة التجلي الروحي والوجد الشعوري. وأي إنسان قدر له أن يشترك في بعض الرقصات الحديثة التي تكون فيها الخطوة الأساسية فسوف يدرك وقع مثل هذه الحركة، فالإيقاع المثير للموسيقى - خاصة عندما لايكون اللحن مسموعاً، بل يكون التأكيد للإيقاع فقط - ثم الإندفاع الرقيق خلال الهواء، ودنو الراقصين أثناء حركتهم مدفوعين بحالة من التجلي الروحي. وكان الرقص جزءاً من الخدمة الدينية مثلما كان في الحضارات الأخرى والديانات المجاورة.

لقد جاء في تعاليم الحكيم آني:

الغناء والرقص والبخور هي وجبات الآله.

وتقبل العبادة هي من حقوقه

ولإقتران طقوس الرقص بالألوهة الأنثوية، فإنه واقع - لا محال - تحت تأثير جمالية القمر وسحره المسائي وما يوحي به للعشاق والمأخوذين بطاقة الأنوثة الكامنة في الجسد الخلاق لذا تدعو حكمة القمر* إلى اللعب الحر، إلى الرقص الذي يجعل الجسد موضوعاً

ه.ج.روز/ الديانة اليونانية القديمة/ ت: رمزي عبده جرجس/ مراجعة/ د. محمد سليم سالم/ دار الهنا/ القاهرة/ بدون تاريخ/ ص ١١١.

* فراس السوّاح/ لغز عشتار/ دار علاء الدين/ دمشق/ ١٩٩٦/ ص ١٥٣.

** فراس السوّاح/ لغز عشتار/ سبق ذكره ص ٣٦١

لنفسه، ويعكس طاقته نحو نفسها، محولاً الحركة المادية إلى نشوة روحية ووجد صوفي.

فالإنسان في الديانة العشتارية لا يعرف الصلاة بل يعرف الرقص، وفي المناسبات الداعية للصلاة في الديانة الشمسية، نجد الإنسان العشتاري يرقص وهو في رقصه لا يعبد الخطأ بعيداً منفصلاً، بل يعيش آلهه ويتلمسه في أعماق نفسه، وفي قمة النشوة، عندما يتحقق للراقص الإنفصال التام عن مبدأ الواقع، ويشعر، أن حركته تتلاشى عند نقطة ثابتة في مركز ذاته، يتوقف الزمن في ومضة عند شاطئ الأبدية.

وتجري في إحتفالات الربيع الخاصة بسيبل وآتيس**وخصوصاً في اليوم الثالث من هذا العيد، ويدعى يوم الدم – حيث يبدأ كبير الكهنة بالطقوس الدامية فيجرح ذراعه ويخرج منها الدم كالنافورة قرباناً للآلهة ويأخذ العازفون بعزف الموسيقى المجنونة بواسطة الأبواق والمزامير والصنوج والطبول ويروح بقية الكهنة في رقص عنيف وحركات هائجة على إيقاع الموسيقى إلى أن تستبد بهم النشوة الدينية الجامحة فيأخذون بتجريح أنفسهم بالآلات الحادة فتبعث منها الدماء وتغطي المذبح والغصن المقدس، وأن توقيت هذه الإحتفالات بقيامة آتيس يقارب توقيت الإحتفالات المسيحية بالجمعة الحزينة يوم موت السيد المسيح ويوم الفصح حيث قام من بين الأموات.

وفي عيد الآلهة «أرتيمس» كانت الراقصات فتيات*صغيرات يناهزن من العمر عشر سنوات، يرتدين ثياباً مصبوغة بالزعفران.وهذا اللون هو اللون المعهود للملابس الرسمية للفتيات والنساء.

أما في عيد ولادة أثينا، يحتفل تكريماً لها وكان الإحتفال يقام كل أربعة سنوات، وهو عيد يتميز بالبهجة والروعة. وكان العيد يستهل بالغناء والرقص فوق تل أثينا المقدس – الاكروبوليس –

ويرتبط الرقص إرتباطاً قوياً مع الموسيقى والغناء. وكانت الحركات والدبكات والضرب والتصفيق بديل للإيقاع الموسيقي، حيث كانت الجماعات تعتمد على هذه الحركات كأصوات مصاحبة للرقص السحري/ الديني/ أو الإحتفالي. ولعبت الموسيقى والتوقيع دوراً في الرقص الوجدي، وله الفضل بتصعيد الإنجذاب الروحي، والإقتراب من الشفافية والدنو من المطلق،

R. Garfield Evans, the Swinging Dervishea. Chambers, Journal, 1951.

* فراس السوّاح/ لغز عشتار/ دار علاء الدين/ دمشق/ ١٩٩٦/ ص ٢٥٤.



شكل ٤٨ رقص جماعي

حتى تتبدى هذه الصفات بالحركة والذوبان الروحي والمواجد الطاغية والطافية على الوجه والحركات، وهذا يعني بأن العلاقة بين العابد والمعبود توثقت أكثر والمسافة قد تقلصت، «إنه ليس في حضرة الإله فحسب، بل إن الإله قد حلَّ في بدنه فعلاً، إنه قد صار متحداً مع الإله»

ويعتبر تمايل الرأس جزءاً من الشعائر المشتركة عند الدراويش، وعندما يتم بلوغ حالة الوجد الضرورية، نجد أن الدرويش يعلن عن هذه الحالة: «انا اللّه. لاشيء في الفردوس غير اللّه».

أنا من أهوى ومن أهوى أنا*

نحن روحان حللنا بدناً

فإذا أبصرتني أبصرته

وإذا أبصرته أبصرتنا

ومع هؤلاء الدراويش قد ابتدعوا طريقة تفوق الرقص - كما قال العنتيل - في سرعة بلوغ حالة «الوجد» فأن الرقص كان أكثر الأساليب شيوعاً في الأزمنة القديمة. ومهما يكن من أمر فأن الإغريق القدامى، قد اتخذوا من الشراب القوي عاملاً مساعداً للرقص.

* فراس السوّاح/ لغز عشتار/ سبق ذكره ص ٢٥٥.

لقد أعطت عشتار أول ما أعطت سر المخدر إلى المرأة. فالمرأة التي اكتشفت كل أسرار مملكة النبات، فصنعت الغذاء واستحضرت الدواء واستخلصت السموم، قد اكتشفت أيضاً نباتات المخدر.....ومنذ ذلك الوقت استمر تناول المخدرات باعتباره طقساً أساسياً من طقوس ديانات الخصب في الشرق الأدنى القديم وثقافات المتوسط. ففي سومر، كان كهنة ديانة الخصب، يبحثون عن أنواع معينة من الفطر المخدر الذي اعتبر أنباً للسماء وذلك بسبب نموه السريع تحت جنح الليل بعد المطر المصحوب بالرعد وبالبرق.



شكل ٤٩ الإلهة الأم الكنعانية

وإلى جانب المواد المخدرة لعب الخمر دوراً كبيراً في طقوس واحتفالات الديانات العشتارية، وكانت إنانا «السومرية» تدعى [الأم النورانية إلهة الخمر] وقد بلغت طقوس* السكرة العشتارية قمتها في عبادات ديونيسوس، إله الخمر في العالم الكلاسيكي. وبقيٍّ إسمه إلى يومنا هذا علماً لإتجاه السكرة في مقابل الصحو، كتيارين موجهين لسلوك الإنسان ونتاجاته.



الرقص في التوراة

«ورأى الشعب أن موسى قد أبطأ في النزول من الجبل فاجتمع الشعب على هرون وقالوا له قم فاصنع لنا آلهة تسير أمامنا فإن ذلك الرجل موسى الذي أخرجنا من أرض مصر لا تعلم ماذا أصابه. فقال لهم هرون انزعوا شفوف الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وأتوني بها. فنزع جميع الشعب شنوف الذهب التي في آذانهم وأتوا بها هرون. فأخذها من أيديهم وصورها في قالب وصنعها عجلاً مسبوكاً فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أخرجتك من أرض مصر. فلما رأى ذلك هرون بنى أمامه مذبحاً ونادى هرون وقال غداً عيد للرب. فبكروا في الغد وأصعدوا محرقات وقربوا ذبائح سلامة وجلس الشعب يأكلون ويشربون ثم قاموا يلعبون. فقال الرب لموسى هلم إنزل فقد فسد شعبك الذي أخرجته من أرض مصر»

سفر الخروج: ٣٢: ١ – ٨

«وسمع يشوع صوت الشعب في جلبتهم فقال لموسى صوت حرب في المحلة. فقال ليس ذلك صياح ظفر ولا صياح هزيمة بل صوت غناء أنا سامع. فلما دنا من المحلة رأى العجل والرقص فاتقد غضب موسى فرمى باللوحين من يديه وكسرهما في أسفل الجبل. ثم أخذ العجل الذي صنعوه فأحرقه بالنار وسحقه حتى صار ناعماً وذراه على وجه الماء واسقى بني

إسرائيل. وقال موسى لهرون ما صنع بك هؤلاء الشعب حتى جلبت عليهم خطيئة عظيمة. قال هرون لا يضطرم غضب سيدي أنت عارف بالشعب أنهم أشرار. فقالوا اصنع لنا آلهة تسير أمامنا فإن ذلك الرجل موسى الذي أخرجنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقلت لهم من له ذهب فاندعوه وأتوني به فطرحته في النار فخرج هذا العجل»

سفر الخروج: ٣٢: ١ – ٨

إنها أول إشارة في التوراة للرقص، وهو – كما واضح – رقص ديني، وبالإمكان إعتباره طقساً سحرياً للتعلق بالبديل.طقس التقرب إلى العجل/ المعبود، الذي عرفوه في مصر وتعبدوا له، وأدركوا عناصره الدينية بشكل جيد، حتى هرون عرف مايعنيه العجل بالنسبة للعبران، ولهذا صاغه ذهباً. ويكشف هذا النص بجلاء الإضطراب والإرتباك الذي أصاب «العبران» بعد غياب موسى فوق الجبل، ولأنه غاب طويلاً فلم يكن أمامهم إلاّ التوجه إلى هرون. أي أن الإنتفاضة الحاصلة شعبية، عامة، بحيث قدم الكثير منهم ذهباً من أجل نجاح إنتفاضتهم الصحراوية. ويقدم لنا هذا النص الخلخلة التي أصابت هرون أيضاً، الذي أسرع لعمل العجل الذهبي، وكان متكافلاً معهم، ومتضامناً في ضرورة وجود إله شاخص، يكون أمامهم في الحركة والسير لأنهم لم يألفوا وجود «يهوه» غائباً، له علاقة مع موسى فقط. ويبدو بأن موسى أخذ يشوع معه، عندما استلم اللوحين الخاصين بالوصايا. لأن الذي سمع صوت الشعب، هو يشوع وليس موسى ولهذا اعتقد بوقوع حرب بين القبائل العبرانية التي دب الخلاف بينها فقال ليس ذلك صياح ضفر ولا صياح هزيمة بل صوت غناء أنا سامع «ويتبدى ذكاء يشوع من الجواب الغائم، والذي قصد فيه بقاء واستمرار المعارك والصراعات بين القبائل/ والأسباط أثناء خروجهم لأن مرحلة الشتات، لعبت دوراً في نشوء طبقات وهي معروفة، خاضت كثيراً من الصراعات، وحتى الدموية، وكان الفقراء والمفقرين. وجواب موسى، يضيء لنا المحيط العام الذي يعانيه قائد العبران في علاقته المستمرة مع الأقوام التي تجاور معها، وحصول حروب بين الطرفين، حيث كان مهزوماً باستمرار، لذا لم يفكر بأن وجودهم كان بعيداً عن غيرهم من الأقوام ولا يمكن أن تكون الضوضاء صادرة عن أقوامه. وكان استغرابه عظيماً، بعدما أخبره يشوع بأن ما يسمع هو غناء ورقص ومثلّ هذا تحدياً قوياً للقائد موسى، من حيث حجم الرفض والتمرد، واتساع ذلك ليشمل هرون أيضاً. وهذا يضيء لنا الحالة الإجتماعية/ الإقتصادية/ النفسية التي كان فيها العبران، لما اضطر للإنتفاض وضحوا – أيضاً – بذهبهم من أجل معبودهم الذي عرفوه في مصر وظل في ذاكرتهم الفردية/ والجمعية.

مما يؤكد هيمنة هذا المعبود وصلته المقدسة معهم حتى هرون، لم يفكر بنموذج إلهي غير العجل، وهي كثيرة في مصر إلاّ أن العجل أكثرها قرباً مع الناس، وأوثقهم ارتباطاً مع الخصوبة والقوة.

وتعتبر الرقصة حول العجل من أقدم رقصات التعبد المدونة وأشار الأستاذ (فوزي العنتيل) بأن العجل مصنوع من رقائق الذهب، لأنه كان صغيراً ووضع على قاعدة مدورة وصغيرة وثارت ثائرة موسى في اللحظة التي رأى فيها العبران عراة وهم يرقصون فرحاً بالإله الجديد، وهزءاً من مضطهديهم، الطبقة الأرستقراطية اليهودية/ والتي يقودها موسى ممثلاً لها باللاويين.

تكمن الخطورة في الرقص حول العجل الذهبي لأنه يمثل واحدة من أخطر التمردات التي شهدها الخروج العبراني، مع تمردهم على يوم إستراحة الرب/ السبت. وتجسد تلك التحولات الرافضة والمعارضة، نشوء، أو صعود التردد الذي كثيراً ما عبروا عنه، بعد خروجهم. وتزامن – أيضاً – مع يوم العهد الذي عقده الإله يهوه مع موسى، عندما سلمه لوحي الشهادة، وكان الإله اليهودي، يريد أن يؤكد للعبران نواياه الحسنة وعلاقته الطيبة وإياهم، لذا اعتبرت بعض الآراء الكهنوية استلام موسى إلى لوحيّ الشهادة، تعبيراً عن أو دليلاً لأمانة يهوه في صلته مع شعبه. لكن العبران خذلوه ثانية، ومرة جديدة، لأنهم صنعوا إلهاً ذهبياً وسار أمامهم مشخصاً مثلما كانت لهم من آلهة في مصر. آلهة يتحكم بها الإنسان، ويأخذها معه إلى حيث ذهب أو اتجه. ليتخلص من وصاياه الصعبة، والمقيدة لحركتهم.

«وكان إذا ارتفع الغمام عن المسكن يرتحل بنو إسرائيل في جميع مراحلهم. وإذا لم يرتفع لم يرتحلوا إلى يوم إرتفاعه. لأن غمام الرب كان على المسكن نهاراً وكانت النار في الغمام ليلاً على مشهد جميع آل إسرائيل في جميع مراحلهم».

سفر الخروج: ٤٠: ٣٦ – ٣٨

ولخطورة الفعل الذي قام به العبران بقيادة هرون، اعتبرت التوراة تلك الإنتفاضة خطيئة أصلية وكثيراً ما تكررت الإشارة لها.

«وقال الرب لموسى قد رأيت هؤلاء الشعب فإذا هم شعب قساة الرقاب. والآن دعني يضطرم غضبي عليهم فإنهم واجعلك أنت أمة عظيمة.

سفر الخروج: ٣٢: ٩ – ١١

وكانت لتلك الفعلة المغايرة والرافضة لما هو سائد تأثيرها الكبير على العلاقة التي بين الإله يهوه وشعب العبران، ولم يجد وسيلة له للتعبير عن فعلتهم إلى الإبادة والإفناء.

«ولما رأى موسى الشعب أنهم عراة لأن هرون كان قد عراهم أمام أعدائهم لأجل ما هو عاد نجاسة. وقف موسى على باب المحلة وقال من هو للرب فليقبل إليّ. فاجتمع إليه جميع بني لاوي. فقل لهم كذا قال الرب إله إسرائيل ليتقلد كل واحد سيف واذهبوا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة وليقتل كل واحد أخاه وصاحبه وقريبه. فصنع بنولاوي كما أمر موسى فسقط من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة اللاف رجل. وقال موسى كرسوا اليوم أيديكم للرب كل واحد حتى بإبنه وأخيه فتعطوا اليوم بركة. ولما كان الغد قال موسى للشعب قد خطئتم خطيئة عظيمة والآن أصعد إلى ربي لعلي أكفر خطيئتكم. ورجع موسى إلى الرب وقال يارب قد خطيء هؤلاء الشعب خطيئة عظيمة وصنعوا لهم آلهة من ذهب. والآن إن غفرت خطيئتهم وإلا فأمحني من كتابك الذي كتبت. فقال الرب لموسى الذي خطئ إليّ إياه أمحو من كتابي. والآن إمض وقد الشعب إلى حيث قلت لك هو ذا ملاكي يسير أمامك وفي يوم إفتقادي أفتقدهم بذنبهم. وضرب الرب الشعب من أجل أنهم عبدوا العجل الذي صنعه هرون»

سفر الخروج: ٣٢: ٢٥ – ٣٥

تتبدى شراسة الإله اليهودي من النص، وكان الفقراء هم الذين اقترحوا الإنتفاضة التي عزلتهم عن الإله وقادوها في آن. ولذا وقفت الإبادة عليهم وظل هرون في معزل عنها.

ويعاد النص التوراتي الإشارة لذلك في سفر التثنية: «وقال لي الرب قم فانزل سريعاً من هـهنا لأنه قد فسد شعبك الذي أخرجتهم من مصر زاغوا سريعاً عن الطريق التي سننتها لهم وصنعوا لهم تمثالاً مسبوكاً»

سفرالتثنية: ٩: ١٢ – ١٣

واتهم الإله اليودي/ الدموي الشعب العبراني «هو شعب قاسي الرقاب» والمقصود قساة الرقاب الفقراء الذي تعرضوا لقداسة الإله، وليس الطبق اللادية/ الارستقراطية اليهودية.

عاش العبران صراعاً مريراً وعنيفاً بين يهوه والآلهة التي عرفوها قبلاً، لذا صار لهذا الصراع تأثيره اللاحق/ المستقبلي حيث ينحاز العبران إلى آلهة المنطقة، كلما وجدوا فرصة لذلك تداخلت العبادات مع عبادة يهوه، وصار صعباً على اليهودية تنقية روحها من تأثيرات

الديانات المجاورة لها وبالأخص المصرية/ الكنعانية/ الطرفية، ولهذا يلاحظ المتابع للنصوص التوارتية تشاكلاً بين المنظومات الفكرية التي عرفتها تلك الديانات وبين عناصر ديانة يهوه وعبادته.

لذاكرة الإله يهوه شعبه الذي اعتبره مختاراً ومقدساً وأفضل شعوب الأرض قاطبة، لأنه استجاب للإغراء الناهض في داخله لآلهة، كان قد غادرها من قبل، وشعب هكذا صفاته يعبر عن قطيعة، أو ارتباك واضح بين الطرفين، الشعب والإله الذي اعتبر ذاته ونفسه كافياً للشعب، وهو الذي أخرجهم من مصر والقى بهم في صحراء سيناء، معتبراً ذلك حرية فريدة لكن شعبه قاسِ القلب رفض خدمته وطاعته.

«فاحذر أن تنسى الرب الذي أخرجك من أرض مصر من دار العبودية بل الرب إلهك تتقي وإياه تعبد وبإسمه تحلف. لا تتبع آلهة أخر من آلهة الأمم الذين حواليكم. لأن إلهك هو إله غيور فيما بينكم لكي لا يشتد عليك غضب الرب فيبيدك عن وجه الأرض.لا تجربوا الرب إلهكم كما جربتموه من ذات المحنة»

سفرالتثنية: ٦: ١٣ – ١٧

وظلت الخطيئة – حسب مفهوم موسى – ممتدة في الذاكرة التوراتية ولفترة طويلة جداً، وحتى لحين الديانة المسيحية، ويذكرها «متي» باعتبارها ذاكرة، وحدثاً لايمكن أن ينسى، وعندما ذكرها متي، لم يكن يعني بها ذات المفهوم الذي أشره موسى أو يشوع لكن ذكر الخطيئة يتماهى مع الذي حصل في سيناء بين العبران والعجل الذهبي، وظلت أيضاً نموذجاً للمعصية والتمرد والخروج على سلطة الإله/ الرب.

«فقال له يسوع مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك. فأخذه أيضاً إبليس إلى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها. وقال له أعطيك هذه كلها إن خررت ساجداً لي حينئذ قال له يسوع إذهب يا شيطان فإن قد كتب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد.

متي: ٤: ٧ – ١١

وواضح بأن معصيته الرب خطيئة، لكنها في زمن بولس، قد اتسعت وتنوعت مفاهيمها أكثر مما كانت عليه في زمن «متي» حيث صارت إشارة للشر، كذلك احتفظت بمدارها الأول، وهو عبادة الأصنام ولم يتردد في الإشارة إلى خطيئة «اسرائيل» الأول.

«واستبدلوا مجد الله الذي لا يدركه الفساد بشبه إنسان ذي فساد وطيور وذوات أربع وزحافات. فلذلك أسلمهم الله في شهوات قلوبهم إلى النجاسة فضيحة أجسادهم في ذواتهم. الذين أبدلوا حق الله بالباطل واتقوا المخلوق وعبدوه دون الخالق الذي هو مبارك مدى الدهور. آمين».

رسالة بولس إلى أهل رومية: ١: ٢٣ – ٢٦

وذكر الأستاذ (فوزي العنتيل) رأياً مهماً عن اللقاء الذي حصل بين شاؤول والأنبياء، بعد تتويج شاول ملكاً:

لقد قال صموئيل لشاؤول: إنه عند تل الإله يريد أن يلتقي بطائفة من الأنبياء، وأمامهم رباب. ودف. وناي. وعود. وهم يتنبأ فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم. وتتحول إلى رجل آخر وقد اشتملت الآلات الموسيقية على آلة فرع هي «الدف» ويستخلص من هذه المصادر أن ثمة موكباً من الرقص الموقع كانت تصحبه الموسيقى والترانيم المنغمة، إلاّ أن الأنبياء لم يكونوا يتنبأون بالمعنى الحديث للكلمة، وهو استطلاع الغيب أو المستقبل.

هذا ويبدو أنه عندما انضم إليهم شاؤول، حلت عليه روح الرب، وتحول إلى رجل آخر وبتعبير آخر أن قد بلغ هذه الحالة من «الوجد» عندما صار وحيداً مع الرب.

كانت هذه الحالة طارئة، لكن من الواضح أنها كانت تتجدد في فترات مختلفة، والدليل على ذلك ما نجده مدوناً وهو أنه بعد استقبال النساء الفرحات لداوود «اقتحم الروح الردى من قبل الرب شاؤول وتنبأ في بيته» كذلك عندما هرب داوود إلى صموئيل في نايوت بالرامة، أرسل شاؤول ثلاثة وفود من الرسل ليعودوا بهما، فوجدت المجموعة الأولى من الرسل جماعة من الأنبياء يتنبأون، وصموئيل واقفاً رئيساً عليهم، فكان روح اللّه على رسل شاؤول. فتنبأوا هم أيضاً.

وحدث نفس الشيء للمجموعة الثانية والثالثة من الرسل وكذلك كانت روح اللّه عليهم، ثم توقفوا مع الأنبياء يتنبأون ثم ذهب شاؤول بنفسه «فكان عليه روح الله، فكان يذهب ويتنبأ حتى جاء إلى «نايوت بالراحة» فخلع هو أيضاً ثيابه، وتنبأ هو أمام صموئيل وانطرح عرياناً ذلك النهار كله، وكل الليل»

ويبدو واضحاً من الذي أشار له الأستاذ عنتيل أن جميع المشتركين في هذه الطقوس

كانوا من الرجال، وأن التجرد من الثياب كان يشكل جانباً من الطقوس. وأخيراً أن تلك الأحداث كانت تعني وجود حالة من الوجد، أو الهيام الديني.

لقد أخرج الإله يهوه الأب إبراهيم من الوثنية، عندما كان يخدم آلهة أخرى.

«وجمع يشوع جميع أسباط إسرائيل في شكيم واستدعى شيوخ إسرائيل ورؤساءهم وقضاتهم وعرفاءهم فتمثلوا أمام الرب. فقال يشوع لجميع الشعب هكذا قال الرب إله إسرائيل في عبر النهر سكن آباؤكم منذ الدهر تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور وعبدوا آلهة أخرى»

سفر يشوع ٢٤: ١ – ٣

ولكن الأب إبراهيم، قد حقق قطيعة كاملة، هو وذريته، مع الأوثان:

«فقال يعقوب لأهله وسائر من معه أزيلوا الآلهة الغريبة التي بينكم وتطهروا وأبدلوا ثيابكم. وهلموا نصعد إلى بيت إيل وأصنع هناك مذبحاً لله الذي أجابني في يوم شدتي وكان معي في الطريق الذي سلكته. فدفعوا إلى يعقوب جميع الآلهة الغريبة التي عندهم والشنوف التي في آذانهم فدفنها يعقوب تحت البطمة التي عند شكيم»

سفر التكوين ٣٥: ١ – ٥

وأشارت الدراسات اللاهوتية، إلى تسلل الأوثان وعبادتها إلى ديانة يهوه على الرغم من السطوة الأرستقراطية اليهودية والدمارات التي واجهتهم. لذا حرم الإله اليهودي في الوصايا العشر صنع الأوثان والصوّر. لأن الإنسان وحده هو على صورة الإله الأصيلة:

«لا تصنع لك منحوتاً ولا صورة شيء مما في السماء من فوق ولا ما في الأرض من أسفل ولا مما في المياه من تحت الأرض».

سفر الخروج ٢٠: ٣ – ٥

وورد ذكر إلى نوع من الرقص، يتحقق نتيجة لفوز، وهو رقص خاص بالرجال فقط، وأقدم إشارة إلى ذلك هي مالها صلة بمريم أخت هارون وقد أخذت دفّاً في يدها، وقد خرج النساء

---

* شفيق مقار/ الجنس في التوراة وسائر العهد القديم/ من الإلاهة الأم إلى الإله الأب/ دار يعرب للدرسات والنشر والتوزيع/ دمشق/ ١٩٩٨/ ط١/ ص ٤٣٢

* شفيق مقار/ الجنس في التوراة سبق ذكره ص ٤٣٣

جميعاً خلفهما يحملن الدفوف، وهن يرقصن:

«ثم أخذت مريم النبية أخت هرون الدفّ في يدها وخرجت النساء كلهن وراءها بدفوف ورقص. فجاوبتهن مريم سجلوا للرب لأنه قد تعظم بالمجد»

الخروج ١٥: ٢٠ – ٢٢

وبعد أن حقق «يفتاح» نصراً له، خرجت إبنته لتلقيه بالدفوف والرقص «وعاد يفتاح إلى المصفاة إلى بيته فإذا إبنته خارجة للقائه بالدفوف والرقص وهي وحيدة له لم يكن له ابن أو إبنة سواها»

سفر القضاة ١١: ٢٤ – ٢٥

كذلك عندما انتصر شاول وداوود على الفلسطينين، خرج النساء من جميع المدن، يغنين ويرقصن:

«وكان عند مجيئهم حين رجع داوود من قتل الفلسطيني أن خرجت النساء من جميع مدن اسرائيل وهن يغنين ويرقصن بدفوف وفرح ومثلثات في استقبال شاول الملك. فهتفت النساء اللاعبات وقلن قتل شاول الوفه وداوود رابوته.»

سفر الملوك الأول ١٨: ٦ – ٨

وكانت النسوة في فلسطين والبلدان العربية، تطلق زغردة معبرة عن فرحهن وسعادتهن وأشار الأستاذ (فوزي العنتيل) بأنها بدأت كتسبيحة خاصة بالإله اليهودي/ يهوه واصل هذه الزغرودة هللويا – جاه. وقد حرفها الإغريق، فأصبحت بلا معنى عندما صارت «أللويا» وقد أصبحت كلمة مقدسة بالإستعمال، ثم تطورت أخيراً إلى الصوت المعروف «لولولو»

يهوه يرقص في مأدبته*

إن الربانين اليهود، حتى بعد «تنقية النصوص» في زمن السبي بيد «المحرر» عزار ومن تعاونوا معه من الكهنة اللاويين، أكدوا في تعليمهم لليهود أن يهوه رقص لمقدييه في الحفل الذي أقامه لهم وأولم لهم فيه الوليمة المسيحيانية الكبرى. وقد كان الذي رقص أصلاً بعل صفون في الحفل الذي أقامه إحتفالاً بانتصاره وصعود. وبناء قصره على قمة جبل صعون

* شفيق مقار/ الجنس في التوراة سبق ذكره ص ٤٣٧

«جبل صهيون يهوه» والربانيون اليهود عندما علموا بذلك كانوا متصفين بواقعية دينية تُحمد لهم في الواقع، إن لم يكن لشيء فلأن النصوص - عندما حررت - قد تكون الرقاب الكهنوتية رفعت منها الحكاية الخاصة بالرقص، لكنها تلك النصوص «المقدسة» أي التي لا يصح تكذيبها ولا تجوز مناقضتها «كشفت عن أن ذلك الرقص كان هناك فعلاً. فالمحرر الذي رفع الحكي عن رقص يهوه لمفدييه فاته أن يرفع في نفس الوقت من سفر صموئيل. الثاني النص الذي يوقفنا على أنه عندما أصعد دواد تابوت يهوه إلى مدينة داوود. كان الملك داوود «يرقص أمام الرب بكل قوته، وكان وهو يرقص متمتطقاً بأفود من الكتان.

صموئيل الثاني ٦: ١٤

أي أنه كان يبين تمنطعه بالأفود الكتاني «جبة الكاهن» يرقص بوصف الرقص من الشعائر الدينية أمام يهوه. وعندما أطلت ميكال إبنة شاول، من الكوة، ورأت الملك يرقص ويطفر ويتواتب أمام يهوه فاحتقرته في قلبها، ثم شفته، عاقبها يهوه بأن أقفل رحمها. فلم يكن لها ولد إلى يوم موتها.

غضب يهوه على ميكال، لأنها احتقرت داوود لا يفهم* إلاّ بأن رقص ذلك «الملك« عارياً وليس على جسده إلا الأفود الذي يتمنطق به كان رقصاً شعائرياً مقبولاً من يهوه. ومما يرجح ذلك الفهم أن تلك العادة تلبثت عند أحبار اليهود وقادتهم في احتفالات اليوم الأخير من العيد السنوي احتفالاً بتتويج يهوه ملكاً «عيد المظال».

(فيوهان بكستورف) عميد الباحثين التوراتيين يخبرنا أن أعضاء السنهدرين «المجلس الديني الأعلى» وكبار الكهنة والقادة والرؤساء والمبرزين في الحياة العامة دأبوا في ذلك الإحتفال على المشاركة في الغناء والإنشاد والرقص والتواثب وبأيديهم المشاعل حتى ساعة متأخرة من الليل.

ويؤكد الأستاذ شفيق مقار بأن نصاً بالعبرية ضمن سفر نشيد الإنشاد، قد رفع عند ترجمته، نجد يهوه قائماً بدور الراقص الرئيسي بتتويجه ملكاً، فهو كالعريس في يوم عرسه وفي يوم فرح قلبه [٣: ١١] والعريس، في غمرة فرحه، يرقص لمدعويه مثلما رقص بعل في الوليمة الأصلية التي أولها إحتفالاً بانتصاره وبناء قصره، وأخذ اخته عانات عروساً له.

---

* شفيق مقار/ قراءة سياسية للتوراة/ سبق ذكره ص ٦٢

ونتيجة لذلك الإنتصار الذي أخذ من أسطورية بعل وأسقط على آخر الزمان عندما يبيد المسيح المحارب كل من كان غير شعب يهوه ويعلي عرش صهيون على كل الأرض.

وفي بركة المسيح، نلتقي بيهوه وهو آخذ في أعداد الموائد ليقدم لمفدييه لحوم بهموث، ولوياثان، والزبير، ونجده – كأي مضيف عارف بأصول البروتوكول – آخذاً في إجلاس مدعويه حسب مقام كل منهم ومكانته، ثم نجده سائلاً إياهم بعد أن أجلسهم: ماذا تشربون؟ نبيذ التفاح، أم نبيذ الرمان، أم نبيذ الكروم وإذ يسألهم الواجد القدوس تبارك هذا السؤال، يجيبونه قائلين: «سنشرب ما تختاره لنا أنت» ويحضر لهم النبيذ المعتق من كرومه منذ أيام الخلق الستة. واستجابة لرغبة مفدييه، يترك عرش المجد ويجلس معهم، فيراه كل واحد منهم ويعاين مجده ويشير كل واحد منهم بإصبعه عليه قائلاً «هذا هو الله هذا إلهنا» أبد الأبدين» ثم يأكلون ويشربون ويمرحون. في تلك الساعة يرفع الواحد القدوس تبارك تاجه من فوق رأسه ويتّوج به داود ثم يتوج به المسيح بن داود ويتغنى بمناقبهما ويحمد لهما تقواهما واعداً بأن إسرائيل ستعيش في أمن وسلامة ويصنع ظله لكل تقي من شعبه ويصنع له مسكناً حسب مقامه ومكانته بين «الشعب» ثم يسير مع مدعويه في حديقة القصر [الجنة] وهو يلوح بيديه ويصفق طرباً.

وفي «الزهار» – كتاب السناء – *عندما يسأل الرباني عن حقيقة الأمر في شأن هذه الوليمة الكبرى التي يسعّد: يهوه فيها الموائد بيده ويصب الخمر لمدعويه في أقداح من الذهب مرصعة بالجواهر واللائي، يطعمهم كل ما في حقيقه قصره من أطعمة شهية، مترفة، واضعاً في خدمة كل منهم ثلاثاً من ملائكته، ويرقص لهم رقصاً لاعيب فيه، يقوم وهو يؤديه بدور الراقص الرئيسي بين فرقة صغيرة من الأتقياء الصالحين، ويسير معهم وتجاذبهم أطراف الحديث مصفقاً بيديه جذلاً.

إن نبيهم يهوه كانوا لا «يتنبأون» ولا يرون الرؤى إلا وهم في حالة من الهذيان، تحت عقار الهلوسة، وهم يتطوحون على إيقاع الموسيقى. فالتطوح والرقص والدروشة كانت كلها مؤسسية في ممارسات الديانة الطقسية والشعائرية ومرتبطة إرتباطاً وثيقاً بالتواصل مع المعبود. وهكذا نجد أن صموئيل بعد أن يمنح شاول ملكاً يوجهه هذا التوجيه:

ويكون عند مجيئك إلى جبعة أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين المرتفعة وأمامهم رباب

* شفيق مقار/ قراءة سياسية للتوراة/ سبق ذِكره ص ٢٦٠

ودف وناي وعـود وهن يتنبأون، فـيحل عليك روح يهوه فـتتنبـأ مـعهم وتتحـول إلى رجل آخر «تصبح مقدساً»

صموئيل الأول ١٠: ٥و ٦

ويستطرد الأستاذ (شفيق مقار) قائلاً:

ونجد أنه عندما يذهب «ملك إسـرائيل» إلى يشـع بن شـافاط تلميذ إيليا لـ «يسأل يهوه» عن طريقه، يكون الطلب الذي يطلبه اليشـع كيما يستطيع التنبؤ:

«والآن فـأتوني بعواد. ولما ضـرب العواد بالعود كانت على اليشـع يد يهوه «حل عليه روح يهوه» فتكلم وقال هكذا قال الرب».

الملك الثاني ٣: ١٢ و ١٥ – ١٦

وفي سفـر المزامـير نجد وفرة من النصـوص الصـريحة التي تربط بين يهوه وبين الرقص والموسيقى والغناء، منها على سبيل المثال:

«سبحوه بصوت الصور. سبحوه برباب وعود

سبحوه بدف ورقص، سبحوه بأوتار ومزمار»

مزمور ١٥٠: ٣، ٤

«وليبتهج بنو صهيون بملكهم ليسبحوا إسمه برقص»

مزمور ١٤٩: ٢، ٣

لعبت الموسيقى* كمـا لعب الرقص الشـعـائري دوراً هامـاً في مـختلف الديانات قـديمها وحديثها. وفي ديانتي مصـر وسومر كانت لهما مكانة هامة معبدية. غير أن الرقص كان طقساً يؤديه الكهنة الذكور والإنـاث ويشارك فيه العباد، أما الإله فلم يكن يرقص أو يغني. وحتى بعل الكنعانـي عندما أقام حفل تنصيبه على قمة جبل صـفون، لم يرقص للبشـر، على الرغم من أن شـعـائر العبادة الكنعانية «والسومرية والبابلية» ضمت بجـانب الموسيقى والرقص شرب الخـمر والإ تصـال الجنسـي.

أمـا عـبـادة يهـوه، فـرقص فـيـهـا يهو لـ «مـفـدييـه» أي شـعـبـه الذي افـتـداه، بل وقـام بدور السـاقي، فـصب لـ «مـفـدييه» الخـمر في أقـداح قـصـره السـمـاوي المصنوعة من ذهب والمطعّمة

بالجواهر واللالئ.

ويقترن الرقص مع يهوه إقتراناً واضحاً من خلال العديد من النصوص والشروح التلمودية. وأشارت دراسة الأستاذ شفيق مقار المهمة عن التوراة والجنس لوجود صلة وثيقة بين المعبود يهوه وبين نبات الفطر، باعتباره رمزاً قضيبياً للإله العبراني وحاز عليه هذا الإله من الأقوام الجزرية «المديانيين» والفطر المقدس له طاقة سحرية وتخديرية، كثيراً ما يتناوله الكهنة والأنبياء من أجل تحقق الهلوسة التي تساعدهم على التجلي والشفافية.

إن مفهوم الإله الصحراوي «يهوه» برمته مدين لإجتهادات الكهنة في عصور متأخرة ومحاولتهم إعطاء عمق تاريخي* لأسوريتهم أكثر ما هو مدين لأية ذكريات قبلية عن خبرات قديمة لإسرائيل. ونحن قد أصبحنا الآن قادرين أن نحدد بمنتهى الدقة مصدر أساطير «الآبار» عن ذلك الإله، فهي نابعة من ديانة صحراوية من ديانات آلهة الخصب، وانصبت على تقديس نوع من الفطر، كان اتباع تلك الديانة يرون فيه تجسداً لإلههم وهو إله قضيبي [نسبة إلى قضيب الرجل] ويؤمنون بأن تعاطيه يمكنهم من الإتصال إتصالاً مباشراً بمعبودهم ويتيح لهم مشاركته أسراره السماوية. والمعروف أن لذلك الفطر تاجاً [يشبه قمة القضيب في حالة إنتصابه] يحتوي على عقار يسبب الهلوسة لمن يتعاطاه ويشيع في كيانه شعوراً بالحيوية والجذل؛ يصحبه اندفاق لطاقة جسدية عارمة وتعقبه فترات من الإحباط الحاد. وتلك ديانة ضاربة في القدم، كإسم الإله الصحراوي يهوه، ومأخوذة – كإسم ذلك الإله – من السومرين.

من المؤكد ان كهنة المعبد – كما قال (شفيق مقار) في القدس كانوا يتنأون على إيقاع وعزف السناطير [آلات شبيهة بالقانون] والقيثار. وبالمثل كان من نعرفهم بإسم «أنبياء اليهودية» يعتمدون على مثير من هذا النوع للتوصل إلى حالة الإنجذاب التي صورت دائماً بوصفها إتصالاً مباشراً بالإله وتحادثاً معه. وهكذا فإننا نلتقي في تلك التواريخ بعصبة من أولئك الأنبياء نازل من مكان مرتفع متمايلة على عزف آلة السنطور وايقاع على الدف [الرق] وعزف على المزمار والقيثار والعازفون أمامها. والأنبياء يتنبأون.

* شفيق مقار/ قراءة سياسية للتوراة/ سبق ذكره ص ٢٦٢

تقليد الموسيقى والرقص من عبادة أوزيريس في «العهد القديم»

يصور لنا النقش* البارز على جدران المعابد المصرية من كل العصور الملوك وهم يرقصون أمام أوزيريس وغيره من الآلهة ويروي «ديوردور» الصقلي أن (اوزيريس)، حسبما تنبئ شعائر عبادته، كان إلهاً يتهيج للموسيقى والرقص وإن معابده كانت تضم حاشية من الموسيقين والمنشدين والمنشدات العذارى. كما أن الكثير من تعاليم (اوزيريس) للمصريين كان يلقن على شكل اناشيد وترانيم دينية، أو – كما يسميها «العهد القديم» مزامير.

وفي المزامير التي يضمها «العهد القديم» نجد ذلك التقليد المأخوذ من عبادة (اوزيريس) مجسداً بوضوح في فكرة المزامير نفسها ودعوتها المتكررة: «رنموا للرب. اهتفوا للرب. وغنوا» لكن بعض المزامير تتضح فيه الصورة بجلاء وحدّه:

"سبحوه بصوت الصور.

سبّحوه برباب وعود.

سبّحوه بدف ورقص.

سبّحوه بأوتار ومزمار.

سبّحوه بصنوج التصويت.

سبّحوه بصنوج الهتاف"

المزمور ١٥٠: ٣ – ٥

أو:

«اهتفوا ورنمّوا وغنوا

رنّموا للرب بعود

بعود وصوت نشيد.

بالأبواق وصوت الصور.

اهتفوا قدام الملك الرب"

المزمور ٩٨: ٤ – ٦

أو: «ارنم ترنيمة جديدة برباب ذات عشرة أوتار"

المزمور ١٤٤: ٩

لكن مثل كل منهوب في العهد القديم، نجد التقليد المتمثل في العبادة بالموسيقى والرقص والمأخوذ من عبادة اوزيرس، وقد تحول من عبادة مفعمة بالفرح للتجدد والإنبعاث والحياة والوفرة إلى تهلل للشر الذي يحل بالآخرين.

«ليبتهج بنو صهيون بملكهم ليسجلوا

إسمه برقص بدف وعود ليرنموا له. تنويهات

الرب في افواههم وسيف ذو حدين في أيديهم.

ليصنعوا نقمة في الأمم وتأديبات في الشعوب"

المزمور ١٤١: ٢، ٣، ٧، ٨

أو:

وعندما جمع داود جيشاً عرمرم من «المتجردين للقتال الذين جاءوا إلى حبرون «الخليل» ليحولوا مملكة شاول إليه حسب قول الرب"

أخبار الأيام الأول ١٢: ٢٣

جمع داوود كل إسرائيل من شيحور مصر إلى داخل حماة ليأتوا بتابوت الله من قرية يعاريم. وصعد داوود وكل إسرائيل إلى بعلة إلى قرية يعاريم....واركبوا تابوت الله على عجلة جديدة....وداود وكل إسرائيل يلعبون أمام الله بكل عز وبأغاني وعيدان ورباب ودفوف وصنوج وأبواق"

أخبار الأيام الأول ١٢: ٥ – ٨

«وأمر داوود رؤساء اللاويين أن يوقفوا إخوتهم المغنيين بآلات غناء بعيدان «جمع آلة عود» ورباب وصنوج مستمعين برفع الصوت لفرح...وكان جميع إسرائيل يصعدون تابوت عهد الرب بهتاف وبصوت الأصوار والأبواق والصنوج يصوتون بالرباب والأعواد ولما دخل تابوت العهد مدينة داوود أشرفت ميكال بنت شاول من الكوة الملك داود يرقص ويلعب «يعزف» فاحتقرته"

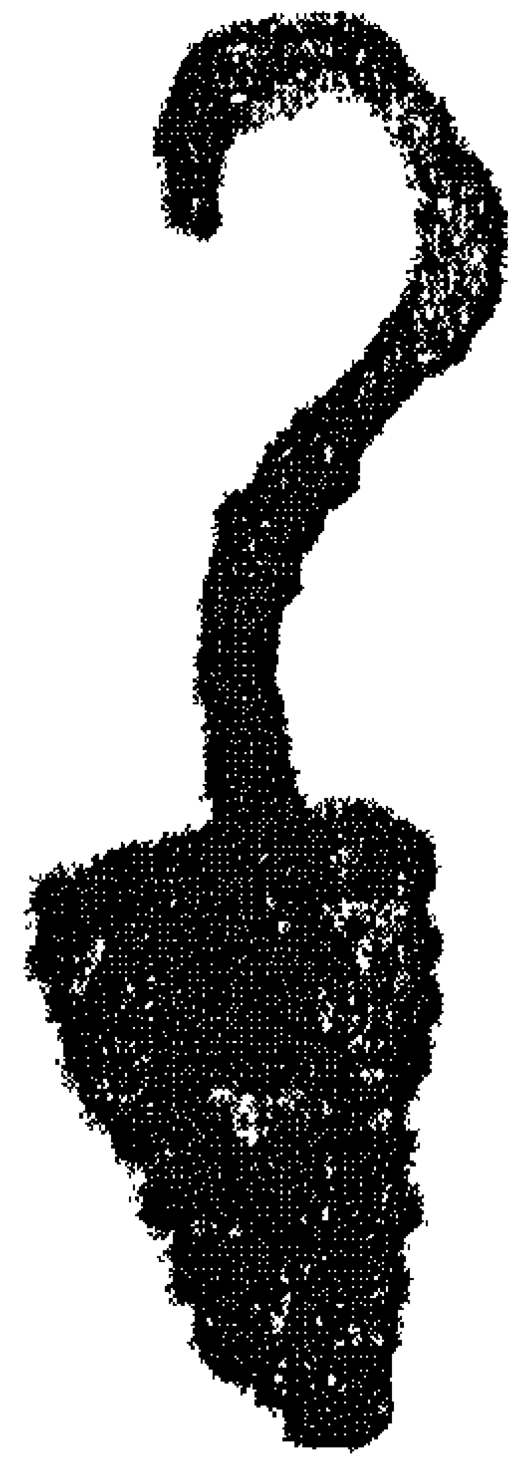
* شفيق مقار/ قراءة سياسية للتوراة/ سبق ذكره ص ٢٧٦

أخبار الأيام الأول ١٥: ١٦و ٢٨ و ٢٩

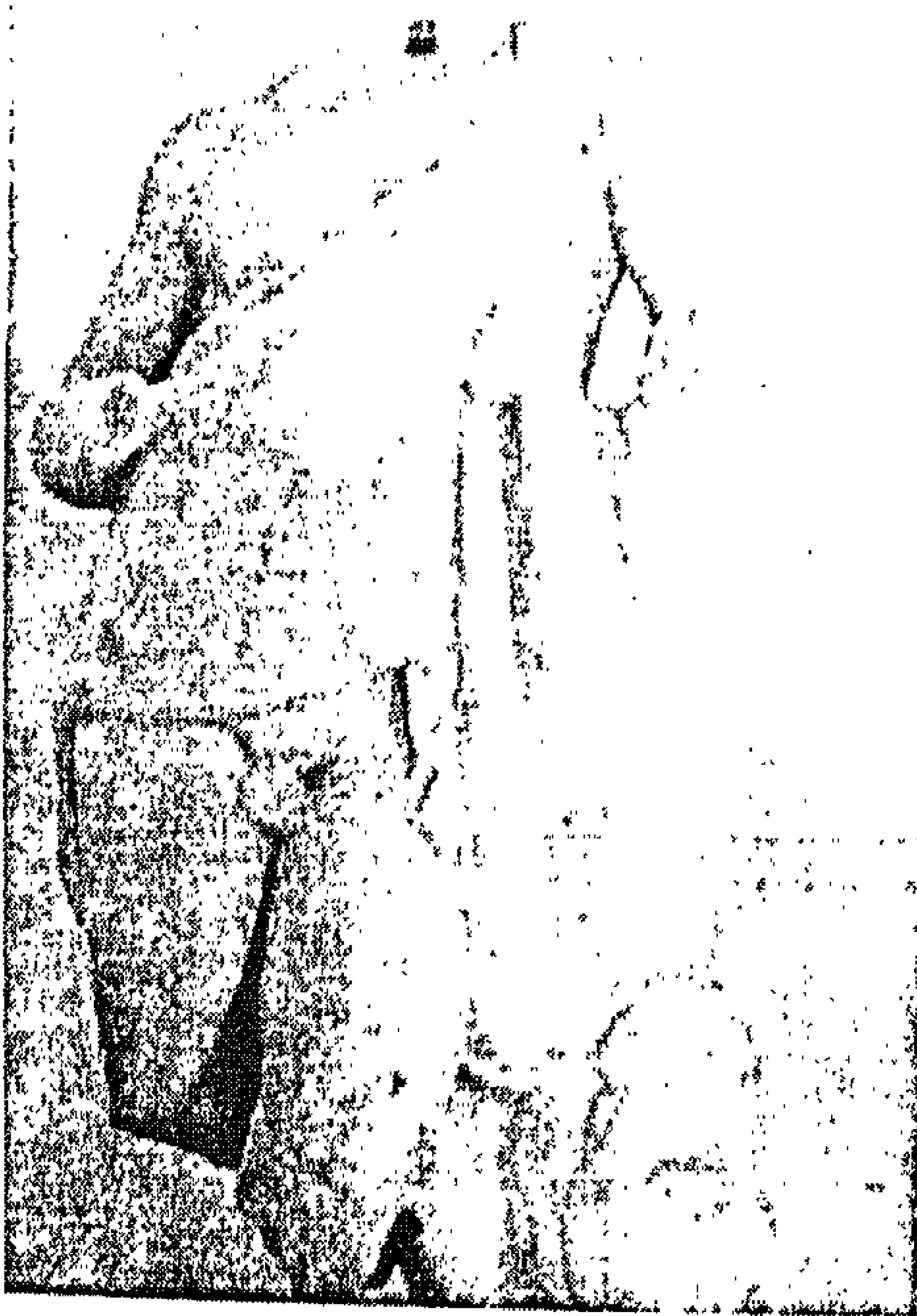
وكان إحتقار ميكال* ابنة شاول مبرراً من وجهة نظرها. مغارة الرقص والعزف أمام الإله هذه لم تكن من عادات قومها. بل عادة مصرية من تقليد الموسيقى والرقص أمام (أوزيريس) وغيره من الآلهة. ونلاحظ أن من كلفهم داوود بتنظيم تلك العملية والقيام بها كانوا «اللاويين» أتباع موسى كاهن آتون الذين خرجوا معه وظلوا معتبرين دخلاء بين قبائل بني إسرائيل. وقد كانوا - بذلك النسب الكهنوتي المصري - خير من يكلف بكل ذلك الرقص والغناء والعزف أمام الآله الذي احتقرت ميكال ابنة شاول الملك داوود بسببه.

وأضاف الأستاذ (شفيق مقار): عندما أدخل داوود تابوت الله وثبته وسط خيمة الهيكل التي أقامها له ورفع أمامه محرقات وذبائح سلامة، بارك الشعب «ووزع على كل آل إسرائيل من رجال ونساء رغيف خبز وكأس خمر وقرص زبيب»

أخبار الأيام الأول ١٦: ١ - ٣



شكل ٥١ أحد الساتيرات المرافقة لديونيزيوس ويظهر عليه جلد الماعز القرن الثاني الميلادي



شكل ٥٢ عنقود عنب وهو رمز الإله ديونيزيوس عثر عليه في مدينة جرش

* شفيق مقار/ قراءة سياسية للتوراة/ سبق ذكره ص ٢٦٨
* شفيق مقار/ قراءة سياسية للتوراة/ سبق ذكره ص ٢٠٦

ويبد أن تلك كانت علامات بداية على تحول تقليد الموسيقى والرقص أمام الإله إلى تسيب في الممارسات الشعائرية عندما اختلطت بالممارسات الكنعانية.

يرى بلوتارك أن يهوه تابور [جبل التابور – المزمور ٨٩ – ١٢] ويهوه عيد المظالّ، بات – قريناً لدينونيسيوس اليوناني – إله النبيذ

ويؤكد أن ما شاهده من شعائر يهوه وشعائر ديونيسيوس كان وثيق الصلة وكبير الشبه بعضه ببعض. إذ انطوى على طقس استخدمت فيها حزم الشعير «وقد اعتبر يهوه «الإله الحامي لزراعة الشعير» والنبيذ الجديد، والرقص على أضواء المشاعل، في الأماكن المرتفعة، حتى طلوع النهار، وإراقة النبيذ على الأرض وعلى أجساد الأضحيات الحيوانية، وعموماً: الإنجذاب الديني. ويبدو أيضاً أن الإتصال الجنسي الطليق من القيود في تلك الممارسات شاع بين «شعب الإله» في طقوس ما قبل عصر السبي، وراج كل ذلك رواجاً خاصاً بين الرعاة القدامى الذين تحولوا إلى أمة من الزراع أثناء احتفالات عيد المظال بالذات. وقد اعترف الكهنة اليهود. في القرن الأول الميلادي بتلك الطبيعة القديمة لذلك العيد، لكنهم أكدوا أن طبيعة العيد وممارساته تغيرت وتخلصت من تلك الممارسات التي كان «الشعب في كنعان قد أولى ظهره فيها لمذابح الله وأدار وجهه صوب الشرق فعبد الشمس. أما نحن، فقد عدنا إلى عبادة الله"

وإسفار «النبييم» متنبئ «العهد القديم – حافلة بالإدانة الكهنوتية المتوقّدة لذلك الإنحلال الذي انغمس فيه «الشعب» بعد أن شبع نهباً وسلباً مذابح وجلس واستراح.

فلننصت، على سبيل المثال، لأشعيا بن آموص «وقال الرب من أجل ان بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات في مشيتهن ويشخشخن بأرجلهن يُصلع السيد «الرب» هامة نبات صهيون ويعرّي الرب عورتهن ينزع السيد في ذلك اليوم زينة الخلاخيل والضفائر والأهلّة. والحلق والأساور والبراقع..فيكون عوض الطيب عفونة وعوض المنطقة جبل وعوض الجدائل قرعة وعرض الديباج زنار مسح وعرض الجمال كي....فتتشبّث سبع نساء برجل واحد قائلات نأكل خبزنا ونلبس ثيابنا وليدع فقط اسمك علينا».

أخبار الأيام الأول ١٦:٣ – ٢٤

---

* زنون كوسيدفسكي/ الأسطورة والحقيقة في التوراة/ ت: د. محمد مخلوف/ دار الأهالي/ دمشق/ ١٩٩٦/ ص ٣٠٥.
* زنون كوسيدفسكي/ الأسطورة والحقيقة في التوراة/سبق ذكره ص ٣٠٥.

ويقول(روبرت جريفز): إن هذه الحكايات جميعاً ترجع إلى أزمنة «لم يكن يهوه قد تحول فيها إلى إله يسمو على نطاق المعرفة البشرية أو الخبرة الحسية، بل إلهاً يعيش فوق قمة جبل [الجبل الذي ظل موسى يصعد إلى قمته ليتحادث معه] وكان – في شكل من اشكاله – إلهاً متجسداً في ثور أبيض باسم بعل صفون، وهي تسمية تشهد بها النقوش الموجودة في إقليم جاسان [محافظة الشرقية] التي أقام فيها قوم يوسف في مصر، وهو الإله الذي كان الكنعانيون يعبدونه كإله تنبؤ وخصب.

وقال الباحث المعروف «جون اليجرو» حول الإله بعل = ادونيس = تموز*:إننا نعرف الآن أن غرس أودنيس [= تموز = بعل] والتسريع بنمو الغرس عن طريق النواح الشعائري من جانب عابدات الإله «كنواح ايزيس على اوزيريس، ونواح عانات على بعل حداد، ونواح عشتروت على تموز] وظهور النبات ثم موته ثانياً في وهج الشمس كانت كلها أموراً متعلقة «بالفطر المقدس» وهو الفطر الذي يقول ذلك الباحث وأيضاً روبرت جريفز، أن الكهنة والطرفيين «النبييم» كانوا يتعاطونه ليوصلهم عقار الهلوسة الذي يحتويه إلى حالة من الإنجذاب يتراءى لهم فيها أنهم اتصلوا اتصالاً مباشراً بالإله، وتحادثوا معه.

ويبدو لي بأن نبات الفطر – كما هو معروف – نبات موسمي، ويرتبط ظهوره مع موسم الأمطار والرعود والبرق. ونبات الفطر هو تمثل رمزي آخر للألوهة الشابة الضئيلة التي نتجت بفعل قوة كونية/ قادرة على فعل التخصيب. إنها قوة السماء الذكرية وفعل إتصالها يتم عبر الرعد والبرق، كقوتين، إيجاب + سلب وهذه الإتصالية السماوية/ الذكرية، تتم مع الأرض التي تستجيب لفعل الإتصال الخارجي/ السماوي، فتنجب الأرض/ الأم ابناً لها وهم آلهة شاب، ويمتلك هذا الإله الشاب طاقة إنجذاب روحي وهيام. وظهور نبات الفطر المقدس، يعتبر واحدة من علامات الخصوبة. والملاحظة التي تثير قراءة مغايرة ومختلفة، إن الأرض/ الأم لم تنجب بالإتصال السماوي إلاّ أبناءاً وهم إمتداد روحي للأرض/ الأم، امتداد روحي عبر القوة الهائلة التي تكمن في جسد الإله الشاب/ الفطر، القوة التي تثير في الجسد النشوة والراحة والهلوسة وتوفر للإنسان شكلاً رفيعاً من أشكال التجلي الروحي، والصفاء الذهني.

ونبات الفطر، صحراوي، ويرتبطي ظهوره في المساحات الواسعة التي لا يوجد فيها زرع أو بستان، يتحول إلى حجاب أو مصدّ لطاقة التخصيب السماوي بواسطة الرعد والبرق. لذا فإن المعروف لنا – في العراق – عند الرعد والبرق وتساقط المطر. نغادر بيوتنا إلى المساحات

الواسعة المكشوفة، ومعاينة الفطر وهو تحت التراب أمر سهل، لأنه يدفع بطبقة التراب العليا إلى فوق، وكشف بسيط بعود صغير يوضحه لنا، ويتم إلتقاطه. لذا يكثر الفطر في الأسواق عند باعدة الخضار بعد سقوط الأمطار بغزارة. ويتناقل سكان الأرياف في الطرق عن وجود لنوع سام من الفطر، يتكاثر في البساتين والمناطق الخضراء، وخصوصاً في فصل الربيع. وأرجح أن يكون الفطر السام، هو أحد الأنواع المقصودة والتي أشرتها التوراة وظهور هذا النوع من الفطر في الأراضي المعشِّبة بالمطر يعني، ولادته السريعة، تلك الولادة المرتبطة مع فصل الربيع القصير جداً. وهنا يكون رمزاً للإله الشاب القتيل الذي عرفته حضارات الشرق. وهذا النوع من الفطر يتبدى – أيضاً – وفي آن واحد إبناً وزوجاً للأرض، فبعد أن خصبت السماء الأرض، انتجت الإله الشاب/ الفطر وبالتالي ارتضته زوجاً، فحاز على صفتين معاً، هما الإبن والأب وأكد العالم جريفز بأن عبادة الفطر قديمة جداً وبالمقابل* لدورة حياة وموت الزرع في مصر وكنعان وما تجسدت فيه تلك الدورة غيبياً في عبادة أوزيريس في مصر وعبادة بعل = تموز في سوريا وفلسطين «اعتبرت دورة حياة الفطر – حياة الفطر وموته – بمثابة صورة مصغرة لدورة الإخصاب والميلاد والموت، واتخذت شكلاً قضيبياً [والفطر بساقه وتاجه يمثل القضيب شكلاً] اعتبر صورة للإله. أو «القضيب السماوي الذي يخصب الأرض. وفي عنفوان هياجه، يشير حزقيال إلى عضو الذكورة الموضوع على الهيكل، فيقول أن يهوه غضب لذلك غضباً شديداً وأمره أن يقول لأورشليم «ليعرفها برجاساتها» «لقد إتكلت على جمالك وزينت على إسمك وسكبت زناك على كل عابر سبيل، وأخذت أمتعة زينتي من ذهبي ومن فضتي التي أعطيت لنفسك وصنعت لنفسك صور ذكور وزينت بها»

حزقيال ١٦: ١٥ – ١٧

أشار «جريفز» إلى أن عيد الفصح [البساح] عيد كنعاني. وكان الكنعانيون يرقصون فيه وهم يحجلون، ثم أخذته عشيرة يوسف عن الكنعانيين أثر الخروج من مصر وجعلته عيداً للإحتفال بالخروج تحت قيادة موسى بإسم عيد العبور/ الفصح [بيساح] ويشير إلى أن الجذر العبري PSCH في لفظة Pesach التي أطلقت على ذلك العيد تغني «الرقص حجلاً».

وفي سفر أرميا بن حلقيا الكاهن* إشارة ملتوية إلى ذلك في قوله عن أورشليم أنها أصبحت «حجلة تحتضن مالم تبضّ» أي أنثى طائر حجل رقدت على بيض لم تبضه، بمعنى أن سلالة يعقوب إنجذبت إلى طقوس العربدة الحسية الكنعانية الدخيلة من تلك الطقوس

الرقص حجلاً، فأصبحت كحجلة رقدت على بيض ليس منها......

ومما يلفت النظر في أسطورية يعقوب التي يقول جريفز أنها انتهت إلى تأليهه، أن عيد العبور – الفصح – بيساح الذي احتفلت به قبيلة يوسف بن يعقوب لأول مرة عام ٦٢١، أخذاً عن الكعنانيين، فحولته إلى إحتفال بالخروج من مصر.

وكلام العالم «جريفز» لا يقبل الشك أو الطعن لما عرف به هذا العالم من موضوعية كبيرة، بحيث أعاد طقس الرقص العبراني إلى جذوره الكنعانية، التي صاغته عيداً، وكذلك فعل العبران، في عيد الفصح/ الكنعاني الأصل، والذي يعني أيضاً عيداً للخصب، حيث موسم الحصاد، ويقوم العبران بالرقص فيه.

وإذا أعدنا الإنتفاضة الأولى في مسار هذه الدراسة، فإننا نؤكد على أن الرقص مع الوثن لم ينته أبداً، والقيام بطقس الرقص فوق الجبال، يعني ممارسة لفعل احتفالي أمام الأحجار والأنصاب، وهي – وكما معروف – تمثل معبودات عند العبران ومن قبل عند الآباء، في فترة وجودهم الأولى في منطقة كنعان. الرقص الذي يؤديه الكهنة فوق الجبل وأمام مشهد الأحجار الكثيرة، تذكرهم بالمعبود الأول الوثني وتستدعي حضوراً للإله يهوه، الذي كان على شكل قضيب/ عمود. إن الإستحضار الذهني والإستذكار لا ينقي الممارسة الدينية لليهود وثنيتها. إلا أن الفرق الحاصل بين الرقص حول العجل، والرقص فوق الجبال مع المزامير والدفوف، هو أن الرقص حول العجل جاء تتويجاً لإنتفاضات العبران السابقة والتي شككت بموسى وساهمت بالإعلان عن حياتها السعيدة والخير العميم الذي غادرته في مصر. أي أن سبب الإنتفاضة سياسي/ وديني، ولهذا كان موقف يهوه حازماً وصارماً للغاية، من أجل قمع العبران، حتى لا يسببوا متاعب جديدة لموسى، لأن المسافة بعيدة وشاسعة، بينهم وبين الحلم الذي يريدون.

لقد تجمع العبران بملابسهم النظيفة وهم يراقبون موسى متجهاً إلى الجبل، ومنعهم من الإقتراب. ويبدو بأن إلحاح موسى على العبران بضرورة الإغتسال وتنظيف ملابسهم، رجالاً ونساء، دليل على قذارتهم وتفشي الأمراض بسبب ذلك كما أنه – موسى – يريد شعباً نظيفاً، يرافقه في حركة إتجاهه نحو الجبل. والعلاقة مع العجل الذهبي هي شعيرة الإتصال والإيقاء على المعبودات المصرية، وظلت هذه الشعيرة باقية لفترة متأخرة كما ذكرنا ذلك. وعندما إتخذ «يربعام من ثكيم» عاصمة له في البداية ولكنه لاحقاً* نقل مقره إلى فنوئيل وراء الأردن وذلك

لخوفه من هجمات «شيشنق» ثم انتهى به المطاف إلى الإقامة في تِرصته. وقد عانت إسرائيل من عدم وجود مركز ديني، فكهنة يهوه رحلوا إلى أورشليم والمؤمنون تابعوا رحلات الحج إلى معبد سليمان، حيث يوجد أقدس عنصر في طقوسهم الدينية – تابوت الرب –، انزعج «يربعام» كثيراً من زيارات الحج إلى الدولة المعادية، وانتابه الخوف من مطالبة شعبه يوماً بإعادة الوحدة مع قبائل يهوذا، كما كان الوضع من زمن داود وسليمان وليتجنب الخطر، قرر الإنفصال دينياً – أيضاً – عن أورشليم. لذلك بنى معبدين في بيت إيل ودان، وجعل لهما عجلين ذهبيين يشبهان العجلين الموجودين عند قاعدة عرش يهوه، وشكل كذلك نقابة للكهنة، ووضع طقوسه وأعياده الدينية الخاصة، فكانت تلك ردة دينية محضة ومرتبطة بالوثنية، ولاقت إستنكاراً كبيراً في صفوف اليهوهيين، وكان أشد المتعضين منها النبي أشعيا الذي ساعد بشعبيته «يربعام» في الوصول إلى السلطة».

وواضح بأن العجل الذهبي معبود منقول معهم منذر رحلة موسى الأولى، ومغادرته مصر بإتجاه سيناء، لأنه – العجل الذهبي موجود في المعابد اليهودية، وكذلك موجود في هيكل يهوه، كما يؤكد هيمنة هذا المعبود والمعبودات الأخرى المعروفة في منطقة الشرق وخصوصاً في العراق وسوريا وكنعان، بحيث صار صعباً على العبران التخلص من تمركز هذه الآلهة وطغيانها في العقائد والطقوس التي يؤديها العبران.

وفي أحد الأيام*حين أشعل «يربعام» بخوراً للعجل الذهبي في بيت إيل ظهر له أشعيا، وأطلق لعنة انشق لها المذبح. فأشار الملك الغاضب بيده للقبض على النبي المتطاول. لكن يده التي رفعها على الرجل القديس يبست. هدأ «يربعام» من غضبه سريعاً، وراح يستعطف أشعيا ليعيد الله عافيته، وقد دعاه أشعيا إلى العودة للدين الحق. لكن «يربعام» لم يتعظ «رغم أن أشعيا لبى له رجاء له بمساعدة يهوه» من تلك الحادثة، وتابع نشر الوثنية في صفوف شعبه، لذا غادر أشعيا إلى «شيلوه» حيث عاش في عزلة تامة. وكان آنذاك هرماً وأعمى. وتأثر كثيراً ليأسه، ممن جعله ملكاً آملاً منه أن يخدم موسى بإخلاص» وهذا يؤكد ما تؤكده الكثير من الوقائع الخاصة بسلطة العديد من الملوك ومنهم «ناداب ابن يربعام» ورحبعام/ وأبيام. ولم يضعف المعبود الوثني إلا في فترة حكم «آسا» ابن «آبيام» والذي حكم واحداً واربعين عاماً، وتميز عن أسلافه بأنه يهوهي محض وعدو لداوود للمعبودات الدخليلة/ الوثنية. وتعززت عبادة الإله اليهودي بعد حكم «آسا» أي في فترة حكم إبنه «يهو شافاط» والتي استمرت واحداً وعشرين سنة، وكان يهوياً من أبية «آسا»

وأخيراً تؤكد هذه الدراسة ثانية على أن حملة الإبادة التي نفذها اللاويون بالعبران، كان سببها الظاهري، هو العجل الذهبي ورقص العبران حوله، لكن هناك ما هم أهم وأخطر من العودة إلى الوثنية وفي بداية الخروج، وهذا أمر ممكن الحصول بسبب جدة الديانة ووجودة فروق كبيرة بين حياتهم في مصر وحياتهم في سيناء.

إن السبب المباشر المهم، هو نشوء بنية الرفض وتبلور مفهوم التمرد لدى العبران، وهذا ما أخاف موسى كثيراً، وخصوصاً بتكراراته العديدة، لذا أصدر أمره، منقولاً عن الرب اليهودي/ يهوه ليؤكد على الفرز والإصطفاف الطبقي الجديد والحاصل بين العبران.

ت	رقم الشكل	التفاصيل
	شكل ٢٢	ديرسانت كاترينا المقام عند سفح جبل سيناء
	شكل ٢٣	قمة جبل الزيتون
	شكل ٢٤	وادي حطين ومكان الموعظة
	شكل ٢٥	بستان جشماني وجبل الزيتون
	شكل ٢٦	جبل تابوز
	شكل ٢٧	جبل التجربة
	شكل ٢٨	منظر «أورشليم» كما تظهر من جبل الزيتون
	شكل ٢٩	جبل سيناء
	شكل ٣٠	جبل التجربة
	شكل ٣١	سفح جبل سيناء
	شكل ٣٢	رموز قضيبية
	شكل ٣٣	الفطر المقدس
	شكل٣٤	تمثال موسى لمايكل إنجلو
	شكل ٣٥	نماذج من الأعمدة والشواهد القضيبية
	شكل ٣٦	مسلة حمورابي
	شكل ٣٧	أنصاب حجرية تمثل رموزاً قضيبية
	شكل ٣٨	نحت حجري يجسّد رؤية الإنسان القديم لنبات الفطر المقدس
	شكل ٣٩	عشتار ملكوم، الأم الأولى للعمونيين
	شكل ٤٠	فينوس وليندروف
	شكل ٤١	عشتار إلهة الحب والحرب
	شكل ٤٢	رمز الآلهة عشتار

المصادر والمراجع

١ - الكتاب المقدس

٢ - توركيلد جاكوبسن/ ما قبل الفلسفة/ ت: جبر إبراهيم جبرا/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت/ ١٩٨٠.

٣ - د. الطيب تيزيني/ الفكر العربي في بواكيره الأولى/ جـ٢/ دار دمشق/ ٩٨٦

٤ - إبراهيم محمود/ جغرافية الملذات/ الجنس في الجنة/ رياض الريس/ ٩٩٨

٥ - أوشو/ تحطيم القفص الحديدي/ ت: ياسر شعبان/ مجلة القصور الجديدة: العدد «٥»/ ٢٠٠٠

٦ - زنون كوسيد فسكي/ الأسطورة والحقيقة في التوراة/ ت: د. محمد مخلوف دار الأهالي/ دمشق/ ١٩٩٦

٧ - د. سامي سعيد الأحمد/ كلكامش/ وزارة الثقافة/ بغداد/ ١٩٩٠

٨ - د. فوزي رشيد/ سرجون الأكدي/ وزارة الثقافة/ بغداد/ ١٩٨٦

٩ - لويس أونتر ماير/ كبرى الحكايات العالمية/ ت: غانم الدباغ/ بغداد ١٩٨١

١٠ - موسى سليمان/ القصص اللغوي الفلسفي/ دار الكتاب اللبناني/ بيروت ١٩٨٥

١١ - جيمس فريزر/ الفولكلور في العهد القديم/ ت: د. نبيلة إبراهيم/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ ١٩٧٤

١٢ - لطفي الخوري/ معجم الأساطير/ وزارة الثقافة/ بغداد/ ١٩٩٠

١٣ - صموئيل نوح كريمر/ أساطير العالم القديم/ ت: أحمد عبد الحميد يوسف/ الهيئة المصرية العامة/ القاهرة/ ١٩٧٤

١٤ - غاستون باشلار/ النار في التحليل النفسي/ ت: نهاد خياطة/ دار الأندلس/ بيروت/ ١٩٨٤

١٥ - فرويد/ أفكار لأزمة الحرب والموت/ ت: سمير كرم/ دار الطليعة/ بيروت ١٩٨٦.

* موسى والتوحيد/ ت: جورج طرابيشي/ دار الطليعة/ بيروت/ ط ٤ ١٩٨٦.

١٦ – اريك فروم/ الحكايات والأساطير والأحلام/ ت: صلاح حاتم/ دار الحوار ١٩٩٣

١٧ – ميرسياد الياد/ تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية/ ت: عبد الهادي عباس/ دار دمشق/ ١٩٨٧

*المقدس والدنيوي/ ت: نهاد خياطة/ العربي للطباعة والنشر/ دمشق/ ٩٨٧

١٨ – رينيه جيرار/ كبش الفداء/ ت: منار رشدي أنور/ دار شرقيات للنشر/ القاهرة/ ١٩٩٨

١٩ – د. نائل حنون/ عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين/ وزارة الثقافة/ بغداد/ ط٢ ١٩٨٦

٢٠ – ستيفاني دالي/ أساطير من بلاد ما بين النهرين/ ت: د. نجوى نصر بيسان للنشر/ بيروت/ ١٩٩٧

٢١ – د. يوسف حوراني/ في الفكر الأسطوري البابلي/ مجلة الفكر العربي/ عدد «٧٣» ١٩٩٣

٢٢ – د. سيد القمني/ الأسطورة والتراث/ دار سيناء للنشر/ القاهرة/ ٩٩٢

٢٣ – الأزرقي/ أخبار مكة/ دار الأندلس

٢٤ – الشهرستاني/ الملل والنحل جـ٢/ تحقيق محمد سيد كيلاني/ القاهرة ١٩٦١

٢٥ – جان بوتيرو/ ولادة إله التوراة والمؤرخ/ ت: عبد الهادي عباس وجهاد الهواش/ دار الحصاد + دار الكلمة/ دمشق/ ١٩٩٩

٢٦ – شفيق مقار

* قراءة سياسية في التوراة/ رياض الريس/ لندن ١٩٩١

* الجنس في التوراة وسائر العهد القديم/ دار يعرب/ دمشق/ ٩٩٨

٢٧ – جان صدقة/ رموز وطقوس/ دار الرياض الريس/ ٩٨٩

٢٨ – سامي الذيب/ ختان الذكور والإناث عند اليهود والمسيحين والمسلمين/ دار الرياض الريس/ ٢٠٠٠

٢٩ – روبرت سميث/ محاضرات في ديانة الساميين/ ت: د. عبد الوهاب علوب + د. محمد

خليفة حسن/ المجلس الأعلى للثقافة/ القاهرة/ ١٩٩٧

٣٠ – تركي علي ربيعو/ العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية/ المركز الثقافي العربي/ بيروت/ ١٩٩٠

٣١ – ميشيل فوكو/ إرادة المعرفة/ ت: مطاع صفدي وجورج أبي صالح بيروت/ مركز الإنماء القومي/ ١٩٩٠

٣٢ – فوزي العنتيل/ الفولكلور ماهو؟/ دار المسيرة/ بيروت/ مكتبة مدبولي/ القاهرة/ دبون تاريخ

٣٣ – د. قاسم البياتلي/ الوشاح الذهبي/ الرقص في المجتمع العربي والإسلامي/ دار الكنوز الأدبية/ بيروت/ ١٩٩٧

٣٤ – برنسلاف مالينو فسكي/ السحر والعلم والدين/ ت: محمد الحوار/ دار الحوار للنشر/ اللاذقية/ ١٩٨٢

٣٥ – فراس السوّاح لغز عشتار/ دار علاء الدين/ دمشق/ ١٩٨٦

٣٦ – ه.ج. روز/ الديانة اليونانية القديمة/ ت: رمزي عبده جرجس/ دار الهنا/ القاهرة/ بدون تاريخ

٣٧ – د. فيصل الوائلي/ من أدب العراق القديم/ مجلة سومر جـ ١ + ٢/ ١٩٦٥

٣٨ – قاسم الشواف/ ديوان الأساطير/ سومر وأكاد واشور/ دار الساقي/ بيروت/ ١٩٩٧.

المراجع الأجنبية

* M.A.Murray - Ancient Ritual dances in the near East [Folklore Journal - Vol.Lxvi. 1956.

* A.H. Krappee - the science of Folklore - London 1914.

* G.Gover - Afric aDances. Penguin B. 1945.

* R Garfield Evans, the Swinging Dervishea. Chambers, Journal 1951.

المحتويات

موسى وأساطير الشرق





الأهلية للنشر والتوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية - عمان/وسط البلد
خلف مطعم القدس/ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ♦ منشوراتنا في العام ٢٠٠١م
♦ الغلاف: زهير أبو شايب.